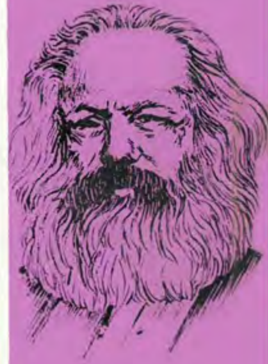
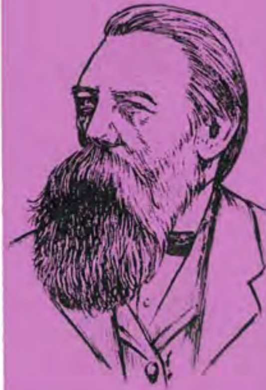
اوغست كورنو

ماركس وانجلز

حياتهما واعمالهما الفكرية







المجلد الثالث

التحوّل العميق لتصوّرهما العام عن العالم

جريدة إلى الإمام

إقامة ماركس في باريس

١٨٤٣ - ١٨٤٥



المكتبة الاشتراكية

دار الحقيقة - بيروت

ماركس وانجلز

حياتهما واعمالهما الفكرية

الطبعة الاولى

ايار ١٩٧٤

اوغست كورنو

ماركس وانجلز

حياتهما واعمالهما الفكرية

المجلد الثالث

التحول العميق لتصورهما العام عن العالم
جريدة إلى الإمام
إقامة ماركس في باريس
١٨٤٣ - ١٨٤٥

نقله إلى العربية
الياس مرقص

دار الحقيقة ـ بيروت

الفصل الأول

حياة ماركس في باريس

كان ماركس ، بنقده لفلسفة الحق عند هيغل وبمقالاته في **الحوليات الفرنسية ــ الالمانية** ، قد شرع يضع أسس المادية التاريخية والاشتراكية العلمية .

ومع احتفاظه بتصور هيغل عن التطور الجدلي للتاريخ الذي تحدده قوانين موضوعية ، فقد كان يعتبر ، بخلاف هيغل ، ان هذا التطور ليس نتاج عمل الروح المطلق بل هو نتاج الفاعلية السياسية والاجتماعية ، وكان يشرع في ادراك الدور الاولي للملكية الخاصة في تكوين المجتمع البرجوازي وللصراعات الطبقية في التحول الاجتماعي .

وبذلك كان يتجاوز ، مع المثالية الهيغلية ، انسانويّة فويرباخ . كان لا يزال مع فويرباخ يعتبر حذف الانخلاع الشرط الضروري للتحرر الانساني ، ولكنه كان بخلاف فويرباخ يتصور مسألة الانخلاع لا من وجهة النظر الدينية بل من وجهة النظر الاجتماعية ، الامر الذي كان يحدد عنده تصورا جديدا للفرد والمجتمع والدولة .

في نقده لفلسفة الحق عند هيغل ، كان يعتبر ان الانسان لا يستطيع ان يعيش، لا في المجتمع البرجوازي ولا في الدولة السياسية ، حياة تتفق مع طبيعته الحقة ، وكان يخلص من ذلك الى ضرورة استبدالهما بشكل جديد للمجتمع والدولة كان يدعوه الديمقراطية « الحقة » .

وكان يعبر مرحلة الديمقراطية « الحقة » الى الشيوعية في مقالاته في **الحوليات الفرنسية ــ الالمانية** : « المسألة اليهودية » و « مدخل الى نقد فلسفة الحق الهيغلية » .

في « المسألة اليهودية » ، الح على الطابع الناقص للتحرر السياسي الذي يبقي ازدواجية المجتمع البرجوازي والدولة السياسية ، وعارضه بالتحرر الانساني الذي يجب أن يحقق بالالغاء الجذري للملكية الخاصة ، السبب الاساسي للانخلاع .

في مقاله الثاني « مدخل الى نقد فلسفة الحقوق » ، الذي كتبه ابان انتقاله من

الديمقراطية الى الشيوعية في وقت بدأ فيه يتأثر بالبروليتاريا الثورية بشكل اكثر عمقا ، بين ان الغاء الملكية الخاصة سيكون عمل ثورة بروليتارية تقيم الشيوعية .

بتصوره عن الدور المقرر للصراعات الطبقية في التطور التاريخي ، كان ماركس يتحرر أكثر فأكثر من الايديولوجيا الفويرباخية ويخطو خطوة بالغة الاهمية في انضاج المادية التاريخية . ولكن بما أنه لم يكن لديه مفهوم واضح عن الطريقة التي بها يقود النظام الرأسمالي الى ثورة اجتماعية بواسطة تفاقم صراع الطبقات ، فقد كان ينظر الى هذا الصراع نظرة دوغمائية نوعا ما ، ويرى في البروليتاريا تجسد مصير الانسانية التي ، اذ سقطت مع البروليتاريا الى آخر درجات اللاانسانية ، فهي مدعوة الى أن تسترجع بها جوهرها المخلوع .

من اجل الوصول الى تصور أصح عن صراع الطبقات والثورة الاجتماعية والشيوعية ، كان على ماركس ان يكتسب بتحليل النظام الرأسمالي معرفة أعمق عن هذا النظام وعن قوانين تطوره .

ماركس وباريس الثورية

كرس نفسه لهذه المهمة بدراسات فلسفية وتاريخية واقتصادية ، ستتيح له ان يبلغ تصورا جديدا عن العالم ، تصورا مؤسسا على مبادىء المادية الجدلية والتاريخية .

في باريس ، كان ماركس يسكن مع زوجته في ٢٨ ، شارع فانو Vaneau على الضفة اليسرى لنهر السين ، في بيت كان يقطنه ايضا جرمان مورر ، أحد قادة « رابطة العادلين » .

رغم كونه فقد مصدر دخله بزوال مجلة **الحوليات الفرنسية - الالمانية** ، استطاع ان يستمر في الانصراف لبحوثه ودراساته ، بفضل حاصل مبيع نسخ المجلة التي كان روجه Ruge قد سلمه اياها بديلا عن أتعابه (١) ، وأيضا بفضل حملة تبرعات نظمها أصدقاؤه في مدينة كولن وارسل اليه حاصلها البالغ ألف تالر في اواسط آذار ١٨٤٤ (٢) . وفي ٣١ تموز ١٨٤٤ استلم من ج. يونغ G. Yung

(١) انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

(٢) رسالة من كلاسن الى ماركس ، ١٨٤٤/٣/١٣ (انظر : كارل ماركس ، سيرة حياته ، موسكو ، ١٩٣٤ ، ص ٢١) .

مبلغ ثمانمئة فرنك تعويضا عن مئة نسخة من نسخ المجلة كانت قد صودرت (١) .

هذا أتاح له موقتا تأمين معيشة أسرته. في اول ايار ١٨٤٤ ، أنجبت زوجته يني Yenny ولدهما الاول ، وكان ابنه ديميت يني ، بعد قليل ، سافرت الام الى المانيا لتقدم الولد الى أسرتها (٢) .

يني ، التي لم تكن قد عرفت من قبل سوى الجو الخانق للمدن الالمانية الصغيرة ، باتت الآن تتطور بسرعة على الصعيد الفكري والسياسي الى جانب زوجها . في فترة الخطوبة ، كان قد كسبها للافكار الديمقراطية فكانت تدافع عن هذه الافكار ضد أفراد أسرتها الرجعيين . وتحت تأثير زوجها باتت الآن تتطور بسرعة نحو الشيوعية وتصير مكافحة ثورية . وبنفس الشجاعة التي كانت قد اظهرتها في فترة خطوبتها ، باتت الآن تجعل نفسها مساعدا وسندا لزوجها في الصراعات القاسية التي يخوضها ، وهذا أمر استثنائي تماما عند نساء الطبقات الميسورة آنذاك .

في باريس ، حيث عاش حتى طرده في شباط ١٨٤٥ والتي لعبت بالنسبة له دورا مشابها لدور لندن بالنسبة لانجلز ، وجد ماركس ثلاثة عناصر كانت تؤلف حافزا قويا لفكره : تطور اقتصادي اكثر تقدما بكثير مما هو في المانيا ، حيث الصناعة كانت بالكاد تخرج من المرحلة الحرفية والمانيفاكتورية ، الامر الذي كان يتيح لماركس ادراكا افضل للطابع الذي يتخذه النظام الرأسمالي في طور الثورة الصناعية ، بروليتاريا من الآن وافرة العدد لها بالاضافة الى تقليد ثوري قوي وعي واضح لمصالحها الطبقية ، وأخيرا ، تجربة ثورة اجتماعية كبيرة ، هي ثورة ١٧٨٩ التي اكملتها ثورة ١٨٣٠ .

كانت باريس آنئذ في ذروة غليان ثوري . بثورة ١٨٣٠ التي أمنت لها النصر النهائي على الملكية المطلقة وعلى الارستقراطية العقارية ، كانت البرجوازية الفرنسية ، او بالاصح فصيلتها القائدة ، البرجوازية الصناعية والمالية ، قد بلغت السلطة ووضعت مباشرة هذه السلطة في خدمة مصالحها الطبقية ، مستبعدة من الحكومة ليس فقط البروليتاريين بل أيضا الطبقات الوسطى ، الامر الذي كان يجعلها موضع هجمات عنيفة (٣) .

---

(١) رسالة من ج. يونغ الى ك. ماركس . كولن ، ١٨٤٤/٧/٣١ (أنظر المرجع السابق ، ص ٢٤).

(٢) عن حياة جني ماركس في باريس، أنظر دورنمان، يني ماركس ، برلين ١٥٩٣ ، ص ٤٨ – ٥٦ .

(٣) انظر ماركس : صراعات الطبقات في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠ ، باريس ١٩٣٦ ، ص ٣٤ .

« لم تكن البرجوازية الفرنسية هي التي تحكم في عهد لوي – فيليب ، بل فقط قطعة منها ، اصحاب البنوك ، ملوك البورصة وسكك الحديد ، مالكو مناجم الفحم والحديد ، اصحاب الغابات ، ومعهم قسم من الارستقراطية العقارية التي انضمت اليهم ، باختصار : الارستقراطية المالية . فهي التي كانت جالسة على العرش ، والتي كانت تملي قوانينها في المجلسين وتوزع جميع المناصب من منصب وزير حتى منصب جابي مكتب تبغ » .

ان الفشل المتكرر لانتفاضات العمال والحرفيين الباريسيين التي تعاقبت منذ عام ١٨٣٠ لم يكن قد أضعف حماسهم الكفاحي ، وباريس كانت آنئذ تؤلف بؤرة قوية للتحريض الثوري كانت تنبسط فيها المذاهب الاشتراكية والشيوعية التي تحل محل مذهب سان سيمون St simon ومذهب فوريه Fourier اللذين تخطاهما التطور الاقتصادي والاجتماعي .

بعكس سان سيمون وفوريه اللذين ظلا بعيدين عن النضالات السياسية والاجتماعية ، كان المذهبيون والمحرضون الاشتراكيون والشيوعيون يدخلون هذه النضالات بقوة . كانوا على نحو متزايد الوضوح يدافعون عن مصالح الطبقات الوسطى او البروليتاريا ، ناقدين بحزم النظام الرأسمالي الذي كان لا ينفك يشدد برلترة الطبقات الوسطى واستغلال البروليتاريا .

مع وقوفهم في آن ضد الرأسمال الكبير وضد البروليتاريا اللذين كانا في نظرهم يحملان خطرا متساويا على الطبقات الوسطى ، كان المذهبيون الاشتراكيون يسعون في منظوماتهم الى تكييف النظام الرأسمالي مع مصالح هذه الطبقات . نجد بينهم ممثلي الاشتراكية الخيالية الاكثر تنوعا . كان هناك الى جانب اقتصاديين برجوازيين ذوي لون اشتراكي مثل سيسموندي Sismondi وبوريه Buret اشتراكيون مسيحيون مثل لامنيه Lamennais وبوشز Buchez ، سان سيمونيون مثل بازار Bazard الذي كان قد جمع في مذهب العناصر الاشتراكية في السان سيمونية ، فوريريون مثل ف. كونسيدران V. Considérant الذي كان ، في كتابه **المصير الاجتماعي** (١٨٣٧) وفي جريدته **الديموقراطية السلمية** ، يعرض الافكار الاساسية لمذهب فوريه . كان هناك ايضا عدد من المذهبيين مثل فيدال Vidal ، لوروLeroux بيكور Pecqueur ، أنصار تشريك وسائل الانتاج ، الذين كانوا يعولون من أجل هذا التحويل على دعاية سلمية تستهدف اقناع الطبقات المالكة بضرورة اجراء اصلاح اجتماعي . ولقد كان برودون واحدا من هؤلاء ، رغم مظاهره الثورية ، لانه هو ايضا كان يريد تحقيق الاصلاح الاجتماعي لا بحذف النظام الرأسمالي ، بل بتكييفه مع مصالح الطبقات الوسطى .

هؤلاء المذاهبة الاشتراكيون كانوا بوجه الاجمال يدعون الى اصلاح للمجتمع بواسطة تنظيم جديد للشغل في اطار النظام الرأسمالي ، الى اصلاح من شأنه ، مع استبقاء نظام الملكية الخاصة ، ان يؤمن ازدهار الطبقات الوسطى وان يفسح مجالا أوسع لمصالح العمال . مأثرتهم الرئيسية أنهم كانوا بانتقاداتهم للنظام الرأسمالي يبينون كيف ان هذا النظام يقود ، بالازمات وببرلترة الطبقات الوسطى ، الى ثورة اجتماعية ، والاصلاحات التي يقترحونها تسمح باجتنابها .

كان عملهم يسانده الحزب الاشتراكي الديمقراطي بقيادة لوي بلان Louis Blanc و لودرو ــ رولن Ledru - Rollin وفلوكن Flocon . مثل الشارتيين كان هذا الحزب ينادي بالاستيلاء على السلطات العامة بوصفه افضل وسيلة لحل المسألة الاجتماعية . ولما كان هذا الحزب ، مثل المذاهبة الاشتراكيين ، نصير تنظيم للشغل في اطار المجتمع البرجوازي ، فقد كان يشجب مثلهم الثورة الاجتماعية ويقلص العمل السياسي الى مطلب الاقتراع العام الذي سيقود الشعب الى سدة السلطة .

في معارضة الاشتراكيين ، كان الشيوعيون يدافعون عن مصالح البروليتاريا ، وهم يريدون لا اصلاح بل تدمير المجتمع البرجوازي لاقامة مجتمع شيوعي في مكانه . والمذاهبة والمحرضون الشيوعيون الرئيسيون كانوا كابه Cabet ، دزامي Dezamy بلانكي Blanqui . كابه ، ذو اتجاه ديني ، كان يعتبر الديموقراطية سبيل بلوغ الشيوعية ، والاقتراع العام موضوع مطالب الشعب المباشرة ، وكان يريد ، مثل الاشتراكيين ، تحقيق الشيوعية بالدعاية والتربية (١) . دزامي كان يرفض اية تسوية مع البرجوازية ويبشر بشيوعية ملحدة (٢) .

بلانكي ، الذي كان قد استأنف التراث الثوري لبابوف تحت تأثير Babeuf بووناروتي Buonarotti ، كان يدعو الى الكفاح الطبقي للبروليتاريا التي لا تستطيع على حد تفكيره ان تتحرر الا بواسطة ثورة اجتماعية . مثل بابوف ، كان بلانكي ينظم مؤامرات وانتفاضات يراد لها ان تعطي السلطة للشعب (٣) .

ان عمل الاشتراكيين والشيوعيين كانت تسانده صحف ومجلات كـ **الشعبي** ، **والمستقبل** ، **والديمقراطية السلمية** ، وايضا الى حد ما **الاصلاح** لـ فلوكون .

مهما كان يمكن ان تكون المذاهب الشيوعية جذابة بالنسبة لماركس ، فانه لم يكن بينها مذهب يستطيع ان يرشد فكره وعمله ، لانها كانت جميعا بدرجات متنوعة

---

(١) كابه (١٧٨٨ ــ ١٨٥٦) كان ابان فترة اقامة في انكلترة قد درس يوتوبيا توماس مور Moore وتاثر بروبرت اوين Owen في ١٨٤٠ ، بعد عودته الى فرنسا ، كتب « الرحلة الى ايكاريا » التي لاقت نجاحا كبيرا . كان يصدر « الروزنامة الايكارية » و « الشعبي » وكان لهما عدد كبير من القراء .
(يوتوبيا = المكان غير الموجود ، المدينة الفاضلة المثالية الشيوعية ، عنوان كتاب توماس مور سنة ١٥١٨ ، ومنها الاشتراكية اليوتوبية اي الخيالية او الطوباوية) .

(٢) دزامي (١٨٠٣ ــ ١٨٥٠) ، كاتب ومنظر شيوعي .

(٣) اوغست بلانكي (١٨٠٥ ــ ١٨٨١) . شارك مشاركة نشيطة في ثورة ١٨٣٠ ، ثم نظم جمعية « الفصول » السرية ، وقاد انتفاضة ١٨٣٩ . حكم اربع مرات بالموت على عمله الثوري ، وقضى نيف و ٣٥ سنة من عمره في السجن . انظر ستالين ، مؤلفاته ، ح٤ ، برلين ١٩٥١ ، ص ٢٧٨ : « التاريخ يعرف في الادوار الثورية قادة بروليتاريين هم رجال عمل شجعان ومخلصون حتى التضحية بحياتهم ولكنهم منظرون ضعفاء ... بين هؤلاء لاسال في المانيا وبلانكي في فرنسا » .

ذات طابع طوباوي خيالي ، اذ هي تعارض المجتمع البرجوازي بمجتمع فكري مثالي بدلا من ان تبحث في هذا المجتمع عن اسباب دماره وحلول مجتمع شيوعي محله .

ومع رفضه مباشرة المذاهب الاشتراكية التي كانت تميل الى تثبيت الطبقات الوسطى وايضا مذهب كابه الذي كان يدين مثلها الصراعات الطبقية والثورة الاجتماعية ، لم يكن ماركس يستطيع ان يرضى عن مذهب بلانكي الذي بما انه لم يكن يتصور الانتقال الجدلي من النظام الراسمالي الى النظام الشيوعي فقد كان يفكر بامكان تحقيق الشيوعية بواسطة انتفاضات ، الامر الذي لم يمنع بالطبع ماركس من ان يعجب اكبر اعجاب بالرجل الثوري الذي كان يدافع بشجاعة لا تقهر عن قضية البروليتاريا .

ان نفوذ بلانكي ، وأيضا نفوذ كابه ولامنيه ، كان عميقا جدا ليس فقط على البروليتاريا الفرنسية بل ايضا على اعضاء « رابطة العادلين Bund der Gerechten الجمعية السرية التي كانت تجمع العمال والحرفيين الثوريين الالمان في باريس (١) .

بعد فشل انتفاضة ١٢ و١٣ أيار ١٨٣٩ ، التي نظمها بلانكي ، كانت « رابطة العادلين » قد حلَّت . وقد التجأ بعض اعضائها ومنهم فلهلم فايتلنغ wilhelm weitling الى سويسرة ، بينما البعض الآخر مثل عامل الطباعة كارل شابر karl Schapper والساعاتي جوزيف مول Joseph Moll والحذاء هاينريش باور Heinrich Bauer ذهبوا الى لندن حيث أسسوا فرعا لرابطة العادلين : « اتحاد العمال الإلمان » . اما الذين بقوا في باريس فقد كانوا يجتمعون حول الطبيب تصير كابه هرمان افربك H. Ewerbeck والدكتور ج. مورر G. Maurer (٢) .

---

(١) عن الحركة الشيوعية الالمانية في باريس ، انظر فر. انجلز : اسهام في تاريخ رابطة الشيوعيين، مقدمة لكراس ك. ماركس : كشوف عن المحاكمة الشيوعية في مدينة كولن، برلين ١٩١٤ ، ص ٣٠ وبعدها، انظر ش. آندلر : البيان الشيوعي . مدخل تاريخي وتعليقات ، باريس ص ٦ ـ ٢٠ ، ك. كالر : فلهلم فايتلنغ ، هوتنغر ، زوريخ ، ١٨٨٧ ، ص ١ ـ ٣٠ ، ارشيف الدولة السري ، ٧٧ ، ٥٣٧ ، رقم ٤١ ، قضايا تتصل بالرقابة ، رقم ١١١ .

في سنوات ١٨٤٠ ، كان حوالي ....د..١٠ الماني يعيشون في باريس . معظمهم حرفيون : خياطون ، حذاؤون ، نجارون ، كانوا بعد فترة يقضونها في هذه المدينة ، يعودون الى المانيا . الاكثر تقدما بينهم كانوا يشاركون في الحركة العمالية الثورية وكانوا اعضاء في « عصبة العادلين » .

(٢) د. ه. افربك (١٨١٦ ـ ١٨٦٠) ، مهاجر في باريس ، عضو « رابطة العادلين » ثم « رابطة الشيوعيين » ، كان في ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ مراسلا باريسيا لـ الجريدة الراينية الجديدة . د. جرمان مورر (١٨١٥ ـ ١٨٥٥) بعد دراسته الفلسفة في برلين هاجر في ١٨٣٣ الى باريس حيث كان احد مؤسسي « رابطة المنبوذين » ثم « رابطة العادلين » . اصبح عضوا في « رابطة الشيوعيين » وناضل من ١٨٤٨ الى ١٨٥١ في مدينة فرانكفورت ـ على ـ الماين . اعتقل في ١٨٥١ ، طرد من المانيا بعد سجن طويل وعاد الى فرنسا بعد فترة قضاها في سويسرة .

هذه الجماعات الثلاث التي كانت تتراسل بشكل نشيط تؤلف جنين « رابطة الشيوعيين » القادمة .

منذ وصوله الى باريس ، دخل ماركس في صلات مع اعضاء « رابطة العادلين » الذين كانوا يجتمعون في مقاه شتى (١) حيث يقومون بالدعاية الشيوعية (٢) ، ومع قادة الجمعيات السرية الفرنسية ، سواء بسواء .

مع معاشرته لرابطة العادلين ، ماركس لم ينتسب اليها (٣) . والسبب كان ولا شك انه لا يستطيع ان يتبنى مذهب هذه الرابطة ، وهو خليط غامض من بلانكية وكابيتية واشتراكية مسيحية وانسية فويرباخية (٤) . ومن جهة اخرى فقد كان يعتبر ، مثل فر. انجلز ، ان هذه الجمعيات السرية تعيق تنظيم مجموع الشغيلة وتعطي الحكومة بطابعها غير القانوني ذريعة لتدابير قمعية (٥) .

---

(١) ارشيف الدولة السري ، ٧٧، ٥٠٠ . من تقرير مرسل الى وزير الداخلية في بروسيا عن الشيوعيين الالمان في باريس ، باريس ٥ حزيران ١٨٤٥ . رئيس الشيوعيين : د. افربك (عنوانه : ٨ شارع فلوروس) . اماكن التجمع : مقهى شرجر (٢٠ ، شارع الاولاد الطيبين) ، مقهى شيفر ... ، مطعم شرايبر ... ، فندق الشهاب ... ، مقهى غيسر ... في هذا التقرير ، ورد ذكر مراسلة مع كارل شابر في لندن (عنوان : ...) .

(٢) ارشيف الدولة السري . وزارة الداخلية ، و ٧٧ ، د رقم ١٠ ، ص ٨١ . وثائق تتصل بالجمعيات الثورية للحرفيين الالمان . تقرير شرطة عن نشاط الشيوعيين الالمان . باريس ، اول شباط ١٨٤٥ . « من المؤسف حقا ... ان نرى كيف ان بعض محبي الدسائس يخدعون الحرفيين الالمان المساكين بل وبعض التجار والمستخدمين بغية كسبهم الى الشيوعية ... الشيوعيون الالمان يجتمعون كل اسبوع امام حاجز العرش في صالة بائع نبيذ على الطريق العام . انه البيت الثاني او الثالث من اليمين على شارع فنسين ، حين ناتي من الباب . يجتمع فيه احيانا ٣٠ ، وفي احيان اكثر ١٠٠ الى ٢٠٠ الماني . استاجروا الصالة وهم يلقون الخطب حيث يدعون بصراحة الى قتل الملوك والغاء كل ملكية وحذف الاغنياء والدين ، باختصار : فظاعات . بامكاني ان اسمي شبانا المانا من عائلات محترمة يجرون ويفسدون ايام الآحاد . الشرطة تعلم ولا شك ان كثيرا من الالمان يجتمعون هنا يوم الاحد ، ولكن لعلها تجهل الهدف السياسي لهذه الاجتماعات . اكتب اليك هذا على عجل ، كي لا يستطيع بعد الآن امثال ماركس وهرفغ وفايل وبورنشتاين ان يضللوا هؤلاء الشبان » .

(٣) انظر آ. روجه : مراسلات ، برلين ١٨٨٦ ، ج١ ، ص ٣٥٩ : « ماركس القى نفسه في الحركة الشيوعية الالمانية هنا ، اقصد انه يعاشر الشيوعيين ، ولا افكر ان باستطاعته ان يعلق ادنى اهمية على نشاطهم السياسي المزري » . انظر ك. ماركس : الهر فوغت (لندن ١٨٦٠) ، برلين ١٩٥٣ ، ص ٧٥ . « اثناء اقامتي الاولى في باريس ، عقدت صلات شخصية مع قادة « رابطة العادلين » ومع قادة معظم الجمعيات العمالية السرية ، ولكن دون ان انتسب الى اية منها » .

(٤) انظر فرانتس مهرنغ : تاريخ المانيا ، برلين ١٩٤٦ ، ص ١٧١ « المذهب السري لرابطة العادلين كان خليطا غامضا من فلسفة المانية واشتراكية فرنسية » .

(٥) ميغا MEGA , I , II ، ص. ٤٤ . فر. انجلز في جريدة عالم اخلاقي جديد (الانكليزية) « تقدم الاصلاح الاجتماعي في البر الاوروبي . فرنسا » . MEGA = « ماركس ـ انجلز ـ المؤلفات الكاملة ») .

ولكنه كان يشعر بتعاطف عميق وأعجاب كبير ازاء هؤلاء العمال والحرفيين الثوريين ، الذين كانت شجاعتهم وعزيمتهم وسخاؤهم وروحهم المتفانية في تضاد مع خسة وجبن البرجوازية الالمانية التي لم تكن قد أظهرت اي اشارة ثورة ابان حذف الصحافة الليبرالية . وعلى حد قوله : « عندما يجتمع العمال الشيوعيون ، فان الموضوع المباشر لاجتماعهم هو المذهب ، الدعاية ، الخ . ولكن في الوقت نفسه تلد عندهم حاجة جديدة ، حاجة الى الاجتماع ، وما لم يكن في البداية سوى ذريعة اللقاء يصبح هدفه . حين نرى عمالا اشتراكيين فرنسيين مجتمعين ، نستطيع على نحو افضل ادراك النتائج المرموقة لحركتهم . لم يعد التدخين والشرب والاكل سوى الحوافز الثانوية للقاءاتهم ، أما الاهداف الحقيقية لهذه اللقاءات فهي المناقشات التي تنمي روح الجماعة والتضامن . الاخاء بين البشر ليس عندهم محض جملة ، بل هو تعبير الواقع ذاته ، وكل النبل الانساني ينعكس على هذه الوجوه التي صلبها الشغل (١) » .

والشيوعيون الذين كان يعاشرهم كانوا يقدرونه أعلى تقدير . وهكذا فقد كتب هـ. افربك ، أحد قادة رابطة العادلين ، بعد عدة سنوات ، في كتابه **«المانيا والالمان»** : « شارل ماركس هو بلا جدال عبقرية نقدية تعادل على الاقل ج. ا. ليسنغ G. E. Lessing . شارل ماركس ذو ذكاء غير عادي ، واطلاع واسع ، وعزيمة حديدية ، وبصيرة نافذة ، وقد أكب على دراسة المسائل الاقتصادية والحقوقية والسياسية والاجتماعية (٢) » .

---

(١) ميغا ، حـ ، ص ١٣٥ . مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة . انظر المرجع نفسه، ص ٢٥٦ ، العائلة المقدسة « يجب ان يعرف المرء ما يحفز العمال الفرنسيين والانكليز من حماس للدراسة وعطش الى العلم وطاقة معنوية ورغبة عميقة في نمو لا ينقطع حتى يكون المرء فكرة عن النبل الانساني الذي يطبعهم » . انظر قضايا السلم والاشتراكية ، برلين ١٩٥٨ ، الملزمة ٢ . كارل ماركس وفويرباخ – مراسلات ١٨٤٣ – ١٨٤٤ اصدرها شوفنهاور وهايس ، ص ٩ . رسالة من ك. ماركس الى ل. فويرباخ، باريس ١١ آب ١٨٤٤ . « يجب ان تكون قد حضرت اجتماعا لعمال فرنسيين حتى تستطيع ان تقدر الحماس الفتي وقوة الشكيمة التي تتجلى عند هؤلاء الرجال الذين ارهقهم الشغل . البروليتاريا الانكليزية تخطو هي ايضا خطوات جبارة ولكن ينقصها القاع الثقافي الذي يملكه الفرنسيون . ومن الاجحاف ان لا نؤكد ايضا مآثر الحرفيين الالمان في سويسرة ولندن وباريس ، على الصعيد النظري . عيبهم الوحيد كونهم لا يزالون تحت سطوة الروح الحرفية . ومهما يكن من امر فان التاريخ يشكل بين هؤلاء « البرابرة » في مجتمعنا المتمدن العنصر الثوري الذي سيحرر البشرية » .

(٢) انظر هـ. افربك : المانيا والالمان ، باريس ١٨٥١ ، ص‌ص ٥٨٧ – ٥٨٨ .

بالارتباط مع الحركة الثورية ، التي كان يوثق الصلة معها أكثر فأكثر ، كان ماركس يقوم باعادة نظر شاملة في مفاهيمه . بعد ان تعرف في البروليتاريا على القوة القادرة وحدها على الاطاحة بالمجتمع البرجوازي ، باتت المسألة الجوهرية المطروحة عليه هي ادراك الاسباب الموضوعية للثورة البروليتارية . أجل كان قد اكد ضرورة هذه الثورة في مقالاته في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، ولكن دون أن يكون قد رأى في اية شروط تصبح البروليتاريا طبقة ثورية .

باشر أولا بأول دراسة عميقة للثورة الفرنسية ، التي كانت تقدم له أكبر مثال في الازمنة الحديثة عن ثورة جامعة ، ذات طابع اقتصادي وسياسي واجتماعي معا (١) .

بما انه ولد في اقليم عدلت الثورة الفرنسية بنيته الاقتصادية والاجتماعية تعديلا عميقا ، فقد كان منذ طفولته متآلفا مع الافكار الاساسية لهذه الثورة . في طوره الهيغلي ـ الشاب ، الذي اتسم بطابع جذرية ديمقراطية ، كان قد اعتبر الحزب الاكثر تقدما في المؤتمر ، حزب الجبل (أو اليعاقبة) ، الحزب الثوري النموذجي (٢). وابان توجهه نحو الشيوعية ، في ١٨٤٣ ، كان قد بدأ يدرس بصورة متعمقة تاريخ الثورة الفرنسية ، التي باتت تظهر له النموذج الكامل لثورة برجوازية (٣) .

كان قد عرض الطابع الاساسي لهذه الثورة ووسم حدودها في « المسألة

---

(١) انظر مجلة الفكر (الفرنسية) ، ١٩٣٩ ، رقم ٣ ، ص ٢٤ ـ ٣٧ . مقال جان مونترو ، الثورة الفرنسية وفكر ك. ماركس . انظر آ. روجه ، مراسلات ، جـ١ ، ص ٣٤٣ . رسالة روجه الى فويرباخ، باريس ، ١٥ ايار ١٨٤٤ . « انه (ماركس) يقرأ كثيرا . يعمل بطريقة كثيفة جدا . عنده مهارة ناقد تنحط احيانا الى محض لعبة ديالكتية ، ولكنه لا ينجز اي شيء ، يقطع كل بحث ليغطس في محيط جديد من الكتب ... وهو اكثر عصبية وعنفا من اي وقت مضى ، خصوصا حين يمرض نتيجة العمل وحين يمضي ثلاث او حتى اربع ليال على التوالي بلا نوم » . انظر جريدة اللوحة اليومية ، رقم ١٦٨ ، ٢٢ تموز ١٩٢١ . رسالة من روجه الى دنكر ، باريس ، ٢٩ آب ١٨٤٤ . « كان ماركس يريد ان ينقد الحقوق الطبيعية عند هيغل من وجهة النظر الشيوعية ، ثم ان يكتب تاريخا عن عهد المؤتمر ، واخيرا نقدا لكل الاشتراكيين . انه يريد دوما ان يكتب عما قرأه في المقام الاخير ، ولكنه يواصل قراءاته بلا توقف وينقل منها مختارات جديدة . اعتقد انه ما زال ممكنا ان يكتب كتابا كبيرا جدا ، ليس مجردا اكثر مما يجب ، ويحشر فيه كل ما كدسه » .

(٢) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب .

(٣) قرأ في تموز وآب ١٨٤٣ المؤلفات الآتية : مذكرات الجيروندي جان باتيست لوفه ، عضو المؤتمر ، نداء الى الاجيال للسيدة رولان (وهي ايضا من حزب الجيروند) . ثورات فرنسا وبرابان تاليف مونغايار .

اليهودية » . في مقابل التحرر السياسي الـذي حققته الثورة البرجوازية الفرنسية التي أبقت التعارض بين المجتمع والدولة ، بين البرجوازي والمواطن ، كان قد وضع التحرر الانساني ، ثمرة ثورة لم تعد سياسية بل اجتماعية ، من شأنها بواسطة الغاء الملكية الخاصة ان تحذف التعارض بين المجتمع والدولة باعطائهما معا طابعا انسانيا .

في مقاله « مدخل الى نقد فلسفة الحـق الهيغلية » ، كان قـد بين ان نجاح البرجوازية في هذه الثورة يعلل بواقع انها جسدت بادىء بـدء بوصفها طبقة صاعدة مصالح الشعب العامة . مباشرة بعد انتصارها على العهـد القديم ، كانت البرجوازية قد احتكرت السلطة ، الامر الذي كشف حـدود التحرر السياسي الذي لا يفيد الا الطبقة المنتصرة . واذ رفض ماركس صورة التحرر هذه ، فقد اعتبر انـه بات الآن للبروليتاريا ان تحقق التحرر الانساني بثورة شيوعية .

رغم حدودها ونواقصها ، ظلت الثورة الفرنسية بالنسبة له نموذج ثورة جامعة تحول جذريا العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية (١) .

وهذا ما يعلل كون ماركس ، عندما طرحت عليه مسألـة الثورة البروليتارية ، قد أكب على دراسة الثورة الفرنسية دراسة بهذا الاتساع والعمق ، وبشكـل خاص على دراسة حقبتها الرئيسية ، حقبة المؤتمر ، التي كان يفكر بكتابة تاريخها (٢) .

وقد قرأ لهذه الغايـة خطب سـان جوست Saint Gust وروبسبيير Robespierre ، ومذكرات عضو المؤتمر ر. لوفاسور ـ دو ـ لاسارت ، التي تتصل بالصراع بين الجيرونديين والجبليين (٣) ، والمحاضر الرسمية لمناقشات المؤتمر ومؤلفات بابوف Babeuf

---

(١) انظر فر. انجلز ، مقدمـة كتـاب ك. ماركس « برومير لـوي بونابـارت » ، باريس ١٩٤٥ ، ص ٣ ـ ٤ . « فرنسا هي البلد الذي فيه سيرت صراعات الطبقات في كل مرة اكثر من اي بلد اخر حتى القـرار الكامل ... فرنسا في ثورتها العظيمة دمـرت الاقطاعية واعطت سيطرة البرجوازية طابع طهر كلاسيكي لا نجد مثيلا له في اي بلد اخر . كذلك ان كفاح البروليتاريا الثورية ضد البرجوازية المسيطرة ينجلي هنا في شكل اكثر حدة منه في أي مكان اخر . ولهذا السبب كان ماركس ليس فقط يدرس بشغف خاص تاريخ فرنسا الماضي ، بل ايضا يتابع عن كثب تطورها الراهن ، يجمع المواد المكرسة لاستخـدام لاحق ، الامر الذي يفسر كونه لم يفاجأ يوما من قبل الحوادث . »

(٢) انظر آ. روجه ، مراسلات ، جـ١ ، ص ٣٤٣ . رسالة الى فويرباخ ، باريس ١٥ أيار ١٨٤٤ . « ماركس يريد بالمقابل ان يكتب تاريخ المؤتمر ، وقد كدس لهذا الغرض المراجع اللازمة ووصل الـى مفاهيم جديدة وخصبة جدا . تخلى مرة اخرى عن نقد « فلسفة الحق الهيغلية » وهو يريد ان يستخدم وجوده في باريس لكتابة هذا الكتاب عن المؤتمر ، وهذا صحيح تماما » . وايضا ص ٣٦٢ ، رسالة الـى فلايشر ، باريس ٩ تموز ١٨٤٤ . « ... كان يرمي الى كتابة مؤلف في السياسة ، ولكنه لم يحرره بعد لسوء الحظ . ثم اراد ان يكتب تاريخا عن المؤتمر وقد قرا كثيرا لهذا الغرض . الان يبدو كانه تخلى عن هذا المشروع . »

(٣) ميغا ، I ، ج III ، صص ٤١٩ ـ ٤٣٤ . مختارات من مذكرات ر. لوفاسود .

لم يكتب تاريخ المؤتمر ، ولكن الدراسات التي قام بها لهذه الغاية أسهمت كثيرا في توسيع وتوضيح مفاهيمه عن الصراعات الطبقية والثورة الاجتماعية والتطور التاريخي . فدراسة الثورة الفرنسية كانت تبين له كيف ان هذه ولدت من صراعات الطبقات المتولدة بدورها من التطور الاقتصادي ، كيف ان الدولة بوصفها المدافع عن مصالح الطبقة المسيطرة مارست سلطتها لصالح البرجوازية ، وكيف اخيرا خلال تطورها احتدم الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا ، وهو الصراع الذي يطبع الزمن المعاصر . ومن هذه الدراسة كان يستخلص ايضا هذا الدرس ألا وهو ان طبقة قائدة لا تدع نفسها تفقد امتيازاتها بدون ان تدافع عنها الى النهاية وأن تحولا جذريا للتنظيم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي يتطلب صراعات ثورية لا رحمة فيها .

هذا التصور لدور صراعات الطبقات المقرر في التطور التاريخي كان يتوضح عنده بقراءة كبار المؤرخين البرجوازيين الفرنسيين : أوغستين تيري Aug. Thierry ، مينييه Mignet ، تيير Thiers ، غيزو Guizot ، الذين كانوا ، بدراستهم لتطور البرجوازية الفرنسية منذ العصور الوسطى ، قد أكدوا الدور الحاسم لصراعات الطبقات في هذا التطور (١) .

الامر الذي ساهم أكبر مساهمة في تطور مفاهيم ماركس ، كان ، الى جانب دراسة الثورة الفرنسية والمذاهب الاشتراكية والشيوعية ، دراسة الاقتصاد السياسي التي باشرها منذ أواخر عام ١٨٤٣ والتي تابعها بشكل منهجي في عام ١٨٤٤ (٢) . حلل مؤلفات أهم الاقتصاديين الحديثين الفرنسيين والانكليز الذين كانوا قد اعترفوا بأن الشغل هو العنصر الوحيد منتج الثروات . ولكنه ، بعكس هؤلاء الاقتصاديين الذين كانوا يرتكزون على تحليلهم للتطور الاقتصادي ليبرروا ويمجدوا النظام الرأسمالي ، كان يخلص من تحليله لهذا النظام ، حيث العامل

---

(١) لينين : ماركس ، انجلز والماركسية ، برلين ١٩٤٦ ، ص ١٦ . « كان زمن عودة الملكية في فرنسا قد انجب نخبة من المؤرخين (تيري، غيزو، مينيه ، تيير) لم يكن باستطاعتهم حين عمموا المعطيات التاريخية سوى الاعتراف بان الصراعات الطبقية هي مفتاح تطور كل التاريخ الفرنسي . »

من المناسب ان نذكر هنا ان ماركس لم يدع ابدا انه اكتشف وجود ودور صراعات الطبقات ، انظر الرسائل المختارة لماركس وانجلز ، برلين ، ١٩٥٣ ، ص ٨٦ . رسالة ك. ماركس الى ج. مائرته في هذا المضمار أنه برهن ان تشكل الطبقات يقرره تطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج وان الصراعات الطبقية من شانها في العصور الحديثة ان تقود بطريق ثورة بروليتارية الى تكوين مجتمع بلا طبقات . فايدماير ، لندن ٥ آذار ١٨٥٢ . « فيما يخصني ، ليس لي فضل اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع الحديث وصراعاتها ... الجديد الذي اتيت به انني بينت ان وجود الطبقات مرتبط بمراحل تاريخية محددة لتطور الانتاج . »

(٢) انظر انجلز : مقدمة راس المال ، ج٢ ، باريس ، ١٩٠٠ ، ص ٨ . « ماركس بدأ دراساته في الاقتصاد السياسي عام ١٨٤٣ في باريس ، حيث اكب على تحليل كبار الاقتصاديين الفرنسيين والانكليز . »

المأجور ، البروليتاري ، المنتج الرئيسي للثروات بشغله ، مستغل ومضطهد ، الى ادانته (١) .

هذه الدراسات ، التي كانت تعطي تصوره للشيوعية وللتاريخ قاعدة اقتصادية صلبة ، كانت تجعله ، بالتضافر مع دراسات الثورة الفرنسية والمذاهب الاشتراكية والشيوعية ، يميل نحو تصور مادي للعالم . هذا التوجه كانت تعززه الدراسة المتعمقة التي خص بها آنذاك المادية الفرنسية والانكليزية ، التي كان يحلل تياريها الكبيرين العلمي والاجتماعي ، اللذين كان يشتقهما من فيزياء ديكارت Descartes واحساسية لوك Locke . كان يبين ان هذين التيارين تطورا تحت تأثير تطور الانتاج والصراع الذي تخوضه البرجوازية ضد العهد القديم وانه ينبثق من التيار الثاني اتجاه اشتراكي نقطة وصوله الشيوعية . وبتجاوزه حدود المادية الميكانيكية للقرن الثامن عشر العائدة الى حدود الايديولوجيا البرجوازية ، كان ماركس يلقي في المؤلفات التي كان يكتبها آنذاك أسس تصور جديد للمادية ذي طابع جدلي وتاريخي (٢) .

ماركس والهيغليون الشباب

ان مشاركة ماركس المتزايدة النشاط في الحركة الثورية (٣) ، التي كانت يرافقها عنده تحول ايديولوجي عميق ، كانت تحدده موقفه ازاء الهيغليين الشباب الفوضويي الاتجاه والديمقراطيين مثل روجه وهرفغ Herwegh ، وموقفه ازاء الاشتراكيين الاصلاحيين مثل برودون والشيوعيين الطوباويين مثل باكونين وهس Hess وفايتلنغ weitling

(١) عن تفصيل دراسات ماركس في الاقتصاد السياسي ، انظر ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ١٠٧ – ١١٠ و ٤٣٧ – ٥٨٣ ، والفصل الثاني من هذا الكتاب . انظر ماركس ، مساهمة في نقد الإقتصاد السياسي ، برلين ١٩٥١ ، المقدمة ، ص ١٢ . « ان دراساتي (المقصود التحليل النقدي لفلسفة الحق الهيغلية والدراسات اللاحقة) قادتني الى هذه النتيجة ، الا وهي ان العلاقات الحقوقية ومختلف اشكال الدولة لا يمكن ان تعال لا بذاتها ولا بما يدعى تطورا عاما للروح الانسانية ، بل تحددها الشروط المادية للحياة ، الشروط التي كان هيغل على غرار انكليز وفرنسيي القرن الثامن عشر يلخصها تحت اسم المجتمع البرجوازي ، وان تشريح هذا المجتمع يؤلفه الاقتصاد السياسي . »

(٢) حول المادية الفرنسية في القرن ١٨ ، انظر م. د. تسيبنكو : كفاح ماديي القرن ١٨ الفرنسيين ضد المثالية ، باريس ١٩٥٥ . عن تحليل ماركس النقدي لمادية القرن ١٨ ، انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب (فصل « العائلة المقدسة ») . عن تجاوز المادية الميكانيكية من قبل ماركس وانضاج المادية الجدلية والتاريخية، انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب («مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة») .

(٣) في ٢٣ آذار ١٨٤٤ ، اشترك في وليمة نوقشت فيها مسالة الدعاية الدولية الديمقراطية ، انظر رسالة روجه الى كوشناي ، ٢٤ آذار ١٨٤٤ (الاصل موجود في معهد الماركسية – اللينينية بموسكو) . انظر ك. ماركس ، سيرة حياته ، ص ٢١ . وقد تعاون من جهة اخرى مع الجريدة الباريسية الالمانية Vorwarts (الى الامام) ، حين اتخذت طابعا ثوريا .

بينما كان من الان يقف بوضوح ضد الهيغليين الشبان الفوضويين والديمقراطيين من طراز روجه ، الذين كانوا يكافحون البروليتاريا والشيوعية بشكل سافر ، كان موقفه أقل وضوحا ازاء الاشتراكيين والشيوعيين الخياليين . أجل كان ينفصل عنهم بقدر ما كان يرى ان مذاهبهم لا تستجيب لاشتراطات كفاح البروليتاريا الطبقي ، ولكن بما انه لم يكن بعد قد ادرك أسباب وطبيعة عيوبهم لذا فان نقده لم يكن له الطابع الحاد القاطع الذي سيكون له بعد قليل ، عندما سيتثبت مذهبه في خطوطه الكبرى .

كان انضمامه الى الشيوعية الثورية يعزز قطيعته مع « الهيغليين الشباب » في برلين الذين كانوا يسلكون اكثر فأكثر طريق الفوضوية .

بعد رفضه التعاون مع **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، كان برونو باور Bruno Bauer ، الذي تحول نهائيا عن الحركة التقدمية ، قد كرس جهده مع شقيقه ادغار لوضع نقد لليبرالية والثورة الفرنسية . المؤلف الذي كتبه آنذاك ، وعنوانه **تاريخ السياسة والثقافة والعقلانية في القرن الثامن عشر** (١) ، كان أضعف أيضا من المؤلف السابق : **حوادث جديرة بالذكر من التاريخ المعاصر ضد الثورة** (٢)، الذي كان قد كتبه أيضا بالتعاون مع شقيقه ادغار .

هذا الكتاب ، المؤلف من سلسلة أخبار لا رابط بينها ، كان شاهدا على عجز ب. باور عن فهم حقبة تاريخية (٣) .

مع شقيقه ادغار ، كان برونو باور يصدر ايضا **الجريدة العامة الادبية** ، في دار النشر العائدة لشقيقهما اغبرت Egbert في مدينة شارلوتنبورغ (٤) .

في هذه المجلة ، التي كانت تؤلف نوعا ما نسخة معارضة **للحوليات الفرنسية ـ**

---

(١) برونو باور : تاريخ السياسة والثقافة والانوار في القرن ١٨ (بالالمانية) ، جزءين ، شارلوتنبورغ ، ١٨٤٣ ـ ١٨٤٥ .

(٢) برونو وادغار باور : اخبار عن تاريخ الزمن الحاضر منذ الثورة ، شارلوتنبورغ ، ١٨٤٣ .

(٣) انظر النقد الصادر في جريدة الى الامام ، رقم ٧٠ ، ٢١ أيلول ١٨٤٤ . « ان المجلد الثاني من تاريخ القرن الثامن عشر لبرونو باور لا يستجيب حتى للحد الادنى مما كان يمكن توقعه من هذا المؤلف... ولئن كان من المكن ابان صدور المجلد الاول التردد في اصدار حكم ، فان الشك لم يعد ممكنا الان وقد صدر الجزء الاول من المجلد الثاني . لا يمكن ان نتخيل شيئا أكثر اقتضابا واكثر تفككا من هذا الخليط من قصص مجهولة ، لا يمكن ان نتخيل شيئا يشهد على احتقار أكبر من هذا في طريقة تناول المفكرين البارزين وعلى عدم فهم كهذا لتطور المانيا في القرن الماضي . »

(٤) الجريدة الادبية العامة ، مجلة شهرية يصدرها ب. باور عند ا. باور في شارلوتنبورغ . الدفاتر ١ الى ١٢ . ديسمبر ١٨٤٣ الى أوكتوبر ١٨٤٤ . وقد صدرت طبعة ثانية لهذه المجلة في شكل كتاب بعنوان : كفاح النقد ضد التناقضات الراهنة ، بقلم برونو باور ، ادغار باور ، وآخرين . شارلوتنبورغ ، عند ا. باور ، ١٨٤٧ .

الالمانية ، كان برونو وادغار باور ومعاونوهما يعرضون مفاهيمهم الفردية والفوضوية. السهولة التي بها خنقت الحكومة البروسية الصحافة المعارضة واللامبالاة التي بها قبل الشعب أو « الجمهور » حذف كل مظاهر الروح ، كانتا بالنسبة لهم الدليل على ان رجال التقدم قد ضلوا الطريق حين تحالفوا مع الجمهور وانه من الضروري سلوك درب جديد (١) .

منطوين على أنفسهم وميّالين أكثر فأكثر الى الاعتقاد بأنهم يجسدون الروح المطلق ، الوعي الكلي ، كانوا الآن يعتبرون الشعب، « الجمهور »، عائقا أمام انبساط الروح (٢) . الواجب الحاضر بالنسبة لرجال التقدم كان ، على حد قولهم ، الانصراف عن الحركات السياسية والاجتماعية ، واللحن الثابت في مقالاتهم كان نقدا لا ينضب معينه لـ « الجمهور » ، الخصم الرئيسي للتقدم ، المسؤول عن فشل كل المشروعات السامية للبشر (٣) .

---

(١) انظر ب. باور ، صعود وسقوط الراديكالية في عام ١٨٤٢ ، طبعة ثانية ، برلين ١٨٥٠. ج ٣ ١٧٠. « اثناء مغادرته المانيا ... استطاع روجه ان يرى ان الحكومات الالمانية قد نالت ، في منعها المؤلفات التي كانت تطلع العالم على أفكار الفلسفة الجديدة ، موافقة ممثلي الشعب ومساندة الجمهور الكبير اللامبالي » ، ص ١٧٢ . « اللامبالاة الادبية التي ظهرت في تلك الشهور المحزنة كانت من طبيعة اخرى غير ما يفكر به روجه . كانت هي اللامبالاة تجاه الادب ، اذا عنينا بالادب تعاقب المؤلفات الخلاقة للارستقراطية الفكرية ولفصيلة انصارها وخصومها ، لا مبالاة كانت تظهر ايضا تجاه هذه الارستقراطية وكانت على طريق التحول الى ثورة ضدها . »

(٢) انظر الجريدة الادبية العامة ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ ، ص ١٢ . هيرتسل رسالة من زوريخ : « فقط في خاتمة حملة تطابقت مع نهاية عام ١٨٤٢ ، تثبت موقف الاحزاب نهائيا . عندئذ فقط ظهر « الجمهور » في شكله الخالص . جمهور « استطاع النقد ان يتحرر منه بفضل كفاح عمره الوف السنين ، خالقا بذلك تعارضا قاطعا بينه وبين الجمهور ، تعارضا لم يعرف التاريخ مثيلا له من قبل . »

(٣) انظر الصحيفة الادبية العامة ، الدفتر الثامن ، تموز ١٨٤٤ ، صص ١٨ ـ ٢٦ : « ما هو الان موضوع النقد ؟ » . انظر المرجع نفسه ، الدفتر الاول ، ديسمبر ١٨٤٣ . آ. باور ، مؤلفات اخيرة عن المسألة اليهودية ، ص ٣ . « في الجمهور وليس في مكان اخر يجب البحث عن العدو الحقيقي للروح »، ص ٢ « ان اسوأ شهادة ضد مؤلف من المؤلفات هو حماس الجمهور له » . ص ٣ « كل افعال التاريخ الكبرى كان مآلها الاول الفشل وانعدام الاثر الدائم لان الجمهور اهتم بها وتحمس لها . الروح تعرف الان أين يجب ان تبحث عن خصمها الوحيد ، انه في ثرثرة واوهام وخمول الجمهور . » . هذا الاحتقار للجمهور ، للشعب ، ياتي مباشرة من هيغل ، انظر فلسفة الحقوق ، شتوتغارت ١٨٣٨ . الفقرة ٣٠٢ ص ٤١١ . « ان موقع الدول الموسط له كاثر رئيسي منع الافراد من ان يتحولوا الى « جمهور » وان ينهضوا في هذا الشكل ، بواسطة فكر وارادة غير عضويين ، ضد الدولة » .

هذا النقد لـ « الجمهور » كان يرافقه نقد للراديكالية السياسية والاجتماعية التي كانت تستند اليه .

ان العيب الجوهري للراديكاليين كان ، على حد قولهم ، نقص الشجاعة ، النقص الذي اظهروه خصوصا في الفترة التي كانوا يعتبرونها حاسمة بالنسبة لمصير المانيا الا وهي سنة ١٨٤٢ . لم يكن لهم لا ارادة ولا شجاعة الكفاح ، لذا فقد عوّلوا في البداية على مشيئة الدولة لتحقيق أهدافهم . بعد استفحال الرجعية ، نقلوا أملهم على الشعب ، على « الجمهور » وانضموا الى الشيوعية التي أرادوا منها تحويل المجتمع والدولة بالغاء الانانية ، أي عمليا بحذف الفردية .

في معارضة الراديكالية السياسية والاجتماعية ، في معارضة نقد الدولة والمجتمع ، كانوا يضعون النقد الخالص ، الحر ، المطلق ، الذي كان يرمي مع النضالات المبتذلة من أجل سيادة الشعب والنظام الدستوري جميع العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية (١) .

واذ كان يمارس ذاته في ميدان النظرية الخالصة حيث يستطيع أن يحدد كما يشاء مسيرة التاريخ ، فقد كان النقد المطلق يحلق بانفصال سلطاني فوق مصادفات الحياة الواقعية .

هذا النقد المطلق ، الذي كان يقصر نشاطه على ملاحظات ساخرة عن الاحداث والاحزاب ، كان قليل الخطر على الذين يمارسونه لاسيما وانه كان يوجه هجماته بفطنة كبيرة لا ضد الحكومة البروسية بل ضد الليبرالية والشيوعية . كان يصفي الليبرالية بقوله انها تعبير الوعي البرجوازي ، أي تعبير شكل خاص وبالتالي ناقص من الوعي الكلي ، وكان يصفي بنفس الكيفية الشيوعية ، التي كان هجومه عليها

(١) الصحيفة الادبية العامة ، الدفتر السادس ، أيار ١٨٤٤ ، رسالة من الاقاليم، ص ٣٤ . « ان النقد لا يتخذ حزبا ولا يريد ان يكون حزبا . انه وحيد ... انه ينفصل عن كل شيء . انه يعتبر كل مبدا مشترك ، لازم لتشكيل حزب ، عقيدة (دوغما) يكون محرما عليه ، في اطار حزب ، أن ينقدها وان يلغيها » . انظر المرجع نفسه ، الدفتر الثامن ، آب ١٨٤٤ ، ب. باور ، « ١٨٤٢ » ص ٧ : « كما قلنا، لم يعد للنقد طابع سياسي ، كان قبل قليل يعارض افكارا بافكار ومنظومات بمنظومات وآراء بآراء ، ولقد رمى الان كل فكرة وكل منظومة وكل رأي » . انظر المرجع المذكور ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ . محاضرات هينريش السياسية ، مجلدان ، هاله ، ١٨٤٣ ، ص ٢٣ . « المفاهيم العقيدية عبدت نسبة الى قوى الهية ، لان الانظار كانت مغلقة عن العالم الواقعي ... ، لان الناس لم يكونوا يعرفون كل ثروة العلاقات الانسانية ، المحتوى الجبار للتاريخ والمعنى الحقيقي للانسان . المفهوم حل محل الانسان ، جدل المفاهيم تحول الى قتال الهي ، الوحيد الذي عرفه الفلاسفة الذين لانهم لم يفهموا صراع التاريخ لذلك لم يحملوا أي فكرة عن قتال الجمهور ضد الروح ، القتال الذي هو جوهر كل التاريخ الماضي . »

اشد أيضا من هجومه على الليبرالية (١) .

وباعطائهم النقد طابعا مطلقا ، كان « المعتقون » يعينون له كمهمة أن يحرر جوهر الاشياء ذاته بتجاوز كل التظاهرات الخاصة للوعي الكلي الذي حل عندهم محل الفكرة المطلقة لهيغل . بينما كانت هذه الاخيرة ، التي تجمع في ذاتها الواقعي والعقلي ، تحقق جوهرها بالانبساط الجدلي لكينونتها ، كان الوعي الكلي يحقق جوهره بتجاوزه ، على طريقة أنا فيخته ، كل التظاهرات الخاصة لكينونته . وهكذا بتحويله الانبساط الجدلي الذي كان عند هيغل ذا طابع موضوعي الى انبساط ذاتي محدد من قبل فاعلية الوعي الكلي ، كان النقد المطلق يقدم لنفسه بوصفه تجسيد هذا الوعي الكلي (٢) وهم القدرة على تغيير العالم كما يشاء وعلى تحديد سير التاريخ . بما انه لم يكن له أي قبض على العالم الواقعي ولم يكن يستطيع اذ ان يضع لنفسه أي هدف ايجابي ، فقد كان عليه أن يكتفي بنضال وهمي ضد عالم يعجز عن تحويله .

هذا النقد كان نقطة وصول تطور المعتقين السياسي والفكري . اذ لم يجدوا بعد القمع الذي أصاب الليبرالية في أواخر عام ١٨٤٢ أي دعم في البرجوازية التي كانت ضعيفة بشكل خاص في برلين ، فقد تنكروا لماضيهم ذاته ، ماضي كفاحهم ضد الدولة الرجعية البروسية ، وباتوا يعطون عملهم طابعا رجعيا ، باجتنابهم وتبريرهم هذه الدولة وبادانتهم النضال الموجه ضدها (٣) .

الصحيفة العامة الادبية لم تجد سوى صدى قليل بين المثقفين ولم تجد أي صدى لدى الجمهور ، الامر الذي كان من جهة أخرى موضع فخر عند محرريها .

برونو باور ، الذي لم ينجح حتى في اكتساب مساهمة كل المعتقين والذي كان

---

(١) عن نقد الليبرالية ، انظر الصحيفة الادبية العامة ، الدفتر الثالث ، شباط ١٨٤٤ ، كارل ريشهاردت . دفاع عن كتابه . البرجوازية البروسية . انظر نفس المرجع ، الدفتر الرابع آذار ١٨٤٤ . ا. يونغنيتس : المجلة الشهرية من أجل الادب والحياة العامة لبيدرمان Biedermann، ١٨٤٢ ـ ١٨٤٣ . في هذه الانتقادات ، لم يرد اسم ماركس ابدا ، مع انها موجهة الى حد كبير ضد الصحيفة الراينية والحوليات الفرنسية ـ الالمانية .

(٢) بعد فكهم الواقع عن الفكرة بتحويلهم هذه الفكرة الى الوعي الكلي ، بات « المعتقون » يعطون الوعي الكلي طابعا ذاتيا ، بتجسيدهم اياه في افراد نخبة، في ارستقراطية فكرية يضعونها ضد الجمهور، الامر الذي سيسمح لشترنر Stirner ، الذي يدفع الفردية والذاتوية الى نتائجهما الاخيرة ، بتحويل كل شيء الى الانا وفاعليته .

(٣) انظر الصحيفة العامة الادبية ، الدفتر العاشر ، ايلول ١٨٤٤ ، ص ١٠ ـ ٢٠ . ب. باور : « كراسات كونيغسبرغ الادبية » . في هذا المقال ، حيث يجادل ضد ليبراليي كونيغسبرغ ، كان ب. باور يزعم انه من غير الممكن معارضة الدولة بالشعب ، بما انه محوي فيها .

عليـه ان يكتفي ، فيما عدا شقيقه و ي. فاوخر Y. Faucher (١) ، بمعاونين من الدرجة الثانية مثل ا. بونغنتس ، شزيليغا ، ك.ا. ريشهاردت ، ف. بك (٢) ، كان فوق ذلك يرى نهوض مجلتين منافستين ضد مجلتـــه ، مجلتين يصدرهما ل. بول L. Buhl (٣) وهما : **مجلة برلين الشهرية (٤)** ، و **أوراق المانيا الشمالية** التي كـان اتجاهها مماثلا لاتجاه **الصحيفة العامة الادبية (٥)** .

---

(١) يوليـــوس فاوخر (١٨٢٠ - ١٨٧٨) . مقالاته في الصحيفة العامة الادبية تتميز عن مقـالات الاخرين باستناد الى المراجع امتن .

(٢) Ernest Yungnitz (توفي في عام ١٨٤٨) كان قد أصدر في ١٨٤٣ كتابا عن الدين والكنيسة في فرنسا حتى حل الجمعية التاسيسية . في ١٨٤٤ كتب كتابين : الدين والكنيسة في فرنسا منذ حـل الجمعية التاسيسية حتى سقوط روبسبيير ، وتاريخ الحياة الدينية في المانيا في القرن الثامن عشر . في ١٨٤٧ ، أصدر مع الاخوة باور تاريخ الثورة الفرنسية حتى تاسيس الجمهورية .

Szeliga ، اسم مستعار لفرانتس زيشلين فون سيشلنسكي (١٨١٦ - ١٩٠٠) ضابط بروسي صار جنرال مشاة .

C. E. Reichhardt ، طابع ومجلد ، أصدر في أوائل ١٨٤٤ كراسا عن البرجوازية البروسية كمـا يراها رجل من الشعب ، عبر فيه عن سخط الحرفيين . وعندما منعت الرقابة هذا الكـراس ، استطاع ان يرفع المنع ببيان أكد فيه ولاءه وامتدح الرقابة .

F. Beck كان شاعر الجماعة مع خسارة باقي الشعر . أنظر الصحيفة العامة الادبية ، الدفتـر الرابع ، آذار ١٨٤٤ . ف. بك : « أغنية خياط » .

(٣) لودفيغ بول (مولود في ١٨١٤ ، توفي في أوائل الثمانينات) شارك مشاركة نشيطة في حركـة اليســار الهيغلي ، وانضم الى فردوية ب. باور وشترنر . كان يترجم انذاك تاريخ عشر سنـوات ، مؤلف ل. بلان L. Blanc ، الصادر في برلين عامي ١٨٤٤ و ١٨٤٥ .

(٤) مجلة برلين الشهرية منعتها الرقابة . صدرت في شكل كتاب في مانهايم عام ١٨٤٤ وكانت تحوي قسما من المقالات المكرسة لمجلة الوطني والتي حذفتها الرقابة . من فهرس المواد :

ل. بوهل : رسالة مفتوحة . احكام محكمة الرقابة العليا .
م. شترنر : ملاحظات موقتة عن الدولة القائمة على الحب .
ل. بول : الطابع الحقيقي للدستور القائم على « الدول - الولايات » .
غرافل : مذكرة عن تنظيم الادارة البروسية وعيوبها .
ا. باور : عن العاطفية .
ا. مين : آراء عن أهمية الحركة الالمانية واتجاهاتها .
ل. بوهل : مسالة ملكية وحقوق .
م. شميدت (شترنر) : كتاب E. Sue « اسرار باريس » .

(٥) أوراق المانيا الشمالية من أجل النقد والادب والترفيه ، صادرة من تموز ١٨٤٤ الى نيســان ١٨٤٥ . من فهرس المواد :

الدفتر الاول ، تموز ١٨٤٤ : مجلات نقدية جديدة ، الحوليات الفرنسية الالمانية لآرنولد روجـه .
فيغان : رسولان لانجيل البشرية الاخير . موندت : تاريخ المجتمع ، تطـوره الحديث ومسائلـه .
ك. غرون : الثقافة الحقة .

هكذا في « الكتاب المفتوح » الذي كان بمثابة مقدمة **لمجلة برلين الشهرية** ، كان ل. بوهل يعلن عزمه على مكافحة جميع الاحزاب السياسية ، لانها عاجزة عن نقد الوضع القائم نقدا جذريا : « ان النضال الذي نخوضه موجه ضد كل وضع الاشياء الحاضر . كيف يمكن أن نشترك مع الذين يلوكون على الدوام كلمة « تقدم » ولكنهم يكشفون عجزهم عن الانفصال عن وضع الاشياء المذكور . نحن نصد كل الذين يناضلون من أجل الشكل ضد هذا الوضع ، ولكنهم لا يقطعون معه ولا يستطيعون ، نتيجة نقص الشجاعة والمبادىء ، بلوغ الحرية ... نحن لا نريد استبدال شكل للدولة بآخر ولم نشكل حزبا ، لان هدفنا هو الاقناع فقط . وبما أننا احرار من كل قيد ، فاننا نستطيع ، بحكم موقفنا النظري المحض ، أن نطالب بحق البحث الحر وأن نأمل ، ببقائنا هكذا خارج الاحزاب ، عدم الوقوع تحت الملاحقات ... بل ولماذا لا يمكن أن يتحقق هنا حلف شبيه بالحلف الذي قام في فرنسا بين أنصار الملكية الشرعية (١) والجمهوريين ؟ كفاحنا ضد عقلانية وليبرالية « الوسط العادل » الا يجب أن يؤمن لنا عطف الحكومة ؟

اذ نطالب لانفسنا باستقلال مطلق ، لا يمكن أن يخطر في بالنا أن نقرر الآخرين. فمبدؤنا ان يكون كل سيد نفسه وأن يصدر بنفسه شريعته . وليس لنا ان نقرر ما اذا كان تحقق هذا الاشتراط ممكنا أو غير ممكن ، قريبا أو بعيدا ... يكفينا أن يكون ضروريا حتى يكون ممكنا الحديث عن الحرية الحقة (٢) » .

هذه الجمل الجميلة عن النقد المطلق والحرية الحقة ، التي كانت قناع خوف

← **الدفتر الثاني ، آب ١٨٤٤ ، شيليغا : نقد مؤلف « هذا الكتاب ملك للملك . » . موجه : فلهلم فايتلنغ ، الجيل الجديد .**
الدفتر الثالث ، ايلول ١٨٤٤ : ا. باور : ايضا رسول . الادب الالماني في فرنسا .
الدفتر الرابع ، أوكتوبر ١٨٤٤ : ل. فويرباخ ، كوبن « برودون » ، مقال أول .
الدفتر الخامس ، نوفمبر ١٨٤٤ : كوبن « برودون » ، مقال ثان . تنظيم الشغل .
الدفتر السادس ، ديسمبر ١٨٤٤ : اجتماع جمعية برلين المحلية لمساعدة الطبقات الكادحة .
الدفتر التاسع ، آذار ١٨٤٥ : « الوحيد وخاصيته ، لشترنر » .
الدفتر العاشر ، نيسان ١٨٤٥ : « مساعدة الطبقات الكادحة » .

(١) أو الشرعيين légitimistes : هم، في فرنسا عهد ملكية تموز (عهد الملك لوي فيليب (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨) ، انصار الفرع الاول الاصلي من اسرة بوربون ، الذي سقط اثر ثورة تموز ١٨٣٠ . لوي فيليب فرع آخر (فرع أورليان) من الاسرة وقد استولى على العرش اثر الثورة المذكورة التي قام بها الشعب الجمهوري) .
(٢) انظر مجلة برلين الشهرية ، ص ٢، ٣، ٧، ٨، ١٠ .

البرجوازي الصغير من الدخول في معارك حقيقية (١) ، كانت تساند ، بالواقع ، رغم مظاهرها الزائدة الثورية ، السياسية الرجعية لحكومة بروسيا . ان احد المساهمين في **أوراق المانيا الشمالية** ، ف. كوبن F. koeppen ، وهو صديق قديم لماركس، ذهب الى حد الدفاع عن الرقابة ، فكتب يقول ان حظر كل نقد جذري وفظ يرغم الكاتب على التعبير عن أفكاره في شكل أكثر دقة ونعومة وان النقد من جهة أخرى بما انه يقف خارج السياسة لذا فهو يستطيع تماما أن يتكيف مع الرقابة (٢) . وعلى أي حال فان ذلك كان يناسبهم لدرجة ان الرقيب استطاع ، بعد صدور العدد الاول من **الصحيفة العامة الادبية** ، أن يعلن أن صحافة كهذه لا تؤلف أي خطر على الحكومة (٣).

الفوضوية ، التي اليها كان يميل « المعتقون » ، كانت تجد انذاك منظرها عند ماكس شترنر ، الذي كان يبسط في كتابه **« الوحيد وخاصيته »** الصادر في نوفمبر ١٨٤٤ ، النتائج الاخيرة للفردوية (٤) . كان قد عرض مبادئها الاولى في مقاله «ملاحظات موقتة عن الدولة المؤسسة على الحب» الصادر في **مجلة برلين الشهرية (٥)**. في مقدمة هذه المجلة ، كان بوهل قد أكد أننا بدلا من مهاجمة الدولة مباشرة بوصفها خصما للحرية نصل الى نفس النتيجة بتبياننا انه ما من شكل للدولة والدستور

---

(١) انظر ج. ماير : مجلة للسياسة ، ١٩٢٠ ، الملزمة الثالثة ، ص ٤٣٥ . « اذ شعروا انهم مضوا بعيدا في جو السياسة الخطر ... هؤلاء الثوريون في حذاء وروب المنزل أعلنوا مع الاطناب ان السياسة عمل من النوع الادنى وان المهمة الوحيدة الجديرة بروح حر وبالنقد المطلق هو الالغاء النظري لوضع الاشياء الموجود . »

(٢) انظر أوراق المانيا الشمالية ، الدفتر الثاني ، آب ١٨٤٤ . « رسالة برلين ، ٢٦ تموز » ، ص ٨٨ . « ان النقد يرتفع فوق الاهواء والعواطف ، لا يعرف لا ولعا ولا كرها مع او ضد اي شيء . ولذا فهو لا يقف ضد الرقابة ليناضل ضدها » . ص ٨٩ ، « النقد ليس له لا هدف ايجابي ولا هدف عملي ، لذا لا يمكن مطالبته بمكافحة الرقابة من اجل تامين حرية الصحافة . »

(٣) ملاحظة الرقيب على الدفتر الاول من الصحيفة العامة الادبية : « بالنسبة لاتجاه المقالات الثلاثة ، يمكن القول بشكل عام انها جميعا مشبعة بروح محض نافية ، دون ان يكون محتواها بسبب ذلك مستحقا لاي حذف . »

(٤) انظر فون هارتمان : فينومينولوجيا الوعي الاخلاقي ، برلين ١٨٧٩ ، ص ٨٠٤ . « نرى هنا كيف ان القيمة المطلقة التي يعطيها شترنر للانا هي النتيجة العملية للواحدية الذاتية لفيخته ، الذي لم يكن يستطيع ، باتخاذه وجهة نظر اخلاقية مثالية ، ان يتصور وبالاحرى أن يتبنى النتائج التي تفترضها فلسفته » .

(٥) انظر مجلة برلين الشهرية، صص ٣٤ ـ ٤٩ . م. شترنر « ملاحظات موقتة على الدولة المؤسسة على الحب » . مقال منقول في : ج. هـ. ماكي، كتابات ماكس شترنر الصغيرة ورده على نقاد كتابه « الوحيد وخاصيته » (١٨٤٢ ـ ١٨٤٧) ، برلين ، ١٨٩٨ ، صص ٧١ ـ ٨٠ .

يستجيب لمفهوم الحرية (١) . وانطلاقا من هذا التصور ، يعرض شترنر في مقاله ان الدولة الثورية والدولة المسيحية تضطهدان الحرية سواء بسواء . في الدولة الثورية، على حد قوله ، المواطن محروم من الحرية ، بحكم خضوعه المطلق للدولة . أما الدولة المسيحية ، المؤسسة على الحب ، فهي أيضا تحذف الحرية ، لان الحب يشترط أن يضع المرء فاعليته لا في خدمة فرديته ، أناه ، بل في خدمة الغير ، الامر الـذي يؤول من جانب هذه الدولة الى استعباد للفرد أكبر أيضا (٢) .

من هذا النقد للدولة الثورية والدولة المسيحية ، كان شترنر ينتهي الـى ان جميع اشكال الدولة قابلة للادانة بالتساوي لانها جميعها تحمـل كعاقبة ضرورية حذف الحرية .

بعد هذا النقد للدولة ، وقف شترنر ، في مقال عـن رواية **« أسرار باريس »** لاوجين سو Eugène Sue ، صدر ايضا في **مجلة برلين الشهرية** ، ضد المسيحية

---

(١) مجلة برلين الشهرية ، نص اورده ج. هـ. ماكي ، حـ١ ، ص ١١٨ .

« كنـا نعلم ان حكما يرتكز على مبدأ السلطة لا يستطيع ان يقبل نقدا من شانه ان يدمر وضـع الاشياء القائم . لذا فقد اتخذنا لنفسنا مهمة تحليل اسس وذرائع هذا الحكم : دولة ، قانون ، حق ، نظام شرعي ، تقدم شرعي، دين، قومية، وطنية الخ . اذا لم نكن نستطيع مهاجمة الدولة نفسها وتبيان انهـا اداة اضطهاد ، فقد كنا نصل الى نفس النتيجة ، بعرضنا ان جميع اشكال الدولة وان جميـع الدساتير الموجودة لا تستجيب لمفهوم الحرية الحقيقي » .

(٢) انظر م. شترنر : ملاحظات وقتية على الدولة المؤسسة على الحب ، مجلـة برلين الشهرية ، ص‌ص ٤٥ ــ ٤٧ .

« لنقارن الحب مع الاستقلال الذاتي او الحرية . في الحب ، يحدد الانسان نفسه ، يكيف نفسه، ولكنه يفعل ذلك لا حبا بذاته بل حبا بالغير . هذا التقرير الذاتي يتوقف على الغير ، انه ايضا تقرير من قبل الغير . بالمقابل ، ان الانسان الحر لا يتحدد لا من اجل ولا من قبل الغير بل فقط من اجل ومن قبل ذاته . لا يعتبر الا ذاته ويجد فيها الدافع الضروري الى تقرير ذاتي يتيح له ان يفعل بشكل عقلي وحـر في آن . ان يكون المرء محددا من قبل الغير او من قبل نفسه ، ان يستلهم الحب او العقل ، هما شيئـان مختلفـان تمامـا . الحب يرتكز عـلى مبدأ أن كـل ما نفعلـه هو حبا بالقريبة والعمل يرتكـز عـلى مبـدأ ان الانسـان لا يفعـل الا مـن اجـل ذاتـه . فـي الحالـة الاولـى ، ان اعتبار الغير هو الذي يجعلني افعل ، في الثانية أنا لنفسي دافع افعالي . من يحدده الحب يفعل حبـا بالله ، باخوته، الخ، ليس له ارادة خاصة، من يحدده العقل لا يريد أن يحقق اية ارادة سوى ارادته، لا يحترم الا من له ارادة خاصة وليس من يطيع ارادة الغير . أجل الحب محق ضد الانانية ، اذ ان تبني ارادة الغير وتحقيقها انبل من اطاعة رغبة يولدها موضوع ما ايا كان ، وانبل ان ندع انفسنا نتحدد مـن قبل الغير من ان لا يكون لنا اي تحديد خاص . ولكن الحب ليس محقا ضد الحرية ، اذ لا يوجد تقريـر ذاتي بدون حرية . ان الحب هو الشكل الاسمى والاجمل لاضطهاد الانسان مـن قبـل نفسه ، الطريقة الاكثر مجدا للتضحية بالذات وتدمير الذات ، الانتصار الاعذب على الانانية ، ولكن الحب بتدميره الارادة الشخصية التي ليست سوى حس ورغبة الذات لا يتيح للارادة المحض ، التي هي وحدها تمنح الانسان كرامته كانسان حر ، ان تنمو وتتطور » .

الاجتماعية ، التي كانت رائجة آنذاك ، قائلا ان الاثـر الوحيد لهـذه المسيحية الاجتماعية هو جر المظلوم الى الخضوع لمصيره . بيد انه لم يكن قادرا على اعطاء حل ايجابي للمسألة السياسية والمسألة الاجتماعية سواء بسواء، مكتفيا بتأكيد ان الدولة والمجتمع البرجوازي منخوران مفنغران لدرجة أنهما سينحلان تلقائيا (١) .

بعد فضح الدولة والمجتمع بوصفهما قوى عليا ، مثـل الدين ، تسود وتضطهد الانسان الذي خلقها ، يعرض شترنر في كتابه **الوحيد وخاصيته** ان الأنا ، مع ارادته وفاعليته اللامحدودتين ، المطلقتين ، يؤلف الواقع الانساني الوحيد الحـق (٢) . واذ لا يمنح قيمة الا للأنا ، فقد كان يمجد الانانية بوصفها المبـدأ الاساسي للفاعلية الانسانية ويرمي كل ما يعارضها مدعيا فرض واجبات عليها باسم مبدأ أعلى . هـذا المحطم الجديد للايقونات كان يقلب كل الاصنام : الله ، روح العالم لهيغل ، الدولة ، المجتمع ، وأيضا الجوهر الانساني لفويرباخ والوعي الكلي لبرونو باور . فقد كان يرى فيها تجسيدات جديدة للفكرة المطلقة لهيغل . حملاته الاكثر حـدة كانت موجهة ضد الليبرالية وضد الشيوعية ، اللتين كان يلومهما على كونهما تضحيان بالفرد على مذبح مجردات كالدولة او المجتمع .

ان نقد شترنر ، شأنه شأن نقد ب. باور ، لم يكن يحمل سوى الازدراء للواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . باحلاله محل العالم الواقعي عالمـا وهميا ، كان يجعل التاريخ مشهد أشباح .

هذا النقد ، المفصول عن كل واقع ، الذي يحلق في المطلق بشعور مـن التهكم والشفقة ازاء الاعراض والمصادفات ، كـان بالضبط نفي كـل الجهود التـي بذلهـا « الهيغليون ــ الشبان » للمشاركة في الحركة التقدمية . ولـم يكن بوسع ماركس وانجلز ان يقبلا بهـذا التسليم والتنازل وسيفضحان بلا رحمة ، في **العائلـة المقدسة** اولا، ثم في **الايديولوجيا الالمانية** ، هذا **النقد الناقد** الذي لم يكن رغـم مظهره الشامخ المتكبر المتصلب سوى عجز وعقم .

مـاركس وروجـه

باعتناقه الشيوعية ، كان ماركس سيقطع ليس فقط مع « المعتقين » بـل ايضا مع روجه والديمقراطيين من طرازه الذين لا يبخلون بالتنازلات الكلامية لصالح الطبقة العاملة طالما باستطاعتهم ان يخلطوا الشيوعية مع مذهب انساني غامض ولكنهم يقفون

---

(١) انظر ج. هـ. ماكي ، ص ١٠١ . عن هذا النقد لرواية « اسرار باريس » من قبل شترنر ، انظر نقد ماركس لهذا الكتاب في العائلة المقدسة ، انظر الفصل الثالث من هذا المجلد .

(٢) م. شترنر : الوحيد وخاصيته ، طبع فيغان ، لايبتسيغ ، ١٨٤٤ .

ضدها بحزم فور ادراكهم طبيعتها الحقيقية .

الخلاف بخصوص هرفغ Herwegh ، الذي كان قد فصل ماركس عن روجه ابان زوال **الحوليات الفرنسية الالمانية** ، لم يكن سوى مناسبة عرضية لقطيعتهما ، اما سببها الحقيقي فقد كان تباعد المفاهيم الذي بات الآن كاملا ، والذي كان اعتناقهما المشترك للانسانوية قد حجبه لبعض الوقت (١) .

كان روجه ، بتأويله الانسية كتعبير عن مبدأ الحرية ، يضعها في آن مقابل الشيوعية التي يفهمها كتجل للانانية على الصعيد الاجتماعي ، ولده حسد وجشع غير المالكين ومقابل الوطنية التي يرى فيها تجليا للانانية على الصعيد القومي (٢) .

اذ يقرن الانسية بالكوسموبوليتية (٣) ، كان يفكر انها ستتحقق بالتربية والتعليم ، اللذين كان يرى فيهما الوسيلة الوحيدة لتأمين تحرر البشر الحقيقي ، التحرر الذي لا يصيب ، على حد تفكيره ، المجتمع البرجوازي والملكية الخاصة بأي أذى (٤) .

واذ ينكر على العمال والحرفيين القدرة على ان يتحرروا بقواهم الذاتية ، فقد كان يلومهم على نقص ثقافتهم وعلى انانيتهم اللتي تحملهم على المطالبة بمساواة تؤدي الى تسوية عامة للمجتمع من الاسفل (٥) .

بعد قطيعته مع ماركس ، تحول نفوره من الشيوعية الى حقد حقيقي . في

---

(١) انظر مقالة انجلز عن ماركس في قاموس العلوم السياسية ، يينا ، ١٨٨٩ ـ ١٨٩٤ ، ح٤ ، ص ١١٣٠ ـ ١١٣٤ : « ان فشل الحوليات الفرنسية الالمانية كان ناجما عن الصعوبات البالغة لنشرها في المانيا وايضا عن الخلافات المبدئية العميقة التي ظهرت بين رئيسي التحرير . فقد ظل روجه نصيرا للفلسفة الهيغلية والراديكالية السياسية ، بينما ولج ماركس دراسة الاقتصاد السياسي والاشتراكيين الفرنسيين وتاريخ فرنسا . » .

(٢) انظر آ. روجه ، مراسلات ، حـ١ ، ص ٣٥٦ . رسالة الى شتار . باريس ٢٨ ايار ١٨٤٤ : « هل الحقيقة والحرية لهما وطن ، والارض باسرها اليست الاطار الوحيد الجدير بالروح الذي يتحرر بتحويلها ؟ الوطن رمز انقسام الشعوب ، الحرية رمز تصالحها . » .

انظر ايضا ص ٣٦١ ، رسالة الى فلايشر ، ٩ تموز ١٨٤٤ . « السبب السياسي لتدمير كل وطنية هو الحرية ... بدون تدمير الوطنية لا يمكن كسب المانيا الى الحرية . » .

انظر روجه ، المؤلفات الكاملة ، طبعة ثانية ، مانهايم ، ١٨٤٧ ، ح٦ ، ص ٢٧٣ وبعدها ، الوطنية.

(٣) انظر روجه ، رسائل مجادلة ، مانهايم ، ١٨٤٧ ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٤ ـ ٣٧٩ .

(٤) انظر روجه ، المراسلات ، ج١ ، ص ٣٤٦ . رسالة الى فويرباخ ، باريس ١٥ ايار ١٨٤٤ : « ولكن المسالة الاساسية تبقى دائما ذاتها : كيف نعمم التربية ، كيف نحقق تحرر كل فرد ؟ هذه ، في رايي ، مسالة التاريخ الابدية ، وانه لامر عظيم ان يسعى الان الى حلها مباشرة » .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٥٩ . رسالة الى فلايشر ، باريس ، ٩ تموز ١٨٤٤ : « ان الحرفيين الالمان الذين لا يريدون حذف الملكية الا طالما هم لا يملكون شيئا لعاجزون عن تحويل وضع الاشياء القائم عجز اعضاء البرشنشافت Burschensehaft من قبل » .

(البرشنشافت : حركة الطلاب الالمان في سنوات ١٨١٨ ، ١٨٢٣ الخ) .

رسائله بات يعرب بمزيد من الحدة عن غضبه وسخطه على أنصار الشيوعية ولا سيما على الشيوعيين الالمان (١) . انهم ، على حد قوله ، رجال محدودون وجشعون ، شديدو التعلق بالمال ، ينتظرون الثراء من الشيوعية ، وعندهم يتحالف التصوف الديني مع أحط الميول (٢) . ولقد كان نقده حقودا بشكل خاص ازاء ماركس ، حيث كان يدع نفسه يسير في طريق أقبح الشتائم ، مع اعترافه له ببعض الموهبة (٣) . وقد دفعه هذا الحقد الى ان يمنع فروبل Frobel ، بوصفه شريكا ممولا في « الكونتوار الادبي » ، من نشر مؤلفات لماركس ، أملا في دفع هذا الاخير نحو البؤس (٤) .

ماركس وهرفغ

بدون ان تصل الى حد القطيعة كما مع روجه ، تراخت علاقات ماركس مع

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٧٢ ، رسالة الى والدته ، باريس ١٢ نوفمبر ١٨٤٤ : « ان الاتجاه المقرف ، الاناني ، الشخصي ، الذي اتخذه هنا الشيوعيون ، كما اتخذه في برلين « المعتقون » ، يوقظ في نفسي كرها شديدا لهذه الحثالة . » . ص ٣٤٢ ، رسالة الى والدته ، باريس ، ٢٨ آذار ١٨٤٤ : « الاشد سوءا هم الشيوعيون الالمان الذين يزعمون تحرير كل الناس بتحويلهم الى حرفيين والذين يريدون استبدال الملكية الخاصة باشتراكية الاموال وبتوزيع عادل للثروات ، ولكنهم ، في انتظار ذلك ، هم شخصيا متعلقون جدا بالملكية الخاصة ولاسيما بالمال . » .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥٨ وبعدها ، رسالة الى فلايشر ، باريس ٩ تموز ١٨٤٤ . كذلك ص ٤٠٤ ، رسالة الى د. بروتس ، ١٨٤٦/١/١٤ .

(٣) المراسلات ، ج١ ، ص ٣٦٧ . رسالة الى أمه ، باريس ٦ اوكتوبر ١٨٤٤ : « ماركس شخص مبتذل تماما ويهودي وقح » .

انظر ايضا ص ٣٨١ . رسالة الى فلايشر ، ١٨٤٤/١٢/٦ : « ماركس يعلن نفسه شيوعيا في حين انه بالواقع ليس سوى اناني متعصب . انه قادر على ان يذبح ، كانه بابوف Babeuf جديد ، مع صرير وهزء ، جميع الذين يعترضون طريقه » .

انظر صحيفة اللوحة اليومية ، رقم ١٦٨ ، ١٩٢١/٧/٢٢ . رسالة من روجه الى ماكس دنكر Max Dunker باريس ١٨٤٤/٨/٢٩ : « ماركس يثير اشمئزازا الفرنسيين بكلبيته ووقاحته . انه يعتقد ان كل الحضارة الفرنسية يجب ان تهلك ، وبما ان البشرية الجديدة لا يمكن ان تكون في البداية الا غير انسانية وحيوانية ، فقد تبنى بذاته هذه الصفات . العمال الفرنسيون اكثر انسانية بما لا يقاس من هذا الانسانوي المقطوع الانسانية . اذا لم يهلك نفسه بحياته الفوضوية وغروره وافراطه في العمل واذا لم يضيع ، برغبته في تاكيد اصالته كشيوعي ، كل حس للاشكال البسيطة والنبيلة ، يمكن ان نامل شيئا ما من علمه الواسع بل ومن ديالكتيكه القليل التدقيق في الامور » .

(٤) انظر روجه ، المراسلات ، ج ١، ص ٣٧٩ . رسالة الى فروبل ، باريس نوفمبر ١٨٤٤ : « طالما ساكون الشريك الممول للكونتوار الادبي سيكون عليك ان لا تنشر كتبا لماركس ، اذا تقدم اليك بطلب ذلك. انت تعرف ولا ريب علاقاتي مع هذا الشخص » .

الشاعر هرفغ Herwegh ايضا . كان ماركس قد تعرف عليه في مدينة كولن ، ابان رحلة هذا الاخير في المانيا في اواخر ١٨٤٢ . عقب طرده من سويسرة في اوائل ١٨٤٣ ، ذهب هرفغ ، بعد زواجه من اما سيغموند ، وهي ابنة تاجر برليني غني ، في رحلة زفاف في جنوبي فرنسا ، ثم ، بعد فترة قصيرة قضاها في اوستاند (ساحل بلجيكا) حيث تعرف على فر. انجلز ، ذهب الى باريس حيث أقام حتى آب ١٨٤٤ (١) . ولقد كان هرفغ يقدر كثيرا ماركس وقد ساعده آنذاك (٢) ، ولكنه كان ، مثل روجه ولو بدرجة اقل ، ينفر من القسوة الشديدة التي كان ماركس يخوض بها الكفاح الثوري (٣) .

مثل روجه وفروبل ، كان قد قبل الشيوعية طالما كان يمكن ان تخلط مع انسية غامضة ، ولكنه رماها ، مثل روجه وفروبل ، منذ ان ظهرت له في شكل مذهب ثوري للبروليتاريا (٤) . الامر الغالب عنده ، كما عند الديمقراطيين البرجوازيين من طراز روجه وفروبل ، كان ليبرالية ملونة بفردية ذات منحى فوضوي ، لم يكن يريد ان يحدها باكثر من عاطفة تضامن انساني غامضة (٥) .

---

(١) انظر تقرير الشرطة عن اقامة هرفغ في باريس . ارشيف الدولة السري ، وثائق وزارة الداخلية ، من جمعيات الحرفيين الثورية (١٨٤١ – ١٨٤٣) . « في هذه اللحظة ، هرفغ ، شاعر « قصائد رجل حي » ، هو هنا ، يعاشر كثيرا فندي Veneday احد مؤسسي « رابطة المنفيين ») ، وعلى ما يبدو سيمكث هنا بعض الوقت » .

(٢) انظر ف. فاوري : « الشاعر هرفغ (١٨١٧ – ١٨٧٥) » ، باريس ، ص ١٢٦ .

(٣) انظر مراسلات ج. هرفغ ، نشر مارسيل هرفغ ، طبعة ثانية ، مونيخ ١٨٩٨ ، ص ٣٢٨ . « كارل ماركس كان ذا هيئة معبرة وعينين داكنتين غير كبيرتين ولكنهما متوقدتان ذكاء ... شعره الاسود الغزير يظلل جبهته . باستطاعته ان يجسد تماما آخر السكولاستيين . ولقد كان هذا الشغيل الذي لا يتعب والبالغ العلم يعرف العالم في النظرية اكثر منه بالممارسة . كان واعيا تماما قيمته ... والسخرية التي كان يسلطها على خصومه كان لها برودة وحدة فاس جلاد » .

(٤) انظر ف. فاوري ، المرجع المذكور ، ص ٣٤١ . رسالة من فويرباخ الى كريغ ، ١٨٤٥ : « اشعر عنده (عند هرفغ) نفسا قريبة . انه في الصميم حر ، جدي ومرح . شيوعي مثالي في الجوهر وليس في الشكل . لا شيء عنده من الشيوعي المحترف ، الارثوذوكسي ، المذهبي ، المتصلب . كل شيء نبيل ، لا شيء مبتذل في شيوعيته اذ لسوء الحظ ! ان فوارق الطبيعة الانسانية تتظاهر هنا كما في اي مجال ». انظر فاوري ، مؤلفات ج. هرفغ الصادرة بعد وفاته ، سانت – اتيان ، ص ٨٦ . دفتر ملاحظات ل ١٨٤٢ – ١٨٤٣ : « اني اكره الملوك والرعاع . في الاثنين ، الانسان ملغى بشكلين » ، ص ٨٧ : « اني اكره المطلق ، شيوعية او ملكية ، مرتديا كاسكيتا او قبعة » .

(٥) انظر فاوري ، مؤلفات .... ، دفتر ملاحظات لعام ١٨٤٤ ، ص ٨٧ – ٨٨ : « كنت اريد ان اكون حرا وحدي ، ولكن هذا مستحيل . الحرية لا توجد الا في التضامن . ان يكون الانسان حرا معناه حتى هنا أن يحرر ... تضامن في الحرية . لا استطيع ان اكون حرا بدونكم ، ولكن ليس لكم الحق ، اذا كان يرضيكم ان تصيروا كلابا ، ان تجعلوا مني كلبا . لذلك اريد تدميركم ، وهذا حق الفردية .... الحرية غير موجودة في اي حزب . لذا علي لكي اجدها ان ارتفع فوق حزبي . اريد ان احمي مستقبلي وان لا ادفن نفسي في حزب » .

بعد دفاعه عنه ضد حكم روجه القاسي ، بات ماركس يلاحظ ان روجه لم يكن مخطئا تماما في تقديره ، اذ كان هرفغ ينجر ويستسلم لحياة « المجتمع » الباريسي ويتحول عن النضال السياسي (١) .

في الوقت الذي كان فيه يفقد قوته الثورية ، كانت عبقريته الشعرية تنحدر ولن يسترجع النبرات الغنائية التي كانت قد جعلت منه منشد الشبيبة التقدمية الالمانية (٢) .

وكان ماركس في تلك الآونة يبتعد ايضا عن كارل هاينتسن Heinzen ، وهو مساهم سابق في **الصحيفة الراينية** أصبح مثل روجه وهرفغ خصما للشيوعية (٣) .

ماركس و هـ. هاينه

بالمقابل ان علاقات ماركس مع هـ. هاينه H. Heine ازدادت وثوقا وصداقة . بخلاف هرفغ الذي كانت عبقريته الشعرية في أفول ، كان هاينه يؤلف آنذاك أجمل قصائده الهجائية في باريس ، حيث كان قد اغترب بعد ثورة ١٨٣٠

---

(١) انظر روجه ، مراسلات ، ج١ ، ص ٣٦٣ . رسالة الى شتار ، باريس ١٨٤٤/٧/١١ : « هرفغ الذي يدرك الان ان شاعريته قد عجزت عن توليد الحماس للحرية في المانيا ، يدع نفسه للامبالاة الاشد كآبة . يسهر ويعربد كسيد كبير ويلاحق سيدات عجائز . ليس بوسعه ان يخلق شيئا بعد الان . الاضطرابات الشيوعية في سيليزيا كان من المفروض ان تلهمه ، ولكنه هنا ترك هاينه Heine يسبقه » . انظر المرجع نفسه ص ٤٥١ . رسالة من روجه الى فلايش ١٨٤٤/٥/٢٠ : « هرفغ ليس فيلسوفا . انه يدور مثل الهواء . انه ضجر الى ما لا نهاية وفاقد تماما قوة الارادة » .

(٢) انظر ف. مهرنغ F. Mehring : مساهمة في تاريخ الادب الالماني ، برلين ١٩٤٨ ، ص ١٣٥ . في ١٨٤٧ ، كتب هاينه بصدد هرفغ : « كان له بعض الموهبة الشعرية وقد استطاع ان يثمرها جيدا . وهو الان فقير وفارغ مثل مبذر في نهاية شوطه . سيكون عليه بعد الان ان يسكت وان يعيش من مجده الماضي . »

لم يكن هذا صحيحا ، اذ ان هرفغ ، رغم كونه لن يعود الشاعر الثوري الذي كان ، سوف يشترك اشتراكا نشيطا في ثورة ١٨٤٨ وفي تشكيل الحركة الاشتراكية في المانيا في الستينات .

(٣) كارل هاينتسن (١٨٠٩ – ١٨٨٠) ، مستخدم بين ١٨٤٠ و ١٨٤٣ في شركة سكك حديد الراين في مدينة كولن ، اصبح في ١٨٤٢ مساهما نشيطا في الصحيفة الراينية وفي صحيفة لايبتسيغ العامة . من شباط الى آب ١٨٤٤ كان مستخدما في شركة تامين ضد الحريق وقد نشر كتابا بعنوان البروقراطية البروسية ، انتقدها فيه بعنف . صودر الكتاب ولوحق صاحبه . هربا من السجن ذهب الى باجيكا حيث اصدر كتابا جديدا بعنوان أمر استبدادي ، طبع سكاربك ١٨٤٤ ، شجب فيه معا ادارة وعدالة بروسيا . بعد أن عقد في البداية علاقات ودية مع ماركس ، صار واحدا من الد أعدائه . انظر ميغا ١ ، ح١ ، ص ٣٢١ – ٣٢٢ . رسالة من هاينتسن الى ك. ماركس ، مدينة آخن Aix - la - Chapelle ١٦ شباط ١٨٤٤ . في هذه الرسالة ، عرض وديا على ماركس مساهمته في الحوليات الفرنسية – الالمانية .

تفاديا لضربات الرجعية (١) . تحت تأثير الحركة السان ـ سيمونية (٢) ، كان على الفـور قد اهتم بالمسألة الاجتماعية التي كانت تبدو له أولية أكثر من اهتمامـه بالمسائل السياسية (٣) .

بعكس بورن Boerne الذي كان يفكر ان الشعب سيتجحرر بسقوط الملوك واقامة الجمهورية ، كان هاينه يعتبر ان تحرر الشعب مسألة ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية بشكل جوهري ولا يمكن ان تجد حلها الا بتحويل عميق للمجتمع (٤) .

بعد أن شاطر في البداية مفاهيم السان سيمونيين الذين كانوا يرون في تطـور

---

(١) رسائل هاينه ، نشر ف. هيرث ، مونيخ وبرلين ، ١٩١٧ ، ج٢ ، ص ٣٩ . رسالة من هاينـه الـى فارنهاغن فون انسه ، ١٦ ـ ٧ ـ ١٨٣٣ : « كان لي ان اختار بين القاء السلاح والقتال مـدى حياتي . لقد اخترت الطريق الثاني ولم افعل ذلك بقلب خفيف . لئن حملت السلاح ، فلانني اجبرت على ذلك من قبل احتقار الذين تعميهم روح الطبقة ـ الطائفة . كل اتجاه حياتي كان مقررا من قبـل مهدي » .

(٢) كـان هاينه قبل ذهابه الى باريس قد اعتنق السان سيمونية التي كان يقرا لسان حالهـا le Globe (الكوكب) . (انظر الرسائل ، ج١ ، ص ٥٤٠ . رسالة الى موزس موزر ، بوستدام ٢٢ نيسان ١٨٢٩) . عاشر في باريس محرري هذه الجريدة وظل حتى نهاية حياته على صلات مع زعيمي الحركة ، ميشيل شفاليه Chevalier وبروسبر انفانتن Enfantin ، والى هذا الاخير اهـدى كتابه من المانيا .

(٣) انظر هـ. هاينه، الاعمال الكاملة، طبع ا. الستر ، لايبتسيغ وفينا ، ١٨٩٠ ، ج٣ ص ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ . رحلة من مونيخ الى جنوه (١٨٣٠) : « ما هي المهمة الكبرى لعصرنا ؟... انهـا تحرير العالم كافة ، ولاسيما اوروبا ، التي اذ بلغت سن الرشد تتحرر الان من وصاية الامتيازات، من الارستقراطية. بعض الفلاسفة يتنكرون للحرية ويحاولون ان يصنعوا الحجج الاكثر دقة ليبينوا لنا ان الوف البشر لم يخلقوا الا كي يكونوا دابات لبضعة الوف من الفرسان المتازين ، لن ينجحوا في اقناعنا طالما لن ينجحوا كما يقول فولتير في برهان ان البعض ولدوا مع السرج على ظهرهم والاخرين مع المهماز في قدمهم ... كانت الثورة اشارة تحرر الانسانية ... نحن ايضا نريد ان نعيش ونموت في دين الحرية هذا . »

(٤) انظر الرسائل ، برلين ١٩٠٦ ، ج٢ ، ص ٣٦ . رسالة هاينه الى هـ. لاوبه ، ١٠ تموز ١٨٣٣. « هـذه المسائل (المسائل الجوهرية للثورة) لا تتصل لا باشكال الحكومة ولا بالاشخاص ولا باقامـة الجمهورية او بالحد من سلطات الملكية ، بل تخص الرفاه المادي للشعب . الدين الروحاني كان شافيـا وضروريـا ، طالما كانت غالبية البشر الساحقة تعيش في البؤس ولم يكن لها من عزاء سوى الديـن السماوي . ولكن منذ ان اتاح تقدم الصناعة والاقتصاد انتزاع البشر من البؤس ، منذ هذا الحين... تفهمونـي . والناس سيفهموننا ، حين سنقول لهم انه من الان سياكلون لحم البقر بدلا من البطاطـا وسيعملون اقل ويرقصون اكثر . صدقوني ، البشر ليسوا حميرا . »

انظر المرجع نفسه ، ص ٦١ . رسالة من هاينه الى هـ. لاوبه ، مدينة بولوني ـ على ـ البحر ، ٢٣ ـ ١١ ـ ١٨٣٥ : « يجب اقامة تمييز واضح دقيق بين المسائل السياسية والمسائل الاجتماعية . في المسائل السياسية ، يمكن اجراء كل التنازلات التي نريد ، اذ ان الاشكال السياسية للدولة والحكومة ليسـت الا وسائل ، ملكية او جمهورية ، دستور ديمقراطي او ارستقراطي ، هي امور في ذاتهـا لا مبالية ، ما دام الكفاح من اجل المبادىء الحيوية ، من اجل مبدا الحياة ذاته لم يحسم . »

الصناعة الوسيلة الوحيدة لتأمين رفاه الشعب ويعتبرون العمال والصناعيين جماعة متجانسة توحدها مصالح واحدة ويهملون الصراعات الطبقية المتولدة من النظـام الرأسمالي ، كان قد وصل بسرعة الى فكرة دور صراعات الطبقات المقرر في تطـور التاريـخ وكان يرى في الاشتراكيين أولا ثم في الشيوعيين أبطال الازمنة الحديثـة المكلفين بتحرير البشرية (١) .

كـان ذلك احدى الموضوعات الرئيسية في المقالات التي كان يرسلها الـى **الصحيفـة العامة** في آوغسبورغ ، والتي كان فيها يؤكد الدور التاريخي الـذي ستلعبه الطبقة العاملة قريبا (٢) .

رغم اقتناعه بحتمية ثورة اجتماعية وبالنصر النهائي للشيوعية ، لم يكن هاينه قادرا على حماية نفسه من بعض النفور ازاءها . هذا الشعور كان مرده الى مزاجه الارستقراطي (٣) والى الخوف الذي تولده فيه سيطرة الشعب التـي تعني بالنسبة

---

(١) انظر هـ. هاينه ، الاعمال الكاملة ، لوتيس ، باريس ١٨٥٥ ، ص‌ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ . « نعـم ، بيـار لورو Pierre Leroux فقير ، كما كان سان سيمـون وفوريه ، والفقر السماوي لهـؤلاء الاشتراكيين الكبار قد اغنى العالم بكنز من افكار تفتح لنا آفاقا جديدة من المتعة والسعادة » .

(٢) نفس المرجع ، لوتيس ، المقدمة ، ص‌ص ١١ و ١٢ . « لئن كان الجمهوريون يقدمون لمراسـل صحيفـة آوغسبورغ موضوعا شائكا جدا ، فقـد كان الامر كذلـك بدرجة اعلى بكثير فيما يتصـل بالاشتراكيين و ، لندع الغول باسمه الحقيقي ، فيما يتصل بالشيوعيين . ومع ذلك فقد نجحت فـي طرق هذا الموضوع في صحيفة آوغسبورغ . ولقد حذفت رسائل عديدة من قبل الصحيفة التي كانـت تتذكر الحكمة القديمة : « لا يجب رسم الشيطان على الحائط » . ولكن لم يكن بوسعها ان تخنق كل رسائلي ، و ، كما قلت ، وجدت وسيلة مكنتني من ان اعالج في اعمدتها الحذرة موضوعا كانت اهميته المرعبة مجهولة تماما في ذلك العهد : رسمت الشيطان على حائط جريدتي و ... جعلت له دعاية جيدة. الشيوعيون المنتشرون بشكل منفرد في كل الاقطار والمحرومون من وعي واضح لاتجاهاتهم المشتركـة ، تعلموا بواسطة صحيفة آوغسبورغ انهم موجودون فعلا وعرفوا ايضا بهذه المناسبة اسمهم الحقيقي ، الذي كان مجهولا تماما من قبل اكثر من واحد من أولاد المجتمع القديم اللقطاء المساكين . بفضل صحيفة آوغسبورغ ، نالت كومونات الشيوعيين المشتتة اخبارا صحيحة عن تقدم قضيتهم الدائـم ، وتعلموا بدهشة كبيرة انهم ليسوا باي حال جماعة صغيرة ضعيفة ، بل هم اقوى الاحزاب جميعا ، ان يومهم اجل لم يات بعد ولكن انتظارا هادئا ليس بضياع وقت بالنسبة لرجال يملكون المستقبل » .

(٣) انظر أحاديث مع هاينه ، نشر هوبن ، بوتسدام ١٩٤٨ ، ص ٤٦٥ . ذكريات آلكس فايـل Alex weill . « كنت ـ يقول هاينه ـ جمهوريا صادقا . ولكن حين رايت زبد حزبي ، من حذائين ورجـال يصلحون في اقصى احتمال لاصلاح اواني التبول ، يمشون فوق قدمي باحذيتهم الموحلـة ، يخاطبونني بلا كلفة ، يدعونني خائنا ويهوديا ، يحكمون علي بلا استئناف مع انتظار لحظة جري الـى المقصلة ، اذا ما آل الحكم يوما الى هؤلاء المعتوهين ، حين رايت معشر الضفادع هذه تقفز مـن وراء سياجاتهـا ومستنقعاتها لتكون صدى لذكورها وليعلن الجميع ان نقيقهم الجمهوري اثمن من غنائـي البلبلي وسيعيش اكثر ، تحولت عنهم مستقفلا واقتربت من الملكية الدستورية التي تكفيني تماما » .

له نهاية أعز شيء عنده ، نهاية الجمال والفن (١) . هذا يفسر كونه ، في بداية اقامته في باريس ، جانب في كثير أو قليل الحركة السياسية والاجتماعية وانضم ظاهرا الى ملكية لوي ــ فيليب الدستورية التي لن تلبث بالحقيقة ان تبدو له شكلا من احط أشكال السيطرة الطبقية (٢) . رغم نفوره ازاء الديمقراطيين والشيوعيين فقد كان يسهم اسهاما كبيرا بمقالاته في تطور الفكر والحركة الثوريين . بعدما بين في كتابه عن فرنسا (١٨٣٢) ان عهدا من الثورات الاجتماعية سيعقب الان عهد الثورات السياسية ، كان يلح وكان أول من الح ، في مؤلفه **مساهمة في تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا** ، على المغزى السياسي العميق للفلسفة المثالية الالمانية ، التي كان يرى فيها الانعكاس الايديولوجي للحركة الثورية الفرنسية (٣) . كان أيضا يلفت الانتباه الى الشارتية ، التي كان يعتبرها حركة اجتماعية أبعد مدى من الثورة الفرنسية .

بعد منع كتبه في بروسيا عام ١٨٤١ ، اشترك هاينه اشتراكا مباشرا أكثر ونشيطا أكثر في النضالات السياسية والاجتماعية . هذا الاجراء حفز حماسته الكفاحية فكتب بعد قليل الى ناشره كامبه في هامبورغ أنه بات مصمما على خوض

(١) انظر هـ. هاينه ، مقدمة لوتيس ، مرجع مذكور ، ص ١٢ . « هذا الاعتراف بان المستقبل ملك للشيوعيين ، فعلته بتخوف وقلق شديدين ... اذ انني لا افكر ، الا بكره ورعب ، بالعهد الذي سيستولي فيه محطمو الصور القاتمون هؤلاء على السلطة ، بايديهم الخشنة سيحطمون بلا رحمة كل تماثيل الجمال العزيزة على قلبي ، سيكسرون كل هذه الدمى والزخارف ، منتوجات الفن الغريبة ، التي كان الشاعر يحبها حبا جما ، سيدمرون خمائلي من اشجار الغار ويزرعون محلها البطاطا ... واحسرتاه ! ان مؤلفي « كتاب الأغاني » سيستخدمه السمان فيصنع منه اكياسا يسكب فيها البن وتبغ المضغ لعجائز المستقبل . واحسرتاه ، أرى كل ذلك وينتابني حزن لا يوصف حين افكر في الخراب الذي به تهدد البروليتاريا المنتصرة أبياتي التي ستهلك مع كل العالم القديم الرومانسي . ومع ذلك ، فاني بصدق اعترف بان هذه الشيوعية نفسها المعادية بهذه الدرجة لكل مصالحي وميولي تمارس على نفسي سحرا لا استطيع مقاومته » .

(٢) انظر ف. مهرنغ : مساهمة في تاريخ الادب ، برلين ، ١٩٤٨ ، ص ١٧٢ . « بما انه (هاينه) كان يكره من أعماق نفسه الملكية القديمة ، حيث يهيمن ملاك الاراضي والخوارنة ، وبما انه كان يكره ايضا الجمهورية بسبب هيمنة الجمهور التي كان يخشاها ، لذا كانت الملكية الدستورية هي شكل الدولة الذي يفترض منطقيا أن ينال تفضيله ، ولكنه كان نافذ البصيرة لدرجة لا يستطيع معها الا ان يتعرف فيها على احد احقر اشكال السيطرة الطبقية » . انظر ايضا ، ب. رايمان ، التيارات الرئيسية في الادب الالماني ، برلين ١٩٥٦ ، ص ٦٩٩ .

(٣) انظر انجلز : ل. فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، مختارات ماركس وانجلز ، برلين ١٩٥٨ ، ج٢ ، ص ٣٣٥ . « وراء هؤلاء الاساتذة بمفرداتهم الغامضة والمدعية وعباراتهم الثقيلة والمملة كان على الثورة ان تختبىء ؟ الاشخاص الذين كانوا آنذاك يعتبرون ممثلين للثورة الم يكونوا بالعكس هم الليبراليون ، اي اعنف خصوم تلك الفلسفة التي كانت لا تبدو صالحة الا لبلبلة العقول ؟ ولكن ما لم يره لا الحكومات ولا الليبراليون ، رآه رجل على الاقل ، منذ عام ١٨٣٠ . صحيح « ان اسمه كان هاينريش هاينه » .

نضال لا هوادة فيه ضد الحكومة البروسية (١) . كما كتب بعد وقت قليل الى ه. لاوبه أن اللحظة قد جاءت للمشاركة بنشاط في الكفاح الذي تخوضه **حوليات** روجه و**الصحيفة الراينية** (٢) .

كانت حالته الذهنية الثورية تجد تعبيرها في قصيدة بعنوان «رحلة في البحر» (١ ـ ٦ ـ ١٨٤٣) أعلن فيها قراره بالاشتراك في النضال مع رفاق جدد (٣) . هؤلاء كانوا مؤسسي **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، روجه وخصوصا هس Hess و ماركس ، وقد انضم اليهم عند رجوعه من رحلة الى هامبورغ في ديسمبر ١٨٤٣ (٤) . ماركس وروجه ـ اللذان كانا الان ، بعد ان نقداه بقسوة ، يقدران روحه الثورية (٥) ـ ناشداه ان يستخدم عبقريته الشعرية ليجلد الرجعية بلا رحمة (٦) .

---

(١) انظر هاينه : الوسائل ، ص ٣٩١ . رسالة هاينه الى كامبه ، ٢٨ ـ ٢ ـ ١٨٤٢ : « افكر انه يجب الدخول في نضال مكشوف ضد بروسيا . لا نصل الى شيء باظهار انفسنا متساهلين » .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٩٥ . رسالة هاينه الى لاوبه ، ٧ ـ ١١ ـ ١٨٤٢ : « يجب ان لا نلعب دور مذاهبة بروسيين ، بل علينا بالعكس ان نوفق عملنا مع عمل حوليات مدينة هاله و الصحيفة الراينية ، لا يجب في أي مكان أن نخفي تعاطفاتنا السياسية وعداءاتنا الاجتماعية ، علينا ان نفضح الشر بلا رحمة وان ندافع عن الخير بحزم » .

(٣) المرجع الآنف ، الاعمال الكاملة ، ح١ ، ص ٣٠٨ .

رحلة بحرية

ضحك وغناء ! اضواء الشمس ترقص وتشع . الامواج تهز الزورق الفرح .
كنت فيه ، ونفسي خفيفة ، مع أصدقاء عزيزين .
الزورق تحطم الى الف قطعة . أصدقائي ، سباحون سيئون ، غرقوا في الوطن ، بينما العاصفة قذفتني على ضفاف نهر السين Seine .
ركبت زورقا جديدا مع رفاق جدد ، الامواج الغريبة تحملني هنا وهناك ، كم وطني بعيد وكم قلبي ثقيل !
ولكن يعود الغناء والضحك . الريح تصفر ، المتراس يطقطق .
في السماء ينطفيء النجم الاخير . كم ثقيل قلبي وكم بعيد وطني !

(٤) عن هذه الحقبة في حياة هاينه ، انظر ه. كاوفمان : المانيا ، حكاية لفصل الشتاء ، اطروحة دوكتوراه ، برلين، ١٩٥٦ .

(٥) انظر آ. روجه ، مراسلاته ، ح١ ، ص ٣٥١ . رسالة روجه الى شقيقه ل. روجه ، باريس ٢٨ ـ ٨ ـ ١٨٤٣ : « البارحة تحدثت ايضا مع هاينه . لا تستطيع ان تصدق كم ان هذا الثعلب ذو افكار راديكالية في جلساته الخاصة ، مثل شيلنغ Schelling في كارلسباد » .

(٦) المرجع الآنف ، ح٢ ، ص ٣٤٦ . رسالة روجه الى كاب ، ١٨ ـ ٢ ـ ١٨٧٠ : « هذا التوجه (نحو الهجاء السياسي) مرده ماركس وانا . فقد قلنا له : « دعك من شكاوى الغرام الابدية واظهر للشعراء الهجائيين طريقة العمل الصحيحة بالكرباج » . ايضا ح١ ، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ . رسالة روجه الى زوجته ، باريس ١١ ـ ٩ ـ ١٨٤٣ : « يجب الاعتراف بان حملات هاينه على وضع المانيا السياسي البائس افضل من حملاته على الحب والشعر والدين . انا الذي شجعته على زراعة هذا اللون » .

هذا ما فعله و ، اذ وعى الاتجاه الجديد الذي جلبه تحول مفاهيمه السياسية والاجتماعية لنشاطه الادبي ، فقد كتب في ٢٠ ـ ٢ ـ ١٨٤٤ الى ناشره كامبه يقول له ان أشعاره ستأخذ الان طابعا سياسيا موسوما أكثر (١) . هذا الطابع ظهر أولا بأول في هجاء رشيق للملك الرومانطيقي والرجعي لودفيغ بافاريا ، نشر في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، وفي **القصائد الراهنة** و **القصائد الجديدة** . هذا التوجه الجديد لفكره ولنشاطه الادبي تجلى أيضا بواقع أن نقده بات يتخذ الان طابعا اجتماعيا ، موسوما بشكل خاص في القصيدة الشهيرة « عمال نسيج سيليزيا » المنشورة في جريدة **الى الامام** . كان يمجد في انتفاضة عمال النسيج لا حركة عمال جياع بل التظاهرة الثورية الاولى للبروليتاريا الالمانية ، التي كان يترجم بشكل رائع عن روحها التمردية بالاضافة الى بؤسها الشديد (٢) .

---

(١) انظر هـ. هاينه ، رسائله ، حـ٢ ، ص ٤٧٤ .

(٢) عمال النسيج الفقراء .

(الى الامام ، ١٠ ـ ٧ ـ ١٨٤٤) .

لا دموع في عيونهم القاتمة .
جالسين امام انوالهم يصرون اسنانهم .
يا المانيا العجوز ، ننسج كفنك .
ننسج فيه لعنة مثلثة .
ننسج ، ننسج !
لعنة للاله الاعمى والاصم .
الذي توسلنا اليه بايمان طفل .
عبثا انتظرنا ورجونا ..
لعب بنا ، ضحك علينا .
ننسج ، ننسج !
لعنة للملك ، لملك الاغنياء
الذي لم يستطع بؤسنا أن يلينه ،
الذي انتزع منا اخر قرش لنا ،
ويجعلنا الان نرمى بالرصاص كالكلاب .
ننسج ، ننسج !
لعنة للوطن الباطل ،
حيث لا يزدهر سوى الكذب والعار ،
والذي يرسل رائحة تفسخ .
يا المانيا العجوز ، ننسج كفنك .
ننسج ، ننسج !

هذا الطابع الجديد لشعره كان يظهر أيضا في أهجوته السياسية والاجتماعية الكبيرة : **المانيا ، حكاية لفصل الشتاء** . وقد كتب فرانتس مهرنغ يقول : « ان هذا المؤلف هو أجرأ قصيد كتبه هاينه ، قصيد يفيض روحا هجائية وخماسية . تلك رقصة لهب تلتهم عالما لتولد من رماده عالما جديدا . بلا انقطاع ستدوي في كفاح البروليتاريا هذه الابيات الظافرة : « يا أصدقاء أريد أن أغني أغنية جديدة ، اغنية افضل . نريد ان نقيم هنا على الارض المملكة السماوية . نريد أن نكون سعداء في هذه الدنيا وأن لا نقاسي البؤس بعد الان ، لا نريد ان نرى بعد الان بطونا كسولة تلتهم منتوج أيد كدودة . في هذه الدنيا ينبت ما يكفي من الخبز لكل رجال الارض وأيضا ورود ورند وجمال ولذة ولم نذكر القضامة الملبسة . نعم ، حمّص محلّى للجميع ، حين ستنفلق القرون ، والسماء سنتركها للملائكة والعصافير (١) . »

وقد تراخت العلاقات بين هاينه وروجه عندما توجه هذا الاخير ، بعد قطيعته مع ماركس ، أكثر فأكثر نحو ليبرالية غامضة مصبوغة باللاسامية .

وبالمقابل فان علاقاته مع ماركس ازدادت ودا ووثوقا . كان ماركس ، مثل انجلز (٢) ، شديد الاعجاب بهاينه وقد سبق ان دافع عنه ضد الحملات التي تعرض لها اثر كتابه عن بورن Boerne . كان ينظر الى عيوبه نظرة غفران ، فقد كان يقدر انه لا يجب أن نطبق على الشعراء نفس المعيار الذي نطبقه على البشر الاخرين . كان يثمن عند هاينه ليس فقط عبقريته الشعرية بل أيضا حدسه العميق الذي كان قد سمح له بأن يميز الطابع الثوري للفلسفة الالمانية والدور الحاسم للنضالات الاجتماعية في التاريخ المعاصر ، وكذلك الكفاح الباسل الذي كان يخوضه في سبيل التحرر الانساني . هاينه ، من جهته ، الذي كان قد اعترف بكل الاهمية التاريخية

(١) انظر ف. مهرنغ ، مؤلفات صادرة بعد وفاته ، ح٢ ، ص ١٨ . انظر ايضا الى الامام ، ١٩ ـ ١٠ ـ ١٨٤٤ « قصائد هاينه الجديدة » . « تحت عنوان المانيا . حكاية شتاء ، اصدر هاينه عند هوفمان وكامبه مجلدا صغيرا من قصائد هي بلا جدال عمل من افضل أعمال هذا الشاعر المليء ذكاء كما هو مليء عاطفة . لقد انتزعته قوة الافكار الجديدة من غفوته ، فدخل كامل السلاح في الحلبة رافعا راية جديدة ومضى الى الامام كطبال جسور يدق نداء الاجتماع » .

(٢) انجلز الذي كان بادىء بدء قد ادان كتاب هاينه عن بورن واعتبره مرتدا جاحدا (انظر ميغا ، ١ ، ح٢ ، ص ٥٣٥ . رسالة الى ف. غريبر ، ٣٠ ـ ٧ ـ ١٨٣٩) كان بعد ذلك قد عدل رايه تماما . وقد كتب بتاريخ ٥ ـ ١٠ ـ ١٨٤٤ في جريدة العالم الاخلاقي الجديد (الانكليزية) يقول : « اصدر هنري هاينه ، اعظم الشعراء الالمان الاحياء حاليا ، مجلدا من قصائد سياسية ، بعضها يمتدح الاشتراكية . انه مؤلف « نشيد عمال نسيج سيليزيا » الشهير ، الذي انوي اعطاء ترجمة عنه » . انظر ميغا ، ١ ، ح٤ ، ص ٣٤١ .

للشيوعية (١) ، كان يتعلم الان على معرفة أهدافها وقادتها معرفة أقرب وذلك بمعاشرته لماركس . كان يعجب في ماركس بالقائد الثوري الحق الذي يوحد عمق التفكير مع طاقة لا تلين وبه كان يفكر ، لا شك ، حين سيصف القادة الشيوعيين بأنهم رجال عازمون يتحلون بفهم واضح وارادة حديدية (٢) .

هاينه ، الذي كان آنئذ في ذروة انتاجه الشعري ، رغم كونه بدأ يتأثر بالمرض المرعب الذي سيودي به ، كان يتردد كثيرا على ماركس حيث كان دوما يستقبل كضيف يرحب به . واذ كان يقدر عند ماركس ليس فقط المفكر بل أيضا الكاتب ، فقد كان يعرض طوعا قصائده لنقده ونقد زوجته التي كان معجبا بروحها النافذة والمرهفة (٣) . وصار هكذا العديد من القصائد ثمرة تعاون ودي ، لم يكن مع ذلك بالغ السهولة دوما نظرا لحساسية الشاعر الزائدة (٤) .

---

(١) انظر هـ. هاينه ، لوتيس ، ص ٣٦٦ – ٣٦٧ . صحيفة آوغسبورغ العامة ، رسالة بتاريخ ٢٥ حزيران ١٨٤٣ (نص فرنسي) : « اتحدث من جديد عن الشيوعيين وهم الحزب الوحيد في فرنسا الذي يستحق انتباها لا يفتر . يمكن ان اطالب بنفس الانتباه لبقايا الحركة السان سيمونية ، فمعتنقوها لا يزالون احياء تحت لافتات غريبة في كثير او قليل ، وكذلك للفوريريين Fouriéristes الذين لا يتحركون بنشاط ، ولكن هؤلاء الرجال المحترمين يجرهم فقط الكلام ، المسالة الاجتماعية من حيث هي مسالة ، الفكرة ، ليسوا محركين من قبل ضرورة سماوية ، ليسوا الادوات المقدرة التي تستخدمها ارادة الكون العليا لتنفيذ احكامها . عاجلا او آجلا ستنتقل عائلة السان سيمونيين المشتتة وكل اركان حرب الفوريريين الى جيش الشيوعية المتنامي على الدوام وباعارتهم للحاجة الفظة الكلام الذي يعطي الشكل سيتكفلون نوعا ما بدور آباء الكنيسة » .

انظر هـ. هاينه ، ص ٢٥٨ ، صحيفة آوغسبورغ العامة ، رسالة ٢٠ حزيران ١٨٤٢ . « شيوعية ، ذلك هو الاسم السري لهذا الخصم الجبار الذي يعارض عهد البرجوازية بعهد البروليتاريين مع كل نتائجه . بالنسبة لنا ، نحن نعلم فقط ان الشيوعية ، رغم كونها ليست موضع نقاش كثير في الوقت الحاضر ، هي البطل القاتم الذي اليه يعود دور رئيسي وان كان دورا وقتيا في التراجيديا الحديثة والذي لا ينتظر سوى الجواب لكي يدخل على المسرح » .

(٢) انظر المرجع نفسه ، المؤلفات الكاملة ، جـ٦ ، ص ٥٥٣ ، الاعترافات . « ان الزعماء السريين كثيرا او قليلا للشيوعيين الالمان هم مناطقة كبار تخرج اقواهم من المدرسة الهيغلية . انهم يمشاون على الارجح اقدر عقول واقوى ارادات في المانيا . هؤلاء الدكاترة في الثورة واتباعهم العازمون العنيدون هم الرجال الوحيدون في المانيا الذين يفيضون حياة وهم اصحاب المستقبل » .

(٣) انظر نويه تسايت (الازمنة الجديدة) ، السنة التاسعة ، حـ١ ، ص ٣٨ ، ايلول ١٨٩٠ . بول لافارغ ، ذكريات عن ماركس : « هاينه هذا الهجاء الذي لا يرحم كان يخشى سخرية ماركس ولكن كان يحمل اكبر اعجاب للروح النافذة والمرهفة لزوجة هذا الاخير » .

(٤) المرجع السابق ، السنة الرابعة عشر ، ج١ ، ص ١٦ – ١٧ ، تقويم عمالي نمسوي للعام ١٨٩٥ مدينة برون ، ذكريات اليونور ماركس – آفلنغ (ابنة ماركس) : « ثمة فترة كان فيها هاينه ياتي يوميا ليرى ماركس وزوجته وليقرأ عليهما ابياته وياخذ رايهما فيها . وكان باستطاعة ماركس وهاينه ان يراجعا الى ما لا نهاية قصيدة صغيرة من عشرة اسطر ، مع وزن كل كلمة ، مع تصحيح القصيدة وتهذيبها الى ان يكون كل شيء كاملا وان يكون كل اثر للشغل قد اختفى . كان الامر يقتضي صبرا كبيرا لان هاينه كان

احيانا بالعكس ، كان هاينه هو الذي ينجد الزوجين . هكذا في احد الايام وجدهما الشاعر يائسين أمام طفلتهما جني" التي لم تكن بلغت من العمر سوى شهور والتي كانت فريسة انتفاضات ، فنصح بمغطس حار ، هيأه بنفسه وغطس فيه الطفلة ، ولعله بذلك أنقذ حياتها (١) .

ان تأثير ماركس كان عميقا على هاينه ، في هذه السنة التي كانت احدى اخصب سنوات حياته الشعرية ، وهاينه مدين له جزئيا بتحفته السياسية « **المانيا . حكاية شتاء** » التي سعى ماركس بنشاط الى اطلاع الناس عليها والتي نشرت في الاعداد الاخيرة من **الى الامام** (٢) . كان هاينه قد توجه اليه لهذه الغاية ، عالما انه أفضل من يفهمه ويقدّره (٣) . في رسالته ، أفصح له عن سعادته بقضاء الشتاء معه . هذا الامل لن يتحقق الا جزئيا اذ في بداية شباط طرد ماركس من باريس . ليس بلا حسرة انفصل عن هاينه وقد كتب اليه : « من جميع الذين اغادرهم هنا ، أنت من أترك بأشد الحسرات . أحب لو أحملك معي في حقائبي (٤) » .

بعد ذهاب ماركس ، اصبح هاينه ، الذي كان مدينا له جزئيا بالازدهار الاخير لفكره وشعره ، اصبح مرة اخرى مشطورا بين يقينه في انتصار الشيوعية وخوفه من هذا الانتصار ، وفي الآلام الفظيعة التي كانت تجعل الآن من حياته درب الصلب والموت والتي كانت تدفعه الى البحث عن تهدئة في الرجوع الى الدين ، احتفظ الى النهاية بهذا المزيج الفريد من تخوف وانجذاب الذي كانت الشيوعية توحيه له .

←

ذا حساسية مرضية ازاء اي نقد . كان احيانا يصل عند ماركس وهو يبكي حرفيا لان كاتبا غامضا قد هاجمه في جريدة . لم يكن ماركس آنئذ يعرف شيئا افضل من توجيهه نحو زوجته التي كانت بذكائها ورقتها تعيد الشاعر اليائس الى العقل » .

(١) انظر الازمنة الجديدة ، السنة ١٤ ، ص ١٧ .

(٢) انظر رسالة من ماركس الى كامبه ، باريس ، ١٨٤٤/١٠/٧ : « اذا كان هاينه لا يزال في هامبورغ ، ارجوك ان تشكره على ارسال قصائده وان تقول له انني اذا لم اعرف عليها بعد فلانني اريد ان اعان في نفس الوقت عن القسم الاول ، الموشحات » .

(٣) انظر الرسائل ، ج٢ ، ص ٢١٣ . رسالة من هاينه الى ماركس ، هامبورغ ، ٢١ ايلول ١٨٤٤ : « عزيزي ماركس . كتابي طبع ولكنه لن يصدر الا بعد ١٠ او ١٥ يوما كي لا يسبب مباشرة فضيحة . ارسل اليك اليوم بروفات القسم السياسي ، حيث بشكل خاص قصيدتي الكبيرة ، وذلك لاهداف ثلاثة ، اولا لكي تتسلى ، ثم لكي تعرف على الكتاب في الصحافة الالمانية ، واخيرا لكي تسعى ، اذا ارتأيت ذلك ، الى نشر بداية القصيدة الجديدة في الى الامام ... الوداع ، يا صديقي العزيز ، اعذر خربشتي الفوضوية . لا استطيع ان اعيد قراءة ما كتبت ، ولكننا لا نحتاج لكثير من الاشارات لكي يفهم احدنا الاخر » .

(٤) انظر ارشيف غرونبرغ ، ج٩ ، ١٩٢ ، ص ١٣٢ . رسالة لـ. ماركس الى هاينه (على الارجح ١٨٤٥/٢/١) .

ماركس والاشتراكية « الحقة »

فويرباخ ـ م. هس ـ ك. غرون

رابطا اكثر فأكثر فكره وعمله بنضال البروليتاريا ، كان ماركس مساقا ليس فقط الى ان يقطع مع « المعتقين » والديمقراطيين البرجوازيين ، بل ايضا الى ان يلفظ كل الوان الاشتراكية والشيوعية الطوباويتين ، بدءا من الاشتراكية « الحقة » حتى شيوعية فايتلنغ .

في ذات اللحظة التي كان فيها ماركس يضع اسس المادية التاريخية ، كان عدد من الاشتراكيين الالمان يدخلون ، تحت دفع م. هس M. Hess ، في طريق الاشتراكية « الحقة » .

كان هس يستعير الامر الجوهري في مذهبه عن **فويرباخ** الذي لم يكن يتوصل الى تخطي المرحلة الفكرية التي كان قد بلغها في ١٨٤٣ مع **الاطروحات الموقتة لاصلاح الفلسفة ومبادىء فلسفة المستقبل** .

بعد رفضه الاسهام في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، تحت حجة انه يجب التقدم بفطنة أشد في طريق الدعوة الثورية التي ليست المانيا ، على حد تفكيره ، ناضجة لها بعد ، كان فكره قد دخل في فترة ركود (١) .

ان مشاركته النشيطة والخصبة في الحركة التقدمية كانت ، موقتا على الاقل ، منتهية . واذ ثابر على اقتناعه بأن الامر الجوهري من أجل تحرر البشر هو اعتاقهم من سيطرة الدين ، فقد كان يرى في الحركة الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية بشكل رئيسي وسيلة لتحقيق هذا التحرر (٢) ويعتبر ان مشاركته الاكثر جدوى في

---

(١) انظر فر. انجلز : لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية ، لايبتسيغ ص ٣١ .

(٢) انظر مراسلات ل. فويرباخ ، اصدار ك. غرون ، لايبتسيغ ١٨٧٤ ، جـ١ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ . رسالة من فويرباخ الى فر. كاب ، بروكبرغ ١٨٤٤/١٠/١٥ : « ان صورة الصانع الخياط فايتلنغ تؤلف تضادا ، مفرحا ومعزيا في آن ، مع كل التظاهرات المقرفة لانحلال دولنا . في هذا الصيف فقط تعلمت معرفة الشيوعية عن بعض القرب ، بين امور اخرى على يد مؤلف فايتلنغ « ضمانات التناسق والحرية ». كم ادهشتني ثقة وروح هذا الرفيق الخياط . انه بالحقيقة نبي طبقته . انا مدين بمعرفته لصاحب حرفة شاب مدرب على الشيوعية . كم لفت نظري ايضا روح الجد وعطش المعرفة عند هذا الحرفي الشاب . ماذا يمثل كل عقبالنا من الطلاب ازاء هذا الشجاع ! بالحقيقة سنرى قريبا ـ وهذا في اتجاه تطور البشرية وليس في اتجاه تطور الافراد ـ ، سنرى انقلابا ، حيث يصير الاسياد خدما والخدم اسيادا . هذا سيكون نتيجة الشيوعية لا ما تطمح اليه . ان اجيالا جديدة من اذهان جديدة ستولد ، كما فيما مضى، من حضن القبائل الجرمانية الفظة ، من الجمهور الاكثر خشونة ؛ ولكن الاكثر تعطشا للعلم . الا نرى من الان بدايات هذا التحول النظري والديني المحتوم ؟ بينما ينحط الملوك بان يصيروا منافقين واتقياء ، يرتفع الحرفيون الى الالحاد ، لا الى الالحاد القديم ، التافه والفارغ والريبي ، بل الى الالحاد الحديث، الايجابي ، الفاعل ، الديني » .

هذا العمل هي ان يتابع ويعمق نقده للدين .

بما انه كان يعتقد ان الافكار تمارس بالتربية والتعليم تأثيرا مقررا على التطور الانساني ، فقد ظل ماديا في تصوره العام للعالم ، ولكنه كان مثاليا في تصور تطور التاريخ .

هذا التصور المثالي الذي يفسر بموقفه المناهض للثورة الذي يقربه من روجه وهرفغ كان يطبع بشكل خاص مذهبه الاجتماعي ، انسانويته . هذه الانسية ستتحقق بطريق النقد الديني ، الذي سيعطي كل البشر وعي جوهرهم الحقيقي ، وعي الجماعة الانسانية والتضامن الذي يربط كل فرد بهذه الجماعة . أجل كانت توجد عنده بعض الملاحظات التي كان يمكن أن تؤلف مسودة مذهب اشتراكي ، مثلا الجمل ـ الحِكَم الآتية : «انما البؤس البشري هو الذي ينجب الله» (١) . « الكائن الالهي ليس سوى تعويض عن غياب الالهي في العالم وعند الانسان » (٢) . « الانسان يعوض الجوهر الانساني الذي ينقصه بكائن فكري مثالي » (٣) .

ولكن بما انه كان ينعزل اكثر فاكثر عن الحركة السياسية والاجتماعية ، لذا لم يكن يتوصل الى اخراج مذهب اجتماعي من هذه الملاحظات .

رغم كونه لم يستخلص هو نتائج عملية من هذه الجمل ـ الحكم ، فقد كانت فلسفته تقود الى الاشتراكية بالمطلب الذي تفترضه ، مطلب تحويل جذري للمجتمع يلغي التعارض بين الواقع اللاانساني للانسان وجوهره الحقيقي (٤) .

هذا يفسر كون شيوعية هِس مثل شيوعية ماركس امكنهما في اصلهما الانتساب الى انسية فويرباخ واستلهامها . بخلاف ماركس وأنجلز ، اللذين كانا ، بتوجههما نحو الشيوعية الثورية ، يبتعدان عن انسية فويرباخ ويصلان ، بلفظهما الطوباوية ، الى تصور الضرورة التاريخية للشيوعية ، كان هِس ، بتقهقر لفكره بالمقارنة مع مقاله عن « جوهر المال » الذي كان يمثل ذروة فكره ، يعزّز الطابع الطوباوي في مذهبه ، داخلا في طريق الاشتراكية « الحقة » المؤسسة مثل الانسية على تصور انسانية غير متميزة اجتماعيا ، مقيمة خارج التاريخ .

اذ فقد وظيفته كمراسل **ل صحيفة كولن** ووجد نفسه مقطوع الرزق ، اضطر هس الى مغادرة باريس وعاد في اوائل ١٨٤٤ الى كولن .

مفصولا عن ماركس وعن التأثير المباشر للشيوعيين الفرنسيين ، شدّد هس الطابع المثالي لمذهبه . بما انه لم يكن يلاحظ ان استبدال المجتمع البرجوازي

(١) انظر ل. فويرباخ ، الاعمال الكاملة ، جـ٢ ، ص ٣١٨ .
(٢) نفس المكان ، ص ٣١٥ .
(٣) نفس المكان ، ص ٣١٥ .
(٤) نفس الشيء ، ص ٣٥٨ .

بمجتمع شيوعي يقرره ويحدده تطور النظــام الرأسمالي ذاتــه ، فقد كان يسوّغ الشيوعية بمعارضته ، على طريقة الطوباويين ، المجتمع البرجوازي بتنظيم اجتماعي مثالي . هذا المثل الاعلى الاجتماعي ، كان لا يفتأ يــراه في التحقيق المتآني للحريــة والمساواة ، الذي يجعل من مذهبه مزيجا من فوضوية وشيوعية .

كان يعرض مفاهيمه في مقال طويل : « أسئلة واجوبة : الشغل واللذة . المــال والعبودية » ، نشر في **الى الامام** ٢١ و١٨٤٤/١٢/٢٨ . هذا المقال مثير للاهتمام بشكل خاص من حيث هو « رائد » **للبيان الشيوعي** الذي جرى تصوره في البداية ، كما هو معلوم ، على طريقة Catéchisme (موجز تعليــم مسيحي بالاسئلــة والاجوبة) ، كسلسلة من اسئلة واجوبة . في هذا المقال ، يذهب هس ، كمــا في « فلسفة العمــل action » ، من مبدأ ان التحرر الانساني يجب ان يكون له كموضوع ، كهدف ، فاعلية الانسان الحرة . هذه الفاعلية يجب ان تجمع في ذاتها ، كما يريــد فوريه ، الشغل واللذة ، اذ من هذا التوحيد وحده يمكن ان تولد للانسان حيــاة منسجمة . هــذا يشترط ، على حد قول هس ، أن يكون الشغل فاعلية حرة ، اذ هكذا فقط يمكن أن يكون متعة للانسان » (١) .

في المجتمع البرجوازي ، الفاعلية الحرة مستحيلة ، فما يحكم هنا هــو الشغل المفروض الذي يجعل الانسان عبدا والحياة الانسانية حياة بهيمية (٢) .

---

(١) الى الامام ، ١٨٤٤/١٢/٢١ ، ص ٣ وبعدها . م. هس : أسئلة واجوبة ـ الشغل واللــذة . « هذا الانسجام بين الشغل واللذة لا يحصل الا في اسلوب حياة عضوي ، في حياة منظمة ، وليس فــي حياة ليست كذلك » .

٢ ـ ما هي أنواع الشغل الموجودة ؟ ـ هناك الشغل المنظم والشغل الذي ليس كذلك ، بتعبير آخر هناك الفاعلية الحرة والشغل القسري ، الشغل الحر والشغل المفروض .

٣ ـ ما هي الفاعلية الحرة والشغل المفروض ؟ ـ الفاعلية الحرة هي كل ما هو ثمرة دافع داخلي ، الشغل المفروض هو بالعكس كل ما يعمل بالاجبار وبالضرورة . الشغل الذي هو نتاج دافع داخلي يؤلف لذة تزيد متعة الحياة ، فضيلة تحمل ثوابها في ذاتها . وبالعكس اذا كان الشغل حاصلا تحت حكم دافع خارجي ، فانه يؤلف عبئا يسحق ويذل الطبيعة الانسانية ، رذيلة تولدها شهوة الربح ، شغلا ماجورا ، شغل عبد » .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤ : « في مجتمعنا ليست الفاعلية نتاج دافــع داخلــي ، ثمرة لذة وحب الشغل ، بل نتاج دافع خارجي ، سببها بوجه عام الضرورة او شهوة المــال ... ان الافراط في ممارسة بعض الفاعليات المادية او الفكرية ، الافراط الذي لا يستجيب للطبيعة الانسانية الحقة والذي هو مثار لان هذه الاخيرة مسحوقة ، يجعل ان اية فاعلية للبشر تتخذ الان طابعا لا انسانيا وبهيميا .

في المجتمع الراهن هل من الممكن ان تنمى وان تبسط كل القــوى الانسانية وان تستخدم القــوى المبسوطة هكذا ؟ ولا باي شكل . فنحن معاقون ومعطلون في بسط وفي استخدام قدراتنا وقوانا على حــد سواء . لا يمكن ان يوجد في مجتمعنا لا تربية ولا تعليم عام ، لا تبادل ولا استعمال لقوانا . معظمها يبقى مجمدا وما يستخدم مضطهد بوجه عام » .

هذا النزع لانسانية الانسان في المجتمع البرجوازي هو ــ وهس يأخذ هنا مجددا الفكرة المركزية في مقاله عن جوهر المال ــ نتيجة جبروت المال الذي يرغم البشر على بيع شغلهم وحياتهم (١) . ان تسلط المال الذي يمثل سعر شراء أو قيمة تبادل الحياة الانسانية يولد تجارة عامة ومعها استغلالا واستعبادا كليا للبشر (٢) .

في المجتمع المؤسس على المال والمحكوم من قبله ، تكون منتوجات الطبيعة والشغل الانساني محتكرة من قبل لصوص ، الامر الذي يحول دون اعطاء كل فرد الحصة التي تعود اليه شرعا ويولد العسف والبؤس (٣) .

هذا المجتمع المؤسس على المال ، الذي يعتل" بكل العواقب المتولدة من سيطرة المال ، يجب ان يستبدل بنظام اجتماعي جديد ، فيه سيكون الشغل منظما والامكانية

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤ : « لماذا في مجتمعنا الراهن من غير الممكن بسط واستخدام قوانا الانسانية؟ لاننا نجعل بعضنا بعضا بالتبادل عبيداً وذلك بشراء وبيع انفسنا » .

(٢) م. هس : « اسئلة واجوبة ــ المال والعبودية » (الى الامام ، رقم ١٠٤ ، ١٨٤٤/١٢/٢٨ ، ص٣).

« ١ ــ ما هو المال ؟ ــ انه قيمة الفاعلية الانسانية معبرا عنها بارقام ، ثمن شراء او قيمة تبادل حياتنا .

٢ ــ فاعلية الانسان هل يمكن ان تقاس وان تقدر بأرقام ؟ ــ ان فاعلية الانسان ، شانها شان الانسان نفسه ، لا يمكن ان تشترى ، لانها تؤلف حياة الانسان عينها التي لا يمكن تقديرها بثمن ولا تعويضها بمبلغ من المال .

٣ ــ من هو الذي يمكن ان يباع او الذي يبيع نفسه لقاء مال ؟ ــ الذي يمكن بيعه هو عبد والذي يبيع نفسه له نفس عبد .

٤ ــ ماذا يجب ان نستنتج من وجود المال ؟ ــ يجب ان نستنتج وجود الرق ، لان المال عينه اشارة الرق » .

(٣) انظر م. هس ، « اسئلة واجوبة ــ الثروة والعبودية » ، الى الامام ، رقم ١٠٤ ، ٢٨ ــ ١٢ ــ ١٨٤٤ ، ص ٤ .

٦) من هو الذي يحتكر لنفسه منتوجات المجتمع والطبيعة ؟ انه اللص الذي ياخذ من المجتمع ما هو ملك المجتمع وما يجب ان يكون تحت تصرف المجتمع لصالح الجميع . انه قاتل بحكم كونه يحرم البشر الاخرين من وسائل عيشهم وعملهم وياخذ حياتهم أو حريتهم .

٨) هل المجتمع الراهن يضمن لكل فرد ما يحتاجه للحياة والشغل ؟ ليس مضمونا للافراد الا حيازة ما بامكانهم في بعض الشروط القانونية ان يكسبوه أو ان يتسارقوه فيما بينهم ، أي ما يكسبونه بخدمات عبد ، بالشغل الماجور ، أو بالارث ، الهبة ، الربا ، العاب القمار ، المضاربات ، المتاجرة او الغش .

١٢) ما هي الحرية ؟ ــ حر من ليس عليه ان يجبر طبيعته ، من يعيش ويفعل طبقا لها ويستطيع هكذا ان يخرج كينونته بحرية .

١٣) هل يستطيع الانسان في مجتمعنا ان يعيش وان يعمل طبقا لطبيعته ؟ ــ لا ، عليه ان يفرض عليها ضغطا وقسرا دائمين . تارة لا يستطيع اشباع رغبته في العلم ، تارة حسه الفني ، ميله الى الشغل ، جوعه ، عطشه ، حاجاته الفيزيائية الابتدائية .

معطاة لكل فرد بأن يبسط فاعليته بحرية وفق قابلياته (١) .

محل المال، أي محل قيمة الانسان مقدّرة بالدراهم، ستحل القيمة الانسانية الحقيقية ، وفي الوقت نفسه ستحل المباراة محل المزاحمة . في هذا المجتمع الجديد المنظّم تنظيما متناسقا ، لن تكون منتوجات الطبيعة والشغل الاجتماعي ملكا للافراد الخاصين ، بل ستكون ملكا للجماعة ، الامر الذي سيؤمن لكل فرد ، الى جانب فاعلية حرة ، قسطا عادلا من الخيرات المنتجة (٢) .

هذا التحوّل للمجتمع سيتحقق بشكل رئيسي بالتربية والتعليم ، اللذين بتصفيتهما غرائز البشر السيئة ، سيتيحان تنظيم انتاج وتوزيع الثروات تنظيما عقلانيا (٣) .

---

(١) المرجع نفسه ، « في الشغل وفي اللذة » ، الى الامام ، رقم ١٠٢ ، ٢١ - ١٢ - ٨٤٤ ، ص ٤ . ثم « الثروة والحرية » ، ٢٨ - ١٢ - ١٨٤٤ ، ص ٤ .

١٠) ما هي أنواع الشغل الممكنة في مجتمع فيه الطبيعة الانسانية مبسوطة عند جميع الناس وكل انسان يستطيع ان يستخدم كل مواهبه ؟ - في مجتمع كهذا ، الفاعلية الوحيدة الممكنة هي الفاعلية الحرة .

٣) من ينتج الثروة ؟- الطبيعة والمجتمع الانساني .

٤) منتوجات الطبيعة هل هي ملك الافراد ؟- لا ، انها ملك جماعي للجماعة .

٥) منتوجات المجتمع هل هي ملك الافراد ؟- لا ، انها ملك المجتمع .

(٢) م. هس ، « اسئلة واجوبة - عن الشغل وعن اللذة » ، ٢١ - ١٢ - ١٨٤٤ ، ص ٣ وبعدها.

١) مـــا هي الثروة ؟- تدعى ثروة منتوجات الطبيعة والشغل التي تؤمن معا الحياة والفاعليـــة الانسانيتين .

٢) هل يستطيع الفرد ان يخلق ثروات بدون تعاون البشر الاخرين والقوى الطبيعية ؟ - لا ، ان الفرد ، مع كل قواه وقدراته ووسائله ، ليس هو نفسه الا منتوجا من منتوجات الطبيعة والمجتمع ، كفرد معزول ، انه عاجز ولا يستطيع ان يخلق ثروات . الانسان لا يستطيع ان يعيش وان يعمل الا في علاقات وثيقة مع الطبيعة والانسانية .

٧) مـــا هي الملكية الفردية في المجتمع الجماعي ؟- انها الحق المضمون لكل فرد في ان يحوز مـــا يحتاجه ليعيش ويعمل .

١٧) حسب أي مبادىء يجب أن تدار الثروة الجماعية وان ينظم تبادل المنتوجات ؟ - حسب قوانين الطبيعة البشرية وحاجاتها .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤ .

١٤) ما الذي سيضمن فعلا للبشر حريتهم وملكيتهم الحقة ، ثروتهم الحقة ؟- هـــذا سيحصل اولا بالتربية .

١٥) ماذا نعني بالتربية ؟- بالتربية يجب ان نعني اولا التطور الجسمي ، قاعدة كـــل تطور ... ثانيا التعليم العام المعطى للجميع في مؤسسات عامة حيث ستزرع كل بذور الفضائل والقدرات البشرية. من هذه المؤسسات سينتقل الطلاب الى مراكز فاعليات توجههم اليها ميولهم ومواهبهم الخاصة . هنا تكتمل تربية الافراد الاجتماعية .

١٦) ماذا يجب أن نعمل عدا ذلك لكي تكون الملكية الحقة والحرية مضمونتين لكل البشر ؟- لهـــذه

في هــذا المقال ، كان لهس مأثرة ربط المسألة الاجتماعية وحلها بالفاعليــة الانسانية ، بشغل الانسان المعتبر تعبيرا جوهريا، تجليا أساسيا ، لحياته . ولكن، بخــلاف ماركس ، الذي كان يخرج من تحليله للشغــل تصورا جديدا لطابــع البراكسيس « Praxis » ودورها الثوري في حياة وتاريخ البشر ، كــان هس ، بنظره مثل الاصلاحيين الى الشغل وشروط الشغل خارج نضالات الطبقات ، يرى، لا في الثورة الاجتماعية بل في تعميم التربية والتعليم الوسيلة الاقدر على حل المسألة الاجتماعية . كان مقاله بمثابة تراجع عن مؤلفاته السابقة ، وبخاصة عن الترياركية الاوروبية Triarchie ، حيث كان قد بيَّن ان حل المسألة الاجتماعية ستأتي به الثورة الاجتماعية المتولدة من تفاقم صراعات الطبقات ، وعن فلسفة العمل ، حيث كان قد شدّد عـلى ضرورة الانتقال مـن التأمل النظري الـى الفعل العملـي لتحويل العالم ، وعن جوهر المال ، حيث كان قد علل بمذهب الانخلاع الفويرباخي أصــل وطابع سيطرة المال . أما في هذا المقال حيث يشدد عـلى ضرورة تحويــل اجتماعــي لتأمين فاعلية الانسان الحرة ، فهو يغرق هذه الاطروحة في أدب مسطح ، في سلسلة مــن أفكار عامية عن الشغل الحر المعارض للشغل العبد ، عن التنظيم المتناســق للمجتمع المعارض للاستغلال المتولد من سيطرة المال . هذه الافكار المبتذلة التــي كانت بديلا عن دراسة واضحة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية كانت تشكل أكمل تضاد مع التحليل العميق لطبيعة الانسان ولعلاقاته مع بيئته الذي بـه كــان ماركس يسنــد ويسوّغ هذه الاطروحة ذاتها . ان مذهب هس ، الذي كان مثل معظــم الاصلاحيين المعاصرين يريد تغيير طابع الشغل بتنظيمه دونما اعتبار لشروط هــذا التنظيم الواقعية، كان يتألف من خليط غريب من أفكار مأخوذة عن فويرباخ وفوريه وبرودون . كان هس يشدّد مع فويرباخ على وجوب أن يتحرر البشر من الفردويــة والانانية كي يحققوا كينونتهم الحقة ، جوهرهم الجماعي . وكان يستعير من فوريه مفهوم تنظيم متناسق للمجتمع بتوحيد الشغل واللذة ، حيث يتلاءم شغل كل فرد مع قابلياته وأذواقه ، وأخيرا كان يفكر مع برودون أن التحويل الاجتماعي له كهدف جوهري أن يؤمن لكل فرد قسطا عادلا من الثروات المنتجة .

ان هذا المذهب كان عليه أن يقدم العناصر الجوهرية في الاشتراكية « الحقة » التي بدأت تتشكل انذاك في مدينة كولن ، في دائرة هس وأصدقائه .



الغاية ، يجب ان لا تكتسب الثروة المجتمعية من قبل الافراد الخاصين وان لا تترك للمصادفة ، بــل بالعكس يجب ان تسيَّر من قبل المجتمع الذي سيعطي لكل فرد الحصة التي تعود اليه .

ملاحظــة : propriété = ملـك ، ملكية ، و ، خاصة ، خاصية ، خصائص ... مــن صفــة propre = خاص ، خاص بـ . ـ الالمانية والفرنسية واحد في هذه النقطة .

رغم كونه مشبوها وخاضعا لمراقبة الشرطة، استطاع هس أن يعيش في كولن، بدون أن يقلق كثيرا ، في بيت والده ، الذي كان يتمتع بالاعتبار المتصل برجل صناعة ميسور (١) . وهنا تابع دعاية نشيطة وظل على صلات مع أصدقائه في باريس الذين كانوا يتوجهون اليه من أجل العمل الثوري المطلوب في المانيا (٢) . بعد انفصاله عن روجه (٣) ، قطع أيضا مع الهيغليين الشباب في برلين وكتب في نهاية العام نقدا حادا لكتاب شترنر : **الوحيد وخاصيته (٤)** .

في كولن ، هس تصادق مع كارل غرون Karl Grün وأسس معه ومع بعض أنصار انسية فويرباخ ، من أمثال هرمان بتمان وج. يونغ ، حلقة اشتراكية الميل ، وداخل هذه الحلقة نضج مذهب الاشتراكية « الحقة » .

الاتجاه الاصلاحي ، الذي كان عند هس معدّلا ومخفّفا بعلاقاته مع ماركس وانجلز ، كان يتظاهر بشكل أوضح بكثير عند أصدقائه ، الذين كانوا يحوّلون جوهر الاشتراكية الى أنسية فويرباخ فينزعون منها العناصر العينية التي كانت لها في الاشتراكية الفرنسية .

هذا الاتجاه الاصلاحي كان مشددا بشكل خاص عند كارل غرون . كارل غرون ، المولود في ١٨١٧ ، بعد ان درس الفلسفة والفيلولوجيا في بون وبرلين، حيث تعرّف على ماركس ، كان قد أصبح في عام ١٨٤٢ محرر **صحيفة المساء** في مانهايم . واثر طرده من دوقية بادن الكبرى بسبب الاتجاه الراديكالي المعطى لجريدته (٥) ، ذهب الى كولن حيث ساهم في **صحيفة كولن** وفي **جريدة ترير** (تريف) . بعد أن كان ديمقراطيا ذا صبغة سان سيمونية ، اقترب كارل غرون من الفوريرية ، التي صار نفوذها ، الظاهر في مقالاته في **جريدة ترير** ، غالبا في مجلة **لسان الحال** الاسبوعية (٦)

---

(١) هذا يظهر من تقرير لرئيس اقليم الراين ورد فيه : « هس يعيش عند ابيه الذي له سمعة رجل اعمال ميسور ، ماهر ومجد . انه يعيش حياة منعزلة نسبيا ويهتم على ما يقال باعمال ادبية . انه يعاشر بشكل خاص داغوبرت اوبنهايم . » انظر ت. زلوسيستي : موسى هس ، الطبعة الثانية ، برلين ١٩٢١ ، ص ١٦٠ .

(٢) هكذا كتب هاينه الى ماركس بتاريخ ٢١ - ٩ - ١٨٤٤ : « اكتب الى هس ... أن يعرف بكتابي في الصحافة ، فور صدوره ، ولو ادى ذلك الى عواء خصومنا » . انظر جريدة نوي تسايت ، السنة ١٤ ، حا ، ص ص ١٦ - ١٧ .

(٣) انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

(٤) هس ارسل هذا المقال الى مجلة بيالفلد الشهرية التي يصدرها ك. غرون . ولكن منعت المجلة فحوله الى كراس بعنوان الفلاسفة الاخيرون صدر في دار مشتادت عام ١٨٤٥ .

(٥) انظر ك. غرون : طردي من بادن ، نقلي الى بالاتينا ، وتبريري امام الشعب الالماني ، الكونتوار الادبي ، زوريخ ١٨٤٤ .

(٦) لسان الحال او الفاضح الرايني - الفستفالي ، صدرت في مدينة فيزيل wesel .

التي أصدرها بدءا من تموز ١٨٤٤ . رافضا الليبرالية ، أعلن ، في مقدمة مجموعة من مقالاته في صحيفة **مانهايم المسائية** ، وهي مقالات كانت قد أصابتها الرقابة ، أعلن اعتناقه للفوريرية (١) .

بما أن فوريه كان يدين كفاح البروليتاريا الطبقي والثورة الاجتماعية ، كان ممكنا بدون مخاطر زائدة الاستناد اليه . هذا يفسر نجاحه لدى الاصلاحيين ، لاسيما في حلقات المثقفين الديمقراطيين والاشتراكيين الصغيرة التي كانت تتشكل آنذاك في بروسيا ، وبشكل خاص في منطقة الراين . ان نمو وتطور هذه الحلقات التي كانت مركز مناقشات أكاديمية عن الاشتراكية، كان يسهله النضال ضد الفقر ★ الذي كانت الحكومة البروسية قد بادرت اليه .

وقد ثبت ك. غرون في هذا الاتجاه شبه الاشتراكي من قبل العلاقات الوثيقة التي كان يقيمها آنذاك مع هس ، الذي قاده بطريق انسية فويرباخ الى الاشتراكية « الحقة » . واذ كان أبعد أيضا من هس عن مفاهيم ماركس وانجلز ، فقد شرع يعرض ، بأسلوب كاتب مقالات مسلسلة ، أفكار الاشتراكية « الحقة » التي كان يلطفها أكثر ، جاعلا من الاصلاح الاجتماعي تقريبا مسألة تربية وتعليم فقط (٢) . هذه الاشتراكية « الحقة » التي كانت ، مثل الفيلانتروبية (حركة محبي البشر ، أهل الخير والاحسان) ، تعطي نفسها مهمة حذف الفقر بدون اصابة المجتمع البرجوازي ، ستنتشر بسرعة فائقة في المانيا ، بصورة رئيسية في وسط البرجوازية الصغيرة وستعرف رواجا كبيرا حتى عام ١٨٤٨ (٣) .

---

(١) احجار للبناء مع رسالة الى اصدقائه في اوسنابروك ، بقلم كارل غرون ، دار مشتادت عند لسكه ، ١٨٤٤ .

★ paupérisme كلمة انكليزية في استعمالها الاول ، يقصد بها بشكل خاص ظاهرة الفقر الواسعة المخيفة التي لازمت انطلاق الثورة الصناعية .

(٢) كارل غرون : « الثقافة الحقيقية » . محاضرة القيت في ٢٨ - ٤ - ١٨٤٤ في بيلفلد لصالح عمال الغزل الفقراء في منطقة رافنسبرغ ، دار مشتادت ١٨٤٤ .

(٣) عن النهوض الاول للاشتراكية الحقيقية ، انظر ميغا ، ١ ، ح٤ ، ص ٣٣٩ . فر. انجلز في العالم الاخلاقي الجديد ١٣ - ١٢ - ١٨٤٤ . « ويسرني في الوقت نفسه ان يكون بوسعي الاشارة الى ان الشعب الالماني ، رغم تاخره بعض الشيء ، حسب العادة ، في اثارة المسالة الاجتماعية ، يسعى الآن الى تعويض الوقت الضائع . بالحقيقة انه لشيء مدهش ان نرى سرعة تقدم الاشتراكية في ذلك البلد . قبل عامين ، لم يكن هناك سوى فردين معزولين يهتمان بالمسالة الاجتماعية ، ولم يمض على طبع اول مؤلف اشتراكي سوى عام واحد ... ما هي الآن الحالة في المانيا ؟ في مكان هذين الشخصين المسكينين اللذين كانا يكتبان عن الاشتراكية لجمهور يجهل هذه القضية او لا يعنى بها ، يوجد عشرات من الكتاب الجيدين يبشرون بالانجيل الجديد لالوف الناس المتعطشين الى تعلم كل ما يتصل بهذه القضية ، عندنا عدد من الصحف ... وليس هناك مجلة واحدة ، خارج المجلات التي تاخذ وحيها من الحكومة مباشرة ، الا وتنشر مقالات لصالح الاشتراكية والعمال الاشتراكيين » . انظر ايضا ، ت. اولكرس : الحركة الاشتراكية والشيوعية ، لايبتسيغ ١٨٤٤ .

ماركس وباكونين

كان لماركس في باريس علاقات جيدة مع باكونين وبرودون ، فخلافاتهم المذهبية لم تكن بعد على ما يكفي من الحدة لتحدث قطيعة بينهم . ولكن كما كان يتفارق أكثر فأكثر في الآراء مع هس كذلك كان ينفصل عنهما منذ ذلك الحين لسببين مختلفين ، عن باكونين لانه لم يكن يوافق على ترفيتّه الفوضوية الاتجاه ، عن برودون لان هذا الاخير بوصفه مدافعا عن الطبقات الوسطى لم يكن يدفع الى النهاية نقده للملكية الخاصة وللمجتمع البرجوازي .

وصل باكونين الى باريس في تموز ١٨٤٤ ، بعد أن اقام في زوريخ من يناير الى حزيران ١٨٤٣ ثم اعتبارا من هذا التاريخ في برن وفي بروكسل ، واستقبل وديا من قبل بورنشتاين Boernstein ، صاحب جريدة « **الى الامام** » (بالالمانية) الذي أعطاه في مقر الجريدة غرفة كان فيها يجتمع محررو **الى الامام** الذين كانوا يخوضون مناقشات حامية عن الفلسفة والسياسة والشيوعية (١) .

في الايام الاولى لاقامته في باريس ، عقد باكونين علاقات متصلة مع هرفغ ومع روجه ، الذي كان قد تعرّف عليه في درسدن عام ١٨٤٢ . وقد حاول ان يكسب روجه الى شيوعيته الفوضوية ولكن بلا نجاح ، اذ أن روجه بات عدوا عنيفا للشيوعية في كل أشكالها . روجه ، الذي كان يقدّر طبيعته الأنيسة والمرحة والاندفاعية ولكنه كان يلوم حياة التشرد التي يعيشها (٢) ، حاول أن يحوّله عن

(١) انظر هـ. بورنشتاين : خمسة وسبعون عاما في العالم القديم والجديد ، لايبتسيغ ، ١٨٨١ ، حا ، ص ٣٥٧ . « كان عندي عدة غرف غير مشغولة ، في اكبرها كان يسكن موقتا الروسي باكونين اي كان له في هذه الغرفة الكبيرة سرير ميدان وصندوق وكوب معدني ، لم اعرف رجلا حاجاته اقل من حاجات باكونين . ابان جلسات هيئة التحرير كان ١٢ الى ١٤ شخصا يجتمعون في هذه الغرفة ، بعضهم واقف والبعض الاخر متنقل ، وكلهم يدخنون بشكل مخيف ويناقشون باقصى ما يمكن من الحيوية والحماس .

انظر ك. غرون : « م. باكونين » ، الجسور ، ح٤ ، ١٨٧٦ ، ص ٤٩٨ : « باكونين وروس آخرون ، اذكر منهم كونتا اسمه تولستوي ، كانوا يقضون كل وقتهم في قراءة الصحف ، يجعلون نهارهم ليلا وليلهم نهارا . لا ينهضون أبدا قبل الظهر ، يتناولون طعام الفطور ، ثم يتناولون الغذاء في الساعة السادسة ويمكثون في المقهى حتى الساعة الثالثة ، الرابعة ، وحتى الخامسة صباحا . عندئذ يعودون الى النوم وفي منتصف الظهيرة يستانفون الدورة الجهنمية » .

(٢) انظر آ. روجه ، المراسلات ، حا ، ص ٣٦٩ ، رسالة روجه الى فروبل ، باريس ، ١٦ ـ ١٠ ـ ١٨٤٤ : « باكونين كما تعلم هو الان هنا . انه دائما معافى ، ممتلىء املا ، وذو مزاج لا يعكّر صفوه . ولكني اعتقد انه لئن كان يستطيع ان يبرز على صعيد العلاقات الشخصية فان الامر سيختلف على الصعيد السياسي » . انظر المرجع نفسه ص ٣٧٤ ، ٣٧٦ . رسالة روجه الى فلايشر ، باريس ٢٣ ـ ١١ ـ ١٨٤٤ : « الترفية العاطفية الفنية في مضمار الحرية تصبح عند باكونين تهاونا غير

ماركس . ولما رأى باكونين يقترب من هذا الاخير ، قرّر روجه ، الذي كان فوق ذلك مستاء من كون باكونين لا يهتم ظاهرا بتسديد المال الذي كان قد استدانه منه ، ان يبتعد عنه (1) .

وسيذكر باكونين في وقت لاحق ، بعد مضي زمن طويل على قطيعتهما ، علاقاته مع ماركس . يعترف له بفكر بالغ العمق والقوة ولكنه يقسو ويجحف في حكمه على طباعه : « ماركس وانا ــ يقول باكونين في ١٨٧١ ــ «معارف قديمة» . صادفته لاول مرة في باريس عام ١٨٤٤ . كنت آنذاك مغتربا . قامت بيننا صداقة لا بأس بها . كان آنذاك أكثر تقدما مما كنت بكثير ، كما أنه يبقى اليوم ليس أكثر تقدما فقط ، بل ايضا أكثر علما مني بما لا يقاس . لم أكن آنذاك أعلم شيئا من الاقتصاد السياسي ، لم أكن بعد تخلصت من مجرداتي الميتافيزية واشتراكيتي لم تكن الا بالفريزة . أما هو فرغم كونه أصغر سنا فقد كان منذئذ ملحدا ، ماديا عالما، واشتراكيا متفكرا . وفي تلك الحقبة بالتحديد أنضج أسس منظومته الحاضرة .



اخلاقي ، ينادي به لكل انسان ، ليس واقعيا بل مبدئيا ، الامر الذي لا يمنعه من ان يكون ودودا وانسانيا لدرجة يخجل المرء من ضيق فكره . الا ان هذا التسيبيب المرفوع الى مستوى مبدأ وكذلك المظهر الملول اللامبالي المتمسح الذي يريد نفسه ارستقراطيا يثيران اشمئزازي مثل الجرب ... القيمة الحقيقية لصديقنا باكونين تصبح شيئا فشيئا بالنسبة لي امرا مشكوكا فيه مثل قيمة فون ريبنتروب . لقد مضت سنوات عديدة على المشاريع التي كان يعزم على تحقيقها ، واخشى ان يمضي بالطريقة نفسها بقية حياته . »

(1) انظر المرجع نفسه ، ص ٣٨٥ . رسالة روجه الى والدته ، باريس ١٧ ــ ١٢ ــ ١٨٤٤ : « تصوري ان باكونين ، الذي انقذته من سيبيريا ومن اخطار اخرى عديدة ، الامر الذي كلفني مالا كثيرا ، تصوري ان باكونين يلتحق وراء ظهري بهؤلاء الرعاع (المقصود ماركس والشيوعيون) ... لست بحاجة لاقول لك انني لن اعيد ابدا الصلة مع هؤلاء الناس » . انظر ايضا آ. روجه ، « ذكريات عن ميشيل باكونين » ، الصحيفة الحرة الجديدة ، فينا ، ٢٨ و ٢٩ أيلول ١٨٧٦ .

« بعد ذهابه من درسدن ، وجد نفسه مضطرا الى ان يحسب هو ايضا حساب الضرورات المادية وانا نفسي كنت واحدا من هؤلاء الذين تحسسوا بذلك . العائلة تركته لوارداته الخاصة ورحل هربا ليس فقط من ملاحقات السلطات الروسية بل ايضا من ملاحقات دائنيه . ان موقفه السلبي من نقطة بهذه الدرجة من الماهوية قد ابعدني عنه ، وعندما في شباط رفض والده ان يدفع لي الورقة الموقعة من ابنه انفتحت عيناي ووجدت نفسي مخدوع اخوتنا في هيغل . ومع ذلك لم احتفظ له ضغينة على ذلك . بعد زوال الحوليات ، صادفته من جديد في باريس ، تصالحنا ، ولكن القضايا المالية استبعدت من علاقاتنا بشكل صريح . بالمقابل ، صارت القضية الاقتصادية قاعدة كل مناقشاتنا النظرية التي اصابت كل اشكال الاشتراكية . كانت آرائي في هذه النقطة تختلف عن اراء ماركس ، بينما كان باكونين يتحالف معه ومع الشيوعيين . ومع ذلك حين صادفته فيما بعد في شارع ريفولي وبدات معه نقاشا على هذه النقطة ، لم يشا الاعتراف بهذا الخلاف معي . بل على العكس اعلن لي ان الثورة سوف تتحقق على الصعيد السياسي لا على صعيد الاشتراكية وان الشيوعية منطقيا مستحيلة » .

التقينا مرارا وكنت أحترمه كثيرا لعلمه وتفانيه الجامح والمجدّ ، وان خالطه دوما غرور شخصي ، لقضية البروليتاريا ، وكنت أسعى بشغف الى محادثته المفيدة المثقفة والخفيفة الروح دوما ، حين لا يلهمها حقد رخيص ، وهو أمر واقع كثيرا لسوء الحظ ! غير انه لم تقم بيننا في وقت من الاوقات مودّة صريحة . مزاجانا لم يكونا متآلفين . كان يدعوني مثاليا عاطفيا وكان على حق وكنت أدعوه مغرورا ماكرا وغدارا وكنت أيضا على حق . » (١) .

متسلط ومغرور وغدار ، ولكن أيضا ذكي بشكل عال وعالم جدا ، ذلك كان الحكم الذي أعطاه باكونين عن ماركس منذ لقائهما الاول ولم يغير رأيه فيما بعد . هذا الراي يظهر أيضا في مقارنة عقدها بين ماركس وبرودون . كان يعترف بأن ماركس، في تصوره العام عن العالم، متفوّق على برودون الذي لا يستطيع التخلص من مثاليته ، ولكنه كان بالمقابل يقدّر ان برودون يغلب ماركس بحس للحرية عميق، حس على حد قوله ينقص ماركس تماما . « الآن لنعترف بأن ماركس مفكر اقتصادي رصين جدا ، عميق جدا . له هذا الامتياز الهائل على برودون الا وهو كونه واقعيا ، ماديا . برودون ، رغم كل الجهود التي بذلها لزعزعة تقاليد المثالية الكلاسيكية ، ظل طيلة حياته مثاليا لا يصلَح ، يستوحي كما قلت له قبل وفاته بشهرين ، الكتاب المقدس تارة والحقوق الرومانية تارة ، وميتافيزيا دوما حتى نهاية أظافره . مصيبته الكبيرة أنه لم يدرس يوما العلوم الطبيعية ولم يتملك طريقتها . كان له غرائز عبقري جعلته يستشف الطريق الصحيح، ولكنه، اذ تجرّه عادات ذهنه السيئة أو المثالية ، كان يعود دوما الى السقوط في الاغلاط القديمة ، مما جعل برودون تناقضا دائما ، عبقرية قوية ، مفكرا ثوريا ، يتخبط دائما ضد أشباح المثالية ولم يستطع يوما طردها .

ماركس كمفكر هو في الطريق الجيد . لقد أقام كمبدأ أن جميع التطورات السياسية والدينية والقانونية في التاريخ هي لا أسباب بل نتائج التطورات الثورية. تلك فكرة عظيمة وخصبة ، لم يخترعها بشكل مطلق ، فقد استشفها وافصح عنها جزئيا كثيرون قبله . ولكن ، في الحاصل ، له يعود شرف كونه أقامها بشكل متين

---

(١) انظر م. نتلو : م. باكونين ، حياته مع مختارات من مؤلفاته ، (بالفرنسية) ، المكتبة الوطنية ، ١٩٠١ ، ص ٧١ . مخطوطة (فرنسية) لباكونين : علاقاته الشخصية مع ماركس (١٨٧١) . انظر أيضا باكونين : رسالة الى اخوان الحلف في اسبانيا ، ١٨٧٢ ، ص ١٣ (بالفرنسية) . « لنبدا بانصاف خصومنا حيث يستحقون . ماركس ليس رجلا عاديا . انه ذو ذكاء عال ، وعلم واسع جدا خصوصا في المسائل الاقتصادية ، وهو فضلا عن ذلك رجل كان ، على حد علمي منذ عام ١٨٤٤ زمن لقائي الاول معه في باريس ، دائما وبصدق مخلصا تماما لقضية تحرر البروليتاريا ، القضية التي قدم لها خدمات لا جدال فيها ، ولكنه اليوم يعرضها للخطر بغروره الهائل وبطبعه الحقود المؤذي وبميله الى الدكتاتورية داخل حزب الاشتراكيين الثوريين » .

ووضعها اساسا لكل منظومته الاقتصادية . من جهة اخرى ، كان برودون قد فهم واحس الحرية على نحو افضل منه بكثير . برودون حين لم يكن يصنع مذهبا وميتافيزياء كان عنده الغريزة الثورية الحقة . كان يعبد الشيطان ويعلن « الفوضى » . ★ من الممكن تماما أن يكون ماركس قادرا على الارتفاع نظريا الى منظومة للحرية أكثر عقلانية أيضا منها عند برودون ، ولكن غريزة برودون تنقصه . كألماني وكيهودي ، انه من راسه الى قدميه محب للتسلط (١) . »

هذا الحكم لباكونين على ماركس وبرودون يعلل ليس فقط بمزاجه وطبعه بل ايضا وخصوصا بموقعه ازاء حركة العمال . كان يؤلف مع ماركس تضادا كاملا . فقد كان عملاقا يلتهمه نشاط فياض ، بجسد حسب كلمة بييلنسكي Bielinski مبدأ الحركة الابدية ويدع نفسه لسيل حياة لا عنان لها (٢) . في آن واحد مهيّج وهائج ، خاض ومخضوض ، قادر على جذب وجر الجماهير ، واقدر على تمثل أفكار الغير منه على اظهار اصالة فكرية ، لقد كان يدع نفسه بسهولة لفكرة تستولي عليه يميل الى دفعها الى حدها الاقصى ويعيرها رنين موهبته الخطابية الجميلة .

كان رجلا خرج من طبقته او سقطت رتبته ، يتعاطف مع أقرانه ، مع المثقفين ذوي الاتجاه الفوضوي اولا ، ثم فيما بعد مع الـ Lumpenproletariat ، مع البروليتاريا الرثة والتي كانت عندها عاطفة الثورة على المجتمع البرجوازي ذات طابع فردي اكثر منه اجتماعي . ان « حياة النور » التي كان يعيشها كانت تفترض ، اذا وزنا الامور ، بعض اللاأخلاق . ومع ارتياده الاوساط الثورية ، كان ضيف الصالونات الارستقراطية في شارع سان جرمان Bd. Saint - Germain (٣) ، الامر الذي كان من الطبيعي أن يجعله موضع اشتباه (٤) .

ماركس كان عكسه بالتمام . فكل شيء كان عنده نظاما وانضباطا في الفكر وفي العمل . ذكاؤه الصاحي لم يكن يدع أي مكان للعاطفة والغموض والارتجال ، وكان يضع في خدمة هذا الذكاء ارادة عنيدة .

★ anarchie = لا رئاسة ، لا سلطة . وهو مذهب برودون ، شترنر ، باكونين ، كروبوتكين الخ ، « الفوضوية » . « الفوضويون » لا يعتبرون انفسهم انصار الفوضى désordre ، يرفضون المفهوم الشائع ، يعتبرون السلطة مصدرا من مصادر الفوضى ...) .

(١) انظر م. نتلو ، ص ٧٠ . باكونين : رسالة الى اخوان الحلف في اسبانيا ، ص ١٥ ، ١٦ . (الفوضويون لا يدعون تنظيمهم حزبا بل حلفا او عهدا ، اتحادا او فيدراسيون الخ) .

(٢) رسالة بييلنسكي الى بوتكين ، ١٨٤٢/١١/٧ ، مذكورة في مقال دراغومانوف عن « م. باكونين »، المجلة الاشتراكية (بالفرنسية) ، نوفمبر ١٨٩٥ ، ص ٥٤٩ . « ان مبدأ الحركة الابدية هو الذي يرقد في اعماق نفسه » .

(٣) انظر آ. روجه ، المراسلات ، ج١ ، ص ٣٧٠ . رسالة من روجه الى فلايشر ، باريس ١٨٤٤/١٠/٢٠ : « هنا في حي مونمارتر ، علاقاته مع ضاحية سان جرمان لا تزعجني باي حال » .

(٤) انظر الى شرح لاحق (بعد حوالي الصفحة) .

هذا التعارض في المزاج كان يوازيه افتراق عميق في المذاهب ، فمذهب ماركس كان يتميز بصرامة علمية متزايدة ، ومذهب باكونين بترفيـــة فوضوية اللــون كانت تقرّبه من برودون وتبعده عن ماركس ، الذي كان يؤوّل باكونين صرامته وصلابته المذهبيتين على انهما علامة غرور واستبداد . هذا الافتراق المذهبي يعلّــل بموقفهما المختلف ازاء حركة العمال . فبينما كان باكونين باقيا ان صح القول على هامش هذه الحركة ، فان ماركس وانجلز بارتباطهما معها اكثر فأكثر كانــا يضحّيان بكـل شيء لصالح انتصار البروليتاريا والشيوعية .

عدا باكونين ، كان ماركس يعاشر أيضا بعض الارستقراطيين الروس الذين كانوا يعيشون نفس حياة التشرد التـي كــان يعيشها وكانـــوا أحيانا يظهرون نفس اللاأخلاقية (١) . بينهم الكونت تولستوي ، صديق بوشكين والديسمبري السابق★، الذي اصبح في عام ١٨٣٧ عميــلا للحكومة الروسيـة (٢) ، و . ي. سازونوف ،

---

(١) انظر فوي تسايت ، ١٩١٢ ـ ١٩١٣ ، جـ١ ، ص ٧١٥ وبعدها . ريازانوف : « ماركس ومعارفه الروسية في الاربعينات » . انظر ك. ماركس : رسائل الى كوجلمان ، باريس ١٩٣٠ . رسالة من ماركس الى كوجلمان ، ١٨٦٨/١٠/١٢ : « تقضي الارستقراطية الروسية شبابهـــا في الجامعات الالمانيــة وفي باريس . تبحث بشغف عن كل الافكار المتطرفة التي يمكن ان يقدمها الغرب ، ولكن مـــن باب الشراهة المحض . هكذا كان يعمل قسم من الارستقراطية الفرنسية في القرن الثامن عشر . « ليس لاجل الخياطين والحذائين » هذا ما كان يقوله فولتير عن افكاره الليبرالية . ذلك لا يمنع هؤلاء الروس انفسهم مـن ان يصيروا اوغادا بدخولهم في خدمة الدولة » .

((★) نسبة الى انتفاضة (او انتفاضات) ديسمبر ١٨٢٥ ، التي قام بها ضباط روس (يوم تنصيب القيصر نقولا الاول) بقيادة جمعيات سرية . هذا التحرك كان اول محاولـــة ثورية روسية ضد القيصرية وهو يدشن الطور الاول (طور النبلاء) في تاريخ الثورة الروسية الذي يستمر حتى ١٨٦١) .

(٢) انظر مراسلات ماركس ـ انجلز ، ميغا ١١١ ، ج١ ، ص ٣٦ . رسالة انجلز الى مكتب المراسلات الشيوعي في بروكسل ، باريس ، ١٦ ايلول ١٨٤٦ : « ان تولستوي هذا ليس احدا اخر سوى تولستوينا، ذلك القلب الكريم الذي كان يزعم انه يريد بيع املاكه في روسيا . عدا الشقة التـي كان يقودنا اليها ، كان هذا السيد يملك بيتا رائعا في شارع ماتوران حيث كان يستقبل الدبلوماسيين . البولونيون وكثير من الفرنسيين كانوا يعلمون ذلك منذ زمن طويل ، فقط الراديكاليون الالمان ـ وكان يرى من المفيد ان يظهـر امامهم راديكاليا ـ كانوا يجهلون ذلك . باكونين نفسه ، الذي كان لا شك يعرف هذه القصة التي كـــان الروس يعرفونها ، مشبوه جدا » .

انظر ف. داف : ماركس وباكونين ، آمستردام ١٩٠٠ ، ص ١١ : « بعــد خطاب القاه في اجتماع لصالح بولونيا ، طرد باكونين من باريس . بهذه المناسبة القى الوزير دوشاتل خطابـــا ملتبسا حـــول باكونين . ما هي الاشياء التي لم يكن الوزير يريد ان يكشفها ! فقط هذا . ردا على طلب معلومات مـــن الحكومة عن باكونين ، اجاب السيد كيسيليف ، ممثل روسيا في باريس : « انـــه رجل غير محروم مـن الموهبة وقد استخدمناه . ولكنه في هذه المرة ذهب بعيدا ولم يعــد باستطاعتنا ان نتقبــل وجوده في باريس» . كيسيليف هذا نفسه حاول فضلا عن ذلك ان ينشر بين المغتربين البولونيين شائعة ان باكونين ليس اكثر او اقل من عميل » .

العضو القديم في الجمعية الاشتراكية الروسية الاولى ، التي كان ينتمي اليها هرزن Herzen واوغاريف Ogarev ، الذي كان قد جاء الى باريس في عام ١٨٤٠ بعد حل هذه الجمعية في ١٨٣٤ .

ماركس وبرودون

أكثر وثوقا منها مع باكونين كانت العلاقات التي عقدها ماركس في باريس مع برودون الذي كان في نظره اكبر اشتراكي فرنسي معاصر . بعد تأكيده في مذكرة عن الملكية جعلته شهيرا أن الملكية مصدر اللامساواة والاجحافات الاجتماعية، كان برودون قد وضع في كتابه « **عن خلق النظام في البشرية** » (١٨٤٣) تسويغا فلسفيا وتاريخيا واقتصاديا في آن لاشتراكية ترتكز على الملكية الصغيرة الخاصة بالطبقات الوسطى . ما يميزه عن المذاهبَ الاشتراكيين الآخرين كان اتجاها فوضويا يجد تعبيره في ادانة الدولة حيث يظهر له تدميرها بمثابة الشرط المسبق والضروري لكل اصلاح اجتماعي حقيقي . والفوضوية التي يميل اليها برودون مثل باكونين لها عنده تعليلها لا في كونه رجلا سقطت مرتبته الطبقية بل في كونه يدافع عن مصالح الطبقات الوسطى ، التي تؤلف الفوضوية بالنسبة اليها التعبير الايديولوجي عن رغبة في الانعتاق لا تستطيع تحقيقها بقواها الخاصة .

ولقد مكث برودون في باريس من شباط الى نيسان ١٨٤٤ ثم من ايلول ١٨٤٤ الى شباط ١٨٤٥ . من الاجانب عاشر بصورة رئيسية روجه ، باكونين ، ك. غرون ، ماركس ، الذين معهم كان يتناقش خاصة في الفلسفة الالمانية . يمكن ان نكوّن فكرة عن هذه المناقشات بفضل هرزن الذي ينقل في مذكراته محادثة بين باكونين وبرودون عن هيغل امتدت على ليلة بطولها (١) .

كانت علاقاته مع ماركس علاقات مواصلة بشكل خاص خلال الخريف والشتاء ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ . وكانت مناقشاتهما تصيب بشكل رئيسي الهيغلية ، التي كان ماركس يجهد ، دون نجاح كبير ، لتلقينه الامر الجوهري فيها . وسيتحدث ماركس

(١) انظر هرزن ، مذكرات ، المؤلفات ، حـ١١ ، ص ٥٢ . « لقد صادفته (برودون) احيانا عند باكونين الذي معه كان على صلة وثيقة ... برودون كان في تلك الآونة يتردد عليه ليستمع عنده الى حديث رايشل عن بيتهوفن وباكونين عن هيغل . على كل حال كانت المناقشات الفلسفية تدوم اكثر من المناقشات عن السمفونيات ... ذات مساء في ١٨٤٧ ، كارل فوغت ، الذي يسكن ايضا في شارع بورغونيا والذي كان كثيرا ما ياتي لرؤية رايشل وباكونين، مل من سماع المناقشات التي لا تنتهي عن الفينومينولوجيا فعاد الى منزله . في اليوم التالي ، ذهب لياخذ رايشل ... فدهش لسماعه رغم الساعة الصباحية محادثة صاخبة . وحين فتح الباب ، رأى برودون وباكونين جالسين في نفس المكان امام النار المطفأة في الموقد يختمان باختصار المناقشة البادئة في العشية » .

بعد عشرين سنة عن هذه المناقشات فيقول : « اثناء اقامتي في باريس عام ١٨٤٤ ، دخلت في علاقات شخصية مع برودون . اذكر هـذا الظرف لانني الى درجة ما مسؤول عن sa sophistification (حذلقته ، فزلكته) ، وهي كلمة يستعملها الانكليز للتعبير عن تزييف سلعة ما . في مناقشات طويلة كثيرا ما كانت تمتد ليلة بكاملها ، كنت أحقنه حقنا هيغلية كبيرة ، لغير صالحه أبدا ، اذ بما انه لم يكن يعرف الالمانية فانه لم يكن يستطيع ان يدرس الامر بعمق . وما كنت قد بدأته تابعه السيد كارل غرون بعد طردي من فرنسا . اضف ان استاذ الفلسفة الالمانية هذا كان يمتاز عليّ في كونه لا يفهم شيئا مما كان يعلمه (١) » .

برودون لا يذكر علاقاته الشخصية مع ماركس لا في رسائله ولا في دفاتر ملاحظاته . تلميحه الوحيد الى مناقشاته مع المثقفين الالمان موجود في رسالة بتاريخ ١٨٤٥/١/٩ يقول فيها ان هؤلاء قد امتدحوه على كونه وصل الى نفس النتائج التي وصل اليها هيغل الذي لم يحدث ان قرأه برودون وهو يعترف بذلك (٢) .

بعكس ماركس الذي كان يريد ، مدافعا عن مصالح البروليتاريا ، ان يستبدل المجتمع البرجوازي بمجتمع شيوعي ، كان برودون ، المدافع عن مصالح الطبقات الوسطى وبخاصة الفلاحين الصغار والحرفيين ، يريد لا تدمير المجتمع البرجوازي بل اصلاحه ليلائم مصالح هذه الطبقات .

رغم جملة الثورية مثل كلمته الشهيرة : « الملكية هي السرقة » التي كان قد اخذها عدا ذلك عن بريسو Brissot (٣) ، فقد كان يريد جوهريا حماية الطبقات المتوسطة ضد الرأسمال الكبير والبروليتاريا .

مدفوعا بالرغبة في حماية وابقاء الملكية الصغيرة الخاصة بهذه الطبقات ، كان يقف في آن ضد حق الملكية المطلق الذي يعزز الرأسمال الكبير وضد الشيوعية التي كان يعتبرها خطرا أكبر أيضا بالنسبة للطبقات الوسطى ما دامت تتعرض لمبدأ الملكية

(١) انظر رسالة ك. ماركس الى شفايتسر عن برودون ، منشورة في جريدة الاشتراكي - الدمقراطي، ١٦ ، ١٧ ، ١٨٦٥/١/١٨ . رسالة منقولة في ك. ماركس : بؤس الفلسفة ، باريس ١٩٢٢ ، الملحق رقم ١ ، ص ٢٢٥ .

(٢) انظر برودون : مراسلات ، باريس ١٨٦٠ ، جـ٢ ، ص ١٧٦ . رسالة برودون الى برغمان ، ١٨٤٥/١/١٩ : « حسب المعارف الجديدة التي اقمتها هذا الشتاء ، لقد فهمت بشكل جيد جدا من قبل عدد كبير من الالمان ، الذين اعجبوا بالعمل الذي قمت به كي اصل لوحدي الى ما يزعمون انه موجود عندهم . لا استطيع بعد ان احكم على القرابة الموجودة بين ميتافيزيائي ومنطق هيغل مثلا ، لانني لم اقرا هيغل في يوم من الايام » .

(٣) انظر ج. ب. بريسو : ابحاث فلسفية عن حق الملكية وعن الارض معتبرين في الطبيعة وفي المجتمع، (بالفرنسية) ، برلين ١٧٨٢ . (كان بريسو صحفيا ، صار عضوا في الجمعية التشريعية وفي المؤتمر ، وهو احد قادة الجيرونديين ، اعدم في ١٧٩٣) .

الخاصة بعينه (١) .

كان يلوم حق الملكية المطلق على كونه يقود بتطور المزاحمة الى الاحتكار ، الى التملك الظالم لمنتوج شغل الغير ، الى نزع ملكية وسحق الطبقات الوسطى والى البؤس العام للشعب (٢) . وكان يدين بعنف أكبر أيضا شيوعية الخيرات التي يعتبرها سببا للعبودية والاذلال (٣) . بعيدا عن أن يطلب حذف الملكية الخاصة ، كان بالعكس يريد تعميمها في شكل ملكية صغيرة مجعولة في متناول الجميع . واذ يتصور الملكية الصغيرة في شكل حيازة possession ، نوع من ملكية منقوصة ، لا تؤمن دخلا الا بعمل الذي يستثمرها ، فقد كان يضعها في معارضة الملكية المطلقة وشيوعية الخيرات معا (٤) ، ويقلصها الى حق ملكية محدود ، الى حق انتفاع ، وتبقى للدولة سلطة حذفه في حال وقوع تجاوزات (٥) .

بهذا الدفاع عن الملكية الصغيرة في شكل الحيازة التي تبدو له وحدها كفيلة بتامين استقلال الشغيل ، كان برودون ، وهو من أرومة فلاحية وحرفية ، يعبر عن مطامح الطبقات الوسطى نصف ــ المبَرْلتره المعادية بالتساوي للرأسمال الكبير الذي يسحقها وللبروليتاريا التي عنها يبعدها تعلقها بالملكية الخاصة .

مثل جميع المصلحين ، المدافعين عن مصالح الطبقات الوسطى ، كان برودون

---

(١) انظر برودون : ما هي الملكية او ابحاث عن مبدأ الحق والحكومة ، مذكرة اولى ، ١٨٤٠ ، ص‌ص ٢١٧ ــ ٢٤٤ . طابع الجماعة (الاشتراك ، الشيوعية) والملكية . تحديد شكل المجتمع . خلاصة.

انظر المراسلات ، حـ٢ ، ص ٢٣١ . رسالة الى تيسو ، ليون ، ١٨٤٦/١٢/١٣ : « هذا ما كنت اعنيه منذ مذكرتي الاولى حين قلت انني لست مالكا ولا شيوعيا ، وهذا نفي مزدوج يؤول الى القول : الملكية والاشتراك (الخاصية والجماعية) اثنان متناقضان antinomies ، مبدآن غير ممكني التحقيق وضروريان في نفس الوقت » .

(٢) انظر برودون : ما هي الملكية ؟ مذكرة اولى . كل الجزء الاول .

(٣) انظر المرجع نفسه ، ص ٢١٩ : « الاشتراك لا مساواة ، ولكن في الاتجاه المعاكس بالمقارنة مع الملكية. الملكية هي استغلال الضعيف من قبل القوي، الاشتراك هو استغلال القوي من قبل الضعيف... الشيوعية اضطهاد وعبودية » . كان يعارض ايضا « التماثل السعيد والغبي الذي يراد به تقييد شخصية الانسان الحرة ، الفاعلة ، المحاكمة ، غير الخاضعة » الذي هو في راي برودون العاقبة المحتومة لمشاعية الخيرات .

(٤) انظر المراسلات ، حـ٢ ، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ . رسالة برودون الى غيومان ، ١٨٤٦/١١/٢١ .

انظر برودون : ما هي الملكية ؟ مذكرة اولى ، ص ٢٤٢ : « الحيازة الفردية شرط الحياة الاجتماعية ... الملكية انتحار المجتمع ... احذفوا الملكية (الخاصية) واحفظوا الحيازة (الاقتناء) ... تطردوا الشر من الارض » .

(٥) انظر برودون : ما هي الملكية ؟ مذكرة ثانية . رسالة الى السيد بلانكي ، استاذ الاقتصاد السياسي في كونسرفاتوار الصنائع ، باريس ١٨٤١ .

يتخذ موقع وسيط بين الراسمالية والاشتراكية (١) . كان يسعى منذ ذلك الحين الى أن يقيم ، وهذا ما سيفعله بصورة مفصلة ومنهجية في كتابه **فلسفة البؤس** او **منظومة التناقضات الاقتصادية** (١٨٤٦) ، تركيبا من الرأسمالية والاشتراكية ، مدافعا مع الاقتصاديين البرجوازيين عن مبدأ الملكية الخاصة ضد الاشتراكيين وناقدا مع هؤلاء عيوب الرأسمالية (٢) .

ان منظومة التوسط هذه المطابقة لوضعه الطبقي كانت تستجيب لها طريقة قائمة على تكييف الاضداد يستخدمها في تبرير موقفه الوساطي . فقد كان ، بتحويل للجدل الهيغلي ، يولّد التركيب لا كما يفعل هيغل وماركس من تشدد الاضداد ، الأمر الذي يستجيب لموقف ثوري ، بل من تخفيفها وتكييفها ، الامر الذي كان يجعل الجدل محوّلا ومزيّفا على هذا النحو أساس مذهب تسوية (٣) .

بهذا المنهج ، منهج تكييف الاضداد ، الذي كان بتحييدها وابطالها يشل الحركة الجدلية ، كان برودون يتميز بالاساس عن ماركس الذي كان يفكر بعكسه ان التقدم لا يمكن أن يأتي الا من تفاقم التناقضات الاقتصادية وصراعات الطبقات .

---

(١) انظر نفس المرجع ، مذكرة اولى ، ص ٢١٧ . « كي اجعل ذلك كله في صيغة هيغلية ساقول اذا: الجماعة (الاشتراك ، الشيوعية) ، اول نمط ، اول تحديد للاجتماعية ، هي الحد الاول للتطور الاجتماعي ، الاطروحة ، الملكية (الخاصية) ، تعبير الجماعة المتناقض ، يجعل هذا الحد الثاني الاطروحة المضادة . بقي ان نكتشف الحد الثالث ، التركيب ، وسيكون لدينا الحل المطلوب . والحال ، ان هذا التركيب ينتج بالضرورة عن تصحيح الاطروحة بالاطروحة المضادة ، اذن ينبغي ، بفحص اخير لخصائصهما، استبعاد ما تحويانه من معاد للجماعة ، والبقيتان ستؤلفان باجتماعهما نمط الاجتماع الانساني الحقيقي».

انظر ايضا المراسلات، حـ٢ ، ص ص ٤٦ ــ ٤٧ . رسالة برودون الى آكرمان، ١٨٤٢/٥/٢٣ . حـ٢، ص ١٥٨ ، رسالة برودون الى آكرمان ، ١٨٤٤/١٠/٤ .

(٢) انظر رسالة ك. ماركس الى شفايتسر عن برودون المنشورة في الاشتراكي الديمقراطي ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨٦٥/١/١٨ . مذكورة في بؤس الفلسفة ، الملحق ١ ، باريس ١٩٢٢ ، ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ . « ولكن رغم مظاهره كمحطم للايقونات ، يوجد في هذا المؤلف الاول ، منذ هذا المؤلف الاول ، هذا التناقض وهو ان برودون من جهة يقاضي المجتمع ومن وجهة نظر وبعيني الفلاح الصغير (فيما بعد البرجوازي الصغير) الفرنسي، ومن الجهة الاخرى يطبق عليه المعيار الذي انتقل اليه من الاشتراكيين » .

(٣) انظر رسالة ماركس الى شفايتزر عن برودون ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٣ : « طبيعة برودون كانت تحمله على الديالكتيك ؟ ولكن بما انه لم يفهم يوما الديالكتيك العلمي لذا لم يصل الا الى السفسطة . بالواقع كان ذلك ينبع من وجهة نظره البرجوازية الصغيرة . فالبرجوازي الصغير ، شانه شان مؤرخنا رومر Raumer يقول دائما من جهة ومن جهة اخرى . تياران متعارضان ، متناقضان ، يسيطران على مصالحه المادية وبالتالي على رؤاه الدينية والعلمية والفنية ، على اخلاقه ، واخيرا على كل كيانه . انه التناقض الحي . واذا كان ، فضلا عن ذلك ، مثل برودون ، رجلا خفيف الروح ، فانه لا يلبث ان يلعب مع تناقضاته ذاتها وان ينضجها حسب الظروف في مفارقات مدهشة ، صاخبة ، احيانا لامعة » .

هذا الموقف الوساطي وهذا المنهج المسوّي يعلل مفهمته المثالية للتاريخ . بدلا من أن يفسر ، كما شرع ماركس وانجلز يفعلان ، تطور التاريخ الحديث بتطور النظام الرأسمالي وبتفاقم الصراعات الطبقية بين البرجوازية والبروليتاريا ، كان يخضعه على طريقة الطوباويين لتحقيق مثل أعلى اخلاقي واجتماعي ، وبخاصة لتحقيق فكرة العدالة ، التي كان يجعلها في آن محرّك وهدف التاريخ .

هـذا يفسر أيضا عداءه الاساسي ازاء الثورة الاجتماعية الذي حدد موقفـه السياسي المتردد بل أحيانا المضاد للثورة جوهريا الذي كان يجد تعبيره منذ ذلـك الحين في مديحه للملك لوي فيليب (۱) والذي سيتظاهر فيما بعد في مديحه لنابوليون الثالث . اذ كان يدين الثورة الاجتماعية والصراعات الطبقية ، فقد كان مساقا الى أن يعتبر ، على طريقة محبي البشر ، البروليتاريا طبقة بائسة دون ان يرى فيهـا العنصر الثوري المدعو لتدمير المجتمع البرجوازي .

ولما كان محمولا مثل جميع الطوباويين الى ان يعتبر نفسه مسيحا جديدا ، فان هذا الميل كان يدفعه نحو غرور هائل يتخذ في بعض الاحيان أبعادا لا تصدّق (۲) .

هذا التعارض الاساسي بين ماركس وبرودون لم يكن بعد يتجلى الى حد عـدم السماح بعلاقات جيدة بينهما . ماركس الذي كان ، في **الصحيفة الراينية** وفي رسالة

---

(۱) مذكرته الثانية عن الملكية تنتهي بتاكيد لولائه الملكي . انظر ص ۱۷۷ .

انظر المراسلات ، حـ۲ ، ص ۷٥ . رسالة برودون الى فلوري ، ۱۸٤۳/۱/۲۲ : « ان عهـد لـوي فيليب ، كاعداد لنظام جديد ، واحد من عهود التاريخ الاكثر جدارة بالملاحظة » .

(۲) انظر رسالة ك. ماركس الى شفايتزر عن برودون ، مرجع مذكور ، ص ۲۳۳ — ۲۳٤ : « الشعوذة العلمية والتكييفات السياسية لا تنفصل عن وجهة نظر كهذه . لا يبقى سوى حافز واحد ، غرور الفرد ، وكما بالنسبة لجميع المغرورين لا يعود الامر الا اثر اللحظة ، نجاح اليوم . هكذا يضيع بالضرورة الذوق محض الاخلاقي الذي حمى روسو Rousseau مثلا من كل تلوث ولو ظاهر ، مع السلطات الموجودة » .

انظر المراسلات ، حـ۲ ، صص ۸۸ — ۸۹ . رسالة برودون الى موريس ، ۱۸٤۳/۸/٤ : « الذيـن سيقومون بهذه التضحية (تضحية ان يقرؤوا كتابه « عن خلق النظام في البشرية ») ... لن يندموا على ذلك . سيتعلمون من الامور اكثر مما انتج (من امور جديدة) منذ ستين سنة . هـذا ، بانتظار حكـم النقاد ، ما أجرؤ أن افكره عن مؤلفي » .

انظر المرجع نفسه ، ص ص ۱۱۲ — ۱۱۳ . رسالة برودون الى آكرمان ۱۸٤٥/۱۱/۲٥ : « انتظر منه (من كتابي : عن خلق النظام ...) ثورة في الدراسات الفلسفية أكبر أيضا من الثورة التي حققها كنط . ستجد عندي اشياء لم تسمع حتى هذا اليوم في عالم المفكرين ، اشياء تكشف بالجملة والتفصيل مخططـا جديدا للخليقة ، وان اثر هذه الاشياء لا يمكن مقارنته (اذا لم اكن مخطئا) الا بالاثر الذي نتج عن ظهور منظومة نيوتن » .

الى روجه قد مجّد في برودون افضل اشتراكي فرنسي (١) ، كان يقارنه آنئذ ، في مقال في **الى الامام** ، بفايتلنغ weitling وكان يعتبر مذكرته عن الملكية افضل مؤلف للاشتراكية الفرنسية (٢) .

كان ماركس يقدّر أولا بأول عند برودون موقفه المناهض للدين ، وهو الموقف الذي كان يميزه عن معظم الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين آنذاك (٣) . فقد كان برودون يعتبر الدين عقبة أمام التقدم العلمي والاجتماعي ، ولكن بخلاف ماركس الذي كان يريد الغاء كل شكل من اشكال الدين كان يفكر بالاستعاضة عن الدين التقليدي بدين جديد هو دين العلم .

وما كان ماركس يقدّره أكثر من اي شيء آخر عند برودون كان نقده للاقتصاد السياسي البرجوازي الذي كان برودون يأخذ عليه كونه يضع ، كما توضع مسلّمة أو مصادرة ، الملكية الخاصة كمبدأ أساسي ، بدون اخضاعها لتحليل نقدي ، وكان يعترف له كمأثرة رئيسية بكونه على وجه التحديد قد باشر هذا التحليل .

ومع تقديره لمآثر برودون ، كان ماركس يلومه ، في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، على كونه لم يدفع الى النهاية نقده للاقتصاد البرجوازي وكونه وقف مثله على مستوى الملكية الخاصة في انضاجه لمنظومته .

رغم هذه التحفظات ، ظلت علاقاته مع برودون ودية أثناء وجوده في باريس . كان لا يزال بينهما ما يكفي من النقاط المشتركة التي تتيح تقاربا على الاقل موقتا كانا كليهما يستفيدان منه . فقد كان ماركس يجد عند برودون عناصر عديدة تؤيد تصوراته الجديدة ، ليس فقط نقدا معمقا للملكية الخاصة بل أيضا تأكيد أن

---

(١) انظر ميغا ١ ، حـ٢ ، ص ٢٦٣ . الصحيفة الراينية ، رقم ٢٨٩ ، ١٨٤٢/١٠/١٦ . ك. ماركس: الشيوعية وصحيفة آوغسبورغ العامة .

انظر نفس المرجع ، حـ٢ ، ص ٥٧٣ . رسالة ماركس الى روجه ، كروزنياخ ، ايلول ١٨٤٣ . روجه لم يكن عنده نفس الرأي عن برودون ، وقد انتقد كتابه « خلق النظام في الانسانية » في رسالة بعث بها الى ماركس بتاريخ ١٨٤٣/٨/١١ (انظر ميغا ، ١ ، حـ٢ ، ص ٣١٤) : « برودون اصدر لتوّه كتابا كبيرا هو منظومة حقيقية : خلق النظام في البشرية او مبادىء التنظيم السياسي . القسم النظري المنظومي ضعيف جدا ، بالمقابل انه يبدي راديكالية شديدة ازاء الدين . ينفيه ، ينقد الفلسفة كسفسطة يعارضها بالعلوم . لست بعد متقدما بشكل كاف في هذه القراءة ولكني ارى من الان ان فاعليته العملية تفوق نظريته ، تفوق ايمانه في بناء منطقي منظومي ومطلق » .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، حـ٣ ، ص ١٨ ، الى الامام ، ٧ و ١٨٤٤/٨/١٠ . ك. ماركس : ملاحظات هامشية .

(٣) انظر رسالة ماركس عن برودون في الاشتراكي الديمقراطي ، مرجع مذكور ، ص ٢٣٢ : « على اي حال ، كان لهجماته على الدين والكنيسة فضل محلي كبير في وقت كان فيه الاشتراكيون الفرنسيون يفاخرون بعواطفهم الدينية وكانها تفوق على فولتيرية القرن الثامن عشر وعلى الالحاد الالماني في القرن التاسع عشر » .

الاقتصاد السياسي يؤلف قاعدة التاريخ ويضبط التطور الاجتماعي (١) . تلك بالحقيقة لم تكن عند برودون سوى ملاحظات معزولة وموزعة مشتتة تتباين بحدة عن جملة مفهماته المثالية .

وبالمقابل ، ان تأثير ماركس على برودون لم يكن شيئا ممكن اهماله . هذا نستخلصه بشكل خاص من رسالة كتبها برودون الى برغمان في ٢٤ – ١٠ – ١٨٤٤ عرض فيها وجوب لفظ وجهة النظر المثالية والذاتية في دراسة التطور الاجتماعي . على حد قوله : « ... الاجتماع ، الاخلاق ، العلاقات الاقتصادية ، هذا كله ، كي لا نكون عسفيين ، يجب ان يدرس **موضوعيا** ، في **الاشياء** . يجب التخلي عن وجهة النظر الذاتية ، المعتمدة الى هنا من قبل الفلاسفة والمشرّعين ، والبحث خارج مفهمة **العادل والخير** الغامضة عن القوانين التي يمكن أن تخدم في تحديده (تحديد التطور الاجتماعي) والتي يجب ان تكون معطاة لنا موضوعيا في دراسة العلاقات الاجتماعية التي خلقتها الوقائع الاقتصادية (٢) » .

ان تصورا ماديا للتاريخ كهذا التصور لا يصادَف لا في مؤلفات برودون السابقة ولا في مؤلفاته اللاحقة ، ولا يمكن الشك في أنه لئن كان يتكلم هكذا ، وهو أمر ناشز عنده ، عن مفهمة غامضة للعدل والخير ، وعن ضرورة دراسة العلاقات الاجتماعية التي تخلقها الوقائع الاقتصادية ، من وجهة نظر ليست ذاتية بل موضوعية ، فذلك تحت التأثير المباشر لماركس .

بعد طرد ماركس، سيفترق سبيلاهما اكثر فأكثر تحت فعل تعارض مفاهيمهما الاقتصادية والاجتماعية . هذا الافتراق سيظهر بعد عامين في وضح النهار ، والنقد الذي لا رحمة فيه الذي سيوجهه ماركس الى برودون في **بؤس الفلسفة** سينهي علاقاتهما .

فلهلم فايتلنغ والشيوعية في سويسرة

كان ماركس في تلك الفترة يحتفظ باعجاب كبير لـ ف. فايتلنغ w. weitling بسبب الطابع الثوري لمذهبه وعمله . كان يقارنه مع برودون ، فيعتبره أعظم منظّر للطبقة العاملة الالمانية ، وفي جوابه على روجه ، الذي كان قد انكر عن هذه الطبقة القدرة على التعلم وعلى التحرر ، ذكره كأروع مثال عن البروليتاري الثوري . « فيما

---

(١) انظر برودون : عن خلق النظام في البشرية . بشكل خاص الفصلين ٤ و ٥ ، عن الاقتصاد السياسي والتاريخ .

(٢) انظر المراسلات ، حـ٢ ، ص ١٦٦ .

يتصل بدرجة وقدرة التربية للعمال الالمان ، اكتفي بالتذكير بالمؤلفات العبقرية لفايتلنغ weitling الذي كثيرا ما يتخطى برودون من الوجهة النظرية وان كان ادنى منه من وجهة التأليف Composition . هل تستطيع البرجوازية ، مع فلاسفتها وعلمائها ، ان تظهر مؤلَّفا من شأنه ، على صعيد التحرر البرجوازي أي التحرر السياسي ، أن يقارن بـ **ضمانات التناسق والحرية** لـ فايتلنغ ؟ اذا قارنا تفاهة الادب السياسي الالماني بهذه البداية الادبية اللامعة والخارقة للعمال الالمان ، اذا قارنا هذا الحذاء ، حذاء البروليتاريا الالمانية الطفلي الضخم بحذاء البرجوازية الالمانية الصغير والمهترىء ، لما أمكننا الا التنبؤ بكتفي بطل رياضة لسندريلا الالمانية (١) . » .

والأرجح ان هذا التقدير الاطرائي لمؤلفه دفع فايتلنغ الى أن يبعث بتاريخ ١٨ - ١٠ - ١٨٤٤ برسالة الى ماركس دعاه فيها الى تراسل ودي معه . فقد كتب له من لندن : « أعتقد انني تعرفت عليك في بعض مقالات **الى الامام** ، بمقارنتي الروح التي تحركها مع ما قيل لي عنك . قرأتها بسرور . لا أحتاج لان أسهب حول هذا الموضوع . نحن أصدقاء وبوصفنا كذلك أعتقد أننا نستطيع أن نتبادل أخبارنا من حين الى آخر (٢) . »

والأرجح ان ماركس لم يرد على هذه الرسالة ، والتراسل الذي تمناه فايتلنغ لم يحصل . والسبب ان ماركس ، مع تقديره العالي جدا لفايتلنغ كمكافح ثوري ، كان ينفصل عنه انفصالا عميقا في مفهمته للتطور التاريخي وللشيوعية . وهذا كان حائلا دون أي تقارب وثيق بينهما ، لاسيما وأن فايتلنغ كان بتطور معاكس لتطور ماركس يصب في شيوعية طوباوية وصوفية .

بعد مصادرة كتابه **انجيل الخاطئين المساكين** في حزيران ١٨٤٣ (٣) ، كان قد اعتقل وحكم في أيلول بالسجن عشرة أشهر . واذ طُرد في ٢١ أيار ١٨٤٤ من سويسرة، فقد سلم الى شرطة دولة بادن التي سلمته الى السلطات البروسية . ووضعته الحكومة البروسية بادىء بدء في الاقامة المراقبة ، ثم ، رغبة في التخلص منه، سمحت له بالسفر الى هامبورغ حيث وصل في ١٨ آب ١٨٤٤ . واستفاد فايتلنغ من وجوده في هامبورغ ليبحث نشر قصائده المكتوبة في السجن مع الناشر كامبه ، وعند هذا الاخير صادف هاينه الذي ترك لنا عنه لوحتين مثيرتين (٤) . هذه القصائد التي

---

(١) انظر ميغا ، جـ٣ ، ص ١٨ .

(٢) رسالة منقولة في بارنيكول : فايتلنغ السجين وعدالته ، كيل ، ١٩٢٩ ، ص ٢٦٥ وبعدها . انظر ف. فايتلنغ : ضمانات التناسق والحرية ، برلين ، ١٩٥٥ ، ص‌ص ٣٣ - ٣٨ .

(٣) انقذت المخطوطة ونشرت في ١٨٤٥ تحت عنوان انجيل الخاطىء الفقير .

(٤) انظر هـ. هاينه : المؤلفات الكاملة ، اصدار ا. الستر ، لايبتسيغ ، ١٨٩٠ ، جـ٤ ، ص‌ص ٥٢٣ - ٥٢٥ ، ورسالة هاينة الى ماركس في ٢١ - ٩ - ١٨٤٤ .

صدرت في العام نفسه تحت عنوان **قصائد السجن** عديمة القيمة الادبية (١) . وهي تشهد بانحدار فايتلنغ الفكري ، الذي كان يشتد بلا انقطاع منذ **ضمانات التناسق والحرية** . بعد أن كان في **انجيل الخاطئين الفقراء** قد جعل من الشيوعية تحقيق المسيحية البدائية الاولية ، كان في هذه القصائد يتخلى عن كل منظور ثوري .

كلما ازداد شعوره بالعجز ازداد عنده الاتجاه المسيحاني (الخلاصي، المسيحي) الذي كان يحمله على اعتبار نفسه مخلّص البشرية . هذا الاتجاه الى المسيحانية ، الذي نجده في مؤلف آخر كتبه أيضا في فترة سجنه : **عدالة . لوحات من الواقع وتأملات سجين** (٢) ، كان يأتي بصورة رئيسية من كونه لم يجد في سويسرة بروليتاريا ثورية تحوّله عن الطوباوية . وكان الاتجاه المذكور يتعزز بعبادة اتباعه وبالصعوبات المتزايدة التي كان يصطدم بها وبنضاله ضد الحركة المناهضة للدين لجماعة « المانيا الفتاة » الذي كان يشدد ميله الى الصوفية (٣) .

كان في هذه الوضعية الروحية حين ذهب في أواخر آب ١٨٤٤ الى لندن، حيث نظّم الشيوعيون عند وصوله عيدا على شرفه (٤) .

ومكث فايتلنغ ، مع بعض الانقطاعات ، سبعة عشر شهرا في لندن . كان يجد فيها وسطا آخر مختلفا تماما عن سويسرة ، وسطا لا حرفيا بل بروليتاريا . ولقد خاب أمله واحمضّ طبعه حين رأى انه ليس له على الاعضاء اللندنيين في « رابطة العادلين » الذين كانوا بتماسهم مع البروليتاريا الانكليزية قد تخطوا مرحلة الشيوعية الطوباوية نفس التأثير الذي له على الحرفيين السويسريين (٥) .

بدلا من أن يستفيد مثل أنجلز من حياته في لندن ليعيد النظر في مفاهيمه ،

---

(١) عن قصائد السجن انظر المسيحية والاشتراكية . مصادر وعروض ، نشر بارنيكول ، حا ، « فايتلنغ السجين وعدالته » ، تحليل نقدي للمسيح الاشتراكي وعمله ، كيل ، ١٩٢٩ ، قصائد السجن ص‌ص ١٤٩ — ١٨٤ .

(٢) انظر المسيحية والاشتراكية ، بارنيكول ، ح٢ ، « عدالة . لوحات ... » ، طبعة أولى ، كيل، ١٩٢٩ .

(٣) ليس فقط كان يعتبر الدين ، في شكل المسيحية الاولى التي باسمها كان ينقد المجتمع البرجوازي ، الشيوعية الحقيقية ، ولكنه كان يرى فيه أعلى مصدر عزاء وتشجيع للبشر . « انه ، على حد قوله ، مرساة النجاة في العواصف التي تخض حياة البشر اليائسة ، وهم لن يستطيعوا الاستغناء عنه ، حتى حين سيكونون قد بلغوا أعلى درجات السعادة الارضية » . انظر انجيل الخاطىء الفقير ، برن ، ١٨٤٥ ، ص ٢٥ .

(٤) انظر ف. مهرنغ F. Mehring : تاريخ الاشتراكية الديمقراطية الالمانية ، شتوتغارت، ١٩١٩، حا ، ص ٢٣٢ .

(٥) انظر ا. بارنيكول : « فايتلنغ السجين وعدالته » ، مرجع مذكور ، ص ٣٨ وبعدها .

ظل محصورا في أفكاره التي لم يكن يتحمل أن تنقد (١) .

ولئن كان لا يؤثر تأثيرا عميقا على شيوعيي لندن ، فقد كان تأثيره بالمقابل غالبا في سويسرة ، حتى بعد طرده ، على الحركة الشيوعية .

هـذه الحركة كانت تواصل نموها وهـي تكافح عصبة « ألمانيا الفتـاة » الديمقراطية . كان قادة هذه العصبة ، وبشكل خاص فلهلم مار wilhelm Marr (٢) ، يجعلون من **جوهر المسيحية** لفويرباخ انجيلهم ويبشرون في كتاباتهم وفي مجلتهم **اوراق الازمنة الحاضرة من أجل الحياة الاجتماعية** بنزعة انسيَّة ملحدة ذات طابـع فوضوي (٣) . كانوا ، وهم يعادون الشيوعية لاسباب شبيهة بأسباب الهيغليـين الشبان الفرديين ، يفكرون ان المظالم الاجتماعية هي بصورة رئيسية نتاج الاحكـام المسبقة الباطلة ويقلصون على هذا الاساس العمل الاصلاحي الى قضية تربية (٤) .

بنضالهـم ضد الانسية الملحدة لجماعـة « ألمانيا الفتاة » كان الشيوعيـون السويسريون مساقين الى أن يشددوا أكثر الطابع الديني والطوباوي لمذهب فايتلنغ. العضوان الرئيسيان في المجموعة الشيوعية كانا سيباستيان سيلر (٥) و أوغست بيكر Auguste Becker الـذي استلم قيادة المجموعة بعد طرد فايتلنغ (٦) . لم يكـن ا. بيكر مثل فايتلنغ عقلا مستقلا ومفكرا أصيلا . بعد التزامه بالحركة الجمهوريـة تحت تأثير القسيس فايديغ ، كان قد كسب الى الشيوعية على يد فايتلنغ . كان ذا

(١) عن هذه الحقبة في حياة فايتلنغ انظر ك. كالر : ف. فايتلنغ ، زوريخ ، ١٨٨٧ ، ص‌ص ٤١ - ٤٥ ، و مدخل ب. كاوفهولد الى « ضمانات التناسق والحرية » لفايتلنغ ، برلين ، ١٩٥٥ .

(٢) فلهلـم مار ولد في ١٨١٧ في هامبورغ . مؤلفاته : دين المستقبل مشروح للقراء الشعبيـين ، لوزان ، ١٨٤٤ ، المانيا الفتاة في سويسرة ، لايبتسيغ ، ١٨٤٦ .

(٣) انظر فريدريـك فويرباخ : دين المستقبل - ذكريات من حياتي الدينية ، الكونتوار الادبـي ، زوريخ ، ١٨٤٣ .

(٤) انظـر تشابه حجج ف. مار و ب. باور ضد الشيوعية . انظر ف. مار : المانيا الفتاة فـي سويسرة ، لايبتسيغ ، ١٨٤٦ ، ص ١١٨ - ١١٩ . « الشيوعية تعبير عن نقص قدرة . الثقة في النفس تنقص الشيوعيين . اذ يقاسون من الاضطهاد الاجتماعي فانهم لا يبحثون عن سلاح للتحرر بل عن اسباب للعزاء . اجل انهم يدركون التفاوت الفظيع الحاكم على الارض ولكنهم يرونه من خلال النظارات الشاحبة للوعي الطبقي البروليتاري . اجل انهم يصفون في كتاباتهم وضع الاشياء الحاضر ولكنهم لا يعللونه . اجل يعترفون للبشر بحق اجراء اصلاحات ولكنهم لا يرون ان البشر انفسهم هم سبب وضع الاشياء هـذا . المسـاواة تجعلهم ينسون الحرية ... في الواقع الخارجي يكمـن بالنسبة لهم سبب كل الشرور . الشيوعية لاهوت اجتماعي ، لها كتبها المقدسة ، انبياؤها ، مسيحوها ، سماؤها » . عن هذه الحركـة انظر ا. كالر : فايتلنغ ، ص‌ص ٥٠ - ٥٢ .

(٥) S. Seiler كتب آنذاك كراسين شيوعيين عنوان احدهما : « الملكية في خطر ! او ماذا يمكـن لالمانيا وسويسرة ان تخشياه من الشيوعية ومن الايمان العقلاني ؟ » .

(٦) عن ا. بيكر A. Becker انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

صفات تنظيمية وتحريضية عظيمة وكان يظهر نشاطا كبيرا كداعية . في الكراسات التي كتبها آنذاك ، **الفلسفة الشعبية الراهنة** وخصوصا **ماذا يريد الشيوعيون ؟** ، كان يشدد الجانب العاطفي في مذهب فايتلنغ ، ويخفف مداه الثوري أكثر . وفي رسالة كتبها الى فايتلنغ ذهب الى حد المناداة بتصالح الطبقات وتحالف الفقراء والاغنياء (١) .

في أحاديثه الى العمال وفي كراساته ، لم يكن يستطيع أن يدعو بهذه الصراحة الى هذا التآخي بين المستغلِين والمستغَلين . كراساته كانت تقدم نفس الخليط الفريد من شيوعية وانسانية عاطفية مصبوغة بالدينية الذي كان طابع كتاب فايتلنغ الاخير : **انجيل خاطىء فقير** .

في كراسه **ماذا يريد الشيوعيون ؟** (٢) ، الذي كان ـ وهذا ما يصنع أهميته التاريخية ـ مثل « أسئلة وأجوبة » موزس هس نوعا من صورة سابقة ، بالحقيقة متواضعة تماما ، عن **البيان الشيوعي** ، كان ا. بيكر يعرض ان هدف الشيوعية هو الغاء الملكية الخاصة ، الالغاء الذي يسوّغه بكونها ظالمة وشريرة (٣) .

طابعها الظالم يتجلى ، على حد قوله ، بسيطرة المال التي تولدها والتي صارت

---

(١) انظر كالر ، مرجع مذكور ، ص‌ص ٤٦ ـ ٥٨ . رسالة بيكر الى فايتلنغ ، أيار ١٨٤٣ : « ليس للشعب اي حق في الحقد على مضطهديه كما ليس لهؤلاء اي حق في ازدراء عبيدهم . هؤلاء واولئك يجب ان يلعنوا ويدمروا تنظيما اجتماعيا يحكم عليهم بان يعيشوا حياة بهذا الزيف وهذه اللاانسانية . جميعهم في آن معا مذنبون وابرياء حسب وجهة النظر التي نقف فيها . لو لم يكن الفقراء بهذه الدرجة من الكسل والبهيمية ، لما وجد الاغنياء . ربما كان هذا ضروريا لتنوير الشعب . انت ، نعم انت ، عليك ان تكتب الان كتابا بعنوان « تبرير الغني » يجب ان يبدأ هكذا : نحن ذاهبون الى امام انهيار هائل وفظيع سيزلزل العالم ، الخ . ان صرخات الم الذين سيولدون العالم الجديد ستدوي فوق كل الارض ومن قطب الى آخر ستملأ البشر رعبا . معابد المال ستنهار ، الاوثان الذهبية ستغرق في اعماق البحر، الخ. عسى ان يوفر دم كهنة العجل الذهبي ، لانهم ابرياء ولا يعلمون ماذا كانوا يفعلون . بعل فتنهم وقتل في قلوبهم اله الحب . ليس من الحسن ان نريق دما بشريا اذ منه تخرج ثعابين . الفرنسيون ارتكبوا خطأ كبيرا بقطعهم راس ملكهم . هكذا قدسوا هذا الحمار الذي ما يزال في ايامنا يعبد . علينا ان نستولي على العالم من الداخل ، ان نملأ كل اوروبا بافكار الصانع ـ الخياط الفقير (فايتلنغ) وعندئذ اذا حمل احد السيف فليهلك بالسيف . الافكار حرة لا تطالها هجمات السلاح ، ومن يذهب الى الحرب ضدها بالمدافع ينته نهاية سيئة ... ستكذب الفلسفة وقلبك ، اذا كان الهدف الاخير لمذهبك ثورة عمال بائسة نريد ان تجدد جلدها البشرية جمعاء . هي ذي لعبتنا الكبيرة » .

(٢) ا. بيكر : ماذا يريد الشيوعيون ؟ (خلاصة خطاب القي في ٤ ـ ٨ ـ ١٨٤٤ امام مجلس اعضاء اتحادات عمالية شتى في غرفة النادي الشيوعي بمدينة لوزان من قبل ا. بيكر)، لوزان ١٨٤٤ . انظر ميغا ١ ، ح٤ ، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ . فر. انجلز ، صحيفة عالم اخلاقي جديد ، ١٠ ـ ٥ ـ ١٨٤٥ : « أ. بيكر ، واحد من خيرة الشيوعيين السويسريين ، اصدر محاضرة القاها في لوزان تحت عنوان « ماذا يريد الشيوعيون ؟ » هي من افضل وانبه ما اعرف » .

(٣) انظر ا. بيكر : ماذا يريد الشيوعيون ؟ ، ص ١ .

لعنة على المستغلِين كما على المستغَلين (١) .

الحق القديم ، حق الاقوى ، حل محله حق الاغنى (٢) ، الامر الذي أدى الى احتكار الثروات من قبل من لا ينتج والى استغلال الشغيلة (٣) ، الاستغلال الذي يفاقمه تطور المضاربة المتزايد دوما (٤) .

السبب الآخر لحذف الملكية الخاصة هو طابعها المؤذي الشرير . فهي ، بوضعها البشر بعضهم في معارضة بعض وبفصلها اياهم عن الجماعة وبعزلها اياهم ، تجعل منهم أفرادا أنانيين وتنزع عنهم كل طابع انساني (٥) . ان حذف الملكية الخاصة حذفا جذريا يستطيع وحده أن يتيح للبشر أن يعيشوا حياة موافقة لطبيعتهم الحقة (٦) . كل الوسائل الاخرى المستخدمة أو المتصوّرة لتحرير البشر المضطهَدين : تدمير الآلات ، اعادة نظام هيئات الحرف ، انشاء مشاغل قومية ، ليست سوى مسكنات واهمة .. خرافية أيضا شتى الوسائل المقترحة لمكافحة الفقر : رسوم حماية ،

---

(١) انظر المرجع السابق ، ص ٣ . « المال ، لاحظوا ذلك جيدا ، هو العمل المسروق ، المكدس والمحوّل الى نقود ، انه شغلكم عينه مركوما ! تعلمون الان بماذا يدفعون لكم اجرا . يا للخداع الفظيع ، بعملكم نفسه ، بجلدة أيديكم الخشنة ! يستخلصون منكم كل نخاعكم ويدفعون لكم اجزكم بعرقكم ذاته. يجلدونكم بقضبان ويدفعون لكم اجركم بالكرباج ! كتعويض عن الثروات التي انتجتموها والمسروقة منكم، عن الآلام التي تقاسون ، عن ضمور اطرافكم ، عن هدفكم الخائب ، عن سعادتكم الضائعة ، عن حياتكم الفاشلة ، يرمون لكم عظامكم ذاتها وهم يصيحون لكم : لا تهروا ايها الكلاب فنحن نعطيكم طعامكم . المال شغلكم انتم ، انتم تعطونه قيمته ، لولا ثرواتكم وعملكم العبدي الذي يمكن شراؤه والذي يشترى بعملكم المركوم ، لما كان للمال قيمة » .

انظر ص ٤ : « الشيء الاكثر مدعاة للرثاء في منظومة المال انه لا يفيد حتى اولئك الذين يبدو انه مكرس لفائدتهم . الاغنياء ايضا تعسون ، دم الشعب تحول بالنسبة لهم الى سم » .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩ : « حرروا الصناعة ، اي شيدوا قانونا الفوضى ، حق الاقوى، سيطرة المال . البعض هاجموا البعض الآخر باسلحتهم الذهبية وجردوهم وجعلوهم عبيدهم » .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٢ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٥ : « الانسان لا شيء بدون المجتمع ، انه كائن اجتماعي بالاساس ، اذا ما اخرج من المجتمع نزل الى مرتبة حيوان . الكلام الذي يخرج من فمه هو اختراع ، منتوج ، خاصة للمجتمع الانساني ، العلم والفن ، الصناعة والدين نتائج حياة البشر كجماعة ، منتوجات المجتمع » .

(٦) المرجع نفسه ، ص ١٣ ، ص ٢١ : « الحدث الكبير القادم سيحصل تحت صيحات : الحرية ، المساواة ، الحب ، التي هي حقيقة واحدة ، وصيحة : الغاء الملكية الخاصة » . ص ٢٦ ــ ٢٧ : «ان الملكية الخاصة لم تنكر يوما طبيعتها السيئة . اقرؤوا عند فايتلنغ سجل خطاياها : حروب ، مجاعة ، جشع ، عبدية ، تزلف ، جهل ، بغاء ، زنا ، تجارة رقيق ، بغض ، لصوصية ، قتل ، سرقة ، وساخة، سجن ، دولاب ، مشنقة ، ديدان ــ هل هناك رذيلة ، جريمة ، عار ، شر ، فظاعة ، دناءة، لا نستطيع ان نعزوها في معظم الحالات للملكية ؟»

تخفيض زمن الشغل ، بنك الفقراء (١) .

ان الغاء الملكية المخاصة التي يمكن حذفها بنفس سهولة خلقها (٢) و اقامة الشيوعية سيسمحان للبشر بأن يعيشوا حياة أفضل . كلّ سيستطيع أن يعمل حسب أذواقه وقدراته بحيث ان العمل سينتظم بشكل منسجم وحر (٣) . ليس فقط الشغل سيحوّل ، بل البشر سيُحولون بحكم زوال الانانية وقيام حب الغير مكانها (٤) .

كان عرض بيكر Becker مخلوطا بشتى الاعتبارات عن الدين والتاريخ التي كانت تطبع كل اليوتوبيات الاشتراكية آنذاك . في نهاية كراسة ، كان بيكر يفتح النار على « ألمانيا الفتاة » ناقدا الحادها وقومويتها ومعارضا اياها بمذهب اخاء كلي كوني مؤسَّس على المسيحية الحقة (٥) .

كانت عاطفية ودينية مؤلفات فايتلنغ الأخيرة ومؤلفات بيكر تتعززان أكثر أيضا في كتابات « النبي » آلبرشت Albrecht (٦) .

كان هذا الاخير قد التجأ الى سويسرة بعد ان صدر عليه حكم بالسجن ست سنوات ابان الملاحقات ضد « الديماغوجيين » ، وفي سويسرة كسبه فايتلنغ الى الشيوعية (٧) ، فبات آلبرشت يعطي عن مذهب فايتلنغ كاريكاتورا حقيقيا (٨) .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ص ١٣ ـ ١٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

(٣) المرجع نفسه، ص‌ص ٢٩ ـ ٣٠ : « نريد ان نعيش، ان نتمتع، وان نفهم كل شيء . يجب ان يحرر الانسان من هم تعبئة معدته البائس ، من الهوى القذر والدنيء الذي هو التعطش الاناني الى الكسب المادي . الشيوعية لا تعنى بالمادة الا لكي تسيطر عليها وتخضعها للروح ، اجل تمنحها دورا هاما وضروريا ولكنه ثانوي بالنسبة الى دور الروح . المجتمع الحاضر تهمين عليه المادة ، المجتمع القادم سيهيمن عليها . الاكل ، الشرب ، اللبس ، السكن ، ستصير اشياء ميسورة لدرجة ان الناس سيبالون بها كما يبالون اليوم بشرب الماء ليس اكثر » . انظر ص ٣٣ ، مبادىء المجتمع الشيوعي .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٤٠ ـ ٥٤ .

(٦) انظر فر. انجلز : مساهمة في تاريخ رابطة الشيوعيين ، المؤلفات المختارة لماركس وانجلز ، برلين ، ١٩٥٨ ، حـ ٢ ، ص ٣٢٢ . « ان تقليص الشيوعية على يد فايتلنغ الى المسيحية الاولى ... جعل ان الحركة الشيوعية في سويسرة سقطت في ايدي مجانين مثل البرشت ، ثم دجالين مثل كولمان » kuhlmann

(٧) انظر كالر ، مرجع مذكور ، ص‌ص ٣٨ ـ ٣٩ . بيكر حذر فايتلنغ من آلبرشت . كتب له : « تستطيع ان تستخدمه كمتجول ، ولكن لا ترتبط معه بشكل اوثق . لم تقرأ كتاباته الغريبة ، والا لكان لديك رأي آخر عنه . انه يجعل كل الاشياء مشتقة من اسباط اسرائيل الاثني عشر ، وان اعادة سناء سليمان تبدو هي الحلم الذي يسكن أيام شيخوخته . اعلم انه يريد ايضا شتى انواع التحويلات الاجتماعية المستوحاة هي ايضا من التوراة ، مثل تعدد الزوجات الذي يقدم ابراهيم وسليمان مثاله » .

(٨) انظر مؤلفاته : احياء مملكة صهيون ، نداء الى العالم في حداد ، العودة القريبة الى مذبح الحرية ، الهدف في وميض الورود ، نداء الى ابطال زمننا .

الى النبي آلبرشت، الذي ظل في نصف ـ جنونه رجلا شريفا ومقتنعا، انضم اعتبارا من ١٨٤٤ مشعوذ حقيقي ، جورج كولمان kuhlmann ، الذي كان أدبه الطنان موجها بالواقع ضد الشيوعية (١) .

استطاع ان يسحر بيكر الذي أثنى عليه ثناء متحمسا في ملحق بكراسه **ماذا يريد الشيوعيون (٢)؟**

وسيصفي ماركس وانجلز بشكل صارم حساب هذا المشعوذ في **الايديولوجيا الالمانية** (٣) .

جريدة « الى الامام »

لما كان ماركس وانجلز يربطان أكثر فأكثر فكرهما وعملهما بنشاط البروليتاريا الثورية ، فقد كان لا بد لهما من ان يلفظا الديمقراطية البرجوازية والاشتراكية الاصلاحية والشيوعية اليوتوبية ، مع سير انكشاف تعارض هذه المذاهب مع مفاهيمهما ومع تطور النضال البروليتاري .

ان اولى تصفياتهما الكبرى للحسابات كانت مجادلة ماركس ضد روجه Ruje بمناسبة مقال كتبه هذا الاخير عن اضراب عمال النسيج وعن طبيعة ودور الثورة ونشر في جريدة **الى الامام** .

كانت الـ Vorwaerts (الى الامام) ، وهي جريدة نصف ـ اسبوعية المانية تصدر في باريس واصبحت جريدة معارضة ، تلعب دورا هاما بين المغتربين الالمان . كان قد أسسها في اوائل ١٨٤٤ رجل اعمال مقدام ، اسمه هنري بورنشتاين Boernstein ، كان قد فتح مكتب ترجمة ، فيه كان يجري ترتيب القطع الفرنسية الناجحة حسب ذوق الجمهور الالماني . وكان قد ضم اليه في أيلول ١٨٤٣ « مكتبا

(١) مولود في مقاطعة هولشتاين ، درس في هايدلبرغ ، القى في ١٨٤٣ محاضرات عن « الحاجات الروحية والمادية لزمننا » . في ١٨٤٤ سافر الى سويسرة حيث نشر في ١٨٤٥ كتابه العالم الجديد او مملكة الروح على الارض . فيه كان يبشر باصلاح اجتماعي غامض يجب ان يحصل بدون ان يصيب امتيازات الطبقات الحاكمة . اصبح فيما بعد عميلا لمترنيش Metternich وارسل الى مكتب المعلومات المركزي التابع له في ماينتس تقارير عن الحركة العمالية . عن كولمان انظر كالر ، مرجع مذكور ، ص ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) انظر آ. بيكر : ماذا يريد الشيوعيون ؟ ، ص ٥٤ .

(٣) انظر ميغا ، ، حـ٥ ، ص ص ٥١٩ ـ ٥٢٨ .

مركزيا للانتداب والاعلان والعلاقات التجارية بين فرنسا والمانيا » كان يعد بين زبائنه في المانيا أمراء وديبلوماسيين وأعضاء من طبقة النبلاء . كان قد أنشأ أيضا منظمة لمساعدة ونجدة الالمان المعوزين في باريس (١) .

ولغرض مساندة وتطوير مشروعاته أسس بمساعدة الموسيقار ميربير Meyerbeer جريدة «**الى الامام**» وتحت هذا العنوان « اخبار باريس حول الفنون والعلوم والمسرح والموسيقى والحياة الاجتماعية (٢) » . كانت في البداية جريدة انباء ذات اتجاه سياسي معتدل جدا (٣) . في اصدار العدد الاول نقرأ : « ستكون جريدة المانية ، ولكن ليس بمعنى جرمانية متطرفة ، معادية لكل ما هو اجنبي . ستعطي نفسها كمهمة ان تكرم كل ما هو خير وجميل ، في المانيا وفي الخارج على حد سواء ، وان تندد بكل ما هو مفرط وسيء . بالحقيقة نحو النور ، بالنور نحو الحرية ، هذا هو شعارنا . ان « الى الامام » ليست جريدة مدمرة ، بل لها كهدف تقدم لا ينقطع، هادىء وبطيء (٤) » .

رئيس التحرير ، آدالبرت فون بورنشتدت ، وهو ضابط بروسي نسيب الاشراف ، مطرود من الجيش لسوء سلوكه ، كان قد جاء الى باريس للعمل في الصحافة . ولما اثقلته الديون وضع نفسه في عمالة الحكومتين البروسية والنمسوية مع مهمة التجسس على اللاجئين السياسيين (٥) . تحت قيادته سلكت الجريدة بادىء بدء خطا سياسيا رجعيا كان يظهر في الاطراء العبدي للامراء الالمان وفي الحملات على كتاب « المانيا الفتاة » الاحرار وعلى الميول الراديكالية **للحوليات الفرنسية ـ الالمانية** (٦) . هذا الموقف جعل أحد أصدقاء هـ. هاينه ، وهو آلكسندر فايل ، يكتب ، في آذار ١٨٤٤ ، في **تلغراف** هامبورغ ، ان **الى الامام** تبين انه حتى بدون الرقابة تستطيع جريدة ان تكون غبية وحقيرة . كذلك رأي روجه الذي كتب ان

(١) انظر هـ. بورنشتاين : خمس وسبعون سنة في العالم القديم والجديد (بالالمانية) ، لايبتسيغ ، ١٨٨١ . انظر ايضا ف. مهرنغ : مؤلفات بعد الوفاة (ماركس وانجلز) ، حـ٢ ، ص ٢٠ .

(٢) بالالمانية .

(٣) انظر هـ. بورنشتاين ، المرجع المذكور ، ص ٣٣٨ : « الى الامام ، التي كانت في البداية جريدة معارضة دستورية الميل نصيرة تقدم معتدل ، مكرسة لتسلية القراء اكثر منها لمساندة اتجاه سياسي ، كانت ... في الاشهر الستة الاولى محررة بالكامل بقامي وقلم بورنشتدت وقلم ماريتسيك . » .

(٤) انظر الى الامام ، العدد رقم ١ ، ١٨٤٤/١/٢ .

(٥) عن آ. فون بورنشتدت : انظر رسالة هاينه الى لوالد ، ١٨٣٨/٤/٢٤ . انظر مقال فالتر فوم برجه (وهذا اسم مستعار لبورنشتاين) في الفصول ، هامبورغ ، ١٨٤٤ ، ص ١١٩٥ وبعدها .

(٦) انظر الى الامام ، رقم ١٠ ، ١٨٤٤/٣/٩ . قصيدة بورنشتاين « الحوليات الفرنسية ـ الالمانية». انظر ايضا الى الامام ، رقم ٢٨ ، ٦ نيسان . « نشيد على شرف السيد هنري هاينه » ردا على «الاناشيد على شرف الملك لودفيغ بافاريا » الصادرة في الحوليات الفرنسية ـ الالمانية .

الى الامام اسوأ ايضا من الصحف الصادرة في المانيا (١) .

كي لا تنفر المغتربين الالمان الذين يؤلفون جمهور قرائهـــا الرئيسي والالمـــان التقدميين الذين كانوا يحصلون على الجريدة التي منعت في المانيا منذ البداية بطريق التهريب ، كانت **الى الامام** مضطرة الى ان توجه ايضا بعض الانتقادات الى الحكومتين البروسية والنمسوية (٢) .

واذ لم يكن باستطاعة بورنشتدت ان يوافق على هـــذه الانتقادات فقـــد ترك الجريدة حوالي منتصف ايار ١٨٤٤ وسافر الى لندن .

بورنشتاين ، وقد غدا الآن في صف الاتجاه الانساني وميالا لان يعطي **الى الامام** طابعا اكثر جذرية (٣) ، دعا برنيز C. Bernays ليحل محله في القيادة (٤) .

بعد ممارسته المهنة القضائية وكتابته كراسا مطبوعا بروح الولاء عنوانه « **المانيا ودساتير فرانكونيا** » ، كان برنيز قد دخـــل المعارضة حين نشر في **الصحيفة الراينية**

---

(١) انظر آ. روجه : المراسلات ، حـ١ ، ص ٣٣٤ . رسالة روجه الـــى فلايشر ، ١٨٤٤/٥/٢٠ : « هؤلاء الاشخاص المحرومون من المعرفة ومن الثقافة يكتبون في ظـــل حرية الصحافة بنفس الغباء الـــذي يكتب به زملاؤهم في المانيا في ظل الرقابة » .

(٢) انظر الى الامام رقم ١ ، ١٨٤٤/١/٢ « الى ماذا تحتاج المانيا قبل اي شيء ؟ » ، « بـــدون راي عام ، تكون امة من الامم بلا وزن ولا كرامة ولا اعتبار . فقط حرية الصحافة تسمح بصياغة الراي والتعبير عنه ، ومن جهة اخرى ان علانية القضاء تجر وراءها علانية الادارة والحكومة والدولة » .

انظر ايضا العدد ٦ ، ١٨٤٤/١/٢٠ ، « لا ثورة في المانيا » ، « لدينا كثير من الاشياء الهامة والمباشرة يجب ان نستولي عليها : حماية صناعتنا ، حريـــة الصحافة ، علانية القضاء ، ضمان الحقوق المدنية ، التي عليها يجب ان نبذل كل جهودنا ، بدلا من ذلك يفضلون الان الاهتمام بكل ترهات الاشتراكية ، هذه الاشتراكية التي يعترف اشد انصارها حماسا بانها عمليا مستحيلة التحقيق ... الحكومات تبتهج لذلك بطبيعة الحال ، اذ بما ان الالمان يمتطون من جديد خيلهم التاملي ويحلمون بدلا من ان يفعلوا ليس هناك ما يخشى عليه منهم » .

(٣) انظر بورنشتاين : خمس وسبعون ... ، ص ٣٥٠ : « لـــم البث ان اعتنقت مبادىء الانسية . كان يدعى آنذاك انسية ما يدعى الان اشتراكية مع هذا الفارق الا وهو ان الانسية كانت تحصر نفسها في الكتابات والكلام والبحث العلمي بينما الاشتراكية تمارس فعلها على الحياة وتسيطر حتى على السياسة. كان برنامج الانسية : ان البشر لا يجوز ان يفصلوا بحواجز مصطنعة او طبيعية : لغـــات ، اباطيل دينية او فروق اخرى ، ولا ان يعارض بعضهم ببعض بفروق القوميات ، الدول . يجب ان يلغـــى الفصل وان نحل محله وحدة كل البشر المؤسسة على مبادىء الحرية والمساواة والاخاء الابدية . ان مهمة هذه الوحدة يجب أن تكون هي حذف كل الفروق المتولدة خلال العصور من تطور اوروبا التاريخي بين المالكين وغـــير المالكين ، بين الاغنياء والفقراء ، بين المؤمنين وانصار الفكر ـ الحـــر ، في سبيل اقامـــة الانسجام بين البشر ، في سبيل تحقيق السياسة الكبرى للبشرية الموحدة وتاسيس مملكة السلام الابـــدي . واذ كنت شابا وذا ذهن حاد ، فقد تحمست بسرعة لهذا البرنامج المستقبلي ووضعت جريدتي الى الامام في تصرف الانسيين الذين كانوا بلا جريدة » .

(٤) عن برنيز انظر ف. مهرنغ ، مرجع مذكور آنفا ، حـ٢ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

نقدا لمجلس بافاريا . واستقال ليقود مع ك. غرون **صحيفة المساء** في مانهايم ، فأعطى هذه الجريدة لهجة راديكالية لدرجة انه اضطر الى مغادرة دوقية بادن افلاتا من الملاحقات .

من ستراسبورغ حيث كان قد أقام موقتا كان يسلي نفسه بارساله اخبارا غريبة مضحكة وغير معقولة الى صحف حكومية كانت « تشرشح » نفسها بنشرها (١).

برنيز لم يكن فقط صحافيا خفيف الروح ، بل كان ايضا ثوريا مقتنعا ومتعطشا الى العمل . وقد كتب يقول : « بالنسبة لي ، الاقوال لا يمكن ان تكون بديلا عن الحراب والمدافع . لست أديبا ولا أريد أن أكون . » .

واذ رحل الى باريس حيث كان يأمل ان يجد حقلا افضل للعمل ، فقد ساهم اولا في **الحوليات الفرنسية ــ الالمانية** (٢) ، ثم في **الى الامام** حيث نشر بتاريخ ٨ و ١٥ ايار مقاله **رسائل فرنسي عن المانية** الذي كان نقدا لاذعا للامراء الالمان (٣) .

وفي نفس الوقت مع برنيز ، بدأ لفيف من الكتاب التقدميين ، ولا سيما العاملون سابقا في **الحوليات الفرنسية ــ الالمانية** ، بدؤوا يعملون في **الى الامام (٤)** .

هاينه نشر فيها بتاريخ ١١ ايار « امبراطور الصين » ، ١٦ ايار « تهدئة » ، ١٦ حزيران « الاسكندر الجديد » حيث سخر من فريدريك غليوم الرابع ، وفي ١٠ آب

---

(١) انظر ف. مهرنغ، ح٢، ص ص ٢٢ ــ ٢٣ . « راهن على ان ينشر في ثمانية أيام في صحف وطنية خمسين خبرا جلي الغباء . لهذا الغرض استحصل على خاتم ذي تاج شريفي يعلو الحروف الاولى C.V.R. وعلى ورق مكاتيب مذهب ، وكان يرفق حسب المناسبات امضاءه بلقب بارون او كونت او مستشار حكومة . كان يقول ان الاخبار التي يرسلها قد اخذها من اعلى الشخصيات وكسب رهانه بشكل لامع . هكذا صدر ذات يوم في الصحف الاكثر ولاء نبا آمال اميرات بلغت عمرا محترما ونيف ، وفي يوم آخر قرا الناس في صحيفة رسمية في مانهايم « مدينتنا كان لها حظ لم تامله فقد رات في شوارعها موكب خيول سعادته الملكية يسبق سعادته الى المناورات » . اخيرا وصف لودفيغشافن Ludwigshafen التي لم يكن فيها آنذاك سوى بيت واحد ، وصفها بانها مرفا نهري مزدهر ، له في تصرفه مستودعات كبيرة في كوزل ولاندشتول وبليسكاستل ، وهي قرى ضائعة على جبال تقع على مسافة ٨٠ كيلومتر من نهر الراين . بعد ان كسب رهانه ، نشر برنيز كراسا بعنوان : « حكايات لشرشحة كل صعاليك الصحافة والرقابة الالمان كشف فيه خدعته » .

(٢) انظر الحوليات « البروتوكول الاخير لمؤتمر الوزراء في فينا » .

(٣) انظر مهرنغ ، مرجع مذكور ، ج٢ ، ص ٢٣ .

(٤) انظر بورنشتاين : ٧٥ سنة ... ، ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ : « ما لبثت الى الامام ان ضمت جماعة من المحررين لا نظير لهم في اية جريدة اخرى . (بورنشتاين يذكر بينهم : برنيز ، بورنشتدت ، روجه ، ماركس ، هاينه ، هرفغ ، باكونين ، ج. فيرث ، ج. فيبر ، ف. انجلز ، افربك ، برجرز) . ولما كانت الى الامام الجريدة الالمانية الوحيدة الراديكالية وغير الخاضعة للرقابة في اوروبا ، فقد نالت جذبا جديدا ورات عدد مشتركيها يزداد » .

قصيدة « الطبل » التي كانت نوعا ما نشيده الحربي (١) .

هذا النقد السياسي كان يرافقه نقد اجتماعي . هـــذا النقد الاجتماعي كـان يحفزه تمرد ٥٠٠ عامل نسيج في سيليزيا الناجم عن البؤس الذي لا يوصف المتولد من مزاحمة الآلة التي أسقطت الاجور الـــى بضعة قروش في اليـــوم (٢) . ان روحهم الثورية كانت تنكشف في نشيدهم الكفاحي (٣) .

هذه الثورة وقمعها الوحشي كانا قد حركا الراي العـام في المانيا ولفتا الانتباه الى تفاقم الفقر وعواقبه .

تحت ضغط الراي العام ، اصدر فريدريك غليوم الرابع مرسوما دعـــا فيـه السلطات الى تسهيل انشاء جمعيات خيرية لمساعدة الطبقات الكادحـة . وكان يبدي حزنه ، في أسلوب طنان ، لحالة التخلي التي يترك فيها الاولاد الفقراء ، ويدعو الى اتحاد جميع الناس الكريمين لمعالجة البؤس .

وسرعان ما تجلى رياء مواعظه . فحين اقترحت « الجمعية المركزية مـن اجـل رفع رفاه الطبقة العاملة » التي تشكلت في برلين ، حـــين اقترحت في اوكتوبر ١٨٤٤ علاجات لحذف البؤس ، امر بحلها تحت حجة انها ذات طابع واهداف ثوريـة ، مـع انها كانت مؤلفة في غالبيتها من برجوازيين اغنياء لم يكونوا يفكرون ابـدا بالحاق اذى بالنظام القائم .

ان ثورة عمال نسيج سيليزيا ومسالة الفقر كانتا موضع مقالات عديدة في **الـى الامام** ، وبشكل خاص « اغنية عمال النسيج» لـ هـ. هاينه الذي جلد فيها لا انسانية النظام الرأسمالي (٤) .

---

(١) انظر الى الامام ، ١٠ آب ١٨٤٤ . « اقرع الطبل بلا خوف وعانق عاملة الكانتين . هذا هو العلم الحق ، معنى الكتب العميق . ايقظ بطبلك الناس من رقادهم ، اقرع الطبل بقوة فتية سائرا ابدا فـي الصف الامامي . هذا هو العلم الحق ، الفلسفة الحقة ، هذا هو المعنى العميق للكتب . لقد فهمته جيدا لان ذهني نبيه ولانني قارع معلم » .

(٢) عن ثورة عاملي نسيج سيليزيا ، انظر زمرمان : ازدهـــار وانحطاط صناعة الكتان في سيليزيا ، لايبتسيغ ١٨٩٢ . انظر ايضا فيغان ، المجلة الفصلية ، لايبتسيغ ١٨٤٥ ، جـ١ ، ص ٢٨٦ . ونوفرك : المسالة السيليزية .

(٣) انظر كتاب العامة الالماني ، ١٨٤٥ ، ص ١٩٩ ، اغنية عمال نسيج بيترسفالدو ولانجنبيلو .

(٤) مقالات الى الامام عن تمرد عمال النسيج : ٦ تموز ، عمال نسيج جبال العمالقة ، ١٠ تمـــوز ، عمال النسيج (هاينه) ، ٢٠ تموز ، رفيق أسود ورفيق حر ، ٢٤ تموز ، الحركات العمالية في بوهيميا، ٢١ آب ، الفقر في المانيا . برلين وماجدبورغ .

مجادلة ماركس ضد روجه

ايضا بمناسبة ثورة عمال النسيج نشر روجه في **الى الامام** مقالا طويلا اثار رد ماركس .

كانت **الى الامام** قد نشرت في ١٩ حزيران ١٨٤٤ كتابا مفتوحا موجه من روجه الى **البريد السريع** في نيويورك ، حيث ردا على نقد من هذه الجريدة بصدد **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** قدم دفاعا عن الانسية ، المدعوة الى تحرير البشر بتنظيم الشغل (١) .

وقد تذرع بورنشتاين بهذا الرد ورجا روجه ان يعرض بشكل أصرح مبادىء الانسية وان يشرح اسباب خلافه مع ماركس في موضوع حقوق الانسان التي كان يثني عليها في حين ان ماركس كان ينتقدها (٢) .

في جوابه (٣) ، قال روجه ، متجاهلا الخلافات التي كانت تفصله عن ماركس ، انه يرى مثل ماركس ان المطلوب الآن هو تحقيق مبدأ الثورة الحقيقي ، مبدأ الانسية (٤) . كان يزعم انه ليس هناك سوى فرق في الشكل بين تصوره للانسية وتصور ماركس ، حيث ان ماركس علق باسهاب على تطبيقها ، بينما هو اكتفى بعرض مبادئها : « كيف يمكن ـ أجاب على بورنشتاين ـ أن ترتبك بواقع ان أحدنا يكتفي بوضع مبدأ الانسية ، بملاحظة وتسجيل وجودها ، بينما الآخر يذهب ابعد فيبين اسلوب تطبيقها. لذا اتبع التقدم دون ان تهتم بآراء بيار وبول الخاصة وتفحص ما اذا كانت الثورة القديمة مع حقوق الانسان او بالعكس نقدها الاشتراكي على حق ويقود الى تحرر البشر . اخيرا تريد ان تعلم بماذا يجب ان نستبدل التنظيم الاجتماعي الحاضر الذي تؤلف حقوق الانسان أحد عناصره الاساسية . اقرأ نقد ماركس لهذه الحقوق . انه يضع محلها شيئا معرّفا تماما . فهو يقول : « فقط حين يكون الفرد الواقعي قد استرجع في ذاته المواطن المجرد وصار ، بوصفه فردا ، في

---

(١) الى الامام ، رقم ٤٩ ، ١٨٤٤/٦/١٩ . آ. روجه الى هيئة تحرير البريد السريع في نيويورك . « بتنظيم الشغل سيكون التجمع نفسه منظما لا باسم الملكية الخاصة بل باسم الانسانية » .

(٢) المرجع نفسه ، ١٨٤٤/٧/٢٢ ، هـ. بورنشتاين : رسالة مفتوحة الى السيد آ. روجه . « انك تحطم كل شيء ولكن بماذا تريد استبداله ؟ الست تؤسس في الحوليات مذهبك على حقوق الانسان ، ولكن في هذه الحوليات نفسها الا يذهب السيد ماركس ابعد بكثير مما تذهب ؟ فكيف تريد ان لا يضيع شخص ثالث في هذا الخلاف المذهبي ؟ » .

(٣) الى الامام ، ١٨٤٤/٧/٣ . « رسالة مفتوحة الى السيد بورنشتاين » .

(٤) المرجع نفسه ، « فرنسا اعلنت وانتزعت حقوق الانسان . اضاعت هذا المكسب واسترجعته وهي تكافح الان من اجل تحقيق مبادىء الانسية التي اطلقتها الثورة في العالم » .

حياته التجريبية ، في عمله الشخصي ، في علاقاته الفردية ، كائنا جماعيا ، فقط حين يكون الانسان قد تعرف في قواه الخاصة على قوى اجتماعية ونظمها كقوى اجتماعية، حين سيكف عن الانفصال عن هذه القوى في شكل سلطة سياسية ، فقط حينئذ يكون التحرر الانساني قد تحقق . ». أليس هذا واضحا ؟ هذا التنظيم للعمل هل هو كلمة فارغة من المعنى ! واذا ما حدث ان استخدمهـــا احدهم دون تفكير كاف فهل نلـوم الذين استخدموها بعلم ودراية ؟

هذا الجواب من روجه على بورنشتاين كان تزويرا حقيقيا لفكر ماركس . النقد العميق الذي سلطه ماركس على المجتمـع البرجوازي في « المسألـة اليهودية » حيث بين ، بتحليل حقوق الانسان والمواطن ، كيف ان معارضته للدولة السياسية تولد فك الانسان بين البرجوازي والمواطن وكيف ان هذا التعارض لا يمكن ان يلغى الا بحذف الملكية الخاصة واستبدال المجتمع البرجوازي والدولة السياسية بمجتمع ذي طابـع جماعي يتفق مع طبيعة الانسان الحقة ، هذا النقد كان روجه يحوله الـــى كلاميات انسية تؤول الى الدفاع عن تنظيم للعمل في اطار النظام الرأسمالي يقدَّم بوصفه دواء عميم النفع ، وهذا نفي لاطروحة ماركس ليس اقل .

في هذا الجواب ، حيث كان يطمس الفروق العميقة التي تفصله عــن ماركس ، وهذا في اللحظة التي كان فيها يقذفه بوابل من الشتائم في رسائله ، كان روجه يسعى الى اعطاء الانطباع بأن بينهما وفاقا شبه تام في الآراء ، وهذا من جهته بمثابة اكذوبــة متعمدة .

كانت انسيته تتجلى بكل جمالها في مقال نشره في الشهر نفسه في **الـــى الامام** تحت عنوان « ملك بروسيا والاصلاح الاجتماعي » (١) .

في هذا المقال وقف ضد تأكيد لجريدة **الاصلاح** ، جريدة لوي بلان Louis Blanc التي زعمت ان المرسوم المتعلق بالفقر قد املاه على الملك الخوف وانـــه نذير اصلاحات اجتماعية عميقة (٢) .

بعكس **الاصلاح** ، اكد روجه ان سبب هذا المرسوم ليس ابـدا الخوف الـــذي يفترض في تمرد عمال النسيج انه اثاره عند الملك وان هذا الاخير لا ينوي ابدا تدشين عهد اصلاحات اجتماعية بواسطة المرسوم . ففي بلد بتأخر بروسيا ، لا تلعب فيـــه السياسة اي دور ، ان ثورة عمال النسيج لا تتخطى ، عــلى حـد قوله ، اطار حادث

---

(١) انظر الى الامام ، ٢٤ و٢٧ تموز ١٨٤٤ ، ملك بروسيا والاصلاح الاجتماعي .

(٢) انظر الاصلاح ، ١٩ تموز ١٨٤٤ .

محلي ، والمرسوم ليس له ابدا المدى الذي تعزوه اليه جريدة **الاصلاح** (١) .

باصداره تدابير ادارية ودعوته الى البر والاحسان ، لا يخضع فريدريك غليوم الرابع ابدا لشعور الخوف بل يبين انه يعتبر الفقر وعواقبه كارثة طبيعية ، يجب معالجتها باللجوء الى الوسائل العادية .

وانتهى روجه الى انه بحكم وضع المانيا السياسي المتأخر ليس للثورة اي حظ من النجاح فيها ، وان التربية والتنظيم السياسي وحدهما يستطيعان ان يحذفا أسباب البؤس العميقة : انانية الافراد وعزلتهم عن المجتمع (٢) .

في نفس الوقت مع هذا المقال ، نشر روجه في ٢٤ تموز في **الى الامام** هجاء للعائلة المالكة البروسية ، حيث قلد هاينه بشكل تافه وعقد مزحات ثقيلة وسهلة عن الملك والملكة (٣) .

كان روجه قد وقّع مقاليه بتوقيع « بروسي » ، الامر الذي كان من شأنه بما انه ساكسوني ان يجعل القراء يتصورون ان الكاتب هو ماركس . ولقد استثير ماركس بمحاولة روجه طمس اختلافاتهما وبواقع ان اسم « بروسي » يعينه ككاتب لمقالات روجه ، فنشر في **الى الامام** جوابا صدر تحت عنوان « ملاحظات هامشية تتعلق بمقال : ملك بروسيا والاصلاح الاجتماعي . بقلم بروسي » (٤) .

---

(١) الى الامام ، ١٨٤٤/٧/٢ . « لا الملك ولا المجتمع الالماني عندهما شعور بضرورة اصلاح اجتماعي، وهو شعور لم تولده لا ثورة سيليزيا ولا ثورة بوهيميا . من المستحيل في دولة غير سياسية كالمانيا ان يكون ممكنا اعتبار البؤس الجزئي لدوائر عمالية مسالة عامة وبالاحرى حدثا من شانه ان يعرض كل الحضارة للخطر . هذا الحدث له بالنسبة للالمان نفس الطابع الذي لفيضان او لمجاعة محلية . ولهذا السبب ايضا يعزوه الملك لعيب في الادارة او لنقص في البر والاحسان » .

(٢) الى الامام ، نفس المكان . « الالمان الفقراء ليسوا اكثر فطنة من الفقراء الالمان (من الالمان المساكين) ، انهم لا يرون ابعد من بيتهم ، من مصنعهم ، من محلتهم . الروح السياسية لم تدخل بعد المسالة الاجتماعية . كل الثورات التي ستنفجر في هذه الحالة الوخيمة من عزلة البشر والتي ستستلهم افكارا اجتماعية ستهلك في الدم وفي الجنون . واذا بالعكس ولد البؤس يقظة الروح السياسية واذا انارت هذه اصل الشرور الاجتماعية ، عندئذ ، في المانيا ايضا ، هذه الاحداث ستعتبر قرائن انقلاب كبير . ان ثورة اجتماعية بلا نفس سياسية ، اي غير منظمة من وجهة نظر عامة ، مستحيلة .

انظر آ. روجه ، مراسلات ، ح٢ ، ص ٣٥٩ . رسالة روجه الى فلايشر ١٨٤٤/٦/٩ : « ان ثورات من نوع ثورة سيليزيا لا تؤدي الا الى تعزيز النظام البوليسي القديم وهي تؤخر الى ما لا نهاية قيام حركة تحرر عامة . لم اشاطر في يوم من الايام آمال الشيوعية الالمانية . ان شيوعية غير سياسية ـ ولا يمكن ان يكون هنا سوى شيوعية كهذه ـ هي منتوج ميت في المهد . الحرفيون الالمان الذين لا يريدون حذف الملكية الا طالما هم لا يملكون ، يستطيعون مقاومة النظام القديم اقل ايضا مما استطاعت ذلك حركة البورشنشافت (الطلاب الاحرار) . اذا كانت الشيوعية تريد النجاح فعليها الاقتران بحركة سياسية ».

(٣) الى الامام ، ٢٤ تموز ١٨٤٤ .

(٤) الى الامام ، رقم ٦٣ و ٦٤، ٧ و ١٠ آب ١٨٤٤ . في بداية المقال اعلن ماركس في هامش : « ثمة اسباب خاصة تسوقني الى الاعلان ان هذا المقال هو اول مقال ارسلته الى الى الامام » .

في القسم الاول من هذا المقال ، دحض ماركس رأي روجه حول المرسوم الملكي . على حد قوله ، ان هذا المرسوم والاجراءات التي يقررها للنضال ضد الفقر لا تعلّل لا بوضع المانيا المتأخر ولا بقلة الاهمية التي علقتها حكومة بروسيا على ثورة عمال النسيج بل بطابع الفقر بالذات . الفقر paupérisme ليس ظاهرة خاصة ببروسيا، بل ظاهرة عامة ، تخص جميع البلدان الحديثة ، ترتبط بطبيعة اقتصادها بالذات . كي نفهم سبب التدابير التي اصدرها الملك ضد الفقر يجب ان نعتبرها لا من وجهة نظر فلسفية او سياسية كما اعتبرها روجه بل من وجهة نظر اجتماعية .

في انكلترة ، وهي بلد اكثر تطورا بكثير من بروسيا ، سياسيا ، فيه مسألة الفقر ذات طابع اخطر كما تبين ذلك ثورات العمال الدائمة ، نجد نفس التجاهل الاساسي لهذه المسألة الذي نجده في المانيا . الاحرار يعزون الفقر لنظام الحماية الجمركية بينما المحافظون يرون السبب في الليبرالية . ان احدا من هذين الحزبين لا يبحث عن السبب في نظام الملكية الخاصة ، ان احدا منهما لا يفكر بالتالي باصلاح المجتمع لمعالجة هذا الداء ، بالعكس ان كلا من الطرفين يعتقد انه يكفي لهذا الغرض تغيير السياسة التي يسير عليها الطرف المقابل (١) .

هذا العجز ذاته عن شرح أسباب الفقر وايجاد الوسيلة الكفيلة بحذفه يتجلى عند الاقتصاديين البرجوازيين الانكليز الذين لهم عن هذا الموضوع آراء أشد سخفا ايضا من آراء الاحزاب السياسية . هكذا يكتفي ماك كولوش Mac Culloch بالقول ان هذه المسألة تنحل بسهولة من وجهة نظر نظرية ، تعطي حلا سهلا لجميع المسائل العملية . وعند اقتصاديين آخرين ، مثل الدكتور كاي KAY ، تصور عن الفقر اكثر حماقة ايضا ، فهم يعزونه الى نقص التربية لدى الجماهير .

« ان احد افضل واشهر الاقتصاديين الانكليز، وهو ماك كولوش Mac Culloch نصير الكلبي ريكاردو ، الذي يعرف جيدا وضع انكلترة الراهن والذي لا بد اذن انه

---

(١) انظر ميغا ، ١ ، ح٣ ، ص ٨ ـ ٩ . ـ « سيقبلون معنا ان انكلترة بلد صناعي وايضا انها بلد الفقر ، ان هذه الكلمة نفسها انكليزية الاصل paupérisme. هكذا ان ملاحظة ما يجري في انكلترة هو اضمن وسيلة لادراك العلاقات بين بلد سياسي والفقر . في انكلترة ، البؤس له طابع ليس جزئيا بل عام ، ليس محصورا في المناطق الصناعية بل هو يشمل المناطق الزراعية . التحركات التي يولدها ليست بنت البارحة بلهي تتكرر منذ نيف وقرن. كيف، والشروط هذه، تنظر البرجوازيةالانكليزيةوكذلكالحكومة، والصحافة المرتبطتان بها ، الى الفقر ؟ بقدر ما تعزو البرجوازية الانكليزية الفقر الى سبب سياسي ، يلقي الحر مسؤوليته على المحافظ والمحافظ على الحر . حسب الحر ، السبب الاساسي للفقر هو احتكار الملكية العقارية الكبيرة ونظام الرسوم ضد استيراد الحبوب . حسب المحافظ ، بالعكس تقع كل مسؤولية هذا الشر على الليبرالية ، على المزاحمة ، على التوسع المبالغ لنظام الصناعة . ان ايا من هذين الحزبين لا يعزو البؤس للسياسة بوجه عام ، بل فقط للسياسة التي يقودها الحزب المخاصم ، ان ايا منهما لا يفكر قيد انملة في اصلاح المجتمع » .

يملك رؤية اجمالية جيدة عن المجتمع البرجوازي ، يتجرأ ، في محاضرة عامة ووسط التصفيق ، ويطبّق على الاقتصاد السياسي ما قاله بيكن عن الفلسفة : « ان الانسان الذي ، بحكمة حقيقية لا تمل ، يعلق حكمه ويتقدم بالتدريج متخطيا بالتتالي على العقبات التي تعترض ، وكأنها جبال ، طريق العلم ، ينتهي الى بلوغ ذروة هذا الاخير حيث يجري تذوق الهدوء والهواء العليل ، حيث الطبيعة تقدم نفسها للناظرين في كل جمالها ، ومن حيث يصل المرء بلا عناء بواسطة درب مريح الى كل تفاصيل الحياة العملية » . يا له من هواء عليل هواء الاقبية الانكليزية النتن ، يا لها من روائع طبيعية اسمال الرجال الفقراء ولحوم النساء اللواتي أكلهن التعب والبؤس ، الاطفال الممددون على الزبل ، الطروح ثمار شغل الفبارك الآلي المرهق والخابل ، يا لها من تفاصيل ساحرة في الحياة العملية البغاء والاغتيال والمشنقة !

حتى ذلك القسم من البرجوازية الذي يدرك الخطر المترتب على الفقر يتصور هذا الخطر ووسائل تداركه بشكل ساذج واحمق . هكذا الدكتور كاي Dr. kay في كراسه **تدابير حديثة لصالح تطوير التربية في انكلترة** ، يعزو سبب الفقر لنقص تربية . احزروا لماذا ؟ لان الشغيل ، بنتيجة نقص التربية ، لا يعرف قوانين التجارة ، وهذا سبب الفقر والثورات على الفقر . هذا يؤلف عائقا امام ازدهار المصانع الانكليزية والتجارة الانكليزية ويهدد استقرار المؤسسات السياسية والاجتماعية . هذا يبين كم ان البرجوازية الانكليزية وصحافتها عاجزتان عن فهم الفقر ، هذه المصيبة القومية في انكلترة (١) . » .

للنضال ضد الفقر ، كانت الحكومة الانكليزية قد لجأت أولا بأول الى تدابير ادارية واحسانية لم تكن مختلفة جوهريا عن تلك التي يقترحها ملك بروسيا (٢) .

حين نما الفقر لدرجة صار معها خطرا قوميا ، تخلت الحكومة الانكليزية عن هذه التدابير وجعلتها مسؤولة عن توسع هذا الداء ، وحاولت اقتلاعه بوسائل قمعية ، محولة بيوت الشغل المنشأة لمساعدة العاطلين عن العمل الى سجون . « وجد (البرلمان الانكليزي) ان السبب الرئيسي لتفاقم حالة الفقر هو قانون الفقراء وان الاحسان الذي كان قد استخدمه للنضال ضد هذه الحالة يعززها . اعتبر ان الفقر ، منظورا اليه من وجهة نظر عامة ، هو كما كان يعلم مالتوس نتيجة قانون طبيعي أزلي . بما ان عدد السكان ، على حد قول مالتوس ، يميل دوما الى تخطي وسائل البقاء ، لذا فمن الجنون اللجوء الى الاحسان الذي ليس من شأنه سوى تسهيل ازدياد البؤس . لا تستطيع الدولة سوى ترك هؤلاء البائسين لمصيرهم وعليها في اقصى تعديل ان تخفف وفاتهم . الى هذه النظرية الانسانية بهذه الدرجة ، اضاف

---

(١) انظر ميفا ، ١ ، حـ٣ ، ص ص ٩ ـ ١٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠ ـ ١١ .

البرلمان الانكليزي هذا التصور ، الا وهو إن العامل هو بعينه مسؤول عن الفقر وانه يجب اذن معاملة الفقر لا ككارثة من كوارث الطبيعة بل كجريمة يعاقب عليها .

هذا ما أثار ضبط وتنظيم بيوت الشغل ، حيث نظامها مصنوع بقصد تخويف البائسين ومنعهم من الالتجاء اليها هربا من الجوع . في بيوت الشغل هذه ، الاحسان مقرون بشكل ذكي مع روح الانتقام للبرجوازية ازاء هؤلاء البائسين الذين يستنجدون باحسانها .

هكذا فقد حاولت انكلترة باديء بدء ان تلغي الفقر بتدابير احسان وادارة . ثم اعتبرت ان التطور الدائم للفقر ليس نتيجة الصناعة الحديثة بل هو نتيجة الرسم لصالح الفقراء ورأت في البؤس المعمَّم نتيجة خاصة للتشريع الانكليزي . ما كانت قد نسبته الى نقص برّ نسبته الى فرط بر . أخيرا اعتبر الفقراء مسؤولين عن البؤس وعوقبوا على هذا الاساس (١) .

هذا العجز نفسه عن معالجة الفقر بتدابير تشريعية ثم هذا الاتجاه نفسه الى اقتلاعه بوحشية ظهرا في فرنسا ، حيث الفقراء معتبرون ايضا مجرمين ويعاملون كمجرمين .

المؤتمر la Convention ، الذي كان ذروة الدولة البرجوازية التقدمية ، حاول فعلا ان يحذف الفقر بطريق التشريع (٢) ، ولكنه فشل في هذه المحاولة . بعده ، نابوليون ، الذي كان قد انشأ في ١٨٠٨ بيوتا للفقراء من اجل الغاء الفقر ، حولها كما حصل في انكلترة الى معتقلات (٣) .

ان علة هذا الفشل المزدوج في انكلترة كما في فرنسا هي ان الدولة البرجوازية بوصفها كذلك عاجزة عن الغاء الفقر . بما انها المدافعة عن المجتمع البرجوازي فهي لا تستطيع ان تتخذ اجراءات تدمره عمليا ، فحذف حالة الفقر هو حذف البروليتاريا ، اي الغاء القاعدة عينها التي عليها يرتكز المجتمع البرجوازي .

المسكنات والادوية التي يقترحها روجه والاصلاحيون لمكافحة الفقر ، مثلاً تربية

---

(١) انظر ميغا ، ١ ، جـ٣ ، ص ١١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٣ ـ « كان للمؤتمر في لحظة من اللحظات شجاعة الامر بحذف الفقر ، ليس مباشرة ، كما يطلب « البروسي » من ملكه ، بل فقط بعد تكليف لجنة الانقاذ العام باعداد الخطط والمشاريع الضرورية ... ماذا كانت نتائج قرار المؤتمر ؟ كانت ببساطة انه اصبح هناك مرسوم اضافي وان بعض عمال النسيج الجياع جاؤوا بعد عام يحاصرون المؤتمر . علما بان المؤتمر كان يمثل اقصى حد من القدرة والقوة والذكاء السياسي للدولة البرجوازية » .

(٣) انظر ميغا ، جـ٣ ، ص ١٢ . « نابوليون اراد ان يحذف التسول دفعة واحدة . أمر ادارته بوضع مخططات لاقتلاعها في كل فرنسا . خلال شهور كان كل شيء جاهزا . في ٥ تموز ١٨٠٨ صدر قانون يحذف التسول . باية وسائل ! بواسطة مستودعات تحولت بسرعة فائقة الى معتقلات ، حيث ان الفقراء لم يبلغوها الا بطريق محكمة الجنح » .

الاولاد الفقراء من قبل الدولة ، هي بالتالي خيالية ووهمية . فاذا مـا أخذت الدولة على عاتقها تربية الاولاد الفقراء ، سيكون عليها ان تؤمـن في الوقت نفسه معيشتهم ، وهذا يتعادل عمليا مع حذف البروليتاريا وبالتالي حذف المجتمع البرجوازي (١) .

هذا يفسر كون جميع الدول ، حين اهتمت بحذف الفقر ، قـد اكتفت باللجوء الى تدابير ادارة او احسان . فهي بما انهـا لا تستطيع بوصفهـا دولا برجوازية ان تنسب الفقر الى طابع الدولة او الى طابع المجتمع ، فقد كانت مساقة بالضرورة الـى ان ترى علته اما في رذائل خاصة بالافراد ، الكسل عند الفقراء وقسوة القلب عنـد الاغنياء ، واما في اضطرابات موقتة حصلت في تنظيم الدولة او المجتمع .

« الدولة لن ترى ابدا في الدولة او في التنظيم الاجتماعي ، كمـا يطلب البروسي من ملكه ، سبب المصائب الاجتماعية . حيث توجد احزاب سياسية ، كل حزب يرى سبب كل شر في واقع انه الحزب الخصم هو الموجود في الحكم . حتـى السياسيون الراديكاليون والثوريون يبحثون عن السبب لا في طابع الدولة ذاته بل في شكل خاص لهذه الاخيرة يريدون استبداله بشكل آخر . ليست الدولة والتنظيم الاجتماعي ، من وجهة النظر السياسية ، شيئين مختلفين .

الدولة هي التنظيم السياسي للمجتمع . بقدر مـا تعترف الدولة بوجود عيوب اجتماعية ، فانها تعزو سببها اما لقوانين طبيعية ليس في قـدرة البشر ان يغيروها ، اما لحياة الافراد الخاصة التي هي مستقلة عن الدولة ، امـا لنقائص الادارة التابعة المرؤوسة . هكذا في انكلترة يرون سبب البؤس في قانون طبيعي ينص علـى ان هناك دوما فائضا من السكان بالمقارنة مع وسائـل العيش ، ويفسرون ايضا الفقـر بسوء ارادة الفقراء . ملك بروسيا يفسره بنقص الروح المسيحية لـدى الاغنياء ، بينما كان المؤتمر يعلله بعقلية الملاكين المضادة للثورة . لذا فان انكلتـرة تعاقب الفقراء وملـك بروسيا يستصرخ ضمائر الاغنياء والمؤتمر كان يقطع رأس الملاكين . اخيرا كـل الدول تبحث عن سبب الفقر في نقائص مقصودة او غير مقصودة للادارة وتسعى الى معالجتها باصلاحات للادارة ، الوكيلة المنفذة للدولة (٢) » .

هذا اللجوء الى تدابير ادارية لالغاء الفقر مكتوب له الفشل . مـن أجـل حذف الفقر ، يكون على الدولة ، التي لا ينفصل وجودها عـن شكل العبوديـة الحديث ، البروليتاريا ، التي هي نتـاج المجتمع البرجوازي المؤسس عـلى الملكية الخاصة ، ان

(١) المرجع نفسه ، ص ١٣ – « ان سؤال « البروسي » ، لماذا لا يامـر ملك بروسيا فورا بتربيـة الاولاد الفقراء ، من نفس النوع . هـل يعلم البروسي ماذا سيكون عـلى الملك ان يامر بـه بذلك الامر ؟ لا اكثر ولا اقل من الغاء البروليتاريا . لتربية اطفال ، يجب تغذيتهم وتحريرهم من الشغل – كسـب العيش . ان تربية واعالة الاطفال الفقراء ستكون في الوقت نفسه مع الغاء الفقر الغاء البروليتاريا . » .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، حـ٣ ، ص ١٤ .

تحذف نفسها . فالغاء الفقر اي البروليتاريا يقتضي الغـاء المجتمع البرجوازي ، في حين انها عضو الدفاع عن مصالحه الطبقية وهو علة وجودها (١) .

هذا يكشف بطلان اطروحة روجه التي تعلـق حذف الفقر على تطور العقـل السياسي اي تطور الدولة . « كلما كانت الدولـة قويـة » ـ على حـد اعتراض ماركس ـ ، اي كلما كان بلد ما متطورا سياسيا ، كان أقل استعدادا لان يرى في مبدأ الدولة ، اي في تنظيم المجتمع الذي هي تعبيره الواعي والرسمي ، علة ومصدر العيوب الاجتماعية . العقل السياسي يتّسم بكونه يحاكم في حدود واطار السياسة . كلمـا كان اكثر نموا وفاعلية كان اقل قدرة على القبض عـلى طبيعة العيوب الاجتماعية . الثورة الفرنسية تؤلف الحقبة الكلاسيكية للعقل السياسي . والحال ، ان ابطال هذه الثورة ، بعيدا عن ان يروا في مبدأ الدولـة مصدر هـذه العيوب ، كانـوا بالعكس يعتبرونها السبب المقرر للنقائص السياسية . هكذا لم يكن روبسبيير يـرى في فرط الفقر والغنى سوى عقبة امام اقامة الديمقراطية الحقة . لهذا السبب كان يريـد ان يقيم نظاما من البساطة والتقشف السبارطيين. ان مبدأ العقل السياسي هو الارادة. كلما كان العقل السياسي محدودا وبذلك عينه كاملا في نوعه ، كلمـا ازداد ايمانـه بجبروت الارادة ، قل ادراكه لحدودها الطبيعية والروحية وقلت بذلك بالذات قدرته على اكتشاف مصدر العيوب الاجتماعية. هذا يكفي لتبيان كل غرور أمل «البروسي» الذي يفكر ان العقل السياسي مدعو الى اكتشاف مصدر البؤس في المانيا (٢) » .

في القسم الثاني من مقاله ، ماركس ينتقد افكار روجه عـن ثورة عمال النسيج وعن الثورة الاجتماعية ، الافكار المرتكزة على تصوره الخاطىء لطابـع حركة العمال الالمانية .

بما ان روجه كان يحكم على الكفاح في سبيل التحرر من وجهة نظر البرجوازية، فقد كان يفكر انه يجب ان يتخذ هدفا جوهريا له الاستيلاء عـلى الدولة وتحويلها ، ولم يكن يرى في انتفاضات عمال النسيج السيليزيين سوى حركة تمرد محلية تسببت عن البؤس ولا مدى سياسي لها . ماركس بالعكس يعتقد ان هذه الانتفاضة ، بعيـدا عن ان يكون لها طابع حدث محلي بلا مدى عام ، هي حركة لها اعلى اهمية ، لانها اول عمل ثوري كبير للبروليتاريا الالمانية . لتقديرها بقيمتها الصحيحة ، كان يجب ـ على حد قوله ـ مقارنتها بالحركات العمالية في انكلترة وفرنسا ، فهي تتميز عـن هـذه الحركات بطابعها الواعي والنظري . فعمال النسيج السيليزيون لـم يكتفوا بتحطيم الآلات ، بل دمروا ايضا دفاتر المحاسبة وسندات الملكية ، متعرضين بذلك الى قاعدة

---

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ص ١٤ ـ ١٥ .
(٢) انظر ميغا ، ١ ، حـ٣ ، ص ص ١٥ ـ ١٦ .

الرأسمالية ذاتها (١) .

من جهة أخرى لم تقد أية حركة اجتماعية بمثل هذه الشجاعة وبمثل هذا النضج الذهني وهذا الجلد ، فضلا عن ان الحركة المعنية حصلت في بلد سكانه معتادون على طاعة منفعلة وحكومته استطاعت ان تحذف حرية الصحافة بدون ان تصطدم بأية مقاومة من جانب البرجوازية (٢) .

كان ماركس يدافع بحرارة عن البروليتاريا الالمانية ضد المزاحات السهلة لروجه الذي كان ينكر عليها القدرة على التعلم وبالتالي على التحرر . ان البروليتاريا الالمانية ـ على حد جواب ماركس ـ قادرة ليس فقط على الارتقاء الى وعي واضح لمصالحها الطبقية الامر الذي يجعلها أهلة تماما للتحرر ، بل ايضا الى مستوى فكري رفيع ، الامر الذي يؤهلها لان تصبح منظّر البروليتاريا الاوروبية . وبعد ان ذكر كمثال فايتلنغ وخصه بثناء حار واضعا اياه فوق برودون ومقدرا اياه أعلى بكثير من كل منظري البرجوازية (٣) ، كان يضيف : « يجب الاعتراف بأن البروليتاريا الالمانية هي منظر البروليتاريا الاوروبية ، كما ان البروليتاريا الانكليزية هي مرشدها على الصعيد الاقتصادي والبروليتاريا الفرنسية على الصعيد السياسي . يجب الاعتراف بأن المانيا ، بحكم عجزها ذاته عن القيام بثورة سياسية ، مؤهلة لتحقيق ثورة اجتماعية. كما ان ضعف البرجوازية الالمانية هو سبب عجز المانيا السياسي ، كذلك فان الاستعدادات الطبيعية لبروليتارياها تشهد بمؤهلات المانيا على الصعيد الاجتماعي .

---

(١) انظر المرجع نفسه، ص ص ١٧ ـ ١٨ . « انه (روجه) سيجد ان اية انتفاضة للعمال الفرنسيين والانكليز لم ترتد طابعا نظريا وواعيا كطابع انتفاضة عمال نسيج سيليزيا . فليتذكر اولا « اغنية عمال النسيج » هذا الشعار الكفاحي الجريء الذي لم يات حتى ولا على ذكر البيت والاسرة والوطن المحلي وحيث مباشرة تصرخ البروليتاريا بشكل حاد ، وحشي ، عنيف ، معارضتها للمجتمع المؤسس على الملكية الخاصة . ان انتفاضة سيليزيا تبدأ بالضبط في النقطة التي عندها تنتهي الحركات العمالية الفرنسية والانكليزية اي عند اخذ البروليتاريا وعيها الطبقي . من هنا الطابع المتفوق للعمل الذي قام به عمال النسيج هؤلاء . ليس فقط يدمرون الالات هذه المزاحمات للعامل بل ايضا دفاتر المحاسبة وسندات الملكية ، بينما كانت كل الحركات الاخرى تتجه باديء بدء ضد الصناعي ، العدو المرئي ، اتجهت هذه الحركة في الوقت نفسه ضد رجل المصرف ، العدو غير المرئي . » .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، حـ٣ ص ٦ . « في بلد يكفي فيه مرسوم ملكي لمنع الولائم المرفقة بخطب ليبرالية وباكواب الشمبانيا ولم يحتاجوا فيه الى جندي واحد لخنق مطامح البرجوازية التي كانت تطالب بحرية الصحافة وبالدستور ، في بلد عنوانه الطاعة المنفعلة ، في بلد كهذا لا يكون استخدام القوة المسلحة ضد عمال نسيج ضعفاء حدثا كبيرا ، مخيفا . وعمال النسيج الضعفاء انتصروا في الصدام الاول ، لم يسقطوا الا بعد وصول تعزيزات . هل ان ثورة جماعة من العمال هي في ذاتها اقل خطرا لانه لم يكن ثمة حاجة الى جيش بالكامل لسحقها . وليقارن « البروسي » الحكيم انتفاضة عمال نسيج سيليزيا بتحركات العمال الانكليز والفرنسيين وسيظهر له عمال نسيج سيليزيا عمالا اقوياء فعلا » .

(٣) انظر المرجع نفسه ، ص ١٨ .

ان اللاتوافق بين تطور المانيا الفلسفي وتطورها السياسي ليس شيئاً شاذا . انه نشاز ضروري . في الاشتراكية فقط يستطيع شعب فلسفي ان يجد الفاعلية العملية التي تناسبه ... » (١) .

هذا ، على حد قول ماركس ، ما كان على روجه إن يراه ، فيما لو انه ، بدلا من ان يُجري باكتفاء مدع تمارين ادبية والعاب الفاظ عن ثورة عمال سيليزيا ، حلل هذه الاخيرة بروح من الجد والتعاطف (٢) .

كخاتمة ، بين ماركس استحالة اعطاء حل للمسألة الاجتماعية بتطوير الروح السياسية كما دعا روجه . كما يظهر – على حد قول ماركس – من مثال الثورة الفرنسية التي هي عين أنموذج الثورة السياسية ، تولد الروح السياسية مع ازدياد الرفاه . بعيداً عن المساعدة في اكتشاف أسباب البؤس وفي حذفه ، تسهم الروح السياسية في استفحاله بتغشية الوعي الطبقي للبروليتاريا التي تحولها عن النضال في سبيل مصالحها الخاصة كما تبين ذلك التحركات الاولى للبروليتاريا الفرنسية . « من الخطأ القول ان البؤس ينجب الروح السياسية ، بالعكس هذه تتولد من الرفاه ... سبق ان بينا لل « بروسي » كم قليلا الروح السياسية قادرة على كشف أسباب البؤس ...

كلما كانت الروح السياسية لشعب من الشعوب متطورة ومعمَّمة كانت البروليتاريا – على الاقل في بداية حركتها – اكثر تبذيرا لقواها في تمردات غير معقولة وغير مفيدة تغرق في الدم . بما ان فكرها يرتدي شكلا سياسيا ، فهي ترى في الادارة سبب كل الشرور وتعتبر أنه لا يمكن معالجة هذه الشرور الا بقلب شكل معين للدولة. نرى ذلك في الانتفاضات الاولى للبروليتاريا الفرنسية . كان عمال ليون يعتقدون أنهم لا يلاحقون سوى أهداف سياسية ، أنهم ليسوا سوى جنود للجمهورية ، في حين انهم كانوا بالواقع جنود الاشتراكية . هكذا كانت روحهم السياسية تحجب عنهم أسباب البؤس الاجتماعي ، تزيف تصورهم للاهداف الواجب بلوغها وتغشي غريزتهم الاجتماعية (٣) » .

---

(١) انظر ميفا ، ١ ، حـ٣ ، ص ١٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩ . « ان حكمة الالمان الفقراء هي هكذا في تناسب عكسي مع حكمة الفقراء الالمان (وهذا رد على روجه الذي قال ان الالمان الفقراء يعادلون الفقراء الالمان في قلة الفطنة) . ولكن اناسا بالنسبة اليهم كل موضوع هو مناسبة القيام بتمارين في الاسلوب الادبي لا يصلون بهذا النشاط الشكلي المحض الا الى محتوى زائف ، بينما من جهة اخرى زيف المحتوى يعطي الشكل طابعا خسيسا . وهكذا فان محاولة البروسي القيام بمناقضات لامعة بمناسبة ثورة عمال سيليزيا قادته الى مناقضة الحقيقة . امام هذه الانتفاضة ، لم تكن مهمة مثقف صديق للحقيقة ان ينصب نفسه استاذا بل ان يدرس طابع هذه الانتفاضة الخاص . صحيح ان هذا كان يتطلب تفهما علميا وشيئا من الحب الاخوي ، بينما للقيام بالعملية الاخرى تكفي جمل جاهزة مع كثير من الغرور . » .

(٣) انظر ميفا ، ١ ، حـ٣ ، ص ٢٠ .

على روجه الذي كان يتنبأ بفشل الانتفاضات الناتجة عن عزلة الانسان عن الجماعة ، قاصدا بالجماعة الجماعة السياسية ، الدولة ، والذي كان يؤكد ان التحرر لا يمكن الحصول عليه الا بتطوير الروح السياسية التي تدمج الفرد في الدولة، كان جواب ماركس انه اذا كان صحيحا ان جميع الثورات لها كسبب عزلة الانسان عن الجماعة فانه يجب ان نميز الثورة السياسية النابعة من عزلة الانسان عن الجماعة السياسية ، عن الدولة ، والثورة الحقيقية ، الثورة الاجتماعية النابعة من انعزال الانسان عن الجماعة الاجتماعية ، عن الجماعة الانسانية . الثورة البرجوازية الفرنسية أثارها ، على حد قوله ، انعزال البرجوازية الفرنسية عن الدولة وكان لها كمهمة وكهدف حذف هذا الانعزال . هذه الثورة أثارت ، بانتصار المجتمع البرجوازي ، انعزالا اخطر بكثير وأثقل عاقبة من الانعزال السياسي .

فالجماعة التي عنها الانسان مفصول في المجتمع البرجوازي هي كينونته الجماعية أي حياته الحقيقية المادية والروحية على حد سواء . ان حذف انعزال الانسان عن الجماعة الانسانية الذي يحصل في هذا المجتمع يتطلب تحولا جذريا لهذا الاخير ، وهذا لا يتحقق الا بثورة اجتماعية نتائجها أهم وأعمق بما لا يقاس من نتائج ثورة سياسية . هذا يفسر واقع ان انتفاضة عمالية ، حتى اذا كانت ذات طابع محلي وجزئي ، لها آثار أعظم ومدى أكبر من انتفاضة سياسية (١) .

هذا يفسر الفرق الاساسي بين ثورة سياسية وثورة اجتماعية ، فالاولى هي احتجاج طبقة خاصة ضد عزلها عن الدولة واستبعادها من السلطة ، والثانية هي احتجاج الانسان ضد استبعاده من الجماعة الانسانية (٢) .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢١

« ولكن الجماعة التي عنها العامل معزول جماعة اخرى غير الجماعة السياسية واعظم بكثير . الجماعة التي عنها يعزله شغله ذاته هي حياته ذاتها ، حياته الفيزيائية والفكرية ، الاخلاق الانسانية ، الفاعلية الانسانية ، اللذات الانسانية ، بكلمة كل الكينونة الانسانية . الكينونة الانسانية هي كينونة الانسان الجماعية الحقيقية . كما ان الانعزال الوخيم عن هذه الكينونة اكبر بما لا يقاس واسوأ واشد خطرا واكثر مخالفة للمنطق بما لا يقاس من الانعزال عن الجماعة السياسية ، كذلك فحذف هذا الانعزال او حتى محض رد جزئي ، او انتفاضة ضده ، اثقل عاقبة بما لا يقاس من حذف الانعزال السياسي ، كما ان الانسان اكبر بما لا يقاس من المواطن ، كذلك فالحياة الانسانية اهم بما لا يقاس من الحياة السياسية . ان الانتفاضة العمالية حتى الجزئية يحركها روح كلي كوني ، بينما الانتفاضة السياسية حتى اذا كانت عامة تخفي تحت الشكل الاضخم روحا ضيقا . »

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢ . « ان ثورة اجتماعية ، حتى اذا لم تحصل الا في مقاطعة صناعية، تقف في وجهة نظر كونية ، لانها تؤلف احتجاجا من الانسان ضد حياة منزوعة الانسانية ، لانها تقوم باسم الفرد الحقيقي ، لان الكينونة الجماعية التي يثور الفرد ضد الانعزال عنها هي الجماعة الانسانية الحقيقية ، الكينونة الانسانية . بالعكس ان نفس ثورة سياسية قوامها رغبة طبقة محرومة من النفوذ السياسي في ان تحذف انعزالها عن الدولة وعن السلطة . هذه الثورة التي تقف في وجهة نظر الدولة

ان ثورة سياسية ، ثورة جزئية ، تكتفي باستبدال سيطرة طبقة بسيطرة طبقة اخرى هي عكس ثورة حقيقية لها طابع سياسي واجتماعي معا ، طابع سياسي بمعنى انها تحذف الدولة كدولة سياسية ، وطابع اجتماعي بحكم كونها تدمر التنظيم الاجتماعي القديم لتضع محله نظاما جديدا (١) .

في هذه المجادلة التي كان فيها ماركس يحرر من تحليل انتفاضة عمال النسيج الملامح العامة للثورة الاجتماعية البروليتارية ، كان لا شك يبالغ في تقدير الطابع الواعي والمدى المباشر لهذه الانتفاضة ، الا أن ذلك لا يقلل من كونه على حق ضد روجه ، حين يرى فيها ، آخذا اياها في منظور تاريخي ، أول مشهد كبير في النضال الثوري للبروليتاريا الالمانية .

هذا المنظور الثوري كان يسمح له أيضا بأن يقدر قدره الحقيقي الانفجار المفاجىء لحب الانسان الذي كان يظهر في البرجوازية الالمانية لحظة بداية تهديدها من قبل ثورة العمال . وكان يتوقع منذ ذلك الحين ، بعكس ج. يونغ ، الذي كان يزعم ان البرجوازية باتت الان مهتمة كثيرا بمصير العمال البائس وتسعى بصدق لمعالجة الحال (٢) ، أنها ستغير جذريا موقفها حين ستشعر بأنها مهددة في مصالحها الطبقية من قبل البروليتاريا وأنها في هذه الحال لن تتأخر عن الالتحاق ضدها بالحكومة الرجعية متخلية عن أي حب للانسان .

على أساس اقتناعه بضرورة ثورة تحقق بالاشتراكية التحرر الانساني (٣)، كان

اي وجهة نظر جملة totalité مجردة ليست مدينة بوجودها الا الى انفصالها عن الحياة الواقعية لا يمكن ان تفكر بدون هذا التعارض بين فكرة الانسان العامة ووجوده الفردي . ان ثورة تستلهم الروح السياسية تؤمن هكذا ، طبقا للطبيعة المحدودة والمتناقضة لهذه الروح ، سيطرة طبقة في المجتمع ، بمضرة هذا الاخير . »

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

(٢) انظر معهد الماركسية ـ اللينينية ، موسكو . رسالة من ج. يونغ الى ك. ماركس ، كولن ٢٦ ـ ٦ ـ ١٨٤٤ :

« ان اضطرابات سيليزيا فاجاتك ولا شك بقدر ما فاجاتنا . انها شهادة ساطعة على صواب تحليلك لوضع المانيا الحاضر والمقبل في « مدخل نقد فلسفة الحق » الصادر في الحوليات . في كل مكان يتظاهر العطف على العمال ، على الثوار ... في صحيفة كولن يجري الان الحديث عن الشيوعية اكثر مما جرى سابقا في الصحيفة الراينية . بل هي تفتح حملة تبرعات لعائلات عمال النسيج السيليزيين الذين سقطوا ابان تلك الاحداث المؤلمة ، لعائلات المتمردين من النوع الاكثر خطرا . لقد بات الحديث اليومي الوحيد حديث الفقر والاشتراكية ، كل ياخذ منه ما يعجبه ، واخيرا يصدق البرجوازي الصغير الالماني ما يقدم له يوميا بدون تخويفه . بل سيصبح نصيرا للاشتراكية اذا ما قدمت له ضرورتها يوميا لعدة سنوات . »

(٣) ميغا ١ ، ح٣ ، ص ص ٢٢ ـ ٢٣ . « الثورة ، مفهومة كاطاحة بالسلطة القائمة وكتدمير للتنظيم الاجتماعي ، هي فعل سياسي . الاشتراكية لا يمكن أن تتحقق بدون ثورة . انها بحاجة الى هذا الفعل السياسي بالقدر الذي هي فيه بحاجة الى التدمير . »

ماركس يرفض في الوقت نفسه مع محبة الانسان البرجوازية خطط التجديد الاجتماعي التي يقترحها الاصلاحيون مبينا طابعها الخيالي .

لم يرد روجه على نقد ماركس اللاذع الا ببعض ملاحظات تافهة كانت مساهمته الاخيرة في جريدة **الى الامام** ، التي كان يشجب أكثر فأكثر اتجاهها الثوري (١) .

ماركس ، من جهته ، لم يرسل بعد ذلك الحين الى الجريدة سوى مقال صغير بمناسبة محاولة تشيش Tschech ضد فريدريك غليوم الرابع (٢) .

★ ★ ★

لقد كان العنصر المقرر في تطور التصورات الفلسفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية لـ ك. ماركس في باريس ، هو المعرفة التي كان يكوّنها عن البروليتاريا الثورية الباريسية ومشاركته في نضال هذه البروليتاريا الطبقي التي كانت تعطي توجيها جديدا لفكره ولعمله .

فمن وجهة نظر هذا النضال الطبقي يكبّ على دراسة الثورة الفرنسية والمادية الفرنسية والانكليزية والاقتصاد السياسي دراسة متعمقة .

ان تحليل الثورة الفرنسية ، وبشكل خاص المؤتمر ، يسمح له بأن يوضح آراءه عن دور صراعات الطبقات في تطور المجتمع وبشكل أعم في تطور التاريخ . فهو يبين له ان ثورة اجتماعية ما انما تتولد من الصراعات الطبقية التي يحددها بدورها التطور الاقتصادي ، ان الدولة ، المدافعة عن مصالح الطبقة الحاكمة ، تستخدم سلطتها لتضطهد الطبقات الاخرى ، وانه خلال هذه الثورة كان يشتد باستمرار الصراع بين المالكين وغير المالكين الذي يؤلف السمة المميزة للتاريخ الحديث . هذه الثورة كانت تعلمه أيضا ان طبقة حاكمة ما لا تتخلى أبدا بارادتها عن السلطة وعن امتيازاتها وان ثورة اجتماعية ما تتطلب أقسى الكفاحات . ويوسع ماركس هذا التصور للتطور التاريخي المؤسس على فكرة الدور المقرّر لصراعات الطبقات بدراسته كبار المؤرخين الفرنسيين الذين كانوا قد شددوا على هذا الدور في صعود البرجوازية .

ان دراسة الاقتصاد السياسي تقوده الى تعميق هذا التصور للتاريخ ، مبينة له أن العنصر الاساسي فيه هو تطور الانتاج الذي هو في قاعدة كل تحول اجتماعي .

---

(١) الى الامام ، رقم ٦٣ و ٦٤ . وبالمقابل اطلق عنان غضبه ضد ماركس في رسائله . انظر رسالة الى والدته ، باريس ٢٣ - ١٠ - ١٨٤٤ (المراسلات ، ح١ ، ص ٣٧١) : « لا تحزني بخصوص مناظراتي ... هؤلاء الصعاليك لن ينتصروا علي ... شخصي فوق هجمات السادة باور ، ماركس ، وشركاهم . شخصيا لا اقبل المذهب الذي يرى أن ما هو شائع ودنيء وفظ وقذر هو الحقيقة والحرية واني اتنبأ لهؤلاء الاوغاد الذين يهينون الحرية على النحو المذكور بكارثة قريبة سيجابونها على انفسهم بطبعهم الحقير وجنونهم . »

(٢) ميغا ١ ، حـ٣ ، ص ٢٤- ٢٧، الى الامام، رقم ٦٦، ١٧ آب ١٨٤٤ . « ملاحظات على اخر تمارين البلاغة لفريدريك غليوم الرابع . »

واذ يعمم هذا التصور بتحليله المادية الانكليزية والفرنسية للقرنين السابع والثامن عشر فانه يصل الى فكرة ان أساس وجوهر الحياة الانسانية، المعتبرة في كل تجلياتها وفي تطورها ، هما الانتاج الاقتصادي .

هذه الدراسات ، مع مساعدتها له على التحرر من اخر بقايا المثالية ، تقوده الى انضاج مبادىء مادية جديدة ، ذات طابع جدلي وتاريخي ، عليها يؤسس تصورا جديدا للشيوعية ، مكيَّفا مع ضرورات كفاح البروليتاريا الثوري .

هذا يقرر قطيعته النهائية ليس فقط مع « المعتَقين » الذين كانوا ، مع توجههم نحو فرْدوية فوضوية يجعلون من أنفسهم مساعدي الرجعية بهجماتهم ضد الليبرالية والشيوعية ، بل أيضا مع الليبراليين من نوع روجه الذين كانوا ، وهم المدافعون عن المجتمع البرجوازي ، يتخذون فور احتكاكهم المباشر مع البروليتاريا موقفا عدائيا منها ويوجهون هجماتهم الرئيسية ضد الشيوعية .

علاقاته الودية مع هـ. هاينه تفسَّر بواقع ان هذا الاخير كان يشهد في كتاباته بميل نحو الشيوعية التي كان يسهل دعوتها بتبيانه حتمية ظفرها .

مع انفصاله عن « المعتقين » وعن روجه ، يبتعد ماركس عن الاشتراكية الاصلاحية وعن الشيوعية الطوباوية التي يرى بوضوح متزايد تعارضهما مع ضرورات النضال البروليتاري . الا انه لا يقطع الان صراحة معهما ، اذ ما دام قيد انضاج مذهبه فهو لا يملك بعد حججا حاسمة ضدهما . وبالفعل انه لا يظهر عداء لا ازاء باكونين ، الذي لا يكشف بعد ترفيَّته الثورية ، ولا ازاء برودون ، الذي يعترف له ماركس بمأثرة كونه أسس مذهبه على نقد للملكية الخاصة ، فقد يرى من جهة اخرى من الان نواقصه وحدوده . انه لا يزال يقدر فويرباخ تقديرا عاليا على كونه أسس ماديته ليس فقط على العلاقات بين الانسان والطبيعة ، بل أيضا على العلاقات بين البشر ، وعلى كونه وضع في مركز تصوراته ضرورة الغاء الانخلاع الانساني ، لتحرير البشر ، مع ادراكه من الان ضعف فويرباخ النابع من كونه لا يضع مسألة الانخلاع على الصعيد السياسي والاجتماعي . يعترف لـ هس بمأثرة تبيان أن العمل action المعتبر فاعلية عيانية ، عملية ، يؤلف جوهري الحياة الانسانية وأن الانخلاع يجب ان يفهم كانخلاع اجتماعي متولد من نظام الملكية الخاصة . أخيرا ، فايتلنغ يبقى في نظره محرّضا ومنظرا ثوريا كبيرا .

بيد أنه كان ، مع سير وضعه المبادىء العامة للمادية الجدلية والتاريخية وسير تأسيسه الشيوعية العلمية على هذه المبادىء ، سيدخل في صراع مكشوف معهم كما كان الامر مع « المعتقين » ومع روجه .

ان أولى مجادلاته الكبيرة ، التي كانت بالنسبة له مناسبة احكام تصوراته ،

كانت موجهة ضد روجه الذي كان بصدد ثورة عمال النسيج قد انكر على البروليتاريا الالمانية حق أن تقوم بثورتها الخاصة .

بعكس روجه الذي كان يعلن ان البروليتاريا عاجزة بسبب افتقارها الى الحس السياسي عن القيام بثورة حقيقية ، كان ماركس ، مستندا الى التمييز الذي أقامه قبل قليل بين التحرر السياسي ، ذي الطابع الجزئي ، والتحرر الانساني ، التحرر الشامل ، ذي الطابع الاجتماعي ، يؤكد ان هذا التحرر لا يمكن أن يتحقق الا بثورة بروليتارية .

انطلاقا من ذلك كان حكمه على ثورة عمال النسيج على طرفي نقيض مع حكم روجه ، فقد كان يرى فيها أول حركة ثورية كبيرة للبروليتاريا الالمانية .

اذ كان ما يزال يعمل بمفهومي التحرر السياسي والتحرر الانساني اللذين كان قد استخرجهما من « نقده لفلسفة الحق عند هيغل »، فقد كان يصل، مع توضيحه هذه المفاهيم بتحليل للفقر paupérisme ، الى تصور أصح للدولة البرجوازية وللمجتمع البرجوازي . فقد كان يبين ان الفقر الذي صار وبالا اجتماعيا تقاسي منه جميع البلدان هو نتيجة ضرورية للرأسمالية لا تستطيع الدولة البرجوازية مداواتها. اذ ان حذف الفقر معناه بالنسبة لهذه الدولة تدمير أساسها ، المجتمع البرجوازي ، وبذلك تسبيب دمارها هي . هذا كان يقود ماركس الى أن يرى الان في الدولة لا الدائرة التي تتجسد فيها وهميا المصلحة العامة بالتعارض مع المجتمع البرجوازي كما كان يرى من قبل ، بل أداة سيطرة الطبقة القائدة التي أتت الى السلطة بثورة سياسية . كذلك لم يعد يرى في المجتمع البرجوازي دائرة المصالح الخاصة التي حددها نظام الملكية الخاصة بل الميدان الذي فيه يحصل نزع انسانية البشر بانخلاع طبيعتهم الحقة .

بعد أن عمّق بدراسته للثورة الفرنسية والمؤرخين الفرنسيين تصوره لدور الصراعات الطبقية في التطور التاريخي ودفع أكثر الى الامام في مناظرته مع روجه تحليل شروط وطابع الثورة الاجتماعية ، كانت الدراسة المتزايدة العمق للاقتصاد السياسي ستبين له الان الدور المقرّر المحدد للانتاج في التطور الاجتماعي .

هذه الدراسة ، بتعميقها مفاهيمه عن علاقات الانسان مع وسطه الطبيعي والاجتماعي ، كانت تسوقه الى توضيح تصوره المادي الجديد عن العالم ، الذي سيكون عرضه موضوع المؤلف الرئيسي الذي كتبه آنذاك في باريس ، وهو **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة .**

الفصل الثاني

مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة

ان **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** المحررة من آذار الى آب ١٨٤٤ هي المؤلف الرئيسي لماركس خلال فترة اقامته في باريس . ففي هذا المؤلف ، يبلور من مفهوم « البراكسيس » Praxis الذي ينضجه بنقد متواز للاقتصاد السياسي ولفلسفة هيغل ، المبادىء الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية (١) .

هذه المخطوطات تحوي عناصر مؤلَّف أوسع بكثير ، كان سيتضمن تحليلا نقديا للاقتصاد السياسي المعتبر في علاقاته مع المجتمع والسياسة والاخلاق والحقوق (٢).

ان حجم هذا المشروع ، مضافا الى ضرورة فتحه مع انجلز مجادلة ضد الهيغليين الشبان ، كانت موضوع العائلة المقدسة أولا ثم **الايديولوجيا الالمانية** ، لم يسمح له بتحقيق هذا العمل .

ولقد ظلت **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** مجهولة لمدة طويلة جدا .

---

(١) ميغا ، ١ ، ح٣ ، ص‌ص ٢٩ ــ ١٧٢ . (توجد طبعة عربية : دمشق ، وزارة الثقافة ، ترجمة الياس مرقص . وهي مطابقة لطبعة (Editions Sociales) .

(٢) المرجع المذكور ، ص ٣٣ ، مقدمة المخطوطات : « اعلنت في الحوليات الفرنسية الالمانية عن نقد العلوم القانونية والسياسية في شكل تحليل نقدي لفلسفة الحقوق عند هيغل . اثناء صياغة هذا المؤلف ظهر لي ان نقد الفلسفة التاملية مجموعا مع نقد المواد الاخرى يسيء الى عرض هذه الاخيرة ويجعل فهمها اصعب . ومن جهة اخرى ، فان غزارة وتنوع المواضيع ما كانت تتيح معالجتها في مؤلف واحد الا بشكل مقتضب الامر الذي من شانه أن يعطي انطباع منظمة عسفية . لذا فانني ساعرض على التوالي في كراسات خاصة نقد الحقوق ، الاخلاق ، السياسة ، الخ ، ثم ساحاول تبيان وحدة هذه الانتقادات المختلفة محللا في الوقت نفسه الطريقة التي بها عالجت الفلسفة التاملية هذه المواضيع . هذا يفسر كوني في هذا المؤلف لم اعالج علاقات الاقتصاد السياسي مع الدولة ، الاخلاق ، الحقوق ، الحياة الاجتماعية ، الا بالقدر الذي فيه هذا الاقتصاد السياسي يمس بطبيعته ذاتها هذه المواضيع . »

ثم نشرت في شكل قطع أولا (١)، ثم بشكل غير كامل (٢)، واخيرا في ١٩٣٢ في تمامها، في المجلد الثالث من مؤلفات ماركس ـ انجلز الكاملـة تحت عنوان **مخطوطات اقتصاد سياسي وفلسفة (٣)** .

هذه المخطوطات تشغل مع **الايديولوجيا الالمانية** موقعا أوليا في كتابات شبـاب ماركس . فقد ثبت في هذا المؤلف ، بواسطة عرض للتطور العام للانسان المعتبَر في علاقاته مع الطبيعة ومع المجتمع ، الملامح العامة لتصور جديد عن العالم مؤسس على المادية الجدلية والتاريخية . لذا فان هذه المخطوطات هي أفضل ما يتيح فهم اتساع ومدى المذهب الماركسي في بداية انضاجه .

ان سبب وباعث تحرير المخطوطات كانا الحاجة التي كان يشعر بهـا ماركس آنذاك الى تعميق تصوره للشيوعية ، التي سبق أن عرض مبادئها العامة في مقاله في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** : « مدخل الى نقد فلسفة الحق لهيغل » .

بعد ما عرض في « المسألة اليهودية » ان التحرر الانساني يتطلب الغاء الملكيـة الخاصـة الغاء كاملا ، كان قد خلص ، في هذا المقال ، الى ضرورة اقامة النظـام الشيوعي لالغائها ، ولكنه كان يضع هذه الضرورة بطريقة لا تزال نوعا ما دوغمائية ، اذ لـم يكن بعد يستطيع أن يبين كيـف تنجم الثورة الشيوعية عن تطور النظـام الرأسمالي .

---

(١) صدرت قطع منهـا في ترجمة روسية في ارشيف ماركس ـ انجلز تحت عنوان اعمـال تمهيديـة لـ« العائلة المقدسة » ، ثم في شباط وحزيران ١٩٢٩ في باريس في المجلة الماركسية تحت عنوان ملاحظات على الشيوعية والملكية الخاصة و ملاحظات على الحاجات والانتاج وتقسيم الشغل .

(٢) انظر كارل ماركس : المادية التاريخية . مؤلفات الشباب . نشر لاندسهت ومايـر ، لايبتسيغ ، ١٩٣٢ ، حـ١ .

وقد ورد في المقدمة : « بين المؤلفات التي لم تنشر بعد ، هذا المخطوط هو المؤلف الذي كان نشره معارضا باكثر ما يمكن من صعوبات القراءة . فهو يتالف من ٤٩ ورقة مكتوبة غالبا على الوجهين ومن ٢٣ ورقة بيضاء مربوطة بشكل غير جيد . » . انظر ايضا ماير J. P. Mayre مؤلف لم ينشر لماركس » ، المجلة الحمراء ، مجلة اشتراكية شهرية ، ١٩٣١ ، الملزمة الاولى .

(٣) انظر ميغا ، حـ٣ ، ص‌ص ٢٨ ـ ١٧٢ . المؤلف يتالف من اربع مخطوطات . الاولى تحوي فـي قسمها الاول مختارات من مؤلفات اقتصاد سياسي ، وتعالج في قسمها الثاني : الاجر ، الربح ، الريـع العقاري ، والعمل المنخلع . الثانية ، ولم يبق منها سوى النهاية . تتصل بالملكية الخاصة ، في الثالثـة عولجت المواضيع الاتية : الملكية الخاصة والشغل ، الملكية الخاصة والشيوعية ، الحاجات ، الانتـاج وتقسيم الشغل ، المال ، نقد ديالكتيك وفلسفة هيغل . الرابعة تضم فقط مقتطفات من هيغل .

تحت تأثير مقالة فر. انجلز « خطوط أولى لنقد الاقتصاد السياسي » التي كانت تعرض كيف ان تطور النظام الرأسمالي يقود بالضرورة الى الشيوعية ، كان ماركس يصل الى هذا اليقين وهو أن الدراسة المتعمقة للاقتصاد هي وحدها تتيح فهم طبيعة وتطور النظام الرأسمالي وضرورة احلال الشيوعية محله .

بخلاف فر. انجلز الذي كان يحصر اعتباراته في الميدان الاقتصادي والاجتماعي ، كان ماركس يخرج من تحليله للاقتصاد السياسي ، الذي كان يتيح له نقد الفلسفة المثالية من الاساس ، تصورا ماديا للعالم أعم وأعمق ، كان بمثابة قاعدة لمذهبه الشيوعي .

كانت دراساته في الاقتصاد السياسي ، التي بدأها حسب انجلز في خريف ١٨٤٣ (١) واسعة جدا (٢) . فهي تتضمن ، كما يظهر من خلاصات القراءات ، مؤلفات الاقتصاديين الرئيسيين ، من بواغيبر Boisguillebert وكِه نسي Quesnay حتى جان باتيست سِه J. B. Say وجيمس ميل James Mill (٣).

---

(١) انظر فر. انجلز . مقدمة م٢ من رأس المال ، برلين ، ١٩٥٣ ، ص ٨ .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ٣٣ . « لست بحاجة الى ان أؤكد للقارىء المتآلف مع الاقتصاد السياسي أن النتائج التي وصلت اليها مردها تحليل نقدي موضوعي ودقيق للاقتصاد السياسي » .

(٣) انظر المرجع نفسه ، ص‌ص ٤٣٥ ـ ٥٨٣ . خلاصات من دفاتر الملاحظات . باريس ، أوائل ١٨٤٤ الى اوائل ١٨٤٥ . المقتطفات تنتسب الى المؤلفين والمؤلفات الآتية :

ج. ب. سه J.B.Say : كتاب الاقتصاد السياسي ـ كامل الاقتصاد السياسي .

ف. سكاربك F. Skarbek : نظرية الثروات الاجتماعية .

د. ريكاردو D. Ricardo : مبادىء الاقتصاد السياسي والضريبة .

ج. ر. ماك كولوش J.R.Mac Culloch رسالة عن أصل الاقتصاد السياسي وتقدمه وموضوعاته الخاصة واهميته .

ا. ل. س. دستوت دو تراسي A.L.C. Destutt de Tracy : عناصر ايديولوجيا IV V بحث الارادة وآثارها .

ج. لودرديل J. Lauderdale : بحوث عن طبيعة واصل الثروة العامة .

فر. ليست LIST : منظومة الاقتصاد السياسي القومية . ح١ ، التجارة الدولية ، السياسة التجارية والوحدة الجمركية .

ه. ف. اوسياندر H.F. Osiander : خيبة الجمهور حول فوائد التجارة والصناعة والزراعة او شرح فلسفة الدكتور ليست List الصناعية ـ العلاقات التجارية بين الشعوب .

بواغيبر P. le P. de Boisguillebert تفصيل فرنسا ، سبب انخفاض خيراتها وسهولة العلاج .

ـ مناقشة عن طبيعة الثروات والمال والاتاوات . ـ بحث في طبيعة وزراعة وتجارة وفائدة الحبوب.

ج. لو J. Lowv اعتبارات عن النقود والتجارة .

ولئن كان الامر أولا بأول بالنسبة لماركس أن يتمثل عناصر علم كان الى ذلك الحين غريبا عنه وسيصبح في غضون وقت قليل عارفا علاّمة به ، فان هذا التمثل سيسير عنده جنبا الى جنب مع نقد للاقتصاديين البرجوازيين ، الذين كان من البداية يقف ضدهم كما فعل انجلز .

في هذا النقد كان يسعى بشكل رئيسي الى تبيان كيف ان النظام الرأسمالي المؤسس على الملكية الخاصة هو نظام لا انساني ، سيزول بحكم تناقضاته الداخلية . هذا النقد ، كان يجريه من وجهة نظر التحرر الانساني الذي كان لا يزال يعتبره تحت صورة حذف الانخلاع ، المفهوم الان في شكله الخاص بالبروليتاريا ، في شكل الشغل المنخلع الذي كان يظهر له بوصفه الطابع المميز والعيب العميق للنظام الرأسمالي .

من هنا الموضوعتان الاساسيتان في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** : وصف الانسان المنخلع في المجتمع البرجوازي وحذف الانخلاع في المجتمع الشيوعي ، الموضوعتان اللتان كان ماركس يقرنهما بشكل وثيق مبينا ان تشكل الانخلاع وحذفه سواء بسواء ينجمان عن تطور نظام الملكية الخاصة .

في نقده للنظام الرأسمالي ، استخدم ماركس عدا عن مؤلفات الاشتراكيين الفرنسيين والانكليز ومؤلفات فايتلنغ ، مقالة انجلز « محاولة في نقد الاقتصاد السياسي » ، مقالات هس Hess في الـ **٢١ ورقة من سويسرة** وايضا على الارجح مقالة هس عن « جوهر المال » (١) . كذلك استخدم المؤلف الذي لم يلفت انتباه أحد حتى ذلك الحين ، مؤلف ف. شولتس : w. Schulz **حركة الانتاج** ، الذي يبدو أن ماركس استخلص منه العناصر الاولى لتصوره ، تصور المادية التاريخية (٢) .

في مؤلفه **محاولة في نقد الاقتصاد السياسي** ، كان انجلز قد الح على الطابع اللاعقلي واللاانساني للنظام الرأسمالي (٣) . كان يبين ان المزاحمة الخاصة بهذا النظام قد أنجبت احتكارا أسوأ من احتكار المركانتيلية ، عممت الحرب بين البشر ،

---

١. بوريه E. Buret عن بؤس الطبقات الكادحة في انكلترة وفرنسا .

هذه القائمة ليست كاملة . معهد الماركسية ـ اللينينية في موسكو ذكر انه لم ينشر كل المقتطفات . ومن جهة اخرى يمكن ان تكون بعض دفاتر الملاحظات قد فقدت .

(١) انظر ميغا ، ١ ، حـ٣ ، ص ٣٣ ـ ٣٤ . « غني عن البيان انني ، عدا عن مؤلفات الاشتراكيين الفرنسيين والانكليز ، استخدمت مؤلفات الاشتراكيين الالمان . الاعمال العلمية الهامة والاصيلة لهؤلاء الالمان تنحصر بالحقيقة ـ عدا مؤلفات فايتلنغ ـ في مقالات هس في الـ ٢١ ورقة وفي مقالة انجلز محاولة نقد للاقتصاد السياسي في الحوليات الفرنسية ـ الالمانية ، حيث انا نفسي سطرت بشكل عام جدا

(٣) عن هذا المقال ، انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

(٢) انظر فلهلم شولتز w. Schulz : حركة الانتاج . دراسة تاريخية واحصائية من شانها ان تخدم كاساس لعلم جديد عن الدولة والمجتمع ، زوريخ وفنترثور ، الكونتوار الادبي ، ١٨٤٣ .

(٣) عن هذا المقال ، انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

شددت التعارض بين الاغنياء والفقراء ، وأن تفاقم الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية يقود الى الثورة الشيوعية .

بينما كان هذا المقال ، الذي سوف يصفه ماركس بأنه مخطط أولي عبقري (۱)، يقود ماركس الى اعتبار النظام الرأسمالي في علاقاته مع التطور العام للتاريخ والى تصور حذفه كنتيجة لتطوره الجدلي ، كانت مقالات هس تعطيه آراء جديدة عن طبيعة الفاعلية الانسانية والانخلاع .

في مقالاته في الـ **۲۱ ورقة من سويسرة** (۲) ، بشكل خاص في « فلسفة العمل »، كان هس قد بيّن ان الفاعلية الانسانية تحدد فكر البشر كما تحدد حياتهم . بعكس المثاليين الذين يقلصونها الى الفاعلية الروحية ، يجب ، اذا أردنا فهم طبيعتها ودورها ، أن نعتبرها في شكلها العياني . فقط بفاعليته العينية والحرة التي بها يخلق نفسه يستطيع الانسان ان يعي ذاته وان يؤكد ذاته كانسان . في المجتمع البرجوازي ، ان الفاعلية الحرة الموافقة وحدها للطبيعة الانسانية مستحيلة ، الامر الذي يترتب عليه نزع انسانية البشر . من هنا ضرورة حذف المجتمع البرجوازي المؤسس على الملكية الخاصة التي تنجب الانانية وعطش الربح وضرورة استبداله بمجتمع ذي طابع شيوعي وفوضوي (anarchiste = لا رئاسة فيه ، لا أمر) في آن ، يكون فيه البشر متساوين وأحرارا .

في مقال آخر عن « جوهر المال » كتب لمجلة **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** (۳)، كان هس يعرض طبيعة وآثار الانخلاع في المجتمع البرجوازي . كان يبين ان الانخلاع الديني ليس الا الانعكاس الايديولوجي للانخلاع الفعلي الحاصل في هذا المجتمع ، حيث العامل المطرود من الملكية الخاصة ، البروليتاري ، يخلع جوهري حياته ، شغله ، في السلع التي ينتجها ولكنها ليست ملكا له بل هي بتحولها الى مال ، الى رأسمال ، تسيطر عليه وتستعبده . في هذا المجتمع ، المال هو الاله الحق ، الذي فيه يعبد البشر كينونتهم المخلوعة . هذا الانخلاع يؤلف السمة المميزة للمجتمع البرجوازي ، حيث البشر ، بحكم المزاحمة والانانية المتولدتين من الملكية الخاصة ، معزولون ومعارضون فيما بينهم . كي يستطيعوا ان يعيشوا حياة متفقة مع طبيعتهم الحقة ، يجب ان نحل محل المجتمع البرجوازي مجتمعا فيه سينظم البشر فاعليتهم بشكل عقلي ومتسق وحر وفيه ستكون المحبة لا الانانية هي العنصر الناظم لعلاقاتهم .

---

(۱) انظر ك. ماركس : مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، باريس ، المطبوعات الاجتماعية ، ١٩٥٧ . المقدمة ، ص ٥ .

(۲) كان هس قد نشر في ١٨٤٣ في هذه المجلة ثلاث مقالات : الاشتراكية والشيوعية ـ الحرية واحدة وكاملة ـ فلسفة العمل . عن هذه المقالات ، انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

(۲) عن هذا المقال ، انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

بعكس انجلز الذي كان ، بادخاله تطور الشيوعية في تطور التاريخ ، يصل الى تصور مادي ، كان هس يظل مثاليا في حله للمسألة الاجتماعية .

واذ كان ماركس يستعير جزئيا تصورات هس عن طبيعة الفاعلية الانسانية والانخلاع ، فقد كان يعطيها طابعا ماديا بارتكازه في آن على انجلز وعلى كتاب ف. شولتس **حركة الانتاج** الذي كان يعلل التطور التاريخي بتطور الانتاج ويعرض كيف ان حقب التاريخ المختلفة يقررها ويحددها تطور الحاجات ، التي يولد اشباعها تحولا دائما في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي (١) .

في البداية ، الحاجات بسيطة ، والانتاج ، ثمرة الشغل اليدوي والمشروط بطبيعة البلاد ، ضعيف . لا يوجد لا انقسام للمجتمع الى طبقات ولا سلطات عامة (٢) .

في المرحلة التالية من التطور التاريخي ، التي تتميز بالزراعة ، لا يكتفي الانسان بجني المنتوجات التي تقدمها الطبيعة ، بل يشرع في تطويع هذه لتلبية حاجاته .

ان زيادة هذه الحاجات تحدد تقسيما أول للشغل ، خلاله تنفصل الصناعة والتجارة تدريجيا عن الزراعة ، الامر الذي ينجم عنه تقسيم للسكان موافق (٣) .

مع ازدياد انقسام الشغل الحرفي ندخل في طور المانيفاكتورة . ان تطور الانتاج يسمح بتراكم تدريجي للرساميل يقرر تشكل طبقات متعارضة وانفصالا متزايد الشدة بين الانتاج المادي والانتاج الفكري (٤) . بالتوازي مع الصناعة ، يرى نمو وتطور التجارة والنقل وايضا الزراعة . ان اسلوب التطور المختلف يعطي الامم المختلفة طابعها الخاص (٥) .

ان تحويل وتخفيض الفاعلية الصناعية الى عمليات ابتدائية بتشديد تقسيم الشغل يقود الى استخدام آلات تحسن على الدوام ويولد نظام المصنع fabrique .

في هذا النظام الذي يطبع المرحلة الاحدث من التطور التاريخي ، ان تراكم الرساميل المتزايد يسهل قيام علاقات متزايدة الوثوق بين فروع الانتاج الرئيسية .

---

(١) ماركس يذكر ف. شولتس W. Schulz مرارا في المخطوطات ، انظر ميغا ، ١ ، ح٣ ، صص ٤٧ ــ ٤٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ . انظر ك. ماركس : راس المال ، ح١ ، ص ٣٨٨ الملحوظة ٨٨ . عن ف. شولتس ، انظر ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ٦٢٥ . فلهلم شولتس (وسيعرف فيما بعد باسم شولتس ــ بودمر) ١٧٩٧ ــ ١٨٦٠ ، صحافي ديمقراطي ، في ١٨٤٨ عضو في برلمان فرانكفورت . كان قبل حركة الانتاج قد نشر في ١٨٤٠ في المجلة الفصلية الالمانية مقالا : التحولات في تنظيم الشغل وتأثيرها على العلاقات الاجتماعية . تنظيم الشغل بوصفه عامل انتاج . عن تاثير شولتس على ماركس ، انظر ف. مونكه W. Moenke : ملاحظات على تشكل المادية التاريخية .

(٢) انظر ف. شولتس : حركة الانتاج ، مرجع مذكور ، صص ١١ ــ ١٣ ، ٣٧ .

(٣) المرجع نفسه ، صص ١٣ ، ٣٧ .

(٤) المرجع نفسه ، صص ١٤ ــ ١٥ ، ٣٨ .

(٥) المرجع نفسه ، صص ١٧ ــ ١٩ .

يحصل الصناعيون الكبار على املاك عقارية كي لا يضطروا الـــى شراء المــواد الاولية اللازمة لهم . ويكبون في الوقت نفسه على التجارة ، ليس فقط كي يبيعوا منتوجاتهم الخاصة بل ايضا كي يشتروا ويبيعوا منتوجات أخرى . ان تشكيل شركات مساهمة يسهل هذا الاستخدام المتآني للرساميل في مشروعات متنوعــة ، مما يخفف التعارض بين الصناعة والتجارة والزراعة ويحدث بينها اشتراكا في المصالح (١) .

ان تراكم الرساميل يشدد من جهة أخرى ، مــع التضاد بين البؤس والغنى ، التعارض بين غير المالكين والمالكين ، الذي هو السمة المميزة للمجتمع البرجوازي (٢).

في وصفه لحالة العمال في النظام الرأسمالي ، يسجل شولتس ان هــــذا النظام يرغم العمال على ان يكسبوا اجرهم البائس بعمــل يستهلــك قواهم ويهلكهم معنويـا وثقافيا ، وانهم في ظل حكم المزاحمة يجب ان يعتبروا انفسهم سعداء لكونهم يجدون عملا كهذا حتى لا يموتوا جوعا، وان بؤس العمال، في التزايد العام للانتاج والحاجات، يمكن ان ينمو بصورة نسبية الى جانب انخفاضه بصورة مطلقة (٣) .

بما ان التعارض المتزايد بين البروليتاريا والطبقات المالكة يهــدد بتوليد ثورة اجتماعية (٤) ، فان واجب الدولة تخفيف هذا التعارض وتهيئة الانتقال الــى تنظيم اجتماعي افضل بواسطة تدابير ملائمة ، وخاصة بواسطة تنظيم الشغل وتحويل نظام الملكية .

اذا ما عارضت الطبقات المالكة هذه الاجراءات ، عندئـذ بالثورة ستحل المسألة الاجتماعية (٥) .

في عرض هذه الاخيرة ينقــــد شولتس في آن موقف الاقتصاديين والهيغليين ـ الشباب والاشتراكيين والشيوعيين .

يلوم الاقتصاديين على كونهم لا يهتمون الا بعالم الاشياء ، لا يرون ان الانتاج لـه مصدره في طبيعة الانسان ولا يجعلون من هذه الاخيرة موضوع ابحاثهم الجوهري (٦).

يعتبر ان ضعف الهيغليين ـ الشبان يأتي من كونهم اذ يبقـون محصورين فـي ميدان المجردات فانهم لا يتوصلون الى رؤية الطريق الذي يقود الى الحياة (٧) .

أخيرا يأخذ على الاشتراكيين والشيوعيين كونهم لا يهتمون الا بالوجــــه المادي للانتاج والاستهلاك ولا يحسبون حسابـــا للانتـــاج الثقافي ولا للــدور السياسي

(١) المرجع نفسه ، ص ص ٣٧ ـ ٣٨ ، ٤٠ وبعدها .
(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٣٥ ، ٤٠ ، ٥٨ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٦٠ ، ٦٦ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ص ٣ ـ ٤ ، ٧٣ .
(٥) المرجع نفسه ، ص ص ٤ ، ٩ ، ٥٦ ، ٧٤ .
(٦) المرجع نفسه ، ص ص ٥٧ .
(٧) المرجع نفسه ، ص ص ٧ .

والاجتماعي العائد للافراد (١) .

بتحليله التطور الاقتصادي والاجتماعي ، كان شولتس يصل الى تصور مادي للتاريخ . كان يبين ان التطور التاريخي مشروط بتطور الحاجات والانتاج وان تطور الانتاج يحدد تحول الدولة والمجتمع (٢) كما يحدد تطور التشريع (٣) ، وكان يلح اخيرا على ان تطور النظام الحديث ، نظام الانتاج الكبير ، يستتبع كنتيجة لازمة تكوين تنظيم اجتماعي جديد (٤) .

في نقده للمنظومة الرأسمالية ، كان ماركس يأخذ عن انجلز تصوره للطابع المتناقض لهذه المنظومة ، الطابع الذي سيؤدي الى حذفها ، مقالات هس كانت تأتي لتعزز تصوره للشغل كعنصر جوهري في الحياة الانسانية وتصوره للطابع الاقتصادي والاجتماعي للانخلاع . واخيرا كان يأخذ من شولتس فكرة ان تطور الانتاج وانقسام الشغل يحدد تعاقب اشكال المجتمع والدولة وكذلك صراعات الطبقات (٥) .

غير انه من الخطأ تماما ان نعتقد ان ماركس أقام نظريته بضرب من عملية تجميع لافكار استعارها من هذه المؤلفات . العنصر الاساسي في نظريته كان تصوره الجديد للانسان الذي سيوضحه بنقده لـ هيغل ، لـ فويرباخ ، وللاقتصاديين . بفضل هذا النقد سيجدد أفكار انجلز وهس وشولتس ليصهرها في كل عضوي واحد .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ص ٤ ، ٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ١٣ – ٢٠ ، ٣٧ ، ٤٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥١ . « يجب الاعتراف ... بان التشريع ، منظورا اليه في ملامحه العامة ، قد أرغم دوما على التكيف مع التحولات الحاصلة في المجتمع وبأن الحياة الاجتماعية حددت القوانين اكثر بكثير مما حددتها القوانين » .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٧٤ . « في المستقبل ، القوى الطبيعية غير الواعية المحتواة في الآلات ستصبح عبيدنا . هكذا فقط تستطيع فكرة الحرية والمساواة العامة ، التي هي من جهة أخرى معارضة لاي تصور قوامه التسوية ، ان تتحقق في وعي وفي حياة البشر . على كل حال ستتحقق حتما ، اذ ان شروط تحققها تتولد من القوانين الثابتة لحركة الانتاج » .

(٥) كان ماركس يجد افكار شولتس مؤيدة بما ورد عند سان سيمون وآدام سميث . ف آ. سميث كان في كتابه ، ابحاث عن طبيعة واسباب ثروة الامم ، قد بين بشكل اكثر تعميقا مما هو عند شولتس ، ولكن في منظور تاريخي اقل اتساعا ، العلاقات بين التطور الاقتصادي والتطور الاجتماعي (اسباب انحطاط الزراعة وتاسيس المدن بعد سقوط الامبراطورية الرومانية – آثار تطور التجارة في المدن على تحسن الزراعة . انظر ميغا ، ١ ، ج٣ ، ص ص ٤٧٧ – ٤٨٣) .

حين سال فرانتس مهرنغ فر. انجلز ما اذا لم يكن ماركس قد اخذ قسما من افكاره آنذاك من مؤلفات مدرسة القانون التاريخية، لا سيما من مؤلف لافرني- بيغليين Lavergne - Peguilhen ; قوانين الدوران والانتاج (برلين ، ١٨٤٦) الذي ربما قراه سابقا ، اجابه انجلز في رسالة بتاريخ ١٨٩٢/٩/٢٨ : « كان ماركس قد قرأ اثناء وجوده في بون وبرلين كتب آدم مولر ، فون هالر ، الخ ، لم يكن يتحدث الا ببعض الازدراء عن هذا التقليد المسطح والمدعي لمؤلفات الرومانطيقيين الفرنسيين جوزيف دو ميستر Joseph de Maistre والكاردينال بولان Boland . اذا ما حدث ان صادف مقطعا

←

بتكييف لافكار هيغل الاساسية مع تصوره الثوري ، كان يعتبر ان الانسان ليؤكد نفسه كانسان ، يجب ان يمارس فاعلية واعية ، حرة ، وكلية . بهذه الفاعلية التي هي تخريج extériorisation قواه وتملك منتوجات هذه القوى ، يخلق الانسان نفسه محولا الطبيعة التي يغيرها نتاج عمل الانسان ، تفقد طابعها الموضوعي المحض . كي يستطيع الانسان ان يجلي ويحقق كينونته هكذا ، يجب ان لا يخلع قواه الخالقة في منتوج عمله ، بل بالعكس ان يجد نفسه كاملا في هذا الاخير .

هيغل ، المفكر المحافظ ، كان ، وهو يضع هذه المبادىء ، قد أخفى نفيها في النظام الرأسمالي الذي ينجب انخلاع قوى الانسان الخلاقة في منتوج شغله ، معتبرا ان الانسان في هذا النظام بجد نفسه تماما في منتوج فاعليته . كان يبرر هذا الزعم بروحنة spiritualisation الانسان والطبيعة ، التي كانت بحذفها كل انخلاع تسمح له بأن لا يعتبر الفاعلية الانسانية الا في صورة التخريج الايجابية ، دون حساب صورة الانخلاع السلبية ، وكذلك مع اعتبار الانسان فقط بصفته مالكا ، وكمالك لا يمكن ان ينخلع في منتوج شغله .

ان تصور أن الانسان لكي يؤكد نفسه كانسان يجب ان لا يخلع كينونته ، كان ايضا في قاعدة فلسفة فويرباخ ، التي كانت آنذاك مع فلسفة هيغل أساس فكر ماركس . بعكس هيغل ، كان فويرباخ ، الذي كانت فلسفته تعكس الاتجاهات التقدمية للبرجوازية ، يعتبر الانخلاع الشر الاساسي للمجتمع ، السمة المميزة لنزع انسانية الانسان ، وحذفه الشرط الضروري لاعادة أنسنة هذا الاخير . واذ كان فويرباخ يتصور الانخلاع ، لا كما كان يتصوره ماركس، من وجهة نظر المصالح الطبقية للبروليتاريا ، تحت صورة الشغل المنخلع ، بل على صعيد بشرية غير متمايزة اجتماعيا ، فقد كان يحول جوهريا هذا الانخلاع الى الانخلاع الديني ، الذي ينجم الغاؤه عن محض مقاضاة فكرية ، عن نقد الدين .

حافظا من فويرباخ تصور ان الانخلاع هو طابع المجتمع المنزوع الانسانية وان حذفه هو الشرط الضروري لانسنة الانسان من جديد ، كان ماركس برفضه الحل المثالي الذي كان يعطيه عن مسألة الانخلاع ، يتجاوزه مع تجاوزه هيغل ، معتبرا ان

كمقطع لافرني بيفيين ، لما استطاع هذا المقطع ان يؤثر عليه اي تاثير ، مع افتراض فهمه لما كان هؤلاء يقصدون . كان ماركس آنذاك هيغليا ، بالنسبة اليه مثل هذه المقاطع هرطقة محض . كان يجهل كل شيء عن الاقتصاد السياسي وما كان يستطيع أن يتصور ماذا يمكن ان تعني عبارة من نوع « قوى اقتصادية » . حتى اذا عرف المقطع المشار اليه ، لدخل اليه من اذن وخرج من الاخرى دون ان يترك اثرا في ذاكرته . من جهة أخرى فاني لا اعتقد انه في مؤلفات مدرسة الحق التاريخية التي قراها بين ١٨٣٧ و١٨٤١ استطاع ان يجد مقطعا كهذا » . (انظر ف. مهرنغ : المادية التاريخية ، برلين ، ١٩٥٢، ص ٤٨ - ٥٠) .

تحول المجتمع يشترط حذف الشغل المنخلع وان هذا الحذف لا يمكن ان يكون سوى نتيجة عمل البروليتاريا الثوري .

نقد الاقتصاد السياسي

بالارتكاز على تصورات هيغل وفويرباخ الجوهرية التي كان يحولها جذريا ، مكيفا اياها مع المصالح الطبقية للبروليتاريا ، كان ماركس يشرع في نقد الاقتصاد السياسي البرجوازي والنظام الرأسمالي .

في هذا النظام المؤسس على الملكية الخاصة ، التي تعطي الشغل طابع شغل منخلع ، تجعل الفاعلية الحرة والواعية والكلية التي بها الانسان يخلق نفسه حقا مستحيلة . فمنتوجات الشغل تتحول فيه الى سلع ، الى موضوعات (objets أشياء) يخلع فيها البشر قواهم الخالقة ، حيث بدلا من ان يكونوا ملوكا على عالم الاشياء التي ينتجون يصبحون عبيده .

بما ان الشغل ، بتحوله الى شغل منخلع ، يفقد في النظام الرأسمالي ، مع طابعه كفاعلية حرة ، وظيفته الاجتماعية التي هي خلق روابط انسانية بين البشر ، فان العلاقات بين هؤلاء ، بفقدانها طابعها كعلاقات انسانية ، تشيّء ، أي تحول الى علاقات بين موضوعات ، الى تبادل لمنتوجات الشغل المنخلع ، الى تبادل سلع .

على هذا التشيؤ للعلاقات الاجتماعية الذي يحدد انخلاعا عاما لجميع البشر يؤسس ماركس نقده للنظام الرأسمالي ، النقد الذي يفتحه بتحليل لتطور الاقتصاد السياسي (١) .

في هذا التحليل الذي يقوم به جزئيا على غرار شولتس (٢) ، يلح ماركس على

---

(١) هذا النقد ليس موضوع مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة فقط بل هو ايضا موضوع ملاحظات ماركس على خلاصاته من مؤلفات الاقتصاديين الكبار (انظر ميغا ١ ، حـ٣ ص ص ٤٣٧ – ٥٨٣). هذه الملاحظات تتصل بالملكية الخاصة وعواقبها وبالمقولات الاقتصادية التي تحددها . عن هذه الملاحظات انظر د. ي. روزنبرغ : تطور المذاهب الاقتصادية لماركس – انجلز في اربعينات القرن التاسع عشر ، برلين ١٩٥٨ ، انظر الفصل ٣ ، ص ص ٨٣ – ١٢٩ : « ملاحظات نقدية لماركس على مختاراته من مؤلفات اقتصاديين » .

(٢) انظر ف. شولتس ، مرجع مذكور ، ص ١١٥ . « المنظومة المركانتيلية ظهرت الاولى ، نحو منتصف القرن السادس عشر ، في مجال الاقتصاد السياسي . الشيء الجوهري في هذه المنظومة هو انها كانت تعلق اهمية خاصة على بعض فروع الانتاج ، التي تجني الدولة منها أرباحا خاصة في علاقاتها مع الدول الاخرى . ذلك كان نظاما احتكاريا وانعزاليا . ان مذهب الفيزيوقراطيين الذي يظهر في القرن الثامن عشر يؤلف الى جانب كونه رد فعل ضد هذا النظام توسيعا للتصورات الاقتصادية ، بمعنى ان الانتاج الزراعي ، معتبرا الانتاج الاساسي وقاعدة كل الثروات ، يصير اس الاقتصاد السياسي . في نهاية القرن الثامن عشر ، ان تقدما جديدا تسمه منظومة آدام سميث الصناعية التي تعتبر ان الشغل بالذات يؤلف العنصر الاساسي لكل فروع الانتاج » .

ان المذاهب الاقتصادية الحديثة هي الانعكاس الايديولوجي لتطور الاقتصاد المطبوع بنهوض الصناعة . هذه ، منفصلة اكثر فاكثر عن الزراعة ، تصبح المصدر الرئيسي للانتاج وتحدد تحولا عميقا للملكية . هذا التحول للانتاج ، الذي يصير صناعيا بعد ان كان زراعيا ، يقود الاقتصاديين الى ان يتصوروا بشكل متزايد الوضوح ان الشغل معتبرا في ذاته يؤلف مصدر الثروة الوحيد .

بينما كان أنصار المذهب النقدي يرون في المعادن الثمينة شكل الثروة الحقيقي وكان المركانتيليون بعدهم يدعون الى تراكم الثروات باقامة ميزان تجارة جيد (١) ، فان الفيزيوقراطيين ، اذ يرتدون على هذا الدفاع عن التجارة والصناعة ، يعتبرون الزراعة ، التي هي وحدها في نظرهم تعطي منتوجا صافيا ، مصدر كل ثروة . الارض بالحقيقة ما تزال متصورة من قبلهم شكلا خاصا للرأسمال ، له طابعه الذاتي ، وليس رأسمالا معتبرا في ذاته . ولكن ، مع الارض ، يكتسب موضوع الثروة ، مادتها ، الطابع الاكثر عمومية في مجال الطبيعة ، ومن جهة اخرى ، بما ان الارض لا تصير ثروة الا بشغل الانسان ، بالزراعة ، لذا فان الثروة تتخذ طابعا ذاتيا ، ما دام الشغل يؤلف عنصرها المقرر .

بيد ان الفيزيوقراطيين لا يعتبرون بعد الشغل في شكله العام والمجرد . مربوطا بالارض التي تؤلف مادته ، الشغل ليس بعد عندهم سوى أسلوب خاص في تخريج قوى الانسان الخلاقة ومنتوجه معتبر شكلا خاصا للثروة أنجبته الطبيعة اكثر مما انجبه هو . من جهة أخرى ، بما أن الارض معتبرة كعنصر طبيعي مستقل عن الانسان وليس كراسمال ، فهي لا تفهم في علاقات تبعيتها للشغل ، المعتبر بالعكس تابعا لها .

على صعيد الاقتصاد السياسي ، تشكل الفيزيوقراطية في آن نفي الاقطاعية ، حيث هي تنكر على الارض طابع عنصر ثروة محض موضوعي وتعتبر الشغل، في صورة الزراعة ، العنصر المكون للثروة وايضا تسويغها ، ما دامت ترى في الزراعة مصدر الثروة الوحيد (٢)

الفيزيوقراطيون حولوا الصنمية (التميمية fétichisme) التي لا تعتبر الثروة الا تحت شكلها الخارجي ، الموضوعي ، وقلصوها الى عنصر بسيط جدا ، الارض ، وبينوا ، وان بطريقة ما تزال غير كافية وجزئية ، ان مصدر الثروة الجوهري هو عنصرها الذاتي : الشغل .

---

(١) انظر ك. ماركس : راس المال ، ج٣ ، ص ٨٣٤ . « النظام النقدي اعتبر ، بحق ، الانتاج من اجل السوق العالمية وتحويل المنتوجات الى سلع اي الى مال ، الشرط الاولي والضروري لتطور الانتاج الراسمالي . النظام المركانتيلي ، الذي يؤلف انماءه ، يعتبر جوهريا لا تحويل قيمة السلع الى مال بل انتاج فضل ـ القيمة ، هذا ، من جهة اخرى ، في دائرة الدوران (التداول) تحت شكل ميزان تجاري جيد » .

(٢) ميغا ١ ، ج٣ ، ص ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

لقد تجاوزهم الاقتصاديون الحديثون ، واولهم آدم سميث Adam Smith الذي اعترف بأن مبدأ كل ثروة ليس شكلا خاصا للشغل مربوطا بعنصر طبيعي محدد بل هو الشغل بذاته معتبر في شكله المجرد (١) .

بعده وجه ريكاردو Ricardo، مشددا على ان الزراعة لا تتميز من هذه الزاوية عن الصناعة ، طلقة الرحمة الى نظرية الفيزيوقراطيين الذين كانوا يرون في الريع العقاري مصدرا خاصا للثروة مستقلا عن الشغل المعتبر في ذاته . فريكاردو ، معيدا كل الثروات الى منتوج الشغل وحسب ، يرى ان الصناعة والرأسمال الصناعي يؤلفان الاشكال الناجزة للشغل وللملكية الخاصة (٢) .

بنقله جوهر الملكية الخاصة والثروة الى الشغل ، اي بوضعها في الانسان نفسه، اكمل آدم سميث تدمير اوهام الصنمية التي كانت ترى في الملكية الخاصة والثروة حقائق واقعية خارج الانسان . لهذا السبب استطاع انجلز أن يصف آدم سميث بحق بأنه لوثر اقتصادي . فكما ان لوثر أحل محل التدين الخارجي الايمان ، التدين الداخلي ، جاعلا منه جوهر الانسان ، كذلك آدم سميث أحل محل الثروة المعتبرة في شكلها الموضوعي المستقل عن الانسان الثروة المعتبرة في شكلها الذاتي معيدا اياها الى الشغل (٣) .

بعد هذا العرض العام للاقتصاد السياسي الذي خلاله يشرع في تعليل تطور التاريخ بتطور الانتاج ، مبرزا بشكل خاص كيف ان استبدال النظام الاقطاعي قد حدده تغير أسلوب الانتاج (٤) ، يقوم ماركس بنقد الاقتصاد السياسي من وجهة نظر الاستلاب المتولد من تشييء العلاقات الاجتماعية في النظام الرأسمالي .

اذ يفضح ماركس الطابع الطبقي للاقتصاد السياسي (٥) ، فانه يأخذ عليه

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٠٧

(٤) اذ يشدد ماركس على التغيرات التي تحصل في الملكية العقارية بعد ظهور الراسمال الصناعي ، فهو يلاحظ ان الملكية العقارية تفقد ، بنتيجة تطور الصناعة ، طابعها النوعي ، متحولة اكثر فاكثر الى راسمال ، وان الشغل ، الذي كان في النظام الاقطاعي مربوطا بالزراعة ولم يكن له بعد طابع مجرد ، يصير لا مباليا اكثر فاكثر ازاء موضوعه ويتخذ شكلا مجردا مستقلا عن هذا الموضوع . واذ يعتبر اخيرا الآثار الاجتماعية لهذا التحول الاقتصادي الذي يولد صراعا طبقيا بين الملاكين العقاريين والصناعيين كما بين البرجوازية والبروليتاريا ، فهو يبين ان المبادىء العظمى التي باسمها يتقاتل الملاكون العقاريون ورجال الصناعة لا تخدم الا في حجب الاختلافات العميقة في المصالح التي تضع الملكية العقارية في معارضة الملكية المنقولة والتي هي الدوافع الحقيقية لصراعهما (المرجع نفسه ، ص ٩٩ ــ ١٠٣) .

(٥) انظر المقطع الآتي ، الذي اخذه ماركس من كامل الاقتصاد السياسي العملي لـ ج. ب. سه J.B.Say (بروكسل ، ١٨٣٦) . « الاقتصاد السياسي ليس شيئا اخر سوى اقتصاد المجتمع » . (انظر ميغا ١ ، حـ٣ ، ص ٤٥٥) .

ذهابه ، في تحليله للانتاج ، من واقع الملكية الخاصة دون محاولة تبريره (١)، واخفاءه لا انسانية النظام الرأسمالي ، باعتباره الانتاج خارج الشغيل الذي يخلقه (٢) وبتقديمه اياه كجمع علاقات موضوعية (٣) .

هذا يسمح له بأن ينظر الى تبعية الانسان لعالم الاشياء التي ينشيء ، الخاصة بالنظام الرأسمالي ، على انها ظاهرة طبيعية وبالتالي ضرورية ، وبأن يبرر تشييء العلاقات الاجتماعية المتولد من هذا النظام .

ان تقريظ منظومة الملكية الخاصة حيث الشغل منتج الثروات هو كل شيء بينما الشغيل لا شيء يبين كل دناءة الاقتصاد السياسي (٤) .

تحت راية الدفاع عن استقلال الانسان ازاء عالم الاشياء بتأكيد ان الشغل هو العنصر الوحيد خالق الثروات ، ان الاقتصاد السياسي هو بالحقيقة نفي الانسان وهو يعبر لا عن قوانين فاعلية الانسان الحقيقية التي تجعل العالم خلقه بل عن قوانين منظومة تنزع انسانيته . فكما ان لوثر عزز الدين بتدخيله (بجعله في الداخل) ، كذلك الاقتصاد السياسي عزز الملكية الخاصة باعتباره الشغل في شكله المنخلع مصدر الثروة الوحيد (٥) .

واذ رمى قناع الانسانية التي كان يزين وجهه في البداية ، فقد انكشف الاقتصاد السياسي في كل كلبيته ، مبررا بصراحة متزايدة العواقب اللاانسانية لنظام الملكية الخاصة (٦) .

ويرافق كلبيته عجز عن تحليل النظام الرأسمالي ، تحليلا صحيحا يشتق ملامحه العامة من أساسه ، الملكية الخاصة . اذ لا يفهم أسباب تشكل وتطور هذا النظام ، فهو ينكشف عن عجز عن تعليل الانفصال الذي حصل بين الشغل والرأسمال والارض (٧) .

واذ يعتبر ، من جهة أخرى ، المزاحمة وحرية الانتاج وتقسيم الملكية العقارية وقائع عرضية لا نتائج ضرورية لتطور نظام الاحتكار وانتاج هيئات الحرف والملكية

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ٤٤٩ . « الملكية الخاصة هي واقعة يهمل الاقتصاد السياسي تبريرها ، ولكنه يتخذها اساسا له . لا وجود لثروات بدون ملكية خاصة ، وبما ان الاقتصاد السياسي هو علم الاثراء فهو يرتكز هكذا على الملكية الخاصة ، اي على واقعة ، لا يبين ضرورتها » .

(٢) انظر المرجع نفسه ، صص ٨٤ — ٨٥ . « الاقتصاد السياسي يحجب الانخلاع في الشغل بعدم اعتباره العلاقة المباشرة بين الشغيل (الشغل) والانتاج . »

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٣ . « حين نتحدث عن الملكية الخاصة نعتقد اننا امام شيء مستقل عن الانسان ، حين نتحدث بالعكس عن الشغل فنحن مباشرة أمام الانسان نفسه . »

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٥٨ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٦) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ — ١٠٩ .

(٧) المرجع نفسه ، ص ص ٨١ — ٨٢ .

الاقطاعية ، فهو يقيم النظرية التي تستجيب لاحد هـذه النظـم ضد النظرية التـي تستجيب للنظام الآخر ، يقيم نظرية المزاحمة في مقابل نظرية الاحتكار ، ونظرية حرية الانتاج في مقابل نظرية انتاج هيئات الحرف ، ونظرية تقسيم الملكية العقارية في مقابل نظرية الملكية الكبيرة ، دون ان يرى الروابط التي توحدها (١) .

اخيرا ، بما انه يقبل كظاهرة طبيعية وضروزية سير تشييء العلاقات الاجتماعية الذي يحول منتوجات الشغل الى موضوعات ظاهرة مستقلة عن الانسان ، لـذا فان الاقتصاديين البرجوازيين لم يستطيعوا كشف طابع التميمة fétiche للسلع المعتبرة خارج الانسان الذي ينتجها . أجل رفض الاقتصاديون الحديثون المماثلة التي اقامها النقديون بين الثروة والمال ـ المعدن، ولكن بما انهم يعيدون الثروة الى القيمة التبادلية التي لا تتعبر عمليا الا في شكل المال ، فان هـذا الاخير يؤلف ايضا عندهـم جوهر الثروة . الفرق الوحيد الذي يفصلهم عن النقديين هو ان هؤلاء يماثلون الثروة مـع المال المعدن بينما هم يماثلونها مـع المال المعتبر في شكل القيمـة التبادلية المجـرد ، مكتفين هكذا بالاستعاضة عن وسواس النقديين الفظ بشكل وسواس أنعم (٢) .

ماركس ، اذ يعتبر بخلاف الاقتصاديين الوقائع الاقتصادية قبل اي شيء وقائع اجتماعية ، فانه يؤسس نقده للاقتصاد السياسي وللمنظومة الراسمالية عـلى نقـد الشغل المنخلع ويبين كيف ان هذا الاخير يحدد بتشييء العلاقات الاجتماعية انفصال الانسان عن منتوج شغله وعن كيانه الخاص الذاتي وعن الاشتراك الانساني او الجماعة الانسانية .

الاقتصاد السياسي ـ على حد قول ماركس ـ يعتبر نظام الملكية الخاصة واقعا لا يمس وأسلوب الانتاج المؤسس على هذا النظام أسلوبا ضروريا يستجيب معا لطبيعة الاشياء وللطبيعة البشرية . الانتاج ، في نظر الاقتصاد السياسي ، ليس موضوعه او هدفه خلق قيم انتفاع بل خلق قيم تبادل . بما انه يرى في تبادل هذه القيم ، في تبادل السلع ، الاساس الطبيعي للعلاقات الاجتماعية ، فانه يذهب في اعتباراته مـن هـذا الشكل اللاانساني ، المنخلع ، للعلاقات الاجتماعية المحولة الى علاقات تجارية (٣) .

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٢ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣ .
(٣) المرجع نفسه ، ص‌ص ٥٣٦، ٥٣٧ . « في‌هيئة التبادل والتجارة يفهم‌الاقتصاد السياسي الجماعة الانسانية ، الفاعلية الاجتماعية ، التي بها يؤكد البشر انفسهم كبشر ويتكاملـون » ، « يقول دستوت الانسانية ، الفاعلية الاجتماعية ، التي بها يؤكد البشر انفسهم كبشر ويتكاملـون » ، « يقـول دستوت دو تراسي : المجتمع مكون من سلسلة تبادلات » ، « يقول آدم سميث : المجتمع مجتمع تاجر ، شركـة société تجارية ، كل عضو فيه تاجر » . نجد هكذا كيف ان الاقتصاد السياسي يعتبر شكل العلاقات الاجتماعية المنخلع شكلها الجوهري ، الاصلي ، الذي يوافق الدعوة الانسانية » . انظـر المرجع نفسـه ص ٥٣٧ . انظر روزنبرغ ص ١٢٠ .

ماركس يشدد على لا انسانية العلاقات الاجتماعية المشيئة هكـذا ، مستعينا بمقارنة يعقدها بين أسلوب الفاعلية المتفق مع طبيعة الانسان الحقة وفاعلية الانسان في المجتمع الرأسمالي (١) .

في المجتمع الانساني الحق ، البشر يتأكدون بمنتوجات عملهم ويغني بعضهم بعضا بهذه الاعمال . في هذا المجتمع ، الشغل ومنتوجه هما تثبيت وتحقيق شخصية المنتج وتبادل البشر لمنتوجات شغلهم يؤلف أساس العلاقات الاجتماعية الحقة ، أساس الاشتراك الانساني الحق .

في النظام الرأسمالي ، تفقد منتوجات الشغل وتبادلها طابعها الانساني بحكم تشيؤ العلاقات الاجتماعية .

هذا التشيؤ هو نتيجة الانتقال من الاقتصاد الطبيعي ، حيث يبقى الموضوع المنتوج مرتبطا بالمنتج ، الى الاقتصاد السلعي حيث ، بنتيجة فيض انتاج القيم الانتفاعية التي تتحول الى قيم تبادلية ، يحصل تغير جذري في طبيعة الانتاج والملكية.

في الاقتصاد الطبيعي الذي يوافق وضع البشرية الهمجي او البربري ، حيث الانتاج يقتصر على انتاج موضوعات مكرسة لتلبية حاجات المنتج الشخصية ، ليس هناك لا فائض انتاج ولا تبادل (٢) .

هذا الاخير يولد في اطار الاقتصاد الطبيعي من واقع ان منتجا من المنتجين يضطر للجوء الى منتوج منتج آخر لتلبية حاجة ما . الانتاج المحدد من قبل التبادل يصبح هدفه لا التلبية المباشرة لحاجات المنتج بل الحيازة ، بطريق الانتاج الفائض ، على منتوجات قابلة لان تخدم كوسائل تبادل . في التبادل ، كل منتج يترك للاخر قسما من انتاجه ، من ملكيته ، وهذا التنازل المتبادل عن منتوجاتهما ، عن خيراتهما، هو ما يؤلف أساس العلاقات الاجتماعية بين المالكين (٣) .

هذا الاسلوب الجديد للانتاج والتبادل لم يعد انسانيا حقا ، اذ انه ينزع ، في آن انسانية الشغل ومنتوج الشغل والتبادل .

فالشغل لم يعد الفاعلية الخالقة التي بها يحقق الانسان كينونته ، بغيره وسيلة حصول على ثروات ، يتحول الى فاعليـة للانسان المنزوع الانسانية ، الى شغل « منخلع » ، فيه تختفي العلاقة المباشرة التي تربط المنتج بشغله (٤) .

كذلك بالنسبة لمنتوج الشغل الذي لم يعد له هو أيضا ، في هذا الشكل الانتاجي الجديد ، طابع انساني حقا ، فبتحوله الى قيمة تبادلية ، الى منتوج بديل ، لم يعد ذا قيمة الا كوسيلة للحصول على موضوعات معادلة ، بدلا من ان يكون عملا تتأكد فيه

---

(١) ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ص ٥٤٣ ـ ٥٤٧ . (٢) ص ٥٤٣ . (٣) ص ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨ .
(٤) ص ٥٣٩ .

كينونة الفرد والجماعة (١) .

وبحكم ذلك يفقد التبادل ايضا طابعه الانساني ، اذ انه لم يعد جاريا على قيم انتفاع تحمل وسم الذي انتجها بل على منتوجات تبقى غريبة عن المنتج وعن الشاري سواء بسواء .

أجل ما يزال التبادل يجري بواسطة موضوعات مكرسة لتلبية حاجات ، ولكن هذه الحاجات لم تعد حاجات انسانية حقيقية ، لانها تنتسب الى موضوعات ليس لها قيمة الا كمنتوجات تبديلية (٣) .

هكذا فالانتاج المكرس للتبادل يكف عن كونه تحقق شخصية المنتج ، اذ ان منتوج شغله ، بدلا من ان يكون تعيين طبيعته الخاصة عينيا ، يصير محض وسيلة للحصول على ما أنتجه رجل آخر (٣) .

ان اقامة علاقات تجارية بين البشر ، اي اقامة تبادلات موضوعات ليست تعبير كينونتهم ، تجلب مع تدمير العلاقات الحقة بين البشر ومنتوج شغلهم تدمير العلاقات الاجتماعية الحقيقية . بما ان المنتوجات المكرسة للتبادل تصبح لا مبالية ازاء المنتج ، ما دام هدفها تلبية لا حاجاته بل حاجات الغير وبما ان المنتوجات التي يكرسها المنتجون الآخرون للتبادل هي ايضا لا مبالية بالنسبة لهم اذ ليست هي ايضا تحقيق كينونتهم ، لذا ينجم عن ذلك ان البشر لا يعود لهم فيما بينهم علاقات انسانية حقة بوساطة اعمالهم (٤) .

ان هذا النزع للشخصية ، الذي يصيب المنتجين الذين صاروا لا مبالين بعضهم ازاء بعض ومنتوجات الشغل التي تحولت الى قيم تبادل ، الى معادلات لمنتوجات اخرى ، يجعل ان العنصر الجوهري في فعل الانتاج هو تبادل المنتوجات البديلة .

---

(١) ص ٥٣٨ ـ خلاصة . بحكم التبادل ، تتخذ الملكية الخاصة طابع ملكية منخلعة . فهي تكف عن كونها ، من حيث هي منتوج الشغل ، تعبير الشخصية الخاصة ، المميزة ، لحائزها ، ما دام هذا الاخير قد تنازل عنه : مفصولة عن حائزها الذي كانت منتوجة ، لا يبقى لها اهمية الا بالنسبة للحاصل عليها، ولكن بما انها ليست منتوج هذا الاخير فان اهميتها ليست مرتبطة بشخصه . اذ تفقد هكذا قيمتها الخاصة ، من حيث هي منتوج تبديل، لا يبقى لها قيمة بذاتها، بل فقط بالنسبة الى شيء اخر ، كمعادل لهذا الشيء .

(٢) ص ٥٣٢ .

(٣) ص ٥٤٤ .

(٤) ص ٥٤٤ . « انا انتجت لي وليس لك ، كذلك انت انتجت لك وليس لي . ان منتوج عملي له في ذاته من العلاقة معك ما لمنتوج عملك من العلاقة معي . من هذا الواقع ليس انتاجنا انتاج الانسان من اجل الانسان معتبرا كانسان ، اي ليس انتاجا اجتماعيا . هكذا ليس لاحد منا ، كانسان ، علاقة مباشرة مع منتوج الآخر . كبشر نحن لا نلعب اي دور بالنسبة لانتاجنا المتبادل . التبادل الذي نجريه لمنتوجاتنا لا يمكن ، بحكم ذلك ، ان يكون له هذا الطابع الوساطي الذي من شانه ان يبين ان منتوجي مكرس لك حقا ، لانه التعيين العياني لكينونتك الخاصة ، تلبية حاجتك . » . انظر ص ٥٤٥ .

هذا التشيؤ للعلاقات الاجتماعية يسبب انخلاعا عاما للبشر ، بتحويله فاعليتهم الى انتاج موضوعات هي عنهم غريبة ـ هذا ما يفسر الطابع الصنمي لهذه الموضوعات التي تبدو كأنها تستمد قيمتها من ذواتها ـ وبجعله من العلاقات بين البشر علاقات تجارية مؤسسة على تبادل هذه الموضوعات . بصيره غريبا عن شغله وعن منتوج شغله وعن البشر الآخرين ، يصير الانسان بالفعل غريبا عن نفسه وعن طبيعته الحقة ويعيش في دائرة انخلاع يوسعها على الدوام بعمله وبالتحويلات التي يحملها الى العالم (١) .

في هذه المنظومة ، ليست انسانيتهم هي الرابطة بين البشر بل المصلحة الخاصة (٢) . لذا فان هدف الانتاج هو الربح ، الذي يدفع الانسان الى تجريد الغير من منتوج شغله والى استعباده . من هنا العلاقات العدائية بين البشر الذين ، مع كونهم لا يستطيعون الاستغناء عن بعضهم بعضا ، يجدون انفسهم ، برغبتهم في زيادة خيراتهم على حساب الغير بكل الوسائل ، في تنازع دائم (٣) .

من جراء تحول منتوجات الشغل الى قيم تبادلية ، الى سلع ، وتحول العلاقات الاجتماعية الى علاقات بين موضوعات مستقلة عن الانسان وغريبة عنه ، يخضع الانسان نفسه ، في منظومة الملكية الخاصة ، للسلطة المتعاظمة التي تمارسها عليه منتوجات الشغل ، بحيث انه ، بدلا من ان يحكم على العالم الذي يخلق ، يسيطر عليه من قبله (٤) .

في هذا النقد الاول للنظام الرأسمالي ، ينطلق ماركس من تصور للانسان

---

(١) ماركس يعتبر في هذا الصدد ان الشغل المنخلع المتولد من نظام الملكية الخاصة يعزز من جهته هذا النظام باعادة انتاج الملكية الخاصة التي تصير هكذا في آن سبب ونتيجة الشغل المنخلع . انظر المرجع نفسه ص ٩١ ـ ٩٢ . « لقد قبلنا ... ان العمل المنخلع هو نتيجة حركة الملكية الخاصة . غير انه يبدو ، بتحليل الملكية الخاصة ، انه لئن كانت هذه تظهر كأساس ، كسبب العمل المنخلع ، فانها بالواقع نتيجته . امرها كأمر الآلهة التي بالاصل ليست سبب بل نتيجة الخلل الذهني للبشر . فيما بعد تتحول هذه العلاقة الى تبادل فعل . » . هذا التصور ، المضاد لمذهب ماركس لاحقا ، يفسر بواقع انه كان عندئذ يعتبر كل الظاهرات الاقتصادية والاجتماعية في النظام الرأسمالي عواقب سيرورة الانخلاع . ».

(٢) انظر ميغا ، ١ ، ح٣ ، ص ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ ـ ٥٤٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٣٦ . « القول بأن الانسان ينخلع هو القول بأن المجتمع الذي فيه يعيش بشكل كاريكاتور كينونته النوعية ـ العامة générique والحياة المتفقة معها ، ان فاعليته تصير بالنسبة له مصدر الآلام ، ان منتوج فاعليته يتحول بالنسبة له الى قوة غريبة ، ان ثروته تصير فقرا ، ان الروابط العميقة التي توحده مع البشر الآخرين تتحلل ، ان انفصاله عن البشر الاخرين يطبع وجوده ، أن حياته قوامها التضحية بوجوده ، ان تحقق كينونته هو نفي حياته ، ان انتاجه هو اعدامه ، ان السلطة التي يجب ان يمارسها على الاشياء تتحول الى سيطرة للاشياء عليه . وانه بدلا من ان يكون سيد العالم الذي يخلق يصير عبده » .

لا يزال نصف ـ اثيقي (اخلاقي) . الانسان ، على حد قوله ، لا يستطيع ان يؤكد نفسه كانسان الا بانتاج قيم انتفاع هي التعيين العياني لكينونته . ان تبادل هذه القيم ، الذي به البشر يكمل ويغني بعضهم بعضا ، يؤلف أساس العلاقات الاجتماعية الحقيقية .

هذه العلاقات فقدت انسانيتها واتخذت طابع انخلاع بانتاج قيم تبادلية ، الانتاج المتولد من رغبة البشر في ان يشبعوا ، بتبادل فائض انتاجهم من القيم الانتفاعية ، حاجات لا يستطيعون اشباعها بانتاجهم الخاص . ان خلق قيم تبادل يحول جذريا طابع وهدف الانتاج ، فَبِه يصير الشغل شغلا مكسبا ، وتحول منتوجاته الى معادلات لمنتوجات اخرى ، فيها لم يعد الانسان يحقق كينونته ، واخيرا فالتبادل الذي لم يعد جاريا على قيم انتفاعية بل على قيم تبادلية يحول العلاقات بين البشر الى علاقات تجارية .

هذا التشيؤ للعلاقات الاجتماعية يقرر انخلاعا عاما للانسان المفصول عن شغله وعن منتوج شغله وبذلك ذاته عن الاشتراك الانساني . ان اسلوب الحياة المنخلعة هذا هو ما يسعى الى تبريره الاقتصاد السياسي ، باعلانه ان الملكية الخاصة هي الاساس الطبيعي والضروري للمجتمع ، وتصوره البشر تحت شكل مالكين لهم فيما بينهم علاقات مالكين ، وتأكيده بذلك ان شكل الانتاج الحقيقي هو انتاج القيم التبادلية ، انتاج السلع ، وان هدفه هو ان يقيم بين البشر علاقات تجارية بواسطة تبادل السلع .

ان الاقتصاد السياسي ، اذ يبرر المنظومة الراسمالية ومعها المجتمع اللاانساني الذي تنتج ، فانه مساق بالضرورة الى ان يبرر ايضا المقولات الاقتصادية : تبادل ، تجارة ، قيمة ، سعر ، مال ، التي تستجيب لهذه المنظومة .

بخلاف الاقتصاديين البرجوازيين ، ماركس يعتبر هذه المقولات سيرورة التشيؤ النابعة من نظام الملكية الخاصة وينقدها من وجهة النظر هذه (١) .

المجتمع التجاري محكوم بالمزاحمة التي هي قانون النظام الرأسمالي . ان الاقتصاديين ، اذ يضعون في المبدأ ان الطلب ينضبط على الانتاج وان كل رأسمال يجد هكذا بالضرورة استخدامه ، فانهم يعجزون عن تفسير المزاحمة التي يعزونها الى اسباب عرضية (٢) ونتائجها : فائض الانتاج والازمات (٣) سواء بسواء .

---

(١) ميغا ، ١ ، ج٣ ، ص ٩٣ . « لقد رأينا كيف ان تحليل مفهوم الشغل المنخاع يخرج مفهوم الملكية الخاصة ، يمكن ان نخرج من هذين المفهومين كل المقولات الاقتصادية : تجارة ، مزاحمة ، راسمال ، مال ، التي نجد في كل منها تعبيرا خاصا لهذين المفهومين . »

نرى كيف ان نقد المقولات الاقتصادية من قبل ماركس يختلف عن نقد انجلز الذي كان يؤسس نقده جوهريا على التناقضات النابعة من المزاحمة .

(٢) المرجع نفس ، ص ٨١ (٣) المرجع نفسه ، ص ص ٥٧٦ ـ ٥٧٩ .

ان تطور الانتاج والمزاحمة يجر تطور تقسيم الشغل . كما ان التبادل التجاري هو تزييف لاسلوب التبادل الحقيقي بين البشر ، كذلك فان تقسيم الشغل هو تزييف لفاعليتهم الحقيقية ، اذ ، بحصره الانسان في دائرة نشاط محدودة ضيقة لا يستطيع الافلات منها ، يجعل منه « أوتوماتا » ، انسانا ـ آلة ، غولا فيزيائيا وثقافيا (١) .

مع تطور الانتاج بانقسام الشغل يزداد خلق القيم التبادلية التي هي وحدها لها حساب في المجتمع التاجر حيث انتاج القيم الانتفاعية خاضع وتابع لاستخدامها كقيمة تبادلية . ان القيمة التبادلية يعبر عنها بقدرتها الشرائية التي يتحدد مبلغها بالمقارنة بين الموضوع الذي يحتاجه المرء والموضوع الذي يعرضه بالمقابل . هذه المقارنة ، حسب نظرية ريكاردو ، يجعلها ممكنة واقع أنه يوجد بين الموضوعات المختلفة عنصر مشترك ، هو كمية الشغل ، المتصور تحت شكله العام ، المجرد ، الذي هو ضروري لانتاجها ، ان كمية الشغل المختلفة الداخلة في هذه الموضوعات تحدد اختلاف قيمتها التبادلية .

بدلا من ان يبسط ويطور ، كما سيفعل فيما بعد ، نظرية القيمة لريكاردو ، ماركس يرميها لانه كان يفكر مع انجلز ان القيمة في المنظومة الرأسمالية تحددها المزاحمة ويعبر عنها السعر الجاري (٢) ، لان ريكاردو لم يكن يحسب حساب الربح والريع المكتوبين في السعر (٣) ، وخصوصا لانه كان يأخذ على ريكاردو انه يبرر بهذه النظرية النظام الرأسمالي (٤) .

ان القيمة التبادلية التي تجد تعبيرها في السعر تتعبّر عمليا بالمال . بما ان الموضوع يفقد كل تحديد كيفي (qualitative ، نوعي) بتحوله الى مال ، فان هذا

(١) المرجع نفسه ، ص ص ١٣٩ ، ٥٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٤٩٣ ، ٥٣٠ ـ ٥٣١ ، ٥٥٦ ـ ٥٥٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٤٩٤ . « ريكاردو يؤكد ان الشغل يشمل كل عناصر السعر ، نظرا الى ان الرأسمال هو شغل . سه ... Say يبين ان ريكاردو قد نسي ان الربح والريع لا يدخلان مجانا في تركيب السعر . برودون يستخلص بحق انه حيث توجد الملكية الخاصة فان موضوعا من الموضوعات يكلف اكثر من قيمته وان هذا الفضل يؤلف الجزية التي تدفع الى المالك » .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٠٢ . لئن كان تصور العمل المنخلع يقود ماركس الى رفض نظرية القيمة لريكاردو ، النظرية التي سوف يسمح له انماؤها بان يعطي ، بنظريته عن القيمة وفضل القيمة ، التفسير الحقيقي لتشكل الملكية الخاصة وللعلاقات بين الرأسمال والشغل ، الا انه كان يسمح له بأن يفضح تناقضات الاقتصاد السياسي ولاانسانية النظام الرأسمالي . يجب ان نلاحظ من جهة أخرى انه لئن كان ماركس يفكر بادىء بدء ان تاثير المزاحمة تاثير مقرر في تثبيت القيمة التبادلية ، فقد كان يلمح منذئذ ، في نقده لـ ج. ميل J. Mill ، على ان القيمة التبادلية ايضا مقررة بكمية العمل الداخل في السلع ، وهو التصور الذي سيهيمن في بؤس الفلسفة . انظر د. ج. روزنبرغ ، مرجع مذكور ، ص ٩٥ وبعدها .

الاخير يصلح تماما لدور وسيط المبادلات (١) .

بما ان كل علاقة انسانية مع الموضوعات المبادلة تختفي في هذا التوسيط للمبادلات بالمال ، فان تشيؤ العلاقات الاجتماعية ومعه الانخلاع في شكل خضوع الانسان لسلطة الاشياء يجدان فيه تعبيرهما الكامل (٢) .

وسيط التبادلات ، المال يجد شكله الاكثر ملاءمة في العملة الورقية (٣) ويخدم كقاعدة للتسليف .

في التسليف ، الذي يعيد اقامة علاقات شخصية في سيرورة المبادلات ، يرتدي المال شكله الاكثر قبحا ، اذ تحت قناع الثقة يخفي التسليف عدم الثقة الاكثر اطلاقا عند الانسان ازاء الناس الآخرين (٤) . على التسليف يرتكز النظام المصرفي الذي يجسد قوة الدولة البرجوازية (٥) .

بعد هذا التحليل للانتاج الرأسمالي وللمقولات الاقتصادية المحددة من قبله ،

---

(١) المرجع نفسه (ميفا ...) ، ص ٥٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٣١ : « ميل Mill يلخص جيدا جوهر المسالة بوصفه المال بانه وسيط المبادلات . ان جوهر المال لا يكمن بدائيا في واقع ان فيه الملكية منخلعة ، بل في واقع ان الفعل الوساطي للبشر ، فاعليتهم الاجتماعية ، التي بفضلها منتوجاتهم يكمل بعضها بعضا ، تتحول به الى فاعلية منخلعة ، الى خاصة لـ موضوع مادي ، مستقل عن الانسان . اذ ينقل الانسان فاعليته الوساطية ويضعها في المال ، فانه يحول علاقاته مع الموضوعات وفعله فيها الى علاقات والى فعل كائن هو في آن فوقه وغريب عنه . بلجوئه الى هذا الوسيط الغريب ، بدلا من ان يلعب هو دور الوسيط هذا ، يجعل الانسان من ارادته ، من فاعليته ، من علاقاته مع البشر الآخرين ، قوة مستقلة عنه وعن الاخرين . هكذا تصل عبوديته الى اوجها . من البدهي ان هذا الوسيط يصبح منذئذ بالنسبة له الاله الواقعي ، اذ يحوز بوصفه الوسيط، السلطة الواقعية على هذا الذي يتوسط . هكذا تصير عبادته غاية في ذاتها . مفصولة عن هذا الوسيط ، الموضوعات تفقد كل قيمة اذ هي ليست ذات قيمة (ليست صالحة) الا بقدر ما تمثله ، بينما في الاصل كان يبدو هو لا قيمة له الا بالقدر الذي فيه يمثلها . بهذا الانقلاب المحتوم للعلاقة الاصلية بين الموضوع والمال ، هذا الاخير يصير جوهر الملكية الخاصة المنخلع ، الوساطة المنخلعة بين منتوجات الفاعلية الانسانية وتعبير هذه الفاعلية المنخلع . كل الكيفات (الصفات) التي في الانتاج هي واقع وصنع الفاعلية الانسانية تنقل بذلك عينه على هذا الوسيط ، الانسان كانسان ، مفصولا عن هذا الوسيط ، يفقر هكذا وبالقدر الذي فيه هذا الاخير يغنى . » . انظر المرجع نفسه ، ص ٥٤٠ : « في المال الذي يشهد على اللامبالاة الاكمل ازاء طبيعة الموضوع النوعية وازاء الملكية الخاصة كما ازاء شخصية المالك سواء بسواء ، تتجلى السيطرة المطلقة للشيء المخلوع على الانسان . ما كان في البداية سيطرة للانسان على الانسان يغدو سيطرة عامة للاشياء على الشخص الانساني ، سيطرة المنتوج على المنتج . ان انخلاع الملكية الخاصة المتضمنة في الموضوع المحول الى معادل في القيمة التبادلية ، يجد تعينه العيني ، تحققه الواقعي ، في المال » .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥٣٣ .

(٤) ص ص ٥٣٣ ــ ٥٣٥ .

(٥) ص ٥٣٥ .

يتابع ماركس دراسته النقدية للنظام الرأسمالي بتحليل مصادر الدخل الثلاثة : الاجر ، ربح الرأسمال ، الريع العقاري (١)

بخلاف الاقتصاد السياسي الذي يعتبر الانفصال بين الشغل والرأسمال والملكية العقارية الذي يترجم عن نفسه في التعارض بين الاجر والربح والريع ، واقعا طبيعيا وضروريا ، يلح ماركس على ان هذا الانفصال الناجم عن نظام الملكية الخاصة له كنتيجة لازمة طرد المأجور من الملكية الخاصة وحرمانه من شطر كبير من منتوج شغله يتوزعه الرأسمالي والمالك العقاري .

في تحليله للاجر ، يصف ماركس حالة العمال في الاربعينات ، في وقت كان فيه العمال، الذين لم يكن يحميهم لا نقابات قوية ولا تشريع اجتماعي ، يعيشون في أسوأ الشروط نتيجة تمديد يوم العمل وتخفيض الاجور ، الناجمين عن مزاحمة الآلة وعن الازمات (٢) .

ماركس يلاحظ بادىء بدء ان التعارض بين الاجر والربح والريع الذي ليس سوى تعبير التناحر بين الرأسمال والشغل النابع من نظام الملكية الخاصة (٣) ينكشف عن كونه غير ملائم للعامل الذي هو ضحيته .

هذا يتجلى جوهريا بنقص الاجر الذي لا يكاد يكفي لتأمين وجود بائس .

اذ بعكس المبدأ الموضوع من قبل الاقتصاديين ، الذي يرى ان الشغل هو العنصر الوحيد خالق الثروات ، لا ينال العامل سوى قسط صغير من قيمة انتاجه ،

---

(١) ص ص ٣٩ — ٨٠ .

(٢) اذ لا يعرف ماركس بالتجربة حالة العمال ، وذلك بعكس انجلز ، فانه يصفها بمساعدة مؤلفات مختصين : تقرير فيلرمه الى اكاديمية العلوم المعنوية ، باريس ١٨٤٠ ـ ا. بوريه ، بؤس الطبقات الكادحة في انكلترة وفي فرنسا ، باريس ١٨٤٠ . مذكور في ميغا ص ص ٥٠ — ٥١ . ـ ك. بيكور ، نظرية جديدة في الاقتصاد الاجتماعي والسياسي ، باريس ١٨٤٢ . المرجع نفسه ص ٤٩ . ـ ش. لندن ، حل مسالة السكان والمعيشة ، باريس ١٨٤٢ . المرجع نفسه ص ٤٩ — ٥٠ . ـ ف. شولتس ، مرجع مذكور سابقا ، انظر المرجع نفسه ص ص ٤٦ — ٤٩ .

(٣) انظر ميغا ١ ، ٣ ، ص ٩٨ وبعدها : « الملكية الخاصة تحوي علاقتها مع الراسمال والشغل والعلاقة التي توحدهما . تحوي من جهة انتاج الفاعلية الانسانية في شكل شغل الذي هو تعبير الفاعلية المتخلعة ، التي صارت غريبة عن الانسان وعن الطبيعة ، تعبير الوجود المجرد للانسان ، المقلص الى حالة آلة ، نفي صفته ككائن اجتماعي ، ومن جهة اخرى انتاج موضوع الفاعلية الانسانية في شكل راسمال ، حيث تختفي كل تعيينات الموضوع الطبيعية والاجتماعية . بما ان الملكية الخاصة تفقد فيه كل صفاتها الطبيعية والاجتماعية ... فان الراسمال ... يمكن ان يظهر لامبالاة مطلقة ازاء محتواه الواقعي . مدفوعا الى الحد الاقصى ، هذا التعارض (بين الراسمال والشغل ـ ا. ك.) يسم في آن ذروة واوج وانحدار كل منظومة الملكية الخاصة » .

وهو قسط عليه فضلا عن ذلك ان ينتزعه من مستخدمه (١) .

من هذا النزاع يخرج الرأسمالي بوجه عام منتصرا ، فهو بما انه عدا عن الربح الذي يجنيه من رأسماله يتصرف بدخول مختلفة : ايجارات ، ريوع ، وبما انه يستفيد من المساعدة التي يتبادلها الرأسماليون في نضالهم ضد الطبقة العاملة ، فانه يستطيع ان يعيش بدون العامل مدة أطول مما يستطيع العامل بدونه ، فالعامل اذ لا يستطيع ان يعيش الا بأجره مرغمٌ بوجه عام ، تحت طائلة فقدان عمله ، على قبول الشروط التي يفرضها مستخدمه (٢) .

اذ هو مضطر الى بيع شغله ومحول بذلك هو نفسه الى حالة سلعة ، العامل يخضع لنفس شروط الوجود التي تخضع لها السلع .

انه تابع مثلها للعرض والطلب وعليه ان يعتبر نفسه سعيدا اذ يجد طالب عمل ، فبدونه يكون محكوما بالبؤس والبطالة (٣) .

اذ يحوّل الى سلعة فانه يصير سلعة أرخص بقدر ما تحسين الآلات وتمديد يوم الشغل يزيدان الانتاج ، اي انه يرخص نفسه بالقدر الذي فيه ينتج (٤) .

هذا يفسر ان المعدل الطبيعي المعياري لاجره لا يزيد على الحد الادنى الذي هو ضروري بشكل مطلق كي يتمكن من العيش فقط مع اولاده (٥) .

شرطه اليائس يعززه ايضا واقع انه هو الاكثر تأثرا بتقلبات السوق ، اذ ان ارتفاع الاجور يبقى دائما ادنى من ارتفاع الاسعار ، بينما انخفاض الاسعار يرافقه تخفيض مواز للاجور (٦) .

حالته تميل الى الاستفحال مع انحدار الانتاج الذي يجر الى جانب تفاقم المزاحمة بين العمال تخفيض الاجور والبطالة (٧) . تتحسن بعض الشيء مع ازدياد الانتاج ، من جراء كون طلب الشغل يتخطى العرض آنذاك . ولكن هذا التحسن عابر

---

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ٩٢ : « ان الاقتصاد السياسي ، وهو يؤكد ان الشغل يشكل نفس الانتاج ، لا يمنح الشغل شيئا ويمنح الملكية الخاصة كل شيء ». انظر المرجع نفسه، صص ٤٣ – ٤٤ ، ٤٦٥ – ٤٦٧ ، ٥٠٢ – ٥٠٤ ، ٥٢١ – ٥٢٢ .

(٢) ميغا ، ١ ، ح٣ ، ص ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ .

(٣) ص ٩٧ .

(٤) ص ٨٢ .

(٥) صص ٤٣ – ٤٤ ، ٣٩ . الاتجاه الى تخفيض الاجور الى معدل ادنى وصفه ريكاردو بانه قانون الاجر الضروري وسيصفه لاسال Lassalle بانه قانون الاجور الحديدي ، كان ماركس يعتبره آنذاك نتيجة لازمة لواقع ان عرض الشغل في النظام الراسمالي يتخطى عامة الطلب . فيما بعد عدل ماركس هذا التصور ووقف ضد لاسال .

(٦) ص ٤٠ .

(٧) ص ٤١ .

فقط ، فازدياد الراسمال الذي هو دائما اكبر وأسرع مـــن ازديـاد الاجور والتطور المتسارع للآلات يفاقمان عبودية العامل ، بينما فائض الانتاج الـــذي يأتـي بسرعـة والكساد الناجم عنه يسببان من جديد انخفاض الاجور والبطالة والبؤس (١) .

هذه الحالة البائسة للعامل لا ينشغل بها الاقتصاد السياسي أبدا . اذ لا يـرى في العامل سوى عنصر في الأنتاج فهو ينفض يده منه كانسان ، الامر الذي يتيح لــه ان يضع في المبدأ ان العامل يجب ان لا يجر أية تكاليف اخرى غير التكاليف اللازمة بشكل مطلق لسير المشاريع الحسن (٢) .

أما العامل بلا عمل ، العاطل عن العمـــل ، فالاقتصاد السياسي يتجاهله تمامـا ويترك للبوليس والقضاء والدين أمر العناية به (٣) .

كخلاصة خاتمة ، يبرز ماركس التناقض المطلق الموجود بين حالة العامل النظرية كما يجب ان تنجم عن المبادىء ذاتها التي يضعها الاقتصاد السياسي وحالته الواقعية في النظام الراسمالي : « انه (الاقتصادي . ــ ا. ك.) يقول لنا ان **منتوج الشغـــل بكامله** يعود الى العامل مبدئيا ، ولكنه يقول لنا ايضا ان العامل لا ينال بالواقع سوى جزء صغير جدا من هذا المنتوج ، ما يسمح لـــه فقط بأن يعيش ، لا كانسان ، بـل كعامل ، وان يديم لا النوع الانساني بل طبقة البروليتاريين العبدة » .

انه يقول لنا ان الشغل يسمح بشراء كل شيء وان الراسمال ليس سوى شغل مركوم ، ولكنه يقول لنا ايضا ان العامل ، بعيدا عن ان يكون قادرا عـــلى شراء كـل شيء ، يتوجب عليه ان يبيع نفسه وان يخلع طبيعته الانسانية .

بينما الريـــع العقاري يدر بوجه عام على مالك الارض الذي ليس ســوى بطّال ثلث المحصول والربح الذي يجنيه الراسمالي المجتهد يرتفع الى ضعف فائدة المـال ، فان كسب العامل في أفضل حال صغير لدرجة ان اثنين من أصل أربعة مـــن اولاده محكومان بالموت جوعا .

اجل يقول الاقتصادي ان الشغل هو عنصر الثروة الفاعل وانه هو وحده الذي يمكن الانسان من زيادة قيمة منتوجات الطبيعة ، ولكنه يؤكد في الوقت نفســـه ان المالك العقاري والرأسمالي هما كائنان الهيان ، ممتازان وبطّالان ، متفوّقان في كـل شيء على العامل الذي عليه يمليان قوانينهما .

---

(١) ص ص ٤١ ــ ٤٣ ، ٤٩٤ ، ٥١١ .

(٢) ص ٤٥ . « من نافل القول ان الاقتصاد السياسي لا يعتبـر البروليتاري ، اي العامـل الـذي لا يتصرف لا براسمال ولا بريع بل يعيش فقط من عمله ، الا كعامل . يستطيع عـــلى هـذا الاساس ان يضع مبدئيا انه ، شانه شان حصان ، يجب ان لا ينال الا ما يلزم كـــي يستطيع العمـل » . ص ٤٧ . « ولكن الاقتصاد السياسي لا يعرف العامل الا كحيوان يصلح للشغل ، الا كدواب حاجاتها يجب ان تكون محصورة في الحد الادنى » . ص ٩٧ ــ ٩٨ .

(٣) ص ص ٤٥ ، ٩٧ .

بينما تقسيم الشغل يزيد كمية ونوعية الانتاج ويغني المجتمع ، فانه يفقر العامل وينزله الى مرتبة آلة .

بينما الشغل يزيد رفاه المجتمع بتراكم الرساميل ، فانه يخضع أكثر فأكثر العامل للرأسمال ويستنزفه باخضاعه لوتيرة فائض الانتاج الجهنمية .

بينما ، حسب الاقتصادي ، مصلحة العامل لا يمكن الا ان تتطابق مع مصلحة المجتمع ، فان المجتمع هو بالواقع حتما ودائما معاد له (١) . »

الأجر يعارضه ربح الرأسمال والريع العقاري اللذان ليسا مكافأة على شغل يقوم به الرأسمالي أو المالك العقاري بل هما اتاوة يأخذانها من منتوج شغل الغير .

بخلاف ما يفكره الاقتصاديون ، ليس الرأسمال شغلا حقيقيا مركوما ، بل هو شغل منخلع مركوم في شكل سلع (٢) . ان محض تكديس هذه الاخيرة في شكل ستوك لا يؤلف بذاته رأسمالا ، انه لا يصير كذلك الا حين يجني مالك المخزون ربحا منه (٣) .

ان المعدل الوسطي للربح يقاس ، عموما ، بفائدة المال التي تزداد وتنخفض مع الربح (٤) . ان معدله الادنى يجب أن يكون دوما أعلى من مقدار الخسائر المحتملة التي يتعرض لها كل توظيف لرساميل . وهو يبلغ معدله الاقصى حين يمتص كامل الريع العقاري وحين يدفع تخفيض الاجور الى آخر حد (٥) .

ما يزيد ، بالوجه الأعم، معدل الربح، هو نمو مساهمة الشغل في صنع السلع. كلما كانت سلعة ما مشغولة أكثر ، زادت في السعر حصة الأجر والربح بالمقارنة مع الحصة العائدة الى الريع العقاري . ان زيادة حصة الشغل في صنع السلع تنكشف من جهة أخرى عن كونها مربحة للرأسمالي أكثر بكثير منها للعامل (٦) .

ان التوظيف الاكثر ملاءمة للرأسمالي هو الذي يأتي بالربح الاكبر ، مع المجازفة بأقل الاخطار ، هذا التوظيف ليس بالضرورة هو الاكثر ملاءمة للمجتمع ، بل كثيرا جدا ما يكون مضادا لمصالحه (٧) .

هذا التعارض بين مصلحة الرأسمالي ومصلحة المجتمع يتجلى بشكل خاص في اتجاه الرأسمالية الى تحقيق أقصى ربح بالاحتكار .

---

(١) ص ٤٣ – ٤٤ .

(٢) ص ٥٥٧ . عن الرأسمال والربح ، انظر ص‌ص ٤٦٤ ، ٤٦٧ – ٤٦٩ ، ٤٧٢ – ٤٧٧ ، ٤٩٤ – ٤٩٨ ، ٥٠٩ – ٥١١ ، ٥١٤ – ٥١٩ ، ٥٢٥ .

(٣) ص ٥٢ .

(٤) ص ٥٣ – ٥٤ .

(٥) ص ٥٤ .

(٦) ص ٥٥ .

(٧) ص‌ص ٥٥ ، ٥٦ .

الدفاع الوحيد الممكن ضد الاحتكار هو المزاحمة ، وشرطها الاولي تراكم متعدد للرساميل. بنموها وانبساطها تقود المزاحمة من جديد الى الاحتكار بتمركز الرساميل الذي تسببه (١) . فازدياد المزاحمة يجر تقليصا للارباح مسيئا بشكل خاص لصغار الرأسماليين الذين يهلكون بالتدريج على يد كبارهم الذين ليس فقط يستطيعون الاكتفاء بربح أقل بل لهم أيضا على صغار الرأسماليين امتياز كونهم قادرين على الشراء والبيع بسعر افضل وعلى توظيف حصة من الرأسمال أصغر نسبيا (٢) .

الريع العقاري هو ، أقل أيضا من الربح ، ثمرة عمل من يتقاضاه (٣) . انه مكوّن من الكسب الذي يجنيه المالك من الارض ، بصورة مستقلة عن التحسينات التي يجلبها اليها وهو يتغير بحسب خصوبة الارض وموقعها (٤) .

مقداره ناتج عن الصراع بين المالك والمزارع من أجل توزّع المحصول (٥) . وهو يزداد مع نمو السكان وحاجاتهم الذي يقرر ارتفاع سعر المواد الغذائية والمواد الاولية، ومع استخدام المواد الاولية التي لم تكن مستخدمة الا قليلا حتى ذلك الحين . هكذا الريع الذي تعطيه مناجم الفحم قد نما بشكل هائل من جراء بناء السكك الحديدية والسفن البخارية (٦) .

من كون نمو الحاجات يزيد الريع العقاري ، استنتج الاقتصاديون البرجوازيون ان المالك العقاري ذو مصلحة في رفاه المجتمع . بالواقع ، ان ازدياد الريع العقاري مرتبط ككل ازدياد للثروة في النظام الرأسمالي بنمو للبؤس ، كما يبين ذلك الارتفاع الدائم لسعر الايجارات واستثمار المزارعين والعمال الزراعيين من قبل الملاّك العقاريين (٧) .

بهذا الخصوص ، بكوا ، دونما حق ، نهاية النظام الاقطاعي الذي كان يوجد فيه بين الملاّك العقاريين والمزارعين والعمال الزراعيين روابط هي ظاهرا أكثر وثوقا وأكثر انسانية من هذه التي تنجم عن علاقات المال . بالحقيقة ، كان ضروريا ان يختفي هذا المظهر الخادع ، مظهر الانسانية الكاذب ، وأن تتخذ الارض ، المستوعبة في التطور العام لأسلوب الانتاج الجديد ، شكل رأسمال ، وأن تصبح العلاقات بين المالك العقاري والمزارع والعامل معادة الى العلاقات بين المستثمِر والمستثمَرين ، كي تظهر

(١) صص ٥٦ ـ ٥٧ .
(٢) صص ٥٨ ـ ٦١ .
(٣) عن الريع العقاري . انظر صص ٦٧ ـ ٨٠ ، ٤٦٩ ـ ٤٧٢ ، ٤٩٨ ـ ٥٠٢ ، ٥١٢ ـ ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ـ ٥٢١ ، ٥٢٥ ـ ٥٢٦ ، ٥٥٣ ـ ٥٥٦ ، ٥٥٩ ـ ٥٦٠ .
(٤) ص ٦٨ .
(٥) ص ٦٩ .
(٦) صص ٧٠ ـ ٧٢ .
(٧) صص ٧٢ ـ ٧٣ .

الملكية العقارية في نهارها الحقيقي (١) .

الملكية العقارية ، مثل الصناعة ، خاضعة لقانون المزاحمة . فالمالك الصغير موجود ازاء الكبير في نفس علاقات الحرفي ازاء رجل الصناعة . كما ان الحرفي يسحق من قبل الصناعي ، كذلك المالك الصغير يصفّى من قبل الكبير الذي له عليه امتياز القدرة على استخدام آلات واستثمار مزارعين (٢) . هكذا ان تقسيم الملكية العقارية له نفس العواقب المترتبة على المزاحمة في ميدان الصناعة . بينما في الاصل له كنتيجة تدمير الاحتكار الاقطاعي للارض ، فانه ينتهي ، من جراء المزاحمة التي تقوم بين الملاّك وخراب اضعفهم ، الى اعادة الاحتكار بتمركز جديد للملكية الخاصة (٣) .

ماركس يختم تحليله لتطور الملكية العقارية بادانة لتجزؤ الاراضي الذي يجعل مستحيلا استثمارها العقلي وللاحتكار الذي يوطد منظومة الملكية الخاصة . يدعو الى استبدالهما بنظام ملكية جماعية ، مؤسس على اجتماع المنتجين ، الذي يكون من شأنه ، مع اقامته المساواة بين هؤلاء ، الحفاظ على كل مزايا الملكية الكبيرة (٤) .

اذ يتابع تحليله لتطور الملكية العقارية ، يبين ماركس كيف حدد هذا التطور تحولا جذريا لهذه الملكية .

في شكل الملكية الاقطاعية ، الملكية العقارية مختلفة اختلافا عميقا عن الراسمال، الذي يتكوّن بالتعارض معها في حضن المجتمع الاقطاعي . هذا الفرق يترجم عن نفسه ليس فقط بالتعارض بين الزراعة والصناعة بل أيضا بطابع الشغل . في الميدان الصناعي ، ان الشغل ، الصائر بشكل تام لا مباليا ازاء موضوعه ، يتحول الى شغل مجرّد ، بينما الشغل في اطار الملكية العقارية الاقطاعية لا يتخذ هذا الطابع (٥) .

ان الأهمية المتزايدة دوما التي تتخذها التجارة والصناعة لها كنتيجة جر الملكية العقارية بالتدريج في دائرتهما وبذلك تخفيف الفرق بين الملكية العقارية والراسمال تدريجيا . هذا يتحقق في البداية بواسطة المزارع الذي يزرع الارض بقصد جني ربح منها (٦) .

هذا التحوّل للملكية العقارية يتسارع مع صيّرها سلعة ، موضوع شراء وبيع، وبذلك عينه رأسمالا يدر فائدة في شكل ريع عقاري (٧) .

---

(١) ص‌ص ٧٦ — ٧٧ .
(٢) ص‌ص ٧٣ — ٧٤ .
(٣) ص‌ص ٧٧ — ٧٨ .
(٤) ص ٧٨ .
(٥) ص‌ص ١٠٣ ، ٩٩ — ١٠٠ .
(٦) ص ١٠٠ .
(٧) ص‌ص ٩٩ ، ٧٩ ، ١٣٧ . انظر د.ا. روزنبرغ ، مرجع مذكور ، ص‌ص ١٧٣ — ١٧٦ .

علـــى الرغم من هذا التحول التدريجي للارض الى راسمال ، يبقى المـــلاك العقاريون والراسماليون بادىء بدء متعادين بعمق على أساس مصالحهم المتعارضة .
فبينمـــا يطمح المالك العقاري الى بيع منتوجات الارض بأغلى سعر ممكـــن ، الراسمالي له ، بالعكس ، مصلحة في تخفيض سعر المواد الغذائية والمواد الاوليـــة ، تخفيض يترجم بتخفيض تكاليف الانتاج . كل منهما يسعى من جهة أخرى الى حجب أسباب تعارضهما الواقعية ، زاعما الدفاع لا عن مصالحه الخاصة بل عن المصالـــح العامة للبشرية (١) .

التطور الاقتصادي له في الاخير كنتيجة محتومة انتصار الراسمالي على الملكيـــة العقارية والصناعة على الزراعة والملكية المنقولة على الملكية غير المنقولة (٢) .
فبينما القدرة الاقتصادية والاجتماعية للمالك العقاري لا تكف عن الانخفـــاض ، فان قدرة الراسمالي بالعكس تميل دوما الى الازدياد . مستفيدا من خراب صغـــار الملاك العقاريين ، يستولي الراسمالي على قسم من الارض ، مما يتيح له الحصـــول على مواد أولية يحتاجها وزيادة راسماله بذلك ، من جهة أخرى ، ان خراب صغـــار الملاك والمزارعين ، الذي يجعلهم يفرون من الارياف ليسكنوا في المدن ، يقدم للصناعة يدا عاملة رخيصة وهكذا يسهل توسعها (٣) .

حين تكون الصناعة ، كما هو الحال في انكلترة ، قد اصبحت قوية جدا ، فانها تهلك الزراعة بتخفيض الرسوم الجمركية التي تضع السلع الزراعية في تنافس مـــع سلع الخارج (٤) .
نتيجة التحول التدريجي للانتاج الزراعي الى انتاج سلع وسيطرة الراسمـــال على الارض ، يتضاءل أكثر فأكثر الفرق بين الراسمالي والمالك العقاري ، بحيـــث ان السكـــان ينقسمون في الاخـــير الى طبقتين كبيرتين : طبقة الراسماليين وطبقـــة البروليتاريين (٥) .
ان برلترة الطبقات الوسطى : حرفيين ، مزارعين ، ملاك صغار ، صناعيـــين صغـــار ، واستفحال الصراع الطبقي بين الراسماليين والبروليتاريين ، يقـــودان بالضرورة الى الثورة الاجتماعية التي ستلغي نظام الملكية الخاصة (٦) .
بعد أن بيَّن هكذا كيف ان المزاحمة ، التي يعتبرها الاقتصاد السياسي القانون

(١) ميغا ... ، ص‌ص ١٠١ – ١٠٢ .
(٢) ص‌ص ١٠٢ – ١٠٣ .
(٣) ص ٧٥ ، ٧٩ .
(٤) ص ٧٩ .
(٥) ص ٧٥ .
(٦) ص‌ص ٧٩ – ٨٠ .

الاساسي المقدس للنظام الرأسمالي، تقود بتمركز الرساميل والاراضي الى الاحتكار. كيف ان الملكية العقارية تسقط تدريجيا تحت سيطرة الرأسمال الصناعي، وكيف ان التعارض المتنامي بين الرأسمال والشغل يقود الى الثورة الاجتماعية (١)، يلخص ماركس مجمل نقده للاقتصاد السياسي على الشكل الآتي: « لقد ذهبنا من مقدّمات الاقتصاد السياسي، تكلمنا لغته وقبلنا قوانينه. قبلنا الملكية الخاصة، الانفصال بين الشغل والرأسمال والارض، بين الاجر والربح والريع، قبلنا أيضا تقسيم الشغل، المزاحمة، التبادل، الخ. مرتكزين على مبادىء الاقتصاد السياسي ومستخدمين حدوده ذاتها، بينّا أن العامل منزل الى مرتبة سلعة، أدنى سلعة، أن بؤسه يتناسب عكسا مع قوة وعظمة انتاجه، أن النتيجة الضرورية للمزاحمة هي تركز الرأسمال في عدد قليل من الايدي، الامر الذي يستتبع اعادة الاحتكار تحت شكله الابشع، وأخيرا ان زوال الفرق بين الرأسمال والمالك العقاري، بين العامل الزراعي وعامل المصنع، يولد بالضرورة انقسام المجتمع الى طبقتين، طبقة المالكين وطبقة البروليتاريين (٢). »

نقد المنظومة الراسمالية والمجتمع البرجوازي

بعد هذا النقد للاقتصاد السياسي الذي يأخذ عليه جوهريا كونه يطرد العنصر الانساني من اعتباراته ويقبل كضرورة طبيعية نظام الملكية الخاصة الذي يؤدي، باخضاع الانسان الى عالم الاشياء التي يخلقها، الى تشيؤ العلاقات الاجتماعية، يشرع ماركس في تحليل نقدي للمنظومة الرأسمالية من وجهة نظر الشغل المنخلع عارضا كل عواقبه (٣).

اذ يجعل كل أشكال الانخلاع التي تثقل كاهل البشر في النظام الرأسمالي مشتقة من واقع ان الفاعلية الانسانية في هذا النظام تتخذ شكل عمل منخلع، فهو يبين ان هذا النظام يفصل الانسان، خصوصا العامل، عن منتوج فاعليته، انه بذلك يزيف العمل، الذي يفقد طابعه كفاعلية حرة وكلية، انه يشوّه مع علاقات الانسان بالطبيعة، كينونة الانسان ذاتها، وانه يدمر بتشييء العلاقات الاجتماعية وبالتعارض الذي يقوم بين كل البشر، الاشتراك الانساني أو الجماعة الانسانية.

مرغما على بيع عمله، ان العامل، الذي ينال كأجر له أقل بكثير مما ينتج،

---

(١) ص ١٠٣.
(٢) ص ٨١.
(٣) صص ٨١ ـ ٩٤، العمل المنخلع.

يفقر ويبخس نفسه بقدر ما يزداد انتاجه خجما وقيمة (١) .

كما ان الانسان ، في الدين ، يتجرّد من كل ما يخلعه في الله ، كذلك فالعامل ينزع قيمته ويذل نفسه بقدر ما ينمو ويزداد جمالا عالم الاشياء التي يخلقها (٢) .

بما ان منتوج شغله يتثبَّت في موضوع هو معا غريب عنه ومعاد له (٣) ، فان فاعليته ، بدلا من أن تكون تحقق وتعيش قواه الخالقة ، تصير ضياعا دائما لهذه القوى (٤) .

ان هبوط قيمة العامل المقلّص الى حالة سلعة والمخضع مثلها لقانون العرض والطلب (٥) يزداد مع تطور نظام الآلة ، الذي يشدّد المزاحمة باستخدام النساء والأطفال بأجور بائسة ، مما يؤدي الى تمديد يوم الشغل بصورة تدريجية وتخفيض الاجور بصورة دائمة .

ان العامل الذي ، بخلاف الحرفي ، لا يملك أداة عمل ولا يستطيع الا بصعوبة أن يغير عمله من جراء التخصص النابع من تقسيم الشغل ، مضطر لان يرضخ مشروط مستخدمه . بارغامه العامل على انتاج متزايد لقاء أجر متناقص ، ان

---

(١) انظر ميغا ، ١ ، ح٣ ، صص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ . « العامل يفقر نفسه بالقدر الذي فيه يخلق ثروات ، بالقدر الذي فيه تزداد كمية وقيمة انتاجه . انه يصير هو نفسه سلعة ارخص بقدر ما ينتج سلعا اكثر . ان عالم الاشياء يصير ذا قيمة بالقدر الذي فيه عالم الانسان يصير بلا قيمة ... كلما بذل العامل نفسه في شغله ، صار العالم الغريب الذي يخلقه والذي ينتصب امامه قويا ، وافقر هو نفسه ... الامر هنا كما في الدين ، حيث يتجرد الانسان من كل ما يضعه في الله . بما ان العامل يخلع حياته في الموضوعات التي يخلقها وبما ان هذه الحياة تصبح ملكا لهذه الموضوعات ، فانه يفقد من ماهيته بقدر ما تزداد فاعليته ... هذا الانخلاع للعامل في الموضوع الذي يخلقه يجد تعبيره على الصعيد الاقتصادي في واقع انه كلما انتج اكثر قلت قدرته على الاستهلاك ، انه يبخس وينحط بقدر ما يخلق ثروات ، انه يفقد انسانيته بقدر ما يحمل الموضوع الذي ينتجه طابع حضارة أرهف ، ان عجزه يزيد بقدر ما تزداد قدرة العمل ، واخيرا انه يفقد الروح ويصير عبد الطبيعة بقدر ما يصير الشغل ذا روح. »

(٢) ص ٨٥ . « بينما الشغل ينتج عجائب ، يبني قصورا للاغنياء ، فانه لا يولد سوى البؤس ولا يبني سوى أكواخ قذرة للعمال ، بينما يخلق الجهال ، انه يذل العامل ماديا ومعنويا ، ويسقطه في البربرية بانزاله الى مرتبة آلة ، بينما يبسط ويطور مجال الروح ، يجعل العته والبله نصيب العامل. »

(٣) ص ٨٣ – ٨٤ . « ان انخلاع العامل في منتوج شغله يعني ليس فقط ان شغله ، بتعينه في موضوع ، يتخذ شكلا خارجيا ازاءه ، بل ايضا انه بوجوده خارجه وبصورة مستقلة عنه انما يصير غريبا عنه ويعارضه في شكل قوة مستقلة ، بحيث ان الحياة التي يعطيها للموضوع تنتصب امامه قوة غريبة وعدائية ... »

(٤) ص ٨٣ . « في النظام الراسمالي ، يتحول تحقق الشغل الى انبخاس للعامل ، تموضعه الى ضياع للموضوع المنتج ، تملكه الى انسلاب ، الى نزع حيازة بالنسبة للعامل . ان تموضع الشغل يصير خسارة مادة بالنسبة للعامل لدرجة انه يجوعه ... » .

(٥) صص ٨٢ – ٨٣ . « ان الشغل لا ينتج سلعا فقط ، بانتاجه السلع ، ينتج نفسه وينتج العامل في شكل سلعة . » . انظر ص ٩٧ .

الرأسمال ، الذي ليس موجودا الا بالعامل الذي يشتغل له ، يتجه ـ مفارقا ـ الى دماره (١) .

بما أن الانتاج من اجل الربح وليس من أجل الانسان هو قانون الرأسمال، فان العامل ، الذي لا يستطيع أن يحصل لقاء عمل هو عمل دابة سوى الضروري لكي يعيش ، لا يستطيع أن يوفق حياته مع انتاجه الذي ينبسط ضد كينونته ، بعيدا عن أن يتفتح وهو ينتج بحرية وفي انسجام تام مع نفسه ومع البشر الآخرين ، ليس له في الحياة من أفق سوى العبودية والخبل . والرأسمال ، اذ لا يهتم الا بالربح ، فانه لا يعنى بالعامل بلا عمل الا كما يعنى بسلعة لا يحتاج اليها وهو يترك العاطل عن العمل لعناية الشرطة والاحسان العام والخاص (٢) .

ان العامل الذي كفّ عن العمل يصبح ، بالنسبة للمجتمع المضطر الى تأمين اعالته ، عبئا ، وبذلك ذاته موضوعا ليس فقط غير مفيد بل ضارا . لذا صرّح ريكاردو وج. ميل ان العاطلين عن العمل هم خطر اجتماعي (٣) ، لذا أيضا أعلن مالتوس ضرورة استئصال كل فائض سكاني (٤) .

هذا العداء من الرأسمالية ازاء الطبقة العاملة مردّه طبيعة الانخلاع ذاتها ، فهو يتحوّل من لامبال الى معاد بالضرورة . ان منتوج شغل العامل المنخلع ، بتحوله الى سلعة أي الى رأسمال يصير قوة غريبة تسيطر عليه وتستعبده .

هذا النظام ، بالحاصل ، ينزع انسانية ويحط قيمة ليس فقط العامل، بل

(١) ص ٩٧ . « الانسان الذي ليس اكثر من عامل ليس له من صفات انسانية الا بالقدر الذي فيه هذه الصفات تؤمن ربحا للراسمال الذي هو غريب عنه . بما ان العامل والراسمال غريب احدهما عن الآخر ، بما انهما فيما بينهما في علاقة لا مبالية ، خارجية ، عرضية ، فان طابع علاقتهما هذا يجب ان يتجلى فعليا في صلابتهما . ما ان يقرر الراسمال ... أن لا يكون موجودا بالنسبة للعامل حتى يفقد هذا الاخير كل وجود فعلي ، لا يبقى له شغل ، وبالتالي اجر ، وبما انه موجود لا كانسان بل كعامل ، لا يبقى له سوى أن يموت جوعا وان يختفي ... ان حاجات العامل محصورة ، في نظر الاقتصاد السياسي ، في ما لا غنى له عنه لكي يعيش مدة عمله ولكي يديم عرقه . ان اجر العامل ليس له من معنى بالنسبة للاقتصاد السياسي سوى تكاليف صيانة اداة انتاج ... مثلا تكاليف زيت تشحيم دواليب آلة . الاجر جزء من التكاليف المتعلقة بالراسمال ولا يجوز ان يتخطاها . » . انظر ص ص ٥٠٤، ٩٨ ، ٥١٤ ـ ٥١٥ .

(٢) ص ٩٧ . « الاقتصاد السياسي يجهل المجرم ، المختلس ، الشحاذ ، العاطل عن العمل ، العامل الجائع والبائس ، هؤلاء افراد يهمون القاضي ، الطبيب ، صانع التوابيت ، ولكنهم خارج دائرة الاقتصاد السياسي » . انظر ص ٤٥ .

(٣) ريكاردو يدين كل تشريع يرمي الى مساعدة الفقراء ، بحجة انه يدمر عندهم مع شهوة الكسب كل انتاجية .

(٤) ص ٥٥٢ .

ايضا الراسمالي الذي بخضوعه كذلك لآثار نظام الملكية الخاصة ، يسقط هو أيضا في قبضة العالم المنخلع (١) .

ان انخلاع منتوج الشغل يستتبع عند العامل آثارا ليس فقط موضوعية بل ايضا ذاتية ، تجد ترجمتها في مشاعر من الحرمان والاستغلال والاضطهاد هي ، بتحوّلها الى غضب وحقد ، مصدر نزاعات اجتماعية (٢) .

في منظومة الملكية الخاصة ، يتجلى انخلاع العامل ليس فقط في واقع انه مفصول عن نتاج شغله ، بل كذلك في فعل الانتاج ذاته ، في الشغل ، الذي يصبح هو ايضا غريبا ومعاديا . انه ، في الحاصل ، لانه يخلع قوته الخالقة في شغله ، لذلك يجد نفسه مخلوعا في نتاج هذا الاخير (٣) .

فالشغل الخالق ، الذي به يحقق الانسان كينونته محوّلا العالم ، يجعل مستحيلا في النظام الراسمالي بحكم عجز هذا النظام عن أن يؤمن لكل فرد الشغل الذي يناسبه . هذا النظام يخنق عند البشر حاجة تأكيد شخصيتهم بفاعلية كلية وحرة ، ويحلّ محلها الشغل المنخلع الذي، ببقائه غريبا عن الانسان، يشكل لا تأكيد بل نفي كينونته (٤) .

هذا الاستلاب يزيد خطورته تطور تقسيم الشغل الذي يرغم العامل على شغل رتيب يبلده ويحوّله الى أوتومات . هذا يفرق بعمق عامل المصنع المربوط بآلة يصبح ملحقا بها (٥) عن الحرفي الذي بما انه قادر على القيام بأعمال مختلفة فهو يمارس

---

(١) ص ١٣٦ . مع دمغه الراسمالي كرجل نفعي وطالب لذات ، ماركس يرى فيه قبل كل شيء رجلا مجتهدا كدودا ، سلوكه محدد من قبل سيرورة الانتاج الراسمالي . انظر ص ١٣٧ . « اجل ان الراسمالي رجل يسعى الى المتعة ... ولكن هذا التمتع بالنسبة له شيء ثانوي ، وسيلة ترويح ، خاضعة للانتاج . فاللذة عنده محسوبة ، اقتصادية ، انها جزء من النفقات العائدة للراسمال ، ولا يجوز ان تكلفه أكثر مما تعيد عليه بتسهيلها تجديد انتاج الراسمال . »

(٢) ص ٨٦ .

(٣) ص ٨٥ .

(٤) ص ٨٥ ـ ٨٦ . « ما هو قوام انخلاع الشغل ؟ انه اولا واقع ان الشغل يبقى خارجيا عن العامل ، انه ليس ملكا لكينونته ، وانه بالتالي يؤلف لا تأكيد بل نفي هذه الكينونة ، أن العامل يشعر بانه ليس سعيدا بل بائس ، انه لا يبذل بحرية لا طاقته المادية ولا طاقته الفكرية ، انه يدمر جسده وروحه . لذا فهو لا يشعر نفسه عند نفسه (في بيته) الا حين لا يشتغل . الشغل ، بالنسبة للعامل، كدح لا طوعي بل قسري ، ليس تلبية حاجة شخصية بل وسيلة لتلبية حاجات غريبة عنه ، هذا الطابع الغريب الذي هو طابع الشغل بالنسبة اليه يظهر في واقع انه يهرب منه كما يهرب من الطاعون بمجرد ان لا يكون مضطرا اليه . » . انظر ص ٨٩ ، ٥٣٩ .

(٥) ص ٥٤٠ .

فاعليته المبدعة بحرية أكبر (١) .
بما ان العامل مجبر على بيع عمله الذي يصير بالنسبة له عملا مفروضا ، بواسطته بدلا من أن يبسط قواه الخلاقة يذبل فيزيائيا وفكريا ، فهو يكره عمله ويستفظعه ويهرب منه وكأنه الطاعون بمجرد أن يستطيع الافلات منه .

ينتج عن ذلك انه لا يشعر نفسه حرا الا حين لا يشتغل ، الا في ممارسة وظائفه الحيوانية من أكل وشرب وانجاب ، وانه بالعكس في الشغل الذي به من المفروض أن يتأكد بصفته انسانا يشعر نفسه منزلا الى مرتبة حيوان ، بحيث عنده ما هو حيواني يصبح انسانيا وما هو انساني يصبح حيوانيا (٢) .

نرى هكذا يتكامل عند العامل مظهرا وأثرا الشغل المنخلع ، حيث يكوّن منتوج الشغل تعيش انخلاعه ، بينما يصير الشغل هو الفعل الذي به يتحقق هذا الانخلاع .
ان الشغل المنخلع يجدد ليس فقط علاقات العامل وبشكل أعم علاقات الانسان مع الشغل ومنتوجه ، بل أيضا علاقاته مع الطبيعة ، مع كينونته ذاتها ، ومع البشر الآخرين .

ان نزع انسانية كل العلاقات الاجتماعية في ظل نظام الملكية الخاصة مردّه ان الانسان في هذا النظام لا يستطيع أن يتصرّف ككائن حقا انساني . فهو لا يستطيع أن يخلق نفسه بنفسه ويؤكد نفسه كانسان بفاعليته الكونية والحرة ، المتحدة مع فاعلية البشر الآخرين ، فاعلا في الطبيعة بغية اعادة انتاجها بكيفية انسانية ومتعرفا على ذاته فيها (٣) .

والطبيعة ، بدلا من أن تكون أداة سير الأنسنة هذا الذي يتيح للبشر بلوغ كلية كينونتهم باشتراكهم في الشغل ، تصبح ، في نظام الملكية الخاصة والشغل المنخلع ، بالنسبة للانسان عامة ولكن خصوصا بالنسبة للعامل ، عالما غريبا يزداد غرابة كلما اتخذت بتحويله لها بشغله طابعا لا انسانيا ومنعت نفسها عنه كحقل فاعلية حرة وكوسيلة بقاء معا في آن (٤) .

هذا النظام يجعل أيضا الانسان غريبا عن نفسه ، عن كينونته الحقيقية ،

---

(١) من الخطأ أن نخلص من هذا المدح للعمل الحرفي الى الدفاع عن العمل الحرفي بوجه عام وادانة الصناعة الحديثة من جانب ماركس . فهو يرى في تطور الصناعة السمة المميزة للتطور التاريخي ، ولكنه ، اذ يدين اسلوب الشغل المفروض على العمال في النظام الراسمالي ، فانه يريد الاستعاضة عنه بالشغل الحر الذي يستجيب للطبيعة الانسانية والذي يقترب منه الشغل الحرفي .
(٢) ميغا ، ... ، ص ٨٦ .
(٣) ص ٨٨ – ٨٩ .
(٤) ص ٨٤ ، ٨٩ .

مخضعا فاعليته لتلبية حاجاته الابتدائية . واذ يفقد الانسان من جراء ذلك صفاته النوعية ـ العامة génériques التي تتيح له ان يمارس فاعلية كلية ، فانه يصير ، بعكس دعوته الحقيقية ، فردا معزولا وأنانيا (١) .

ان نظام الملكية الخاصة ، اذ يضع الانسان في خلاف مع طبيعته الخاصة واذ يحرمه من انسانيته ، انما يضعه في تعارض وفي تنازع مع البشر الآخرين .

والفرد ، اذ ينفصل عن البشر الاخرين الذين يصيرون غريبين عنه ومعادين له ، ينعزل عن الجماعة الانسانية . من جراء ذلك ، بدلا من أن يجد البشر رضاهم وسعادتهم في الشغل المحقّق بشكل حر وبصورة مشتركة ، فانهم ينقسمون الى فئات متناحرة (٢) .

هذا الانقسام للبشر الى فئات متناحرة يجد شكله الناجز، في النظام الرأسمالي، في صراع الطبقات الذي يضع البروليتاريا في معارضة البرجوازية (٣) .

ان أعضاء طبقة واحدة ليسوا ، من جهة أخرى ، متحدين بروابط تضامن الا بالقدر الذي فيه تعارض مصالحهم مصالح الطبقة الاخرى ، اذ ما أن ينقطع هذا التناحر حتى تنكسر هذه الوحدة بالتزاحم القائم بينهم .

محروما من كل فاعلية حرة وبذلك عينه من انسانيته ، العامل مستغل من قبل الرأسمالي الذي ، وان كان لا يشتغل، يتصرف بمنتوج الشغل حارما العامل منه (٤).

الرأسمالي ، الذي لا يعيش ويزدهر الا بقدر ما يستثمر العامل ، يعيش، بحكم بقائه غريبا عن الشغل ، حياة مختلفة تماما عن حياة العامل ، وهو معاد له بقدر ما هذا الاخير معاد له .

---

(١) ص‌ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) ص‌ص ٨٩ ـ ٩٠ . « ان احدى العواقب المباشرة لواقع ان العامل مفصول عن شغله وبذلك عينه عن فاعليته الجوهرية وعن كينونته النوعية ـ العامة هي انه يصير غريبا عن البشر الاخرين ، مع انفصاله عن كينونته يجد نفسه مفصولا عن الغير ... القول بأن الانسان مستلب ازاء نفسه معناه انه مستلب في الوقت نفسه ازاء الغير وازاء الجوهر الانساني ... ان علاقات الانسان مع نفسه لا تتخذ طابعا موضوعيا وواقعيا الا بعلاقاته مع البشر الاخرين . لئن كان يتصرف ازاء منتوج شغله ، ازاء شغله الموضع ، كما ازاء موضوع غريب ، معاد ، جبار ، ومستقل عنه ، فهذا ياتي من ان رجلا اخر غريبا، معاديا ، جبارا ، ومستقلا عنه ، هو سيد هذا الموضوع . لئن كان يتصرف ازاء نشاطه الخاص كما ازاء نشاط عبودي ، فلانه يجد نفسه في هذا النشاط في خدمة وتحت سيطرة وقسر ونير رجل آخر. »

(٣) ص ١١١ .

(٤) ص ٩١ . « بالشغل المنخلع ، يخلق الانسان ، مع خلقه علاقاته مع شغله وانتاجه في شكل بشر هم غريبون عنه ومعادون له ، علاقات هؤلاء البشر مع شغله وانتاجه وكذلك علاقاته هو مع هؤلاء البشر . في الوقت الذي يجعل فيه من انتاجه افراغ ذاته من الانسانية ومن الماهية ، ينجب حكم غير المنتج على شغله وانتاجه ، في الوقت الذي فيه يخلع فاعليته هو ، يعطي لغريب القدرة على تملك فاعلية ليست فاعليته » .

هـذا التعارض بين الراسمالي والعامل يستفحل بتطور تقسيم الشغل الـذي يحفظ للبرجوازية الفاعلية الفكرية ويفرض على الطبقة العاملة بأن لا تقوم الا بأعمـال محض مادية فيخلق بين الاثنين حاجزا وهوة لا يمكن تخطيهما .

نرى هكذا كيف أن منظومة الملكية الخاصة بوضعها البشر في تعـارض متبادل تدمر الاشتراك الانساني وتحول دون تعاون منسجم بين البشر .

في هذا النظام الذي يكبت ويخنق عند جميع البشر الحاجة الجوهرية الـى أن يكون الانسان انسانا بالتمام والى ان يتأكد كانسان بفاعليته ، تفقد الحاجات طابعهـا الانساني .

فموضوع الانتاج ليس بالواقع الاغتناء المتبادل للبشر بتلبية حاجاتهم الحقيقية بل الربح الذي يمكن أن يوفره (١) . ينتج عن ذلك تدهور مرتبة جميع الحاجـات تحـت حاجة المال التي تغدو الحاجة الاساسية ، المقررة والمحددة لكل الحاجـات الاخـرى . هذا يتترجم في تراكم عملاق ، متسارع ، للرأسمال المالي ، هو قانـون النظام الرأسمالي (٢) .

ان اخضاع البشر لهذا التعطش الى الربح والمال يدفع الرأسمالي ، الباحث عن مستهلكين ، الى ان يثير عند هؤلاء حاجات مصطنعة يصيرون عبيدها وضحاياها (٣). عند البروليتاريين، الذين هم بالنسبة له مصدر ربح كمنتجين أكثر منهم كمستهلكين، يسعى الراسمالي بالعكس الى تقليص الحاجات الى الحد الاقصى ، لان هذا التقليص يسمح بتخفيض مناسب لاجورهم . هكذا ، ان عطش الربح يحدد ، بصدد الحاجات، خطة مختلفة لدى الرأسمالي حسبما يتعلق الامر بالبرجوازيين أو بالبروليتاريين . في حين انه يعوّل على زيادة وتنعيم الحاجات عند البرجوازيين ، نراه يعوّل على تخفيض الحاجات الى الحد الادنى كما وكيفا عند العامل ، الامر الذي يؤول نزع عام لانسانية الحاجات في كل طبقات المجتمع (٤) .

---

(١) ص‌ص ١٣٨ ــ ١٣٩ (٢) ص ١٢٧ . (٣) ص ١٢٧ .

(٤) ص ١٢٨ ــ ١٢٩ . هكذا يندد ماركس بنزع انسانية العمال عن طريق هذا التقليص لحاجاتهم . « حتى الحاجة الى الهواء الطلق تكف عن كونها حاجة طبيعية عند العامل الذي يعود الـى السكن في الاوكار التي باتت الآن تسممها الانفاس النتنة للمدنية ، وهي أوكار هو من جهة أخرى لا يشغلهـا الا بصورة عابرة ويمكن ان يطرد منها في اية لحظة اذا لم يدفع الايجار . المسكـن الوضاء الـذي مجده بروميثيوس ، في اسخيلس ، بوصفه احدى الهبات الكبرى التي بها حول المتوحش الى انسان ، يكف عن كونه حاجة انسانية . الهواء ، النور ، النظافة الحيوانية الاكثر ابتدائية ، تكف هـي ايضا عن ان تكون حاجة للانسان . الوسخ ، هذا الانحلال وهذا التعفن للانسان ، فنطاس (بالمعنى الحرفي للكلمة) الحضارة ، يصبح عنصر حياته ... حواسه تفقد كل صفة انسانية بل وحيوانية . نـرى عودة اساليب وادوات الشغل الاكثر فظاظة ، مثل الطاحون التي كان العبيد الرومان يحركونها باقدامهم ... ليس فقط لم يعد للانسان حاجات انسانية بل لم يعد له حاجات حيوانية . هكذا فان حاجة الاكل عنـد الايرلندي هبطت الى حاجة اكل بطاطا من اسوا نوع » .

كل ما يتخطى عند العامل الحاجة الاكثر بدائية يظهر له جديرا بالادانة وهو يذهب مع مالتوس الى شجب الانجاب بوصفه ترفا عنده (١) .
هذا الافتراق في الموقف لدى الراسماليين ازاء الحاجات يعلل الاحكام المتناقضة التي يصدرها الاقتصاديون بصددها . فبينما بعضهم مثل لودرديل ومالتوس يوصي بالبذخ ويشجب الوفر ، بعضهم الآخر مثل ريكاردو يشجب البذخ ويدعو الى الوفر . بالواقع ــ يقول ماركس ــ لا يمكن ان نوصي بالبذخ دون ان نسهل في الوقت نفسه التوفير الذي هو وحده يتيح تراكم الرساميل اللازمة لتطور الصناعة ، كما ان تطور التوفير لا يمكن ان يحصل بدون تسهيل البذخ الذي بدونه يبقى قسم من الانتاج دون تصريف (٢) .

الاتجاه الغالب في النظام الراسمالي هو في الواقع الاتجاه الذي يدفع الى التوفير . في هذا النظام ، ان الانسان ، محركا برغبة الحصول على راسمال وجني ربح مثمر منه ، يوفر على كل شيء ويصنع مالا من كل شيء ، حتى من الحب والفضيلة (٣) . كتعويض عن التضحيات التي يفرضها على نفسه ، يعيش صاحب الوفر في أمل القدرة على الحصول على كل شيء بفضل المال الذي كدسه ، وهذا بالواقع خديعة ، لان القيم الانسانية الحقة لا يمكن الحصول عليها بالمال .
في تقريظهم للتوفير ، يذهب الاقتصاديون الى دعوة العمال الى وضع وفر في صناديق التوفير مقدمين ذلك على انه مثل أعلى، بغية حثهم على تقليص حاجاتهم أكثر أيضا ، وهذا في نظام يملك فيه العامل ما يكفي وحسب كي لا يموت من الجوع (٤) .
هذا الدفاع عن التوفير يستجيب للطابع العميق للنظام الراسمالي الذي لا يعترف الا باله واحد : المال .

بالقابلية البيعية العامة التي يولدها وبالسلطة الممنوحة له ، يشكل المال ، في هذا النظام ، رمز الانخلاع الانساني بسيطرة الاشياء على الانسان .
اذ يحلل طابع ودور المال ، يبين ماركس ان المال في منظومة الملكية الخاصة هو وسيط التبادلات وبذلك عينه وسيط العلاقات بين البشر (٥) . ان دور الوسيط هذا آيل اليه لان السلعة ، اذ تفقد فيه كل تحديد كيفي ، كل تعيين لصفة ، تصير محض عملة تبادل (٦) .

(١) ص ١٣٢ ــ ١٣٣ .
(٢) ص ١٣٠ ــ ١٣١ .
(٣) ص ١٢٩ ــ ١٣٠ .
(٤) ص ١٣٠ .
(٥) ص ١٤٥ .
(٦) ص ٥٤٠ .

اذ يحكم ويسود على الاشياء والبشر واذ يصلح بلا فرق لاي استعمال ، المال يزيف العلاقات الاجتماعية جاعلا كل شيء قابلا للبيع والشراء ومقيما بذلك عينه بين البشر علاقات تقف عقبة امام روابطهم الحقيقية (١) .

بوصفه وسيطا كليا للتبادلات ، يظهر المال للوهلة الاولى رابطة عامة بين البشر (٢) ، بالواقع يقسمهم ويضع بعضهم في معارضة بعضهم بشهوة الثروات التي يولدها والتي تدمر كل علاقة انسانية حقيقية . ان العلاقات الحقة بين البشر ، التي يجب ان تكون تبادل قيم انسانية ، الحب مبادلا بالحب ، الثقة بالثقة ، منتوجات الروح والفن بمنتوجات الروح والفن ، تزيف وتقلب بسيطرة المال التي تجعل ان منتوجات الفاعلية الانسانية لا تقدر الا كقيم تبادل (٣) .

بفضل السلطة التي يمارسها على الاشياء ، يسهل المال اشباع الحاجات الزائفة ويحول بالمقابل دون اشباع الحاجات الحقة . هكذا يسمح للغني بان يحصل ، على الاقل ظاهرا ، على قيم انسانية حقيقية ، كالموهبة والحب ، لا يشتري بالواقع سوى ظلالها الشبحية ، بينما لا يستطيع الفقير ان يقيم صفاته (٤) .

بما ان له القدرة على تملك الاشياء وعلى نقل هذه القدرة الى من يحوزه ، يظهر المال سلطة الهية وهو فعلا الاله الواقعي للمجتمع البرجوازي ، الاله الذي فيه يخلع الانسان جوهره والذي يهيمن عليه (٥) .

ان النظام الرأسمالي ينجب، مع الانخلاعات الاجتماعية، انخلاعات ايديولوجية: دين ، فلسفة مثالية ، اخلاق ، حقوق ، نتيجتها تعزيز هذا النظام ، يجعلها مقبولة ومسموحة الانخلاعات الاجتماعية وبتقديمها للمستغلين تعويضات وهمية غرضها تدارك ثورتهم .

بين هذه الانخلاعات ، اهمها الانخلاع الديني المتولد من الانخلاع الاجتماعي .

---

(١) في وصفه لآثار المال ، يورد ماركس مقاطع من فاوست لـ غوته ومن تيمون لـ شكسبير (انظر المرجع نفسه ، ص ١٤٦) ، حيث المال في شكل الذهب يظهر قوة شريرة وملعونة . هذا المظهر الميتافيزي للمال يختفي عند ماركس الذي يكتفي بتحليل دوره الاقتصادي والاجتماعي .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤٧ .

(٣) ص ١٤٩ . « اذا وضعنا الانسان كانسان وعلاقاته مع العالم كعلاقات انسانية، عندئذ لا يمكنه ان يبادل الحب الا بالحب والثقة بالثقة . اذا كنت تريد ان تتمتع بالفن يجب ان تكون فنانا ، اذا كنت تريد ان تمارس نفوذا على البشر يجب ان تكون قادرا على حفزهم . كل من علاقاتك مع البشر الاخرين ومع الطبيعة يجب ان تكون تجليا محددا لحياتك الفردية يستجيب لموضوع ارادتك . اذا كنت تحب دون ان تكون محبا ، اذا كان حبك لا يوقظ الحب، اذا كنت باظهار حياتك بوصفك محبا لا تجعل من نفسك كائنا محبوبا فان حبك يبقى عاجزا ويكون لك شقاء » . انظر ص ٥٣١ .

(٤) ص ١٤٧ ، ١٤٩ .

(٥) ص ١٤٧ ــ ١٤٨ .

ثمة بين الاستلاب الاجتماعي والاستلاب الديني تضامن عميق ، عبودية البشر المادية للمال يستجيب لها على الصعيد النظري خضوعهم الديني . فالدين ، بتقديمه العبودية والبؤس المتولدين من النظام الرأسمالي على أنهما نتيجة للارادة الالهية وبعرضه كتعويض عنهما وعد سعادة في عالم ما ـ بعد ، يوطد العبودية الاجتماعية بالخضوع غير المشروع لله وهكذا يسهم في ابقاء هذا النظام (١) .

الفلسفة المثالية تنتهي الى نتيجة مماثلة باعادتها فاعلية البشر الواقعية الى فاعلية روحية وبتحويلهم هكذا عن العمل الثوري .

الاخلاق البرجوازية والحقوق البرجوازية تلعب دورا مشابها لدور الدين ، الاخلاق بتلقينها المستغلين احترام الملكية الخاصة ، والحقوق بتلقينهم احترام الدولة البرجوازية التي تقوم بدور الدفاع عنها (٢) .

الانخلاعات الايديولوجية التي تكمل وتقوي الانخلاعات الاجتماعية تغذيها بعناية الطبقات المالكة التي تستخدمها كأداة سيطرة واضطهاد .

الشيوعية

من نقد المنظومة الراسمالية ، التي تجعل من الشغل سيرورة انخلاع دائمة ، يخلص ماركس الى ضرورة الغائها والاستعاضة عنها بمنظومة شيوعية بوصفها شرطا ضروريا لاعادة تأنيس الانسان .

ان خلق هذه المنظومة ، التي تشترط تحويلا جذريا للنظام الاقتصادي والاجتماعي ، ليس مسألة نظرية محضة بسيطة ، بل هو قبل كل شيء مسألة عمل ، مسألة ممارسة . فهو لن يحصل لا بصورة اوتوماتيكية ولا بطريق النقد وحدها ، بل سيكون نتاج العمل الثوري للبروليتاريا (٣) .

فقط بالغاء الملكية الخاصة الغاء جذريا سيكون ممكنا قيام الجماعة الانسانية الحقة التي فيها سيحقق الانسان كينونته بفاعليته الكلية والحرة .

بدلا من ان يضع على طريقة الطوباويين اعادة تأنيس الانسان كمسلمة اخلاقية ، ماركس يعتبرها النتيجة الضرورية لتطور النظام الرأسمالي الذي يدمر نفسه بحكم

(١) ص ٩١ ، ١١٥ .

(٢) عن الاخلاق البرجوازية ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٣) ص ١٣٤ . « لحذف فكرة الملكية الخاصة بالفكر يكفي مفهوم الشيوعية تماما . بالمقابل ، ان حذف الملكية الخاصة الفعلي يشترط عملا شيوعيا واقعيا . هذا العمل سيكون من واقع وصنع التاريخ . ان التطور الجدلي للملكية الخاصة ، التي نعلم انها تميل الى الغاء نفسها بنفسها ، سيكون سيرورة طويلة وشاقة . ولكن يجب ان نعتبر بمثابة تقدم فعلي واقع اننا اخذنا من الان كامل وعي مسيرة التاريخ الضرورية وهدف تطوره » .

تناقضاته ، نتيجة سيرورة جدلية تعقب وتعارض سير نزع الانسية المتولد من نظام الملكية الخاصة (١) . ان المنظومة الرأسمالية، حيث التعارض بين الفقر والثروة يتخذ شكل تعارض بين الشغل والرأسمال ، تخلق بنفسها شروط الغائها ، بتوليدها صراع الطبقات بين البرجوازية والبروليتاريا . هذه الاخيرة مضطرة الى تدمير نظام الملكية الخاصة كي تتحرر وتحرر معها كل المجتمع (٢) .

بهذا التصور الذي يرى ان حركة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تولد نزع انسانية الانسان تقود الى اعادة تأنيسه ، يصل ماركس الى مفهوم التطور الجدلي للتاريخ وبذلك ذاته الى الاشتراكية العلمية ، التي تسمح له بأن يعرف ، مع شروط الغاء انظام الرأسمالي ، دور البروليتاريا الثوري ، وبأن يرشدها في عملها التحريري .

وهذا يقوده الى رفض الشيوعية الطوباوية التي تضع رؤية مثالية للانسان في معارضة نزع انسانيته في النظام الرأسمالي ، بدون ان تبين كيف ان هذا النظام يخلق بنفسه شروط التحرر الانساني . كذلك يرفض الاشتراكية الاصلاحية التي يفضح جهودها الوهمية للتوفيق بين الطبقات المتناحرة . يؤيد ضد هذه الاشتراكية الاصلاحية ضرورة الغاء الملكية الخاصة الغاء جذريا ، فالاحتفاظ بالملكية الصغيرة الذي تنادي به الاشتراكية الاصلاحية يتضمن الحفاظ على الانخلاع (٣) .

يبين لا جدوى هذه الاشتراكية بمثال برودون ، مع انه ما يزال يضعه على نفس المستوى مع سان سيمون وفوريه ، ويعترف له بمأثرة انه فتح ، بتحليله الملكية الخاصة ، طريق نقد جذري لهذه الاخيرة . بما ان برودون لم يدرك العلاقات بين الملكية الخاصة والشغل المنخلع ، لذا لم يستطع ان يدفع في العمق نقده للاقتصاد السياسي وانساق هكذا الى اقتراح اصلاحات غير كافية وغير مؤثرة (٤) .

---

(١) ص ١١٤ . « من السهل ان نرى كيف ان الحركة الثورية تجد قاعدتها الواقعية والنظرية على حد سواء في تطور الملكية الخاصة ، في تطور الاقتصاد » . ص ١١١ .

(٢) ص ١١١ . « طالما لا يتخذ شكل تعارض بين الرأسمال والشغل، ان التعارض بين الملكية والحرمان منها لا يرتدي بعد طابع تناقض ، تعبير التعارض الفاعل الناجم عن علاقاتهما » . انظر ص ٩٢ ــ ٩٣ . « ينجم ، بالاضافة الى ذلك ، عن العلاقة بين الشغل المنخلع والملكية الخاصة ، ان تحرر المجتمع من الملكية الخاصة والعبودية يتخذ شكل تحرر الطبقة العاملة السياسي . في نهاية الحساب هذا ليس تحرر الطبقة العاملة فقط . فتحررها يقتضي ويتضمن تحرر كل البشر ، لان كل اشكال العبودية الانسانية تنجم عن العلاقات التي تقوم بين العامل وانتاجه وهي ليست سوى تلونات وعواقب لهذه العلاقات » .

(٣) ص ١١١ .

(٤) ص ٩٢ . « الاقتصاد السياسي ينطلق من الشغل بوصفه العنصر المكون للانتاج ، ولكنه مع ذلك لا يعطي الشغل شيئا ويعطي الملكية الخاصة كل شيء . واذ شدد برودون على هذا التناقض فقد اعلن نفسه مع الشغل ضد الملكية الخاصة . اما نحن فنعتبر ان هذا التناقض الظاهر يفصح في الواقع عن

ماركس يرفض ايضا الشيوعية البدائية والعامية التـــي تضع لنفسها كهدف لا تدمير بل تعميم الملكية الخاصة بتوزيعها توزيعا متساويا (١) .

أجل تريد هذه الشيوعية حذف نظام الملكيـــة الخاصة بتوزيعها بين الجميع ، ولكن هذا التعميم للملكية الخاصة الذي يجعل من الشغل كما هـــو الحال في النظام الرأسمالي وسيلة حصول اناني على الثروات وليس تعبير الفاعلية الخالقة التي بهـــا يؤكد الانسان انسانيته ، بعيدا عن الغاء الانخلاع لا تفعل سوى تعميمه (٢) .

هذا التوزيع العام للملكية الخاصة في الشيوعية المبتذلة ، الذي يستجيب لشهوة انانية للخيرات المادية ، هو نتيجة الروح الحاسدة والمسوية التـــي تطبـــع هـــذه الشيوعية (٣) .

هذا التعطش الى خيرات مادية يجد شكله الاكثر خزيا في اشتراكية النساء التي تحول الزواج الى دعارة عامة (٤) . اذ يعتبر ، مع فوريه ، تحرر المرأة مقياس التحرر الانساني ، يستخدم ماركس أقسى الالفاظ للتنديد بهذا الاذلال للمرأة (٥) .

هذا الاتجاه المساوي والمسوي للشيوعية المبتذلة يستتبع عودة الـــى الحيـــاة البدائية والمتقشفة وبالتالي انحدارا للحضارة . فالشيوعية التي تعتبر الحصول على خيرات مادية هدف الحياة الجوهري تخنق بالفعـــل انبساط الشخصية الانسانيـــة بحذفها تجريديا الموهبة والحاجة الى الثقافة (٦) .

ويميز ماركس شكلا آخر للشيوعية ، يرمي الى اقامة النظام الشيوعي بتحويل للدولة او بالغائها دون ان يرى ان اقامة هـــذا النظام لـــه كشرط ضروري لا اصلاح سياسي بل حذف الملكية الخاصة (٧) .

الاشتراكية الاصلاحية والشيوعية المبتذلة يعارضهما ماركس بالشيوعية الحقة

التناقض اللازم للشغل المنخلع وان الاقتصاد السياسي لم يفعل سوى التصريح بقوانين الشغل المنخلع ». انظر ص ٤٦ . « تلك هي الاخطاء التي يرتكبها المصلحون بالمفرق الذين يريدون تحسين نصيب الطبقـــة العاملة بزيادة الاجور او الذين يعتبرون مثل برودون ان تساوي الاجور هو هدف الثورة الاجتماعيـــة » . انظر ص ١٣٨ .

(١) في رسالة الى روجه بتاريخ ايلول ١٨٤٣ (ميغا ، جـ١ ، ص ٥٧٧) سبق لماركس ان اخـذ علـى هذه الشيوعية بقاءها مطبوعة بروح الملكية الخاصة .

(٢) انظر ص ١١١ ــ ١١٢ ، ١١٣ . « ان اول حذف واقعي للملكية الخاصة في شكـــل الشيوعيـــة الفظة ليس هكذا سوى تظاهر لسفالة الملكية الخاصة التي تزعم تجسيد الجوهر الانساني » .

(٣) ص ١١٢ .

(٤) ص ١١٢ .

(٥) ص ١١٣ .

(٦) ص ١١٢ .

(٧) ص ١١٣ ــ ١١٤ .

التي ستؤدي الى اعادة أنسنة الانسان بتفتح طبيعته الكلية .

يتصور الشيوعية الحقة على انها نهاية ما ـ قبل ـ تاريخ الانسان، ما ـ قبل ـ التاريخ الذي ، مع خلعه الانسان ، خلق شروط حذف انخلاعه (١) .

ان الشيوعية الحقة ، التي يشير ماركس الى ملامحها العامة بدون ان يدخل مثل الطوباويين في تفصيل تنظيمها ، ستستعيض عن المنظومة الراسمالية بمنظومة ملكية جماعية ، تجعل من انبساط طبيعة الانسان الكلية موضوع فاعليته . ومن جراء ذلك ، ليست الشيوعية الحقة منظومة انتاج جديدة فقط ، انما تمثل قبل اي شيء تنظيما اجتماعيا جديدا فيه ستلغى كل الاستلابات .

في الشيوعية الحقة ، يستهدف الانتاج لا محض التحول التقني للعالم بل تلبية كلية الحاجات الانسانية ، حيث الحاجة الجوهرية للانسان الذي صار اجتماعيا تماما هي حاجة كل انسان للبشر الآخرين ، من اجل اغتناء متبادل (٢) .

ان الشيوعية الحقة لا تعني ، كالشيوعية الفظة ، رجوعا الى الحياة البدائية والزهدية وتخليا عن كل ما تم اكتسابه خلال التاريخ على الصعيد المادي والثقافي . ليس فقط ستحتفظ بكل التقنيات وبكل الخيرات المبدعة حتى ذلك الحين ، بل ستبسط وتطور الى ما لا نهاية العالم المؤنسن بواسطة تنظيم عقلي للانتاج الموضوع في خدمة الانسان (٣) .

هذا التنظيم العقلاني للانتاج سيحذف مع المزاحمة الكساد والازمات ، سوق الشغل ، حيث يبيع العامل نفسه كسلعة ، والفرق بين صفة المنتوج المصنوع وصفة الانسان الذي يصنعه . انه سيعطي ، بالغاء انخلاع الشغل ومنتوجه ، كل منتج معادل القيم المادية والثقافية الذي يمثله انتاجه ، وهكذا سيؤمن لكل انسان نمط حياة انسانيا .

---

(١) ص ١١٤ .

(٢) ص ١٢٣ . « نرى كيف ، في مكان الثروة والفقر مفهومين من وجهة نظر الاقتصاد السياسي ، يظهر الانسان الثري كليا وثروة الحاجة الانسانية . الانسان الغني هو في الوقت نفسه هذا الذي له حاجة عميقة الى جملة تجليات الحياة الانسانية ، الذي يعاني هذا الاسلوب في تحقق كينونته كحاجة داخلية ، كضرورة . ليس فقط الغنى بل ايضا الفقر تحت شكل هذه الضرورة يتخذان في الاشتراكية مدلولا انسانيا وبالتالي اجتماعيا . هذا الفقر يشكل الرابطة التي توحده مع البشر الاخرين ، بجعله يعاني كحاجة ثروته الحقيقية التي هي بالنسبة له البشر الاخرون . هذه السيطرة في ذاتي لكينونتي الموضوعية التي هي الجماعة الانسانية. وهذا التظاهر لهذه الكينونة يجدان تعبيرهما فيشكل الانفعال ـ الهوى الذي هو هنا اسلوب فاعلية كينونتي » .

(٣) ص ١٦٧ . « لكن اللاالهية (الالحاد) ، الشيوعية ، لا تؤلفان نفي ، ضياع العالم المخلوق من قبل البشر ، لا تؤلفان نفي وضياع موضعة قواهم الماهوية، برجوع الىالبساطة البدائية المضادة للطبيعة الانسانية . بالعكس انهما للانسان التحقيق الواقعي الحق لكينونته الواقعية » .

الاستهلاك ايضا سينظم بشكل عقلاني . فالتملك لـــن يحصل في معنى احتكار خيرات مادية بغية اقتناء اناني ، بل سيكون هدفه الاغناء العـام للانسـان . في توزيع الخيرات التي ستستخدم على النحو الافضل لصالح الجماعة ، لن يكون الامر كما في الشيوعية المبتذلة توزيعا متساويا لاشباع رغبات انانية ، بل سيكون مشاركة لجميع البشر في القيم المادية والروحية .

بهذا التنظيم العقلي للانتاج والاستهلاك ، سيستطيع البشر ان يتطوروا بشكـل حر ومليء ومنسجم . فسيكون هناك تماثل بين الفرد والمجتمع الذي ، بكفه عن كونه تنظيما فوق الافراد وبالتالي حدا يحد انبساطهم وتطورهم ، سيكون دائـــرة تفتـح شخصيتهم المليء . بما ان الملكية الجماعية ستزيل ، مـع التمييز بـين مالك ومالي ، التعارض بين الافراد ، فان الانسان المحرر من رغبة الاستغلال والتمتع الاناني سيصير هو نتاج شغله الذي حرر هو ايضا ، وسيعيش في انسجام مـــع الطبيعة ومع نفسه ومع البشر الآخرين .

ماركس يصف على النحو الآتي اسلوب حيـــاة البشر في النظـــام الشيوعي :

« لنفترض اننا أنتجنا بوصفنا بشرا حقيقيين . كل منا سيكون في انتاجه قد اكد بشكل مزدوج شخصيته وشخصية الغير . ١) بما انني حققت عيانيا في انتاجي شخصيتي ، فقد تمتعت بفاعليتي كتعبير عن شخصيتي ، وبتأملي الموضوع الذي خلقه عملي ذقت لذة رؤية شخصيتي محققة عيانيا وماديا فيه ... ٢) من جهة اخرى بما انك تتمتع بمنتوج شغلي باستخدامك اياه ، لدي وعي كوني اشبعت بعملي حاجـة انسانيـة ، كوني بتحقيق كينونتي عيانيا اشبعت حاجة انسان آخر مقدما له موضوعا يستجيب لها . ٣) لدي ايضا لذة كوني بهذا الموضوع قمت بدور الوسيط بينك وبين الجماعة الانسانية ، كوني اكملت ، وسعت كينونتك أنت ، كوني أعتبر جزءا لا يتجزأ منـك ، وكوني هكذا أشعر نفسي مثبتا في فكري وفي عملي . ٤) لدي اخيرا ، بتحقيقي عيانيا فرديتي وفرديتك معا ، سعادة كوني حققت بفاعليتي كياني الحق ، كينونتي النوعيةـ العامة . كل من انتاجاتنا مرآة فيها تنعكس كياناتنا ؛ وفي سيرورة الانتاج هذه ثمـة تبادل سلوك .

لننظر الآن الى مختلف عناصر هذه السيرورة . ان شغلي الحر ، تعبير حياتي ، يتيح لي التمتع بهذه الحياة ، في حين أنه هو في نظام الملكية الخاصة يشكل استلابها ، فبما انني في هذا النظام لا اشتغل الا لتأمين بقائي حصرا ، لـذا فان شغلي لا يتطابق هنا مع حياتي . اما حين يكون الشغل تأكيد وتظاهر حياتي الفردية فانـه يكون تعبير شخصيتي ، خاصتي الحقيقية ، ملكي الحق ، في شكل الفعل ـ العمـل . بالعكس ، في نظام الملكية الخاصة ، ان فرديتي منخلعة لدرجة ان فاعليتي كريهة بالنسبة لـي ، انها بالنسبة لي عذاب ، اذ ليس لها سوى مظهر فاعلية حقيقية وهـي بـدلا مـن ان

تنجم عن حاجة داخلية مفروضة علي . في الموضوع يتجلى الطابع العميق للفاعلية الانسانية التي لا يمكن ان تظهر فيه على غير ما هي عليه . لذا فان الموضوع ليس في نظام الملكية الخاصة سوى التعبير العياني المحسوس الجلي لانخلاع كينونتي ، لعجزي . (١) » .

بما ان البشر يكفون في الشيوعية الحقة عن ملاحقة غايات انانية ، فان رغبة الملكية الشخصية تختفي ومعها التعارض بين الافراد . سيقوم اتحاد بين الفرد والمجتمع ، الامر الذي سيجلب مع الغاء انقسام المجتمع الى طبقات متناحرة حذف الصراعات الطبقية والدولة السياسية بوصفها أداة سيطرة واضطهاد .

في الوقت نفسه ستحول العلاقات العائلية ، لا كما في الشيوعية المبتذلة بجماعية النساء ، بل لان الزواج سيغدو اتحاد كائنين حرين سيجدان فيه اغناء متبادلا (٢) .

اذ لا يعود الانسان يخلع قواه في الموضوعات التي يخلقها ، فانه سيجد نفسه في منتوج شغله . بتعيين كينونته في الانتاج ، الطبيعة التي تكف عن كونها بالنسبة له عالما خارجيا وغريبا تتأنسن ، والانسان الذي يصير اجتماعيا تماما باغتنائه عن طريق شغله بأعمال البشر الآخرين واغتنائهم بأعماله في آن يتصالح مع نفسه ومع الجماعة.

بما ان اعادة تأنسن الانسان تتطلب حذف جميع الانخلاعات ، لذا ليس الانخلاعات المادية فقط بل ايضا الانخلاعات الايديولوجية ولا سيما الدين ستلغى في المجتمع الشيوعي . ان حذف العبودية المادية التي يخضع نظام الملكية الخاصة الانسان لها ، سيرافقه حذف العبودية الروحية التي يخضعه الدين لها، الاول سيكون عمل الشيوعية ، الثاني عمل الالحاد الذي بنفيه الاله يعطي الانسان وعي طبيعته الحقة (٣) .

---

(١) ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .

(٢) ص ١١٣ . « في علاقاته مع المراة ، الصائرة فريسة وموضوع الشبق الجماعي ، يتجلى انحدار الانسان ـ الرجل انحدارا لا حد له ... ان العلاقة بين الرجل والمراة تبين الى اي درجة تانسن الانسان، لانها العلاقة الانسانية الاكثر طبيعية ... هذه العلاقة تبين الى اي حد ... صار القريب حاجة للانسان وبالتالي الى اي حد صار الانسان في وجوده الفردي كائنا اجتماعيا » .

(٣) ص ١١٥ . « ان الحذف الايجابي للملكية الخاصة بنتيجة تملك الانسان لكينونته ، لحياته ، يتضمن ايضا الحذف الواقعي لكل الانخلاعات ، وبذلك ذاته تحرر الانسان من الدين ، من العائلة البرجوازية ، ومن الدولة ، ببلوغه وجودا انسانيا ، اي اجتماعيا . الاستلاب الديني يحصل في ميدان الوعي ، بينما استلابه المادي ، الاقتصادي ، هو استلاب حياته الواقعية ، ان حذف الاستلاب الانساني يفترض هكذا حذف هذين الشكلين للاستلاب » . انظر ايضا ص ١٦٧ ـ ١٦٨ . ان الغاء الدين لا يمكن ان يكون بالنسبة لماركس نتيجة مقاضاة فكرية محضة ، اذ انه يشترط الغاء اساسه الواقعي ، نظام الملكية الخاصة . لذا فهو ينتقد الالحاد النظري المحض الذي لا يرمي الى تحويل العالم تحويلا فعليا . انظر ايضا ص ١١٥ . « ان فيلانتروبية (حب البشر) الالحاد ليست بادىء بدء سوى فيلانتروبية فلسفية، مجردة ، اما فيلانتروبية الشيوعية فهي بالعكس ترمي بصورة مباشرة الى عمل فعلي على العالم».

مع الاستلاب الديني سيلغى الاستلاب الاخلاقي والاستلاب الحقوقي ، فالاخلاق والحقوق البرجوازية ستحل محلها اخلاق جديدة وحقوق جديدة تستجيب لطبيعة الانسان الحقة .

في المجتمع الشيوعي ، حيث سيصير الانسان اجتماعيا تماما ، لن يكون هناك تعارض بين الجوهر والوجود ، بين الذات والموضوع . بتموضعه في الطبيعة التي ستصير بذلك عينه انسانية ، سيجد الانسان في موضوعه كينونته الحقيقية ، هويته الاجتماعية ، بحيث انه سيحقق وحدة عضوية بين الذات والموضوع وان جوهر الانسان سيتطابق مع وجوده .

في الشيوعية التي تجعل هكذا من الطبيعة واقعا انسانيا ومن الانسان مقياس العالم ، يرى ماركس التحقق الواقعي المليء للمذهب الانساني : « ان **الشيوعية** ، بوصفها **التملك** الواقعي من قبل الانسان ومن اجل الانسان **لكينونته** بالالغاء الفعلي **للملكية الخاصة وللانخلاع الانساني** ، هي عودة الانسان التامة الى نفسه بوصفه كائنا **اجتماعيا** ، عودة تتحقق بالتملك الواعي لكل الثروات التي خلقها عبر التاريخ . هذه الشيوعية ، التي هي في آن معا « طبعنة » الانسان المليئة بتعين كينونته في الطبيعة و « تأنسن » الطبيعة الكامل ، تعطي الحل **الواقعي** للنزاع الذي يضع الانسان في معارضة الطبيعة ومعارضة البشر الآخرين وللتناقض الذي يضع الطابع الموضوعي لتعيين الكائن الانساني في معارضة الطابع الذاتي لفاعليته ، والحرية في معارضة الضرورة ، والفرد في معارضة النوع الانساني . انها حل لغز التاريخ وهي تعي انها حله (١) . »

« البراكسيس » وانضاج التصور المادي للعالم

بتحليله النظام الراسمالي والشيوعية ، كان ماركس يصل الى تصور جديد للتاريخ المنظور اليه في شكل تطور جدلي للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

هذا التحليل ، الذي كان يقوده الى فهم الاهمية المقررة لتطور الانتاج في تحول المجتمعات وبالتالي في سير التاريخ ، كان يحدد تغيرا جذريا في تصوره للعالم .

هذا التغير كان متمحورا على الدور الرئيسي الذي بات الآن يسنده الى الشغل، الى الفاعلية العملية ، الى « البراكسيس » في الحياة البشرية . الدراسة المتعمقة للشغل المنخلع ولدوره في النظام الرأسمالي ، التي كانت تبين له بوضوح متزايد اهمية الشغل الحاسمة في التطور الاقتصادي والاجتماعي ، كانت تسوقه الى ان يستعيض، كتصور مركزي ، عن فكرة الانخلاع بفكرة « البراكسيس » .

(١) ص ١١٤ .

ان فكرة الانخلاع ، التي كانت تسمح لــه بفضح الطابــع اللاانساني للنظام الرأسمالي وبتحليل تناقضاته ، كانت تظهر أقل قدرة من مفهوم « البراكسيس » على ان تخدم كأساس لانضاج تصور جديــد للعالم ، ايديولوجيا البروليتاريا الثورية . ليس فقط كان تصور الانخلاع ، بجعله يرفض نظرية القيمة لريكاردو ، يمنعه من ان يصل ، كما سيصل فيما بعد ، بانماء هذه النظرية ، الى مفهوم القيمة الحقيقي والى مفهوم فضل ـ القيمة ، اللذين يتيحان فهمــا أفضل بكثير لتشكل الملكيــة الخاصة وتناقضات النظام الرأسمالي واستغلال العامل في هــذا النظام ، بــل كان يقود ، بالتعارض الذي يقيمه بين الانسان « المنخلع » جامع كل الطبقات الاجتماعية في النظام الرأسمالي والانسان « الحقيقي » ، الى تصور عام للانسان مــا يزال قريبا الى حــد لا بأس به من الفكرة الفويرباخيــة ، تصور يخفــف ويحجب التعارضات والصراعات الطبقية .

من فكرة « البراكسيس » اي من فكرة ان تطور الانتاج يحــدد تطــور المجتمع وبالتالي سير التاريخ ، كان ماركس يخرج ويبلور تصورا ماديــا ، جدليا وتاريخيــا للعالم ، كان يوضحه ويعمقه بتخط مزدوج لهيغل ولفويرباخ .

نقــد فويرباخ وهيغل

بعد انطلاقه في نقده الاقتصاد السياسي والمنظومــة الرأسماليــة مــن التصور الهيغلي للانسان ، ينقد ماركس هيغل معتمدا على فكرة « البراكسيس » التي كــان يخرجها من تحليله هذه المنظومة .

في نقده لفلسفة الحق الهيغلية ، الحاصل سنة ١٨٤٣ ، كان قــد فضح فعــلا طابعها المثالي ، ولكنه لم يكن قد قام ، كما يقــوم في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، بنقد عام وأساسي للمثالية الهيغلية (١) .

يبدأ قبل هذا النقد بنقد الهيغليين الشبان الذين ـ علــى حــد قولــه ـ لــم

(١) انظر ك. ماركس : راس المال ، باريس ، المنشورات الاجتماعية ١٩٤٦ . ملحــق الطبعة الالمانية الثانية ، ص ٢٩ . « ان طريقتي الجدلية ليس فقط تختلف بشكل اساسي عن الطريقة الهيغلية ، بــل هي معارضة لها على طرفي نقيض . بالنسبة لهيغل ، ان حركة الفكر الذي يجعل منه ذاتا مستقلة تحت اسم الفكرة هي العنصر الخالق للواقع ، الذي ليس سوى تجليها الخارجي . بالنسبة لي ، بالعكس ، العنصر الروحي ليس الا انعكاس العنصر المادي المنقول والموضوع في الدمــاغ الانساني . لقــد فضحت الجانب المصوف الخادع في الجدل الهيغلي ، قبل ما يقرب من ثلاثين سنة ، حين كــان لا يــزال موضة رائجة ... هذا الجانب المصوف في الجدل الهيغلي لا يمنع ان هيغل كان اول من عرض القوانين العامــة للتطور الجدلي . عنده الجدل يرتكز على الراس ، يكفي قلبه ووضعه على قدميه لكي تكتشف وراء المظهر المصوف العناصر العقلية » .

ينجحوا ، باستثناء فويرباخ ، في التحرر او الخروج من فلسفة هيغل ، لانهم لم يقوموا بنقد جدله (١) . فقد اكتفوا بعزل بعض عناصر هذه الفلسفة ليجعلوا منها قاعدة مذاهبهم .

هكذا جعل د. ف. شتراوس D.F.Strauss من « الماهية » اي من الطبيعة منظورا اليها بشكل مجرد مبدأ فلسفته ، بينما كان ب. باور B.Bauer يؤسس فلسفته على « وعي الذات » أي على الانسان مقلصا الى حالة تجريد (٢) .

واذ كان ب. باور عاجزا عن تجاوز المثالية الهيغلية ، فقد دفعها حتى الكاريكاتور ، مقيما محل الفكرة الهيغلية التي كانت توحد في ذاتها الذات والموضوع الوعي الكلي الذي يعارض على الدوام العالم ، « الماهية » ، التي ليست سوى تعبيره الناقص والذي يلغيها مع سير خلقه اياها . و ب. باور يحول بالواقع هذا التعارض بين الوعي الكوني والعالم الى التعارض بين النقد الخالص ، تجسيد الوعي الكوني والشعب أو « الجمهور » ، ويعيد الى هذا التعارض كل تطور التاريخ (٣) .

بين الهيغليين ـ الشباب ، فويرباخ هو الوحيد الذي تجاوز الفلسفة الهيغلية ومعها كل فلسفة مثالية ، متخذا ازاءها موقف نقد (٤) .

بما ان ماركس يرتكز ، في نقده لهيغل كما في انضاجه لتصوره الجديد عن العالم ، الى حد لا بأس به ، على المبادىء الاساسية لفلسفة فويرباخ ، الذي ما يزال ماركس يثني عليه أعظم ثناء ، لذا من الضروري ان نقدم عرضا قصيرا عن الملامح العامة لهذه الفلسفة ، كي نرى الى اي حد يستلهمها ماركس والى اي حد بات من الآن

---

(١) ميغا ، ١ ، ج٣ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٣) ص ١٥١ . « حتى بعد ان كان فويرباخ ، في « اطروحات » الاخبار ، ثم بشكل صريح اكثر في فلسفة المستقبل ، قد حقق مبدئيا قلب الجدل القديم والفلسفة القديمة ، كان هذا النقد (ب. باور) العاجز عن تحقيق الانقلاب المذكور الحاصل بدونه ، معلنا نفسه نقدا خالصا ، مطلقا ، بلغ وعي ذاته المليء ، كان يحول ، في غروره الروحي ، كل تطور التاريخ الى العلاقة التي كان يقيمها بين العالم ـ المدعو من قبله « جمهورا » ـ وذاته ويرجع كل التعارضات الى التعارض بين حكمته هو وحماقة العالم . معلنا بلا توقف سموه في مقابل غباء « الجمهور » ، كان يبشر باقتراب يوم الدينونة ، حيث سيواجه البشرية المنحطة وسيوزع لكل احد شهادة فقر حاله الروحي ، ثم ينعزل عن البشر وعن العالم ، مكتفيا بان يرسل بين حين وآخر من فمه الساخر قهقهة آلهة جبل الاولمب المزدرية . بل ان هذا النقد ، الذي يجسد بمواقفه المضحكة المثالية الهيغلية ـ الشابة المحتضرة ، لم يفكر بان من الضروري بالنسبة اليه ان يجابه الجدل الهيغلي الذي هو اصله وان يجابه جدل فويرباخ » .

(٤) ص ص ٣٤ ، ١٥١ ـ ١٥٢ .

يتجاوزها (١) .

بوصفه مفكرا تقدميا برجوازيا ، كان فويرباخ قد انمى النقد المناهض للدين لدى فلاسفة القرن الثامن عشر ووسع هذا النقد الى الفلسفة المثالية . هذه الفلسفة ، على حد قوله ، ترتكز ، مثل الدين ، على قلب لمواقع الموضوع والمحمول (المسند اليه والمسند ، الذات الحاملة والمحمول ، المبتدأ والخبر) ، القلب الذي يجعل من الفكرة Idée كائنا الهيا ومن الانسان مخلوقه ، وهي اذن تولد مثل الدين انخلاع الانسان .

بعكس الفلسفة المثالية ، كان فويرباخ يعتبر ان الروح ليست العنصر الخالق بل هي نتاج الانسان وان الانسان العيني ، المفهوم في علاقاته مع الطبيعة ومع البشر الآخرين يشكل مبدأ كل فلسفة حقة . بقلبه هكذا العلاقة المثالية بين الكينونة والوعي، بجعله الكائن هو الموضوع والوعي هو المحمول ، كان يعارض الفلسفة المثالية بتصور مادي للعالم .

اذ بقي مرتبطا بالنظام الرأسمالي ، بمنظومة الملكية الخاصة ، لم يكن قادرا على تجاوز تخوم وافق الفكر البرجوازي ولم يكن بالتالي يصل الى الاستعاضة عن المثالية بمادية منسجمة ، تستجيب لمتطلبات الفكر الثوري . من هنا تخوم وعيوب ماديته ، وهي التخوم والعيوب المرتبطة جوهريا بكونه يتصور العلاقات الانسانية ، لا كعلاقات اجتماعية تحددها صراعات الطبقات ، بل كعلاقات عامة للانسان مع الطبيعة ومع البشر الآخرين ، المعتبرين تحت هيئة غير متمايزة اجتماعيا .

أجل كان يلح على الطابع العياني للانسان والطبيعة والعلاقات الانسانية ، ولكن، بما انه لم يكن يعتبر الحياة الانسانية من وجهة نظر « البراكسيس » ، الفاعلية الثورية ، التي تحول الانسان والطبيعة معا ، فقد كان مساقا الى ان يرى في الانسان كائنا حسيا ومتأملا وفي الطبيعة موضوع لا عمل بل تأمل .

ان موقفه البرجوازي ، المناهض للثورة ، يعلل في الوقت نفسه مع تصوره للانسان وللطبيعة ، طابع ماديته التي بما أنها ليست جدلية ولا تاريخية فهي تبقى مثالية في كل ما يتصل بالمسائل الاجتماعية .

---

(١) لا يمكن الحديث بطريقة عامة عن العلاقات بين ماركس وفويرباخ ، لان موقف ماركس من فويرباخ قد تغير كثيرا اثناء تطور فكره . في البداية ، يقدر ماركس في فويرباخ بشكل خاص تفنيده للدين على اساس المادية (ميغا ، جا ـ ١ ، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٥) . ثم، بعد حذف الصحيفة الراينية ، حين طرحت على ماركس مسألة العلاقات بين الدولة والمجتمع وحاول ان يحلها بنقد فلسفة الحق الهيغلية ، انطلق في هذا النقد من نقد فويرباخ للفلسفة المثالية ولتصورها عن الانخلاع ، آخذا على فويرباخ كونه لم يطبق نظريته على دراسة المسائل السياسية والاجتماعية (ميغا ، ١ ج ١ ـ ٢ ، ص ٣٠٨ . رسالة ماركس الى زوجه ١٣ آذار ١٨٤٣) . واذ صار شيوعيا ، فقد تجاوز نهائيا فويرباخ بانضاجه المادية الجدلية والتاريخية ، التي يقدم عنها عرضا اول في مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة .

التملك النظري والعملي للعالم من قبل الانسان يبدو له منتسبا الى وجهتي نظر مختلفتين . فهو يعتبر الموقف النظري للانسان ازاء موضوعه الموقن الذي يتفق مع طبيعته الحقة ويدين بذلك عينه الموقف العملي ، الذي يحدده هم تلبية حاجات مادية الذي لا يسمح باتخاذ موقف غير مصلحي ازاء الموضوعات . وبرفضه هكذا « البراكسيس » التي فيها الانسان ، اذ يفعل بطريقة نفعية ، لا يستطيع ان يتملك الموضوعات تملكا حقيقيا ولا ينفذ الى جوهرها ، وبانكاره دور « البراكسيس » في تطور التاريخ ، ينساق فويرباخ الى نقل المسائل الاجتماعية على صعيد مثالي والى اعطائها حلا طوباويا خياليا في شكل « انسية » تعكس الاتجاهات الاخلاقية الواعظة للقرن الثامن عشر .

هذا الحل الطوباوي للمسائل الاجتماعية يتجلى بشكل خاص في تصوره لمسألة الدين والانخلاع المتولد عنه ، وهي المسألة الأولية في نظره . منطلقا من التصور المثالي لحياة انسانية موافقة لطبيعة الانسان « الحقة » ، يفكر فويرباخ أن تحقق هذه الحياة يجعل مستحيلا في المجتمع الحاضر بحكم انخلاع الجوهر الانساني . بما انه لا يرى لا أسباب الانخلاع الحقيقية ولا طبيعته الحقيقية ، فانه يعيده الى الانخلاع الديني ، وبما انه يعتبر هذا الاخير خارج العلاقات الاجتماعية فانه يفكر بأنه يمكن ان يلغى بالطريق الروحي ، بتربية البشر .

طاردا « البراكسيس » ، العمل الثوري ، فويرباخ ينتهي الى مفهمة للعالم ليست جدلية ولا تاريخية ولا تقدم بالتالي اي بذرة انبساط وتقدم، فالتقدم محصور في مسلمة ان الانسان يجب ان يحقق جوهره الانساني . أجل الانسان والطبيعة هما عنده عنصران مختلفان ، ولكن بما أنه ليس ثمة بينهما علاقة جدلية ، فان صلاتهما لا تفتح سبيلا لتقدم حقيقي ، ونرى عنده ضياع كل العناصر الخصبة في الفلسفة والجدل الهيغليين .

هذا كان من شأنه ان يقود ماركس الى الابتعاد عن فويرباخ اكثر فاكثر في انضاجه الجديد عن العالم .

اذ كان ماركس مترجما عن تطلعات البروليتاريا الثورية ، فلم يكن ما يهمه هو فقط تحويل الوعي الانساني ، بل كان قبل اي شيء الغاء المجتمع الراسمالي ، سبب نزع انسانية البشر وبشكل خاص البروليتاريين . وهكذا ، واضعا في المستوى الاول العمل الثوري ، يرفض التصور الفويرباخي للانسان المعتبر كائنا متأملا ، غير مفترق اجتماعيا ، يرى فيه كائنا اجتماعيا ، ينتمي الى طبقة معينة وحياته يحددها مجموع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . ولذا فهو لا يكب على دراسة الجوهر العام للانسان بقدر ما يكب على دراسة قوانين التطور الاجتماعي ، الذي بات يرى انه محدد من قبل تطور الانتاج .

ان انسية فويرباخ الاخلاقية تستبدل عنده على هذا الاساس بتصور جديد لحركة التاريخ خلالها يحقق الانسان كينونته. هذا يعطي لمسألة الانخلاع معنى جديدا ومدى جديدا . فالانخلاع يظهر عند ماركس ظاهرة اجتماعية جوهريا ، يشترط الغاءهـا تحويلا عميقا للمجتمع . ومن جهة أخرى فان ماركس لا يعتبر ، بعكس فويرباخ ، تخريج الجوهر الانساني فقط في شكل الانخلاع ، بل هو يرى فيه بصورة رئيسية تعيَّن قوى الانسان الخلاقة ، تحققها العيني ، وبذلك يحمله طابعا ايجابيا ، فالتعين المذكور لا يتخذ شكل انخلاع الا في ظروف تاريخية محددة .

ومع ان ماركس بات يتميز بهذا الشكل العميق عن فويرباخ، فانه بعد لا يخضع فلسفته للنقد العميق الذي يسلطه على فلسفة هيغل . وهذا مرده الى انه ، في هذه المرحلة من تطور فكره ، كان ما يزال يعتمد جزئيا على العناصر الاساسية في فلسفة فويرباخ الذي كان ما يزال يقدره أعلى تقدير (١) ، والى أنه كان ينضج فقط مبادىء فلسفة جديدة ستتيح له بعد قليل تجاوز المذهب الفويرباخي نهائيا . فقط بعد مضي عدة شهور على اقامة المبادىء الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، أدرك بشكل واضح الفرق العميق الذي يفصل تصوريهما وعرض هذا الفرق بطريقة لاذعة في أطروحاته الاحدى عشرة عن فويرباخ .

في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، يشدد ماركس على ان العيب الرئيسي لفويرباخ يأتي من كونه رفض جدل هيغل دون ان يرى ان هيغل كان أول من بيَّن ، ولو بشكل ما يزال نظرانيا ومجردا ، ان الانبساط الجدلي هو الشكل الذي ترتديه أية حركة للواقع (٢) .

بالمقابل يعترف له بمأثرة كونه اتخذ موقفا نقديا من الفلسفة الهيغلية وتجاوز الفلسفة المثالية ، مبينا ان أساس هذه الفلسفة ليس الانسان العياني بل تجريده ،

---

(١) انظر رسالة الى ل. فويرباخ بتاريخ ١٨٤٤/٨/١١ ، منشورة في قضايا السلم والاشتراكية ، برلين ١٩٥٨ ، الملزمة ٢ ، ص ٩ : « يسعدني ان اجد مناسبة التعبير عن كل التقدير وايضا ــ اسمح لي بهذه الكلمة ــ كل الحب اللذين اكنهما لك . ان كتابيك فلسفة المستقبل وجوهر الايمان يزنان ، رغم حجمهما الصغير ، أكثر من مجموع الادب الالماني الراهن . لقد اعطيت في هذين الكتابين ــ لا ادري ما اذا كان ذلك عن قصد ــ قاعدة فلسفية للاشتراكية ، والشيوعيون اولوهما فورا في هذا الاتجاه . بوضعك مبدئيا وحدة الانسان مع الناس الاخرين ، المؤسسة على تمايزهم واختلافهم ، بانزالك من السماء على الارض مفهوم النوع espèce الانساني المعرى من كل تجريد ، افلم تفصح عن جوهر مفهوم المجتمع بعينه ؟ » . انظر ميغا ١ ، جـ٣ ، ص ٣٤ . « من فويرباخ يبدأ النقد الايجابي للانسان والطبيعة . بدون ضجيج ولكن بشكل يزداد بقدر ذلك امنا وعمقا وشمولا ودواما ، تمارس كتابات فويرباخ فعلها . انها الكتابات الوحيدة ، منذ فينومينولوجيا ومنطق هيغل ، التي لها محتوى نظري ثوري حقيقي » . انظر المرجع نفسه ، ص ١٥١ . « فويرباخ هو الوحيد الذي اتخذ موقفا نقديا جديا ازاء جدل هيغل والذي قام باكتشافات حقيقية في هذا المضمار ، انه هو الذي تجاوز حقا الفلسفة القديمة » .

(٢) ميغا ، ١ ، جـ٣ ، ص ١٥٢ .

الروح ، الذي يلعب نفس الدور الذي يلعبه الله في الدين والذي هو كالله نتاج الانخلاع الانساني (١) . ويعترف له أيضا بمأثرة كونه عارض فكرة هيغل الخاطئة عن ايجابي ليس سوى نتيجة نفي النفي الوهمية ، بتصور ايجابي يرتكز على اليقين الحسي وله بالتالي أساسه في نفسه (٢) .

بقلبه الفلسفة المثالية ، فتح فويرباخ الطريق للمادية الحقة وللعلم الحقيقي ، جاعلا من الانسان ، مفهوما في علاقاته مع الطبيعة ومع البشر الاخرين ، أساس الفلسفة (٣) .

مستلهما النقد الفويرباخي للفلسفة المثالية ومرتكزا على تصور البراكسيس الذي كان يستنبطه من تحليله للتطور الاقتصادي والاجتماعي ، يشرع ماركس في نقد اساسي لفلسفة وجدل هيغل يسمح له بتوضيح تصوره الجديد للعالم . بما انه يبسط هذا التصور بمعارضة فلسفة هيغل ، يبدو من الضروري ان نعرض باختصار الملامح العامة لهذه الفلسفة (٤) .

كان هيغل قد حل على صعيد مثالي المسألة الجوهرية التي كانت مطروحة في نهاية القرن الثامن عشر ، مسألة الانتقال من تصور ثنائي للعالم يضع الروح في معارضة المادة والانسان في معارضة الطبيعة الى تصور عضوي ، بنظره الى التاريخ على أنه سيرورة خلق الانسان لذاته . في انضاج هذا التصور الجديد للعالم ، كان

(١) المرجع نفسه ، ص ١٥٢ .

(٢) ص ١٥٢ .

(٣) ص ١٥٢ .

(٤) لا يمكن ، كما بالنسبة لفويرباخ ، اعتبار العلاقات بين ماركس وهيغل بطريقة عامة ، لان موقف ماركس ازاء هيغل قد تغير كثيرا في سير تطور فكره . قبل مشاركته في الحركة الهيغلية ـ الشابة ، يثمن في الفلسفة الهيغلية طابعها الواقعي الذي يضعها في مقابل الفلسفة الرومانطيقية . حين صار هيغليا ـ شابا ، اخذ عن هيغل بصورة رئيسية تصوره للدولة التي تضبط بوصفها تجسيد روح العالم مسيرة المجتمع وسير التاريخ ، ولذا فان المؤلف الرئيسي لهيغل كان آنذاك في نظره فلسفة الحقوق . امام الاستفحال المستمر للسياسة الرجعية للدولة البروسية ، يفقد ماركس ايمانه في طابع الدولة العقلي وفي دورها المنظم الضابط للتطور الاجتماعي . متوجها نحو نزعة ديمقراطية اجتماعية ، يوضح تصوراته الجديدة بنقد لفلسفة الحقوق عند هيغل . يبين بتطبيق لمذهب فويرباخ أن هيغل ، قالبا العلاقات بين الموضوع والمحمول ، يجعل من الدولة العنصر الضابط للمجتمع بينما هي في الواقع مخلوقة من قبله . نرى ذلك بمثال المجتمع البرجوازي ، الذي لا يستطيع فيه الانسان ان يحقق كينونته والذي ينجب في معارضة نفسه الدولة السياسية ، التي فيها يعيش الانسان بطريقة وهمية حياة جماعية موافقة لجوهره. اذ صار شيوعيا واذ ياخذ وعي ان التطور الاقتصادي يحدد التطور السياسي والاجتماعي ، فانه يستلهم لا « فلسفة الحق » لهيغل بل فينومينولوجيا الروح ، وينقد ، بمساعدة التصور الهيغلي عن خلق الانسان لذاته ، الاقتصاد السياسي والمنظومة الراسمالية ، وفي الوقت نفسه يلوم هيغل على كونه مثلن وصوف سيرورة الخلق الذاتي هذه .

هيغل يأخذ عن الاقتصاديين الانكليز ، وخصوصا عن آدام سميث ، فكرة أن الشغل يلعب ، بوصفه عنصرا خالقا للثروات ، دورا مقررا في تشكل وتطور المجتمعات . موسعا هذا التصور ، كان يخرج منه فكرة ان الفاعلية الانسانية تؤلف العنصر الثوري الذي يقرر ، بتحويل الانسان والطبيعة ، سير التاريخ .

معيدا هذا التاريخ الى سيرورة خلق ذاتي للانسان بتحويل الطبيعة ، يبين ان الطبيعة ، بصيرها تدريجيا نتاج عمل الانسان ، تكف عن كونها بالنسبة له شيئا ما ، خارجيا وغريبا ، وانه بذلك تتحقق تدريجيا وحدة عميقة للانسان والطبيعة ، للذات والموضوع .

من جراء وضع المانيا المتأخر وتطور العلوم الطبيعية والاجتماعية غير الكافي ، كان هيغل مساقا الى اعطاء هذا التصور طابعا مثاليا ، بروحنة الانسان والطبيعة .

تحت تأثير دراساته التاريخية والاقتصادية ، كان يسعى مع ذلك الى ربط سيرورة خلق ذات الانسان المحوّل روحانيا على النحو المذكور بتطوره الواقعي كما انبسط في التاريخ . هذه المحاولة في ربط التطور الروحي بالتطور التاريخي العياني تفسر الدور الاساسي الذي تلعبه في فلسفته المفاهيم العيانية التي يفترض أنها تحوي فعليا جوهري الواقع .

ان تقليص مجموع الواقع ، الشامل حياة الانسان وحياة الطبيعة ، الى المفاهيم العيانية ، الذي هو السمة المميزة لفلسفة هيغل ، قرره واقع ان هيغل لم يكن يستطيع تعليل تطور الواقع العياني بتقليصه الى مفاهيم مجردة ، ولكن هذا التطور يصبح قابلاً للتعليل ما دام هذا الواقع يعاد الى مفاهيم عيانية .

هذا التحويل للواقع الى مفاهيم عيانية يفسر الطابع المنطقي والتاريخي في آن لفلسفة هيغل . ولكن بما أنه لا يمكن ان يوجد بالنسبة للفلسفة المثالية واقع حقيقي خارج الروح ، فان العالم ليس له عند هيغل وجود واقعي في ذاته ، انه ليس سوى تخرج الروح التي تأخذ تدريجيا وعي أن العالم نتاج عملها فتجد فيه من جديد جوهرها .

ان سيرورة خلق الانسان لذاته تغدو هكذا ، في فلسفة هيغل ، سيرورة انبساط الروح . بما ان العالم محول الى الوعي والطبيعة الى موضوع الوعي ، فان العلاقات بين الانسان والطبيعة معادة الى العلاقات التي تقوم بين الوعي وموضوعه .

ان سيرورة انخلاق الانسان ، المعادة الى انبساط وتطور العلاقات بين الوعي وموضوعه ، تؤلف الموضوعة المركزية في مؤلف هيغل الاساسي ، **فينومينولوجيا الروح** ، حيث يصف التحولات التي تحصل في الروح في سير انبساطها .

في البداية ، ان الروح تحت شكل الوعي الحسي لا تتميز عن الواقع العياني المباشر . بخروجها وتحررها من هذا الواقع وبمعارضتها له ، تتخذ شكل وعي

الذات . وتتجاوز أخيرا هذه المرحلة من تطورها بادراكها أن الواقع الموضوعي ليس له وجود حقيقي خارجها وأنها هي جوهره . عندئذ تتحول الى روح مطلقة ، تنظر الى التحديدات الموضوعية على انها مظاهر وأشكال ولحظات-ذاتها وتدرك هكذا انها هي وموضوعها واحد ، فتصير بالتالي ذاتا ــ موضوعا (sujet - objet) .

هـذا التحليل لانبساط الروح بالتمثل التدريجي للواقع الذي ليس سوى التعبير المثلن لاستيلاء الانسان على الطبيعة في سير التاريخ ، يعقبه ، **في المنطق** ، وصف انبساط المفاهيم الجدلي حتى الفكرة المطلقة التي تغدو ، بوصفها ذاتا ــ موضوعا ، خالقة الواقع . بعد تخرجها في الطبيعة التي تشكل نفيها ، الفكرة المطلقة تأخذ تدريجيا وعي ذاتها في سير انبساطها في التاريخ ، ونهاية التاريخ هي فلسفة الروح التي تسم رجوع الفكرة المطلقة الى ذاتها ، بعد اغتنائها بوعي كل ما كانت تحويه بشكل كامن .

ان انبساط الروح بتعرّفها على نفسها في موضوعها ، الذي اليه يعيد هيغل سيرورة خلق الانسان لذاته ، يشترط أن لا تكون الروح منخلعة ، مغرّبة ، أن لا تصير الروح غريبة عن نفسها في الموضوع . هذا يتحقق في فلسفة هيغل حيث بما ان الموضوع مروحن ومحوّل الى مفهوم فان الروح بالضرورة تجد نفسها فيه ثانية .

اذ يطبق شروط تطور الروح على تطور الانسان في المجتمع ، يفكر هيغل انه كما أن الروح يجب أن لا تنخلع في موضوعها كذلك فالانسان يجب أن لا ينخلع في منتوج شغله . وهو يرى أن هذه هي الحال في المجتمع البرجوازي ، حيث الانسان ، الذي لا يعتبره هيغل الا بصفته مالكا ، لا يمكن أن يكون مخلوعا في منتوج فاعليته الذي هو بحكم التعريف ملك له . على حد قوله ، ان الانسان بوصفه شخصية محرّك برغبة تملك موضوعات فاعليته . هذا التملك ، اذ يستبعد كل تملك من قبل الغير ، له بالضرورة طابع ملكية خاصة ، من هنا تبرير هيغل للمجتمع البرجوازي المؤسس عليها .

أجل كانت دراسة الاقتصاد السياسي قد جعلته يلمح الآثار اللاانسانية للنظام الرأسمالي ، ولقد كان يدرك ان تطور الصناعة يحمل معه في آن تزايد ثروة الطبقات المالكة وتفاقم بؤس الطبقة العاملة . الا انه لم يكن يخلص من هذه الملاحظة الى ادانة للنظام الرأسمالي، بالعكس كان يرى فيه أسلوبا عقليا للتطور الاقتصادي والاجتماعي.

تاركا خارج اعتباراته الازمات والصراعات الطبقية ، كان يفكر ان آثار المزاحمة بين المالكين يجب ان تداوى بتدخل الدولة ، التي لها ، بوصفها ممثلة المصلحة العامة، مهمّة ضبط التطور العقلي للمجتمع .

مصو"فا صراع الطبقات ، كان يقلص التعارض بين البرجوازية والبروليتاريا الى الموقف المختلف الذي يتخذه السيد والخادم ازاء الشغل ومنتوجه . بما ان الخادم يموضع كينونته بالشغل بتحويله المادة ، كان هيغل يعتبر أسلوب حياته متفوقا على أسلوب حياة السيد الذي هو ، اذ يكتفي بالتمتع بمنتوج الشغل دون أن يشارك في الانتاج ، أدنى ، على الصعيد الانساني ، من الخادم ، رغم ان هذا الاخير خاضع مرؤوس من قبله (١) .

هذا التصويف للمسألة الاجتماعية المحو"لة الى سيرورة سيكولوجية ، هي سيرورة وعي الانسان لكينونته بالشغل ، الذي يجعل من الخادم ـ وهذه مفارقة غريبة ـ الحائز الحقيقي على الموضوع المنتج ، لم يكن يمنع هيغل من ان يرى انه ، بنتيجة التعارض بين الاغنياء والفقراء ، تنشأ طبقة ثورية تهدد المجتمع . بيد أن هيغل ، بعيدا عن التفكير بحل للمسألة الاجتماعية عن ظريق حذف البؤس ، لم يكن يفكر الا بالطريقة التي يمكن بواسطتها حماية المجتمع والدولة ضد صعود هذه الطبقة الثورية ، التي كان يصفها بـ « الدهماء » بسبب روحها الثائرة .

رغم طابعها المثالي والمصو"ف ، كانت فلسفة هيغل تقدم لماركس عناصر هامة في سبيل انضاج مذهبه ، وبشكل خاص تصور انبساط جدلي للواقع ولخلق الانسان ذاته بشغله . الا انه لم يكن يستطيع استخدام هذه العناصر الا بعد نزع تصويفها بنقد متعمق لهذه الفلسفة . هذا النقد يصيب جوهريا :

آ) تقليص الانسان والطبيعة وعلاقاتهما الى الوعي وموضوع الوعي والعلاقات التي تقوم بين الوعي وموضوعه .

ب) تصويف الفاعلية الانسانية المروحنة على الشكل المذكور ، التصويف الذي يسمح لهيغل باعادة التاريخ الى انبساط للفكر .

حـ) تصويف الجدل المحو"ل الى جدل مثالي ، الى تسلسل مفاهيم .

في هذا النقد الذي يتصل جوهريا بـ **فينومينولوجيا الروح** (٢)، يعترف ماركس بـادىء ذي بدء لهيغل بمأثرة كبيرة هي كونه بيَّن ان الانسان يخلق نفسه بتعيشن كينونته عيانيا وبحذف الطابع الغريب ، المنخلع ، الـذي يتخذه هذا التعيشن بادىء

---

(١) انظر هيغل : فينومينولوجيا الروح ، شتوتغارت ١٩٢٧ ، ص‌ص ١٤٨ ـ ١٥٨ .

(٢) انظر ميغا ، ١ حـ٣ ، ص ١٥٣ . « يجب البدء بـ فينومينولوجيا الروح التي هي مكان تفتح الفلسفة الهيغلية والتي تعطي تفسير سرها . » . انظر المرجع نفسه ، ص ١٥٣ . ملخص فينومينولوجيا الروح على يد ماركس .

بدء ، وكونه هكذا قدم ، تحت هيئة مصوّفة ، عناصر نقد حقيقي للمجتمع (١) .

بتصوره الشغل جوهر الانسان ، وضع هيغل نفسه على صعيد الاقتصاديين الحديثين ، ولكن له مثلهم عيب كونه لم يعتبر سوى وجهه الايجابي وأهمل وجهه السلبي ، وجهه كشغل منخلع ، حاذفا اياه بروحنة الفاعلية الانسانية التي فيها لا يمكن أن يكون الانسان مستلبا مغرّبا مخلوعا (٢) .

من جراء روحنة الانسان والطبيعة والفاعلية الانسانية ، يتحول انبساط الانسان الى انبساط للروح ويتحول التاريخ الى انبساط مفاهيم (٣) .

هذا التحويل للتاريخ الى تطور الفكر يطبع الفلسفة الهيغلية . يكوّن منطقا ، منطقا يعرض ، بعد تبيان تشكل الروح التأملية المضاربة ، النظرانية ، كيف ان هذه الروح تتحقق بتخرجها في الطبيعة وفي التاريخ الانساني ، ينتهي الى العلم المطلق ، حيث الروح التي وعت ذاتها تماما تعيش وجودا متفقا مع جوهرها (٤) .

(١) انظر ميغا ...، ص ١٥٦ . « ان ما يصنع عظمة فينومينولوجيا هيغل ونتيجتها الاخيرة ، جدل النفيية (السلبية) المعتبرة عنصرا محركا وخالقا ، هو ان هيغل يتصور خلق الانسان لذاته كسيرورة ، تموضعه بتعين كينونته في شكل انخلاع وحذف الطابع المنخلع لهذا التعين ، وانه يقبض هكذا على جوهر الشغل ويتصور الانسان العياني والحق لانه واقعي كنتيجة شغله ذاته . ان السلوك الواقعي ، الفاعل ، للانسان ، بوصفه كائنا نوعيا ـ عاما ، ان تجلي جوهره كجوهر انساني ، ليس ممكنا الا بتعين كل قواه ـ وهذا التعين بدوره ليس ممكنا الا بتعاون كل البشر ، الا كنتيجة التاريخ ـ وكذلك بكون الانسان لا يتصرف ازاء قواه الذاتية كما ازاء موضوعات خارجية ، الامر الذي لا يمكن ان يحصل بادىء بدء الا في شكل انخلاع .

ان الفينومينولوجيا تؤلف تحليلا نقديا ، بالحقيقة محجوبا وغامضا ومصوفا (للانسان ـ ا.ك.). بقدر ما تحلل انخلاع الانسان ـ حتى وان كان هذا الاخير لا يظهر فيها الا تحت شكل الروح ـ فهي تحوي ضمنيا كل عناصر نقد حقيقي ، عناصر هي فيها مهياة ومنضجة بطريقة كثيرا ما تتجاوز من الان وبدرجة كبيرة وجهة نظر هيغل . هكذا فان شتى الفصول عن « الوعي الشقي » ، عن « الوعي الشريف » ، عن الصراع بين « الوعي الكريم والوعي الخسيس » ، تحتوي ، تحت شكل مصوف ، على عناصر نقد للدين، للدولة ، للمجتمع المدني ، الخ » .

(٢) ص ١٥٧ . « هيغل يضع نفسه في وجهة نظر الاقتصاديين الحديثين . انه يتصور الشغل على انه الوسيلة التي بها يحقق الانسان جوهره ، ولكنه لا يعتبر وجهه السلبي . »

(٣) ص ١٦٧ .

(٤) صص ١٥٣ ـ ١٥٤ . « ان موسوعة هيغل ، التي تبدأ مع المنطق ، مع الفكر النظراني المحض، والتي تنتهي مع العلم المطلق ، مع الروح الفلسفية المطلقة التي وعت نفسها بشكل مليء ، اي مع الروح الخارقة والمجردة ، ليست شيئا اخر سوى وصف ، تحقيق الروح الفلسفية ، كما ان الروح الفلسفية ليست شيئا اخر سوى روح العالم مفهومة بطريقة مجردة في شكلها المنخلع . المنطق ، مال الروح هذا، لا يمثل سوى القيمة النظرانية للانسان وللطبيعة المقلصين الى الفكر ، سوى كينونتهما التي صارت غير مبالية بكل التحديدات وبالتالي غير واقعية ، تحت شكل الفكر المجرد ـ الحاذف الطبيعة والانسان الحقيقيين . ان خارجية هذا الفكر المجرد هي الطبيعة مفهومة بدورها تجريديا . اذ هي خارجية ازاء

في المنطق ، الذي يصفه ماركس بأنه مال الروح ، أي عنصر فيه كل واقع ينحل ويفقد كما في المال كينونته الخاصة ودلالته الخاصة بتحوله الى تجريد ، ان العنصر الايجابي الوحيد هو الفكر مجردا ــ حاذفا كل عنصر واقعي (١) .

بما ان العالم العيني محوّل الى عالم فكر ، فان تخرج قوى الانسان الحية ، تعين كينونته ، أي مجموع فاعلية الانسان العملية ، يحصل تحت شكل وفي اطار الفكر . ومن جراء ذلك فان تاريخ العالم يتقلص ويتحول عنده الى تاريخ الفكر (٢) ، الامر الذي يفسر ان هيغل ، في **فينومينولوجيا الروح** ، لا يصف خلق ذات الانسان الواقعي بل خلق ذات الروح الذي ينتهي الى الفكرة المطلقة التي تصير بوصفها ذاتا ــ موضوعا خالقة العالم .

في عالم الفكر ، حيث تمارس فاعلية الانسان في شكل فاعلية روحية ، الانسان ، بوصفه ذاتا مفكرة ، معاد الى وعي الذات ، الطبيعة الى موضوع الوعي ، والعلاقات بين الانسان والطبيعة الى العلاقات التي تقوم بين وعي الذات وموضوعه (٣) .

من هذا التقليص لتطور الانسان والطبيعة الى تطور الفكر ينتج عند هيغل ان خلق الانسان لذاته يكمن لا في التعين الفعلي لكينونته بالشغل بل في واقع ان وعي الذات يتحقق بمعارضة كينونته المجردة باتخاذه ، ولكن في الظاهر فقط ، شكل واقع حسي .

الفكر المجرد فهي تؤلف نفيه تحت شكل الفكر المجرد المنخلع . هذا الفكر ، برجوعه الى اصله ، يجد شكله الاخير في الروح ، التي تحضر بادىء بدء تحت شكلها الخاص ، الانتروبولوجي ، الفينومينولوجي ، السيكولوجي ، الاخلاقي ، الاستيطيقي ، الديني ، الى أن تنال ، بوصفها روحا مجردة مطلقة ، في العلم المطلق ، اسلوب الوجود المتفق مع كينونتها . »

(١) ص ١٥٤ . « حين هيغل يتصور مثلا الثروة وسلطة الدولة ، كتعبيرين عن جوهر الانسان المنخلع ، فانه لا يفعل ذلك الا تحت شكلهما المفهومي . ليسا عنده سوى مفهومين ، انخلاعين للفكر المحض ، للفكر الفلسفي المجرد . » .

(٢) ص ١٥٤ . « كل تاريخ الانخلاع وحذف الانخلاع ليس شيئا اخر سوى تاريخ الفكر المجرد ، المطلق ، تاريخ الفكر المنطقي ، النظراني . »

(٣) صص ١٥٤ ــ ١٥٥ . « الانخلاع ، الذي اليه يعاد تخرج الجوهر الانساني وحذف هذا التخرج ، قوامه التعارض بين في ــ الذات و للذات ، بين الوعي ووعي الذات ، بين الموضوع والذات ، أي التعارض بين الفكر المجرد والواقع المحسوس ، منظورا اليه هو نفسه (الواقع المحسوس) في ميدان الفكر . كل التعارضات الاخرى وكل حركات هذه التعارضات ليست الا ظاهر وغلاف وشكل هذه التعارضات الجوهرية التي تعطي التعارضات الاخرى معناها الحقيقي . ليس واقع ان الانسان يحقق كينونته بكيفية لاانسانية ، بشكل معاكس لجوهره ، هو الذي يؤلف بالنسبة لهيغل الانخلاع وباعث الفاله ، بل واقع أن الجوهر الانساني ، المقلص الى الفكر المجرد ، يتخرج متمايزا عن الفكر المجرد ومعارضا اياه . »

هذا التحوّل لتعين الكينونة الانسانية الفعلي الى تخرج للفكر له كنتيجة ان كل انخلاعات الكائن الانساني ليست الا انخلاعات وعي الذات الحاصلة في الفكر (١) وان التملك الواقعي للعالم من قبل الانسان يتحول الى تملك هذا الاخير تحت شكل مفهومي من قبل الروح (٢) .

هذا يفسر طابع الواقع الموضوعي ، الحسي ، عند هيغل . بما أن الانسان محوّل الى وعي الذات ، وتخريج كينونته الى تخريج الوعي ، وبما أن منتوجات الفاعلية الانسانية تتخذ هكذا شكل مفاهيم ، فان الواقع الحسي يتحول الى واقع روحي والوعي الحسي الذي بواسطته يدخل الانسان في علاقات مع الواقع الموضوعي يتخذ شكل وعي حسي مجرّد .

بما ان الموضوعات الواقعية وتملكها محوّلة الى تعبيرات ولحظات للفكر ، فان النتيجة الاخيرة لتطور الروح هي وحدة الهوية التي تقوم بين الذات والموضوع ، بين الفكر والكينونة ، الهوية الواحدة التي تجد تعبيرها في الفكرة المطلقة وفي أسلوب وجودها وفاعليتها ، العلم المطلق .

ان الغاء الواقع الموضوعي في العلم المطلق يجر معه حذف كل علاقة للروح مع العالم العيني وبذلك ذاته الانتقال عنده من سلوك فاعل الى سلوك متأمل . ان العلم المطلق ، حيث الفكر الذي لم يعد مندارا نحو العالم الخارجي يتحرك داخل نفسه ،

(١) ص‌ص ١٥٥ ـ ١٥٦ . « ان تملك القوى الانسانية المعين عيانيا في موضوعات صارت غريبة عن الانسان هو تملك لا يتحقق الا في الوعي ، في الفكر الخالص ، اي في التجريد ، تحت شكل مفاهيم وحركات مفاهيم ...

ان مطالبة الانسان بالعالم العياني ، المؤسسة على الاعتراف بالواقع الموضوعي لهذا العالم ، على الاعتراف مثلا بحقيقة أن الوعي الحسي ليس وعيا حسيا انسانيا ، أن الدين والثروة ليسا سوى اشكال منخلعة لتعين قوى الانسان الواقعية ... تظهر عند هيغل تحت شكل مروحن . العالم الحسي ، الدين ، سلطة الدولة ، محولة الى كائنات روحية ، اذ ، بالنسبة له ، الروح وحدها هي كينونة الانسان الحقيقية ، والشكل الحق للروح هو الروح المفكر ، الروح المنطقي ، النظراني . ان الطابع الانساني للطبيعة ، للطبيعة التي انجبها الانسان في سير التاريخ ، ولمنتوجات الفاعلية الانسانية، ينجم عنده عن كونها منتوجات الروح المجرد ، لحظات هذا الاخير ، مفاهيم . »

(٢) ص ١٥٨ . « الجوهر الانساني ، الانسان ، يجعلهما هيغل مماثلين لوعي الذات . وهكذا ليست كل انخلاعات الانسان سوى انخلاعات لوعي الذات . هذا الانخلاع ليس انعكاس الانخلاع الواقعي للكائن الانساني في المعرفة ، في الفكر . الانخلاع الحقيقي (عند هيغل ـ ا.ك.) ... ليس الا تظاهرة الجوهر الانساني مفهوما على انه وعي ذات . العلم الذي يقبض عليه ويصفه تحت هذا الشكل يدعى اذا فينومينولوجيا (ظاهراتولوجيا) . كل اعادة تملك الانسان لكينونته المنخلعة تحضر هكذا في شكل تملك من قبل وعي الذات ، حيث ان الانسان الذي ياخذ فعليا حيازة كينونته ليس سوى وعي الذات الذي يتملك الواقع . »

هو نقطة الذروة في الفلسفة الهيغلية (١) .

في هذه السيرورة ، سيرورة خلق الروح لذاته ، المادة ، مادية العالم ، تؤلف بالنسبة له عنصرا غير مطابق ، متخالف ومتنافر معه . فاسترجاعه لكينونته المخرّجة لا يمكن أن يحصل الا اذا كان هذا التخرج لا يتحقق في موضوع عياني ، اذ في هذه الحال يتحول تخرجه الى تغرب واستلاب وانخلاع . ان الطابع الموضوعي ، العياني ، لتخرج الروح ، ملغى بواقع ان الروح يتخرج لا في شكل موضوع واقعي بل في شكل شيء مجرد ، في شكل شيئية ليس فيها أي محتوى عياني وأي طابع واقعي (٢) .

رغم ان الشيئية ، بوصفها موضوعا ، تظهر شيئا ما مختلفا عن الذات ، عن وعي الذات ، فانها لا تملك بذاتها أي واقعية ، حيث انها ليست الا الهيئة الاخرى لوعي الذات الذي يعارض نفسه (يضع نفسه مقابل نفسه) في شكل موضوع . وبالتالي فان التعارض بين الذات والموضوع ، بين وعي الذات والشيئية ، الذي يبقى داخل الفكر ، ليس الا ظاهريا . بدلا من أن تكون هي تأكيد واقعية الموضوع الخاصة ، الشيئية لا تخدم الا لتأكيد واقعية وعي الذات الذي اذ يخلقها يمنحها ، للحظة ، دور كائن ظاهرا موضوعي ومستقل عنه (٣) .

بوصفها تخريجا لوعي الذات ، الشيئية لها بالنسبة اليه قيمة ليس فقط

(١) ص ١٥٦ . « كما ان الموضوع هو كائن روحي ، فالذات هي دوما وعي ذات ، الموضوع لا يظهر الا في شكل وعي مجرد أي في شكل موضوع مجرد لوعي الذات ، والانسان في شكل وعي الذات . ان مختلف تظاهرات الانخلاع ليست ، بحكم ذلك ، سوى الاشكال المختلفة التي يرتديها وعي الذات وموضوعه . بما أن الوعي الحسي ـ الشكل الذي فيه يتصور الموضوع ـ ليس الا لحظة في تمايز وعي الذات ، فان نتيجة تطور وانبساط العلاقات بين وعي الذات وموضوعه ، الوعي المجرد ، هو تماثلهما الذي يتحقق في العلم المطلق ، في الفكر المجرد الذي لم يعد متجها نحو العالم الخارجي بل هو يتحرك في نفسه ، هذا الناتج الاخير هو جدل الفكر الخالص . »

(٢) ص ١٥٧ . « الامر الجوهري هو أن موضوع الوعي لا يختلف عن وعي الذات ، انه ليس سوى تخرج هذا الاخير ... ما يهم ، بالتالي ، هو الغاء الطابع العياني لموضوع وعي الذات . بما ان الموضوعية هي عنصر لا يمكن ان يتفق مع جوهر الانسان المعاد الى وعي الذات ، فان اعادة تملك الجوهر الانساني ، اعادة تملك وعي الذات ، الذي تخرج في شكل الانخلاع ، لها كشرط ليس فقط الغاء الانخلاع بل ايضا الغاء الموضوعية ، وهذا يستجيب لطابع الانسان المتصور ككائن روحي خال من كل عنصر عياني . »

(٣) صص ١٥٩ ـ ١٦٠ . « ان وعي الذات اذ يتخرج يضع الشيئية ... من الجلي ان وعي الذات اذ يتخرج لا يستطيع ان يخلق موضوعا واقعيا ، بل فقط الشيئية اي شيئا ما مجردا ، تجريدا . وليس أقل بداهة أن الشيئية لا تستطيع ان تمثل شيئا ما جوهريا ومستقلا بالنسبة لوعي الذات ، وانها بما انها مخلوقة من قبله فانها ليست تأكيد ذاتها بل هي فقط تظاهر الفعل الذي به يتثبت وعي الذات مؤقتا في منتوجه معيرا اياه ، ولكن للحظة فقط ، دور كائن مستقل وواقعي . »

سلبية بل أيضا ايجابية ، لانها تحمل اليه الدليل على أن الموضوعية ليس لها محتوى واقعي وان الموضوع الناتج عن تخريجه ليس مختلفا عنه وانه هو جوهر الواقع (١) .

بما أن انبساط وعي الذات هو هكذا سيرورة محض روحية ، من جراء حذف الطابع العياني للموضوع وتقليص خلق الانسان لذاته الى خلق الروح لذاته ، فان اسلوب فاعليته قوامه العلم savoir ، حيث يتخرج بمعارضة نفسه .

ان كيفية تأكيد ذاته في ضده هذه تعلل الطابع والدور الفريدين لنفي النفي في فلسفة هيغل .

هيغل رأى فعلا أن نفي النفي ، مبدأ الجدل ، يؤلف أسلوب تأكد وخلق كل كائن ينبسط ويتطور بالنفي المتتابع لكل تحديداته ، ولكن عنده تحصل حركة نفي النفي في ميدان الفكر وهي ليست الا الشكل النظري والمجرّد للصيرورة المقلّصة الى انبساط الروح (٢) .

عدا عن ذلك ، ان هذه الحركة مزيفة ، مصوّفة ، بكون نفي النفي لا يؤلف تأكيد الكائن الحقيقي بنفي هيئته الوهمية ، المنخلعة ، بل بالعكس يؤول الى تثبيت الكائن المنخلع بنفي الكائن الحقيقي .

هذا يحصل بأسلوب حذفي خاص ، فيه ما ينفى ، ما يلغى ، هو في الوقت نفسه مبقى بارتفاعه الى مستوى وجودي أعلى يتيح له بلوغ أسلوب كينونته الحق . هكذا الدين ، الذي ينفى بوصفه انخلاعا للوعي الانساني الذي تعبيره الحقيقي هو الفلسفة ، يقام ثانية برفعه على الصعيد الفلسفي حيث يتخذ شكل فلسفة الدين (٣) .

بما أن ما ينفى بالنفي هو بالواقع مبقى بنفي النفي ، لذا لا يوجد عند هيغل حركة جدلية حقة وبذلك عينه تقدم حقيقي . هذا يفسر ايجابيته الكاذبة التي

---

(١) ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٢) ص‌ص ١٥٢ — ١٥٣ . « بتصوره نفي النفي في هيئته الايجابية على انه الشكل الحقيقي للواقع ، وفي هيئته السلبية على انه الفعل الذي به يتأكد وينبسط كل كائن ، لم يجد هيغل سوى التعبير المجرد ، المنطقي ، النظراني ، لتطور التاريخ ، الذي ليس عنده بعد التاريخ الواقعي للانسان الذي يؤلف ذاته (فاعله) ، بل هو فقط تاريخ الكيفية التي بها الانسان يخلق نفسه . »

(٣) ص ١٦٤ . « ان كون الجوهر الحقيقي للواقع عند هيغل لا يظهر الا في شكله الفلسفي يفسر انه كما ان الوجود الحقيقي للدين هو فلسفة الدين ، كذلك فان الوجود الحقيقي للحقوق هو فلسفة الحقوق والوجود الحقيقي للطبيعة هو فلسفة الطبيعة والوجود الحقيقي للانسان هو فلسفة الروح » . ايضا ص ١٦٥ .

تخدمه ، بوصفه مفكرا محافظا ، في تسويغ النظام القائم ومؤسساته (١) .
في هذه الحركة الجدلية ، حيث سيرورة خلق الانسان لذاته معادة الى انبساط الروح المجردة ، ان تخرج قوى الانسان العيانية في شكل الانخلاع مقلص الى شكل النفي المجرد ، ان حذف الانخلاع ، المعتبر تحت هذا الشكل ، شكل النفي المحض ، المفرغ من كل محتوى واقعي ، هو نفسه حذف محض شكلي ، قوامه نفي النفي . وفاعلية الانسان العينية المنقولة على صعيد الفكر تتحول هكذا الى حركة مجردة ، الى نفييَّة (سلبية) محضة ، متصورة كفاعلية مطلقة (٢) .

ان محتوى هذه الفاعلية محض الشكلية قوامه المقولات المنطقية ، التي فيها كل واقع محذوف تجريديا ، والتي بما أنها مفروزة هكذا عن الواقع فهي لا مبالية ازاءه. هذه المقولات ، التي يعتبرها هيغل اللحظات الجوهرية لحركة الروح ، ليست بالواقع سوى تعبير الانخلاع الكامل للانسان المقلص الى الفكر المجرد (٣) .
الروح ، اذ تجد نفسها ثانية بتمامها في الموضوعية المحوّلة الى لحظات للفكر ، تؤلف كل الواقع ، وحركتها ، التطور الجدلي ، تنبسط بحكم ذلك فقط في التجريد، وليست هكذا سوى الشكل المجرد لتطور التاريخ (٤) .
ان ذات (حامل sujer) الحركة الجدلية هي الفكرة المطلقة التي ، اذ تحوي في نفسها كل الواقع ، تصير ذاتا ــ موضوعيا مقحما في سيرورة تطور ازلية . هذا التطور ليس ، مع ذلك ، الا ظاهريا ، اذ أنه ، بما ان الفكرة تكتفي بأن تسترجع في ذاتها ما تخرّجه ، حركة دائرية ، رجوع على الذات (٥) .

اذ صارت لا مبالية ازاء كل تحديد (تعيين) واذ تتصور نفسها كتجريد ، الفكرة المطلقة ، واعية عدمها ، مساقة الى اتخاذ محتوى محدد . وهي تفعل ذلك ، باحلالها محل جوهرها الكلي محتوى خاصا ، هكذا تبلغ واقعا يؤلف ضدها ، تبلغ الطبيعة

(١) ص ١٦٤ . « هنا مصدر ايجابية هيغل الكاذبة ، نقديته التي ليست الا ظاهرية . هذه الايجابية (الوضعية) الكاذبة ، التي بين فويرباخ انها قائمة في كون هيغل بعد ان وضع ثم نفى الدين واللاهوت ، يعيدهما ، يبدو لنا من الواجب فهمها وتصورها في هيئتها العامة . عند هيغل ، العقل ليس منخلعا في اللاعقل معتبرا كالاعقل . هكذا ، في منظومته ، الانسان ، الذي يعترف بانه يعيش في ميدان القانون والسياسة وجودا منخلعا ، لا ينفك مع ذلك يعيش حياته الحقة في اطار هذا الوجود المنخلع . هذا التاكيد ، هذا التثبيت للانسان في تناقض مع نفسه ، في مجال العلم كما في مجال الحياة الواقعية على حد سواء ، يؤلف بالنسبة لهيغل العلم الحق والحياة الحقة . لا يمكن ، بالتالي ، ان نتحدث عن توفيق من هيغل مع الدين والدولة ، اذ ان هذه الاكذوبة ناجمة عن منظومته » .
(٢) ص ١٦٨ .
(٣) ص ١٦٨ .
(٤) ص‌ص ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٥) ص‌ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

التي كانت الفكرة تحويها في شكل تجريد ، والتي تظهر الآن بوصفها هيئتها العينية ، الحسية . هذا يحدد عند هيغل الانتقال من المنطق الى فلسفة الطبيعة ، اي الانتقال من التجريد الى التأمل Contemplation (١) .

بدلا من ان يكون لها طابع مجرد فقط ، كما في المنطق ، تمثل الطبيعة ، في فلسفة الطبيعة ، بوصفها شكل الفكرة الحسي . الكائنات التي كان الفيلسوف النظراني يحسب انها انجبت بالتجريد المحض ، تظهر له الآن في شكل تحديدات (تعيينات) للطبيعة . وهكذا باظهارها له مجردات المنطق في شكل حسي ، تكون الطبيعة بالنسبة له تثبيتا لهذا المنطق .

بما ان الطبيعة ليست ، بالنسبة للفلسفة النظرانية ، ذات معنى الا من حيث هي تظاهر الروح ، فان الطابع الموضوعي الذي هو خاصتها والذي هو نفي الروح ، يشكل بالنسبة لها عيبا لا دواء له . لما كان الروح جوهر العالم ، فان الطبيعة ، معتبرة في ذاتها ، خارج الروح ، هي بلا واقعية حقيقية وهي ملغاة كطبيعة (٢) .

ان ميدان الروح الحق ، تجليه الحقيقي ، هو التاريخ الانساني . مع تجاوز الطبيعة وبلوغ الروح الى وعي ذاتها ، بجريان التاريخ ، يبدأ عهد العلم المطلق ، جدل الفكر الخالص (٣) .

المادية الجدلية والتاريخية

هذا التصور المثالي للعالم ، ماركس يعارضه بتصور مادي ينضجه من وجهة نظر المصالح الطبقية للبروليتاريا ، التي تتطلب ، ليس ببساطة تحويلا للعالم على الصعيد الروحي بتفهم معقوليته وقوانينه ، بل التغيير الجذري للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

بروحنة الانسان والطبيعة ، هيغل صوف ، مع تصويفه طابعهما الواقعي ، وحدتهما العضوية ، وبالتالي لم يتغلب فعليا على الثنائية التي تضع الذات في معارضة الموضوع والفكر في معارضة الكينونة والنظرية في معارضة الممارسة . اذ صوف الحركة الجدلية ، المعادة الى حركة المفاهيم ، هيغل لم ينجح ايضا في اعطاء تفسير واقعي للتاريخ ، المحول الى تاريخ الروح ، الى ميثولوجيا أفكار .

مثل هيغل ، ماركس يتصور تطور الانسان ، المعتبر في علاقاته مع الطبيعة ،

---

(١) ص ١٦٩ .

(٢) ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣) ص ١٧٢ . في رسالة الى فر. انجلس بتاريخ ١٨٥٨/١/١٤ (انظر ميفا ، ٣ ، جـ٢ ، ص ٢٧٥)، ماركس اخبره عن نيته القيام بتحليل لمنطق هيغل ، بقصد تبيان طابعه العقلي ، المحجوب تحت هيئة مصوفة ، ولكنه لم يحقق هذا المشروع في يوم من الايام .

على انه سيرورة انخلاق ذات طابع جدلي وتاريخي ، ولكنه ، بعكس هيغل ، يرى فيها سيرورة عيانية ، مادية ، تنجبها الفاعلية العملية ، ينجبها شغل الانسان .

ان أساس هذا التصور هو الفكرة الفويرباخية القائلة ان الطبيعة والانسان هما واقع موضوعي ، ولكن ماركس ، بخلاف فويرباخ ، يعتبرهما في العلاقات الجدلية التي تقوم بينهما بالفاعلية الانسانية .

من هذا التصور للانسان وللطبيعة وللفاعلية العملية المفهومة كأداة خلق ذاتي للانسان ، ماركس يخرج تصوره المادي والجدلي والتاريخي للعالم .

رافضا أنسنة الانسان الهيغلية بالطريق النظراني ، بالفكر ، والجدل الروحاني الذي يترك الانخلاعات التي تزعم الغاءها باقية في الواقع ولا يؤول الى اي تحويل واقعي للعالم ، ماركس يحل محلهما انسنة الانسان الواقعية بواسطة الفاعلية العملية، بواسطة الشغل ، وجدلا ماديا يبين كيف يحقق الانسان فعليا كينونته مع تحويله الطبيعة .

على حد قوله ، اذا اعتبرنا الانسان والطبيعة في واقعهما العياني واذا وضعنا كذات للفاعلية الانسانية لا هذا التجريد للانسان الذي هو وعي الذات بل الانسان الواقعي ، العياني ، ذا قوى مادية ، وكموضوع لفاعليته الطبيعية المحسوسة ، عندئذ لا نتعامل مع ذات مجردة نتاجها هو بالضرورة مجردات ، بل مع ذات واقعية ، مع ذاتية القوى العينية للانسان ، الذي نتاجه موضوعات عيانية ، خارجة ، هي عناصر حياته الجوهرية .

الانسان يفعل بصورة عيانية ، لانه ، بطبيعته ، كائن عياني ، والطابع العياني لفاعليته يثبت طبيعته ليس غير . (١) . بالطابع العياني لفاعليته يتأكد الانسان كانسان . فبقدر ما هو كائن عياني ، حسي ، بقدر ما له خارجه موضوعات عيانية هي في آن عناصر محددة لفاعليته ومنتوجات لهذه الفاعلية ، وبقدر ما هو للبشر الآخرين موضوع حسي ، بقدر ذلك هو كائن واقعي . هذا هو ، على اي حال ، الشرط العام لوجود كل كائنات الطبيعة . هكذا فالشمس بالنسبة للنبات موضوع لا غنى عنه ، لانها مصدر حياته ، كما ان النبات بالنسبة للشمس موضوع لا غنى

---

(١) ص ١٥٩ . « ان وعي الذات وهو يتخرج يضع « الشيئية » ... بما ان الذات ليست الانسان الواقعي ... بل تجريد الانسان ، وعي ذات ، فان الشيئية بوصفها تخريجا لوعي الذات لا يمكن الا ان تكون متماثلة مع هذا الاخير . من الطبيعي تماما ان يضع كائن حي ، طبيعي ، ذو قوى عيانية وبذلك ذاته مادية ... من الطبيعي ان يضع بتخريج كينونته عالما من موضوعات واقعية ، يحضر له في شكل الخارجية، اي في شكل عالم موضوعي ، غريب عنه ويهيمن عليه . ليس ثمة هنا شيء مدهش او خفي ، العكس يكون كذلك » .

عنه ايضا كتجل لقدرتها الخالقة (١) .

ان يكون ذاتا عيانية ، ان يكون له موضوعات خارجه وان يكون في الوقت نفسه موضوعا لغيره ، تلك هي شروط تحقق الانسان بتموضع كينونته (٢) .

في عرضه سيرورة خلق الانسان لذاته ، ينطلق ماركس من تحليل لاسلوب فاعليته مقارنا بأسلوب فاعلية الحيوان .

الانسان مثل الحيوان كائن طبيعي يعيش باديء بدء وجودا محدودا ومؤلما لان موضوعات حاجاته ورغباته تمثل له كموضوعات مستقلة وغريبة (٣) .

هذه المحدودية وهذا العذاب يلعبان ، مع ذلك ، دورا جوهريا في تطور حياة الانسان ، لانهما بالنسبة اليه حوافز تحثه على تطوير الطاقات والقوى التي تمكنه من تحويل الطبيعة بغية تكييفها مع حاجاته (٤) .

فبخلاف الحيوان ، ليس الانسان كائنا طبيعيا فقط ، انه كائن طبيعي انساني ، قادر على استخدام كل ملكاته ، في سبيل تحقيق غاياته بواسطة فاعلية واعية وحرة. من هنا تنجم الدلالة المختلفة التي تتخذها الطبيعة بالنسبة للحيوان وبالنسبة للانسان والفرق الاساسي في موقفهما وسلوكهما ازاءها .

محروما من العقل ، الحيوان لا يعي ما يفرقه عن بيئته ولا التعديلات التي يجلبها اليها . متطابقا في الهوية مع فاعليته الغريزية ، المكيفة سلفا مع اسلوب وجوده الخاص ، انه بهذه الفاعلية مستوعب بكيفية مباشرة في الطبيعة التي لا يستطيع تحويلها . حتى حين يستطيع بناء مسكن ، وهكذا العصفور والنملة والنحلة

---

(١) ص ١٦٠ . « حين الانسان الواقعي ، العياني ، الثابت بقوة على الارض والمطبوع بكل قوى الطبيعة ، حين يخرج قواه الواقعية ، العيانية ، في شكل موضوعات تظهر له غريبة ، فان الذات القائمة بهذا العمل ليست فعل الخلق المعتبر بكيفية مجردة ، بل هي ذاتية القوى العيانية التي لعملها بالضرورة طابع عياني . ان كائنا عيانيا انما يفعل بطريقة عيانية ، ما كان ليفعل هكذا لو لم يكن بالجوهر كائنا عيانيا . انه لا يخلق ، لا ينتج موضوعات الا لانه هو نفسه محدد من قبل موضوعات ، لانه جزء لا يتجزأ من الطبيعة . اذ يخلق موضوعات ، لا ينتقل من اسلوب فاعلية « خالصة » الى اسلوب عياني في الخلق، ان المنتوج العياني لفاعليته لا يفعل سوى تثبيت طابع هذه الاخيرة التي هي فاعلية كائن طبيعي وعياني ».

(٢) ص ١٦٠ ـ ١٦١ . ص ٨٧ . « الطبيعة ، بقدر ما لا تتطابق مع الجسد الانساني ، هي جسد الانسان غير العضوي . القول بان الانسان يعيش من الطبيعة معناه أن الطبيعة هي جسده الذي معه يجب ان يبقى الانسان على صلات دائمة كي لا يموت . القول بان حياة الانسان الفيزيائية والروحية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطبيعة معناه ان الطبيعة ، في الانسان ، مرتبطة مع نفسها ، فالانسان جزء من الطبيعة . » . بما ان كائنا بلا طابع موضوعي هو كائن غير واقعي ، فان الموضوعية بالنسبة لماركس ليست كما بالنسبة لهيغل عنصرا بالاساس مشوبا بالعيب لانه غير مناسب للروح بل هي بالعكس العنصر الاساسي لتطور الانسان منظورا اليه في علاقاته مع الطبيعة .

(٣) ص ١٦٠ .

(٤) ص ١٦١ .

والقندس ، يبقى خاضعا لنمط فاعلية واحد . انه لا ينتج سوى عدد محدود من الموضوعات ، حسب حاجات النوع الذي اليه ينتمي ، وهو يفعل ذلك بكيفية واحدة رتيبة تحت سلطان الضرورة وفي منظور استخدامها المباشر (١) .

مختلف تماما سلوك الانسان الذي ، اذ يخضع فاعليته لعقله وارادته ، يخلق ، بتحويله الطبيعة ، عالما هو عالمه . كالحيوان ، الانسان يعيش من منتوجات الطبيعة ، ولكنه ، بعكس الحيوان الذي يجد بصورة مباشرة في الطبيعة كل ما يحتاجه لكي يعيش ، يحولها لجعلها ملائمة لحاجاته . منتجا هكذا حياته ذاتها بفاعليته الواعية التي تسمح له بتحقيق كينونته ، الانسان يعدل في الوقت نفسه بشكل متزايد العمق العلاقات التي تربطه بالطبيعة . بينما الطبيعة تبقى للحيوان شيئا ما خارجيا وغريبا وتحافظ بالنسبة له على شكلها الاول ، فهي بالنسبة للانسان تفقد تدريجيا هذا الطابع وهذا الشكل ولا توجد بالنسبة له اكثر فاكثر الا بقدر ما تحول و « تؤنسن » بشغله (٢) .

ليس هذا التحويل للطبيعة ممكنا الا بفضل المعرفة الكلية التي يكتسبها الانسان عنها وتطور التقنية المؤسس على هذه المعرفة والذي يتيح للانسان ان يفعل فيها بصورة مجدية .

بما ان الانسان بعكس الحيوان له ملكة التعرف على طبيعة الاشياء فانه يستطيع ان يوسع تنقيباته وفاعليته الى ما وراء ما هو ضروري له مباشرة ، لتلبية حاجاته الابتدائية . واذ هو قادر ، بفضل معرفته العامة للعالم ، على توجيه فاعليته بطريقة عقلية ، فانه ينتج بصورة لا رتيبة كالحيوان بل متنوعة الى ما لا نهاية مطبقا على كل موضوع المعيار الذي يناسبه (٣) .

في حين ان الحيوان لا ينتج الا عددا محدودا من الموضوعات ، تحت تأثير الضرورة المباشرة ، تحت ارغام الحاجات الفيزيائية ، فان الانسان ، اذ يوسع على كل الطبيعة مجال فاعليته ، يميل الى الانتاج وراء ما هو ضروري له مباشرة . وهو بالحقيقة لا ينتج فعلا وانتاجه لا يتخذ الطابع الكلي الذي يتفق مع طبيعته الانسانية

(١) ص ٨٨ .

(٢) ماركس يفترق في آن عن هيغل وروسو والرومانطيقيين في تصوره للطبيعة . الطبيعة مفهومة بشكل مجرد على طريقة هيغل هي بالنسبة له العدم . من جهة اخرى ، بعكس روسو والرومانطيقيين ، انه لا يعتبر الطبيعة في ذاتها بل بالنسبة الى النشاط الانساني ، انها لا تعنيه الا بقدر ما يحولها هذا النشاط فتصير نتاج عمل الانسان ، تعين قواه الخالقة ، تحقق كينونته عيانيا . ص ١٧٠ . « الطبيعة متعتبرة في ذاتها ، بطريقة مجردة ، خارج الانسان ، هي لا شيء بالنسبة له » . ص ١٢٢ . « الطبيعة كمايخلقها الانسان عبر التاريخ ... هي الطبيعة الحقة بالنسبة للانسان » .

(٣) ص ٨٨ . « الحيوان لا ينتج الا بمقياس وحسب حاجات النوع الذي ينتمي اليه ، بينما الانسان يستطيع ان ينتج بمقياس اي نوع من الانواع وان يطبق على كل موضوع المقياس الملازم له » .

الا حين يتحرر من الخضوع للحاجات الفيزيائية ويفلت من أسر التحديدات والارغامات التي تفرضها عليه (١) .

هذا الطابع الواعي والكلي لنشاطه يتفق مع الطابع النوعي ـ العام générique للانسان ، مع طابع النوع الانساني الخاص espèce ، الذي يتميز بجوهره الكلي الكوني عن الانواع الحيوانية (٢) .

هذا الطابع الكلي للفاعلية الانسانية تستجيب له كلية ميدانها . ففاعلية الانسان تتسع لمجموع الطبيعة ، التي يشتق منها ليس فقط ، كالحيوان ، ما هو ضروري لبقائه الفيزيائي ، بل ايضا ما يخدمه كمادة وأداة شغل ، عناصر فاعليته العملية والنظرية (٣) .

بانتاجه عالما من الموضوعات التي تحمل وسم شخصيته والتي فيها يموضع كينونته ، يخلق الانسان نفسه بشغله .

في سيرورة الانخلاق هذه ، التي خلالها يحول اكثر فاكثر العلاقات المباشرة القائمة في الاصل بينه وبين الطبيعة الى علاقات مع نتاج شغله ، مع الموضوعات التي يخلقها ، هذه الموضوعات تذوت (sont subjectivés تصير ذاتية ، تكتسب الطابع الذاتي) باستيعابها في سيرورة الانتاج الذي يجعلها تعين الكائن الانساني ، بينما الانسان يموضع فيها قواه الخالقة .

بهذا التذوت للموضوع الذي وان كان معارضا للانسان فقد تعرض لنفوذ ماهيته بوصفه تعين قواه وبهذا التموضع للانسان فيه ، تتحقق واقعيا الوحدة العضوية للذات والموضوع ، للانسان والطبيعة التي تصير اكثر فأكثر صورة ، انعكاس خلق الانسان لذاته .

كما ان الطبيعة بتحولها تدريجيا الى عالم مخلوق من قبل الانسان لا تبقى اكثر فاكثر ذات معنى الا بالنسبة الى الانسان الذي ينتجها من جديد ، كذلك الانسان لا يبقى اكثر فاكثر ذا معنى الا بالنسبة الى الطبيعة التي يحولها والتي هي اداة تحوله ذاته .

بتعين كينونته في منتوج شغله ، يصل الانسان الى المعرفة المليئة لذاته ، وهو

---

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ١٦٢ . « ليس الانسان فقط كائنا طبيعيا ، انه كائن طبيعي انساني ، اي ... كائن نوعي ـ عام ، يجب ان يؤكد نفسه ككائن نوعي ـ عام في سلوكه وبعلمه على حد سواء » . ص ٨٧ . « الانسان يتظاهر ككائن نوعي ـ عام ليس فقط بجعله نوعه والانواع الاخرى موضوع فاعليته العملية والنظرية ، بل ايضا ... باعتباره نفسه تجسيد النوع الانساني وبتصرفه على هذا الاساس ككائن كلي وحر » . ص ٨٨ « بخلقه العملي لعالم موضوعي ، بتحويله الطبيعة غير العضوية ، يؤكد الانسان نفسه ككائن يعتبر ان النوع يتجسد فيه كما أنه تجسيد النوع » .

(٣) ص ٨٧ .

يثني نفسه ليس فقط فكريا في الوعي ، بل ايضا عمليا ، واقعيا ، في الموضوعات التي ينتجها ، آخذا بواسطتها وعي قوته الخالقة التي تمكنه من تحويل العالم ومتعرفا على نفسه في العالم الذي يخلق .

هذا التحويل للطبيعة يحصل في آن معا بالفاعلية العملية ، بالانتاج ، الذي يتيح للانسان اعادة انتاج الطبيعة لتصير ملائمة لحاجاته ، وبالفن الذي يولد حين يسهل تقدم الانتاج تملكا كليا للطبيعة من قبل الانسان والذي بفضله الانسان يعيد انتاج (= ينسخ reproduit) الطبيعة في ملامحها الجوهرية (١) .

ان عمل الانسان في الطبيعة تحدده تلبية حاجاته . ان صلة الحاجة بالموضوع الذي فيه تجد اشباعها تحدد مع تحديدها علاقات الانسان مع الطبيعة صلاته مع البشر الآخرين . اذ بالوساطة بين الحاجة وموضوعها التي تقوم بواسطة الشغل يتجاوز الانسان المباشرية في علاقاته مع الطبيعة ويدخل البشر في صلات فيما بينهم بشفاعة اعمالهم ، صلات ترتدي شكل علاقة ذات الى ذات بوساطة الموضوع .

ان تأنيس الانسان او نزع انسيته بالفاعلية يتوقف على طبيعة الحاجات التي يريد تلبيتها . في حين ان تلبية حاجات باطلة ، كحاجة المال التي ينجبها نظام الملكية الخاصة ، تدفع الى البحث عن ثروات كاذبة والى خلقها وبذلك عينه الى نزع انسانية الانسان ، فان تلبية حاجاته الحقة تؤدي الى تأنيسه التدريجي . اذ بتلبية الحاجة الجوهرية التي هي بالنسبة للانسان ان يكون نفسه بشكل مليء ، وهو ينمي انسانيته وانسانية البشر الآخرين ، تتفتح كل الحاجات الانسانية ويخلق الانسان نفسه في امتلاء كينونته (٢) .

نرى هكذا كيف يتميز ماركس عن هيغل وعن الاقتصاديين في تصوره لتشكل الانسان . الانخلاق الهيغلي للانسان الذي يتساوى مع الكون وهو يفكره من جديد ، تأنسنه ببلوغه وعي ذات اكثر فاكثر رفعة بفضل معرفة للعالم اكثر فاكثر عمقا ، يعارضهما ماركس بانخلاق الانسان بالفاعلية العملية ، بالشغل ، الذي يعطيه طابعا مختلفا تماما .

اجل هيغل يتصور هذا الانخلاق كانبساط جدلي ينجم عن كون الانسان يخلق نفسه بتجاوز دائم للتحديدات والعلاقات التي لا تتفق وكينونته ، تجاوز يجعله يبلغ

---

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ١٢٣ ــ ١٢٤ . « نرى كيف انه محل الغنى والبؤس كما يتصورهما الاقتصاد السياسي ، يوجد الانسان الغني والحاجة الانسانية الغنية . الانسان الغني حقا هو الذي يطمح الى جملة التجليات الانسانية ، الذي يعاني كضرورة داخلية حاجة ان يتحقق واقعيا بشكل مليء . ليس فقط الغنى بل الفقر ايضا يتخذان في الاشتراكية دلالة انسانية وبالتالي اجتماعية . فالفقر يصبح فيهما الرابطة التي توحد الانسان مع الانسان الآخر ، جاعلة اياه يشعر ان حاجته اليه هي ثروته الاكبر » .

تفهما افضل للعالم ولنفسه ، ولكن بما ان هيغل يحذف الموضوعية بروحنة الانسان والعالم ، فان التعارض بين الذات والموضوع ، بين الانسان والعالم ، يعود الى التعارض بين الوعي وموضوعه الذي يجري على صعيد الفكر ، بحيث ان حركة انخلاق الانسان الجدلية تتقلص الى حركة الروح . بما ان ماركس ، بخلاف هيغل ، يعتبر الانسان والطبيعة في واقعهما العياني ، فان الفاعلية الانسانية ، بدلا من ان تتقلص الى فاعلية روحية جوهريا ، تتخذ عنده طابع فاعلية عيانية ، طابع شغل ، يكون أساس العلاقات الانسانية . ولذا فان الانبساط الجدلي الذي يجري على صعيد مادي جوهريا ليس ، كما عند هيغل ، ذا طابع ظاهري ، شكلي ، من جراء ان الواقع الملغى في النظر ليس ملغى في العمل ، بل يرتدي طابعا واقعيا وينتهي الى حذف فعلي لكل ما يعارض تحقق الكينونة الانسانية الكامل (١) .

مع اعطائه ، كالاقتصاديين ، اهمية اولية لفاعلية الانسان العملية ، المنتجة ، ماركس ينفصل عنهم ايضا بتصوره للشغل الذي يجب ان يكون له كهدف لا انتاج الثروات المادية تحت رسم الانخلاع بل اغناء متبادل للبشر بخلق قيم انسانية حقيقية.

ان خلق الانسان لذاته هو ثمرة شغل جماعي ، وله ، بحكم ذلك ، طابع اجتماعي بالضرورة . فالانسان لا يستطيع ان يحقق كينونته بكيفية معزولة ، انه لا يستطيع ذلك الا بتعاونه مع البشر الآخرين ، وهو هكذا ليس انسانيا حقا الا ككائن اجتماعي ، الا بقدر ما يندمج تكامليا في المجتمع (٢) .

ان الطابع الاجتماعي لفاعلية كل فرد ينجم ليس فقط عن واقع أن عناصر فاعليته المادية والروحية على حد سواء (مواد اولية ، ادوات ، تقنيات ، لغة) مقدمة له من قبل المجتمع ، بل ايضا عن واقع أن كل عمله المحدد من قبل المجتمع الذي في اطاره ينبسط يتجه الى تفتح كينونته بأنسنة البشر الآخرين (٣) .

هذه الانسنة تحصل بحركة جدلية هي ، اذ تقود من الذات الى الموضوع وبالموضوع الى ذات أخرى ، تنتهي بتذويت الموضوع الى اقامة علاقات ذاتية وموضوعية في آن بين الذوات وبالتالي باشباع الحاجات الجماعي الى تشكل المجتمع

(١) ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٢) هذا الرفض للفردوية بوصفها انعكاس نمط الحياة المحدد من قبل نظام الملكية الخاصة الذي يضع البشر بعضهم ضد بعض فيجعلهم افرادا منعزلين وانانيين ، كان قد وجد تعبيره في اطروحة الدوكتوراه ، حيث رفض ماركس كل تصور يحول المجتمع الى ذرات ، ثم في المؤلفات التالية ، حيث انتقد الماديين الذين يقاصون كل شيء الى حركات ميكانيكية للذرات والفردوية الفوضوية لـ « المعتقين ».

(٣) ص ١١٦ . « حتى حين أمارس فاعلية علمية ... فان فاعليتي لها طابع اجتماعي ، بحكم كونها فاعلية انسانية . ليس فقط مادة واداة نشاطي ـ بما في ذلك اللغة التي هي اداة المفكر ـ معطاتان لي بوصفهما منتوجين اجتماعيين ، بل ان وجودي عينه هو فاعلية اجتماعية ، اذ ان ما اعمله من نفسي انما اعمله للمجتمع آخذا وعي صفتي ككائن اجتماعي » .

الذي يؤلف العنصر المقرر في خلق الانسان لذاته .

مع تحقيقه لنفسه بأعماله ، بفضل تعاون البشر الآخرين ، يسهم الفرد بها في انسنتهم لانها ليست فقط موضوعات بها يؤكد وينمي شخصيته بل هي ايضا موضوعات بها تتحقق كينونة البشر النوعية ـ العامة ، الجماعة الانسانية (١) .

اذ يستخدم الموضوعات المنتجة من قبل البشر الآخرين (ماكينات ، ادوات ، اعمال فنية) والتي طبعوها بوسم شخصيتهم ، الفرد يغتني بكينونتهم مع اغنائه لهم بالمقابل بالموضوعات التي ينتج ، بحيث ان البشر يتبادلون الاغناء بالعلاقات التي تخلق بينهم بواسطة اعمالهم (٢) .

هكذا في المجتمع فقط ، بالتقدم المتدرج المتوازي لتأنسن الطبيعة الذي يجعل الواقع الموضوعي واقعا انسانيا ولتأنسن البشر الذين يتبادلون الاغناء بأعمالهم ، يحقق الفرد كينونته بشكل مليء واضعا وجوده الخاص في خدمة الجماعة (٣) .

بما ان وجود الفرد مرتبط بالمجتمع ارتباطا لا ينفك ، لذا لا يمكن فصله عن هذا الاخير ولا وضعه في معارضته . فلئن كان الانسان فردا خاصا ، ذا طابع نوعي

---

(١) ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦ . « ان تبادل الفاعلية الانسانية في اطار الانتاج ومنتوجات هذه الفاعلية هو تظاهر الفاعلية النوعية ـ العامة للانسان والروح الانسانية التي تجد تعبيرها العياني والواعي والحق في انسانية ، بوصفهم تجسيدا للنوع الانساني ، يخلقون الجماعة الانسانية ، كينونتهم الاجتماعية . هذه انسانية ، بوصفهم تجسيدا للنوع الانساني ، يخلقون الجماعة الانسانية ، كينونتهم الاجتماعية . هذه الكينونة الاجتماعية ليست قوة مجردة تعارض الافراد ، بالعكس انها مكونة من عين جوهر كل فرد ، من فاعليته ، حياته ، روحه ، ثرواته . ليس من فعل تفكير تولد الجماعة الانسانية الحقة ، انها ثمرة الضرورة التي يطيعها الافراد ، ثمرة انانيتهم ، نتاج فاعليتهم المباشر . ليس متوقفا على البشر ان نوجد او لا هذه الجماعة ، ولكن ، طالما ان الانسان لم ياخذ وعي صفته كانسان ولم ينظم العالم بكيفية انسانية ، فان هذه الجماعة تتظاهر في شكل الانخلاع ، لان ذاتها ، الانسان ، كائن منخلع . البشر ، لا في شكلهم المجرد ، بل كافراد واقعيين ، احياء ، خاصين ، هم الذين يكونون جوهرها ، هي ما هم » .

(٢) ص ١١٩ . « الانسان لا يضيع في موضوعه ، اذا صار هذا الاخير بالنسبة له موضوعا انسانيا ، تعين طبيعته الانسانية ، وهذا غير ممكن الا اذا صار بالنسبة له موضوعا اجتماعيا ، الا اذا تصرف هو ازاءه ككائن اجتماعي ، واذا تجسد المجتمع بالنسبة له في هذا الموضوع . حين في المجتمع ، تصير الموضوعية بالنسبة للانسان تعين القوى الانسانية ، واقعا انسانيا ، وبذلك عينه واقع كينونته ، كل الموضوعات تصير بالنسبة له تعين كينونته ، موضوعات تحقق وتثبت شخصيته ، تصير موضوعاته ، ويصير بذلك هو نفسه موضوعا » .

(٣) ص ١١٦ . « الفاعلية والروح لهما ، فيما يخص محتواهما وانبساطهما على حد سواء ، طابع اجتماعي ، انهما فاعلية اجتماعية وروح اجتماعية . ان جوهر الطبيعة الانساني ليس موجودا الا للانسان الاجتماعي ، ففي المجتمع فقط هي تكون الرابطة بين البشر ، نمط وجود الفرد للاخرين والاخرين له ، العنصر الحي في الواقع الانساني . في المجتمع فقط تشكل اساس الحياة الانسانية ، تصير حياة الانسان الطبيعية وجودا انسانيا ، وتتانسن الطبيعة . هكذا يحقق المجتمع الاتحاد العميق بين الانسان والطبيعة، « طبعنة » الانسان التامة و « تانسن » الطبيعة الكامل » .

وبذلك عينه ذا مفردية تميزه عن البشر الآخرين ، فانه في الوقت نفسه يجسد بفكره وبأفعاله جملة المجتمع الفكرية (١) .

ان تفتح الانسان تفتحا مليئا ، الذي يحصل هكـــذا ب « تطبع » ه ، اي بتعين كينونته في اعماله وبتأنسن الطبيعة الموازي ، ينوسم بتحول حياته محض البيولوجية الى حياة اجتماعية تميزه اكثر فاكثر عن الحيوان (٢) .

ان حلول الحاجات الانسانية المتزايدة الغنـــى والتركيب محـــل الحاجات الحيوانية والعقل محل الغريزة يؤدي الى التوسع الدائم لسلطة الانسان على الطبيعة. من هذا التحرر المتدرج للانسان من سيطرة الاشياء تولد الحريـة التـي لا يحصرها ماركس ، كما يفعل هيغل ، في فعل تحرر روحي بتفهم معقولية العالم ، بل يتصورها فعل تحرر فعلي بالغاء جميع الانخلاعات التي تعارض تحقق الكينونة الانسانية .

مع تأنسن الطبيعة والانسان بالشغل وصير الموضوعات الطبيعيـــة موضوعات انسانية بتحولها الى منتوجات للشغل ، الحواس أيضا تتخذ طابعا انسانيا لم يكن لها في الاصل . طالما الانسان ليس له مع الطبيعة سوى علاقات مباشرة ، حواسه لا تتميز جوهريا عن حواس الحيوان وليست سوى ادوات حياته البيولوجية ، وهي تتأنسن بالقدر الذي فيه يتملك الانسان ، بواسطتها ، الطبيعية المحولة بتموضع قواه (٣) .

ان أنسنة الواقع الحسي والحواس هي نتاج كل تاريخ البشرية . فقد كان من اللازم ان ينشر الانسان كل كينونته في سير تطوره ، كي تنال الحواس طابعا ملائما لكل ثروة الانسان والطبيعة المؤنسنة ، كي ، بتفتح الكائن الانساني ، تصير الاذن حساسة لتناسق الاصوات والعين حساسة لتناسق البنى والاشكال (٤) .

بتصرفها الانساني ازاء موضوعاتها وبأسلوب تملكها هــذه الموضوعات ، صارت الحواس تعبير تأنسن الانسان الذي يتأكد كانسان ليس فقط بالفكر بـل ايضا بكـل حواسه ، الامر الذي يجعل ماركس يقول ان هـــذه الحواس صارت منظرة ، قاصدا

---

(١) ص ١١٦ — ١١٧ . « المجتمع ينتج الانسان بصفته انسانا وهو في الوقت نفسه منتج من قبله .. يجب قبل اي شيء ان نتجنب وضع « المجتمع » كتجريد في وجه الفرد . الفرد هـــو الكائن الاجتماعي ، وجوده ... هو بالتالي تعبير ، تثبيت الحياة الاجتماعية . ليست حيـاة الفرد وحيـاة النـوع مختلفتين احداهما عن الاخرى ...

الانسان ، مع كونه فردا خاصا — وهذه الخصوصية بالضبط تجعله فردا ، فردا واقعيا ، اجتماعيا — يجسد ، في الوقت نفسه ، جملة المجتمع الفكرية idécce ، وجوده الذاتي ... » .

(٢) الشكل الاول والاساسي لانسنة الانسان قوامه ، حسب ماركس ، العلاقات بين الرجل والمراة ، التي لها طابع طبيعي واجتماعي معا (انظر المرجع نفسه ، ص ١١٣) . بنتيجة تطـور الانتاج ، هـذا الشكل الاولي من تانسن متبادل تعمم على الصعيد الاجتماعي ، بخلق علاقات اكثـر تعقيدا بين البشر ، علاقات تقوم بواسطة اعمالهم .

(٣) ص ١٦٢ .

(٤) ص ١٢٠ — ١٢١ .

بذلك انها تترجم على صعيد الوعي الحسي عن تقدم البشرية الذي يجد تعبيره المجرد في الفكر (١) .

ان تأنسن الحواس يحصل بتملكها الموضوع ، الكيفية التي بهـا يتحقق هـذا التملك تتوقف على الطابع الخاص لكل موضوع وعلى الحاسة المتكيفة مـع تملكه . ان خصوصية العلاقة بين الموضوع وأسلوب تملكه تختلف مع كل حاسة ، هكذا فالموضوع للعين ليس نفسه للاذن وأسلوب تملكه من قبل العين يختلف عـن أسلوب تملكه مـن قبل الاذن (٢) .

بالحواس الانسانية ، التي بواسطتها يدخـل الانسان في تماس مـع الطبيعة المحولة من قبله والتي تتفق مع كلية كينونته ، ماركس يعنـي ليس فقط الحواس الخمس بل ايضا الفكر ، التأمل ، الارادة ، اي كل الوسائل التي هي بتصرف الانسان بغية تملك العالم والتي هي ايضا لم تتأنسن تدريجيا الا بانتشار كل ثروة الانسان(٣) .

بما ان كل علاقة للانسان مع العالم قائمة بواسطة الحواس كما بواسطة الفكر ، التأمل والعمل وسلوك هذه ازاء موضوعها ، هي تعبير أنسنة الانسان والطبيعـة معـا بالترابط ، ينجم عن ذلك ان التغير الذي يلحقه الانسان بالطبيعـة يتطلب تعديـلا لاعضائه لا يمكن ان يتخطى ما يشترطه تملك الموضوعات من قبلها .

هذا التأنسن المتدرج للحواس بالتطور الاجتماعي للانسان يفسر طابعها الخاص الذي يميزها عن حواس الحيوان . وهو يفسر ايضا كـون حواس الانسان المؤنسن مختلفة عن حواس الانسان المحروم من انسانيته . هكـذا فحواس الانسان المخضع لحاجات فظة تبقى محدودة وفظة ، واذن الانسان المفتقر الى تربية موسيقية لا تحس الموسيقى ، والانسان المثقل بالهموم لا يملك حس ــ معنى Sens الاشكال (٤) .

ان التحقق الكامل للانسان بانبساط كينونتـه المتناسـق ، بتأنسن حواسه وموضوعاتها ، الذي يمكنه من تأكيد نفسه ليس بالفكر فقط بل ايضا بطريقة حسية، في منتوج فاعليته (٥) لا يمكن ان يحصل في نظـام الملكية الخاصة ، بسبب الانخـلاع العام الذي تنجبه ، من هنا ضرورة استبدال هذا النظام بنظام شيوعي .

ان خلق الانسان لذاته بتحويل الطبيعة يؤلف التاريخ الانساني . بما ان هـذا التاريخ مرتبط ارتباطا وثيقا ، عضويا ، بتاريخ الطبيعة ، ينجم عن ذلك ان كل درجة

(١) ص ١١٨ ــ ١١٩
(٢) ص ١١٩ .
(٣) ص ١١٨ ، ١١٩ .
(٤) ص ١٢٠ ــ ١٢١ .
(٥) ص ١١٩ ــ ١٢٠ .

في تحول الطبيعة توافقها مرحلة في تطور البشرية (١) .

ان العنصر المقرر ــ المحدد في سيرورة خلق الانسان لذاته هــو تلبية الحاجات بواسطة الانتاج الذي يدعوه ماركس بكلمة عامة هي الصناعة (٢) . على هذا الاساس ، ان تطور التاريخ يتطابق في الهوية مع تطور الصناعة التــي بفضلها يجعل الانسان الطبيعة مؤلفه .

ماركس يستعير من الاقتصاديين هذا التصور عــن الاهمية الاوليـة للانتاج ، ولكنه بعكسهم لا يعتبره من وجهة نظر نفعية ضيقة ، اذ يــرى فيـه بشكل خاص وسيلة الانسان لتحقيق كينونته بالشغل .

بتحويلها علاقات الانسان المباشرة مع الطبيعة الى علاقات مــع انتاجه وبخلقهـا هكذا شروط تفتح الانسان تفتحا كاملا ، تترجم الصناعة ، في انبساطها ، عــن التقدم اللامتناهي للانسان في انتشار انسانيته .

ان تقدم الصناعة ، وقد حصل حتى الآن تحت نظــام الملكية الخاصة الـذي لا ينكر ماركس عنه فضل تسهيل تطور التقنية ، قــد سبب تفاقما دائما للانخـلاع الانساني بدلا من الاسهام في أنسنة البشر . في الوقت نفسه ، مــع ذلك ، ان تطـور الصناعة في ظل نظام الملكية الخاصة قد خلق ، بزيادة حدة الصراع الطبقي بين المالكين وغير المالكين ، شروط نضال البروليتاريا الثوري الذي سيحرر البشرية باحلال النظام الشيوعي محل النظام الرأسمالي (٣) .

عن تشكل وتطور منظومة الملكية الخاصة وعــن ضرورة استبدالها بمنظومـة شيوعية ينجم انقسام التاريخ الى طورين كبيرين : طور مــا ــ قبل ــ التاريخ الذي يشمل كل مرحلة انبساط الانسان تحت حكم الانخلاع وطــور اعادة تأنسن وكامـل تحقق الانسان بانبساط كينونته الكلي الذي يعطي التاريخ معناه ومداه .

هذا التصور المادي للتاريخ ، المؤسس على مفهوم انخــلاق الانسان بتحويـل الطبيعة ، في اطار صراعات طبقية هائلة ينتجها نظــام الملكيــة الخاصة ، يعطي ، مــع

---

(١) ص ١٦٢ . « كما ان كل ما هو طبيعي قد تشكل تدريجيا ، كذلك الانسان هو ايضا تشكل عبــر التاريخ ، الذي هو بالنسبة له ، بخلاف ما هو عليه بالنسبة للطبيعة ، انبساط يعيه الانسان ويرتـدي شكل نفي مستمر . التاريخ هو التاريخ الطبيعي الحقيقي للانسان » . ص ١٢٣ . « التاريخ الانسانــي هو جزء فعلي من تاريخ الطبيعة ، انه تاريخ أنسنة الطبيعة » .

(٢) ص ١٢٢ . « الصناعة تمثل العلاقة التاريخية الواقعية التي تربط الطبيعة وبالتالي علوم الطبيعة بالانسان » . ص ١٢١ ــ ١٢٢ . « في الصناعة العادية ، المادية ... لدينـا في شكل موضوعات حسية ، خارجية ازاءنا ومفيدة ، أجل تمثل في هيئة منخلعة ، تعين قوى الانسان » .

(٣) ص ١١٤ . « من السهل ان نرى ان كل الحركة الثورية لها اساسها التجربي الحسي والنظـري سواء بسواء في حركة الملكية الخاصة ، اي في الاقتصاد » .

اعطائه تفسير التطور الاقتصادي والاجتماعي ، تفسير الايديولوجيات التي أنجبها هذا التطور .

بما ان الانسان محدد اجتماعيا في فاعليته العملية وفي فاعليته النظرية سواء بسواء ، ينجم عن ذلك ان ايديولوجياه ، اي أشكال فكره : الدين، الفلسفة، الاخلاق، الحقوق ، العلوم ، ما هي الا انعكاسات تطوره الاجتماعي المحدد بدوره من قبل تطور الانتاج (١) .

بين مختلف أشكال الايديولوجيا ، ماركس لا يعالج بشيء من التفصيل سوى الدين والفن وخصوصا العلوم .

الدين ، الانعكاس الروحي للانخلاع الذي ينجبه نظام الملكية الخاصة ، يضاعف خطورة هذا الانخلاع باضافته الى العبودية التي تثقل كاهل الانسان المستغل خضوعه لله وبتسويغه هذه العبودية بتقديمها على انها اثر الارادة الالهية .

بعكس الدين ، الفن يمثل الشكل الاعلى لتحقق الكائن الانساني ، اذ معه يبلغ نسخ (اعادة انتاج) الطبيعة ، المعتبرة في جوهرها ، أعلى درجة من درجات الكمال . كالدين ، ولكن بكيفية مختلفة ـ فالدين نفي الكينونة الانسانية بينما الفن أعلى تظاهراتها ـ ، الفن يعلل بالتطور التاريخي الذي سمح له بأن يولد وان ينمو بفضل تأنسن الحواس وموضوعها .

في تحليله للعلوم ، يقيم ماركس ترابطا وثيقا بين علوم الطبيعة والعلوم الانسانية، بحكم قاعدتهما المشتركة التي هي التحول الذي يلحقه بالطبيعة شغل الانسان .

ماركس يعتبر ، مع فويرباخ ، ان الطبيعة تشكل أساس كل العلوم (٢) ، ولكنه، بخلاف فويرباخ ، يتصور الطبيعة لا كما تحضر للانسان في شكلها الاول بل بقدر ما تحول بشغله ، بالانتاج ، بالصناعة (٣) .

ان تاريخ الصناعة يعطي ، على حد قوله ، مفتاح تفسير كل العلوم التي لا يمكن ان تفهم الا بالنسبة اليها . لانهم حتى الآن نظروا الى العلوم بشكل مجرد ، خارج علاقاتها مع الصناعة ، لذلك لم يستطيعوا تأسيس علم حقيقي .

---

(١) ص ١١٥ . « الدين ، العائلة ، الدولة ، الحقوق ، الاخلاق ، العلوم ، الفن ، الخ ، ما هي الا أنماط خاصة للانتاج وهي محكومة بقوانينه » .

(٢) ص ١٢٣ . « الواقع الحسي (انظر فويرباخ) يجب ان يؤلف قاعدة كل العلوم . فقط حين ننطلق من هذا الواقع المعتبر في هيئته المزدوجة كوعي حسي وكحاجة عيانية ، فقط حين ينطلق العلم هكذا من الطبيعة ، يكون علما حقيقيا » .

(٣) ص ١٢٢ . « الطبيعة كما تتحول خلال التاريخ الذي هو فعل خلق المجتمع الانساني هي الطبيعة الحقيقية بالنسبة للانسان ، ان الطبيعة المحولة بالصناعة ـ رغم ان هذا التحول جرى حتى الان في شكل الانخلاع ـ هي الطبيعة الانسانية الحقيقية » .

العيب الاساسي لكل العلوم مرده انهم لم يروا ان الانسان هو الموضوع المباشر لعلوم الطبيعة وان الطبيعة هي الموضوع المباشر للعلوم الانسانية وانهم هكذا فصلوا علوم الطبيعة عن علوم الانسان .

فعلوم الطبيعة ليس لها معنى حقيقي الا اذا كان لها كموضوع دراسة الطبيعة المحولة من قبل الانسان واذا كانت ترمي الى تطوير التقنية والصناعة (١) .

رغم التطور الهائل الذي اتخذته ، ظلت العلوم الطبيعية مجردة وناقصة ، بسبب كونها لم تتخذ كموضوع أساسي لدراستها الطبيعة المحولة من قبل الانسان . بالصناعة ، التي سهلت العلوم الطبيعية ازدهارها ، أسهمت فعلا هذه العلوم اكثر فاكثر في تحويل الحياة الانسانية (٢) ، ولكن عليها ان ترتبط ارتباطا اوثق ايضا بالفاعلية العملية للبشر ، كي تصير علوما حقيقية وكي تخدم كقاعدة للعلوم الانسانية.

لئن ظلت العلوم الطبيعية مجردة وناقصة لكونها لم تحسب حسابا للتاريخ الانساني ، فان العلوم الانسانية ظلت كذلك هي ايضا لكونها لم تعتبر ان الطبيعة المحولة من قبل الانسان هي أساس الحياة والفاعلية البشريتين (٣) .

هذا يفسر ان التاريخ قليلا ما اهتم بالتطور الاقتصادي والاجتماعي وحصر اهتمامه او تقريبا في السياسة والدين والادب والفن ، منظورا اليها خارج هذا

(١) ص ١٢٢ . « الصناعة هي الرابطة الحقيقية التي توحد الطبيعة مع التاريخ وبالتالي علوم الطبيعة مع الانسان . حين نعتبرها تخرج قوى الانسان ، نصل الى تفهم الجوهر الانساني للطبيعة والجوهر الطبيعي للانسان . حينئذ تفقد العلوم الطبيعية طابعها المادي المجرد او بالاصح اتجاهها المثالي وتغدو قاعدة العلوم الانسانية ، كما سبق ان اصبحت ـ ولو في شكل الانخلاع ـ قاعدة حياة الانسان العيانية . والحال ، انه لامر متناقض ان نعتبر ان الحياة لها اساس والعلوم لها اساس آخر » .

(٢) ص ١٢٢ .

(٣) ص ١٢٣ . « الانسان يشكل موضوع العلوم الطبيعية المباشر . الطبيعة المباشرة ، المحسوسة للانسان ، هي الواقع الحسي الانساني كما يحضر له في البشر الآخرين . فواقعه ـ هو المحسوس لا يصير واقعا انسانيا بالنسبة له الا بوساطة البشر الاخرين . الطبيعة ، من جهتها ، تشكل موضوع العلوم الانسانية المباشر . فالموضوع الاول بالنسبة للانسان هو الانسان الذي هو كائن طبيعي ، حسي ، وقوى الانسان الخاصة ، الحسية ، التي لا تستطيع ان تتعين الا في موضوعات طبيعية ولا يمكن حقيقة التعرف عليها وفهمها الا بتحليل لجوهر الطبيعة . ان عنصر الفكر الذي يسمح بتعبيره ، اللغة ، هو نفسه ذو طبيعة حسية . ان الواقع الاجتماعي للطبيعة والعلم الطبيعي للانسان حدان متماثلان ، كلمتان لهما هوية واحدة » . ص ١٢٢ . « العلوم الطبيعية تطورت تطورا هائلا وتمثلت كمية متزايدة من المواد . بيد ان الفلسفة ظلت غريبة عنها بقدر ما ظلت هي غريبة عن الفلسفة . وحدتهما الموقتة (كما تحققت في منظومتي هيغل وشيلنغ ـ ا. ك.) كانت محض وهم . اجل كانت هناك ارادة تحقيق هذه الوحدة ولكن القدرة كانت مفقودة . التاريخ لا يحسب حسابا للعلوم الطبيعية الا بشكل تابع ، لا يحسب حسابها الا بقدر ما هي تسمح بتفسير طابع وفائدة الاختراعات الكبرى » .

التطور (١) .

هذا الطابع المجرد للعلوم الانسانية الذي منعها حتى الآن من ان تتكون كعلوم حقة يبرز بشكل خاص في السيكوجوليا (« علم النفس ») التي أنفت القيام بدراسة الانسان دلاراسة واقعية ، عملية (٢) .

بحكم الاتصال الوثيق بين علوم الطبيعة والعلوم الانسانية لا يوجد في الواقع سوى علم واحد يشمل دراسة الانسان ودراسة الطبيعة (٣) .

التاريخ مفهوما على النحو المذكور يعطي ايضا حل المسائل النظرية ، كمسألة العلاقات بين الوجود والجوهر ، الذاتوية والموضوعية ، الحرية والضرورة ، الفكر والكينونة ، وهي مسائل مرتبطة بالتطور الاجتماعي ، ولا تجد الا به تفسيرها وحلها . ان حل هذه المسائل لا يمكن بلوغه الا اذا اعتبرناها في علاقاتها مع الحياة الاجتماعية ، عندئذ تفقد طابعها الميتافيزي الذي تحته درست حتى الآن (٤) .

بالحقيقة هذه المسائل تنجم عن الطابع التناقضي للعلاقات الاجتماعية في النظام الرأسمالي . التناقضات الايديولوجية ليست الا انعكاس التناقضات الواقعية التي تمثل بكيفية مجردة تحت شكل مفاهيم طباقية (anrêthétéqucs متنافية) . مقدمة هكذا ، هذه التضادات الثنائية تبقى بلا حل ممكن . لا يمكن ان تجد حلها الا

---

(١) ص ١٢١ ــ ١٢٢ . « نرى هكذا كيف ان تاريخ الصناعة وانبساطها الواقعي هما كشف (اعلان) قوى الانسان والروح الانساني العيانية . هذا الروح لم يدرس حتى الان في علاقاته مع جوهر الانسان بل في علاقات خارجية ازاءه ، لانهم الى هنا لم يكبوا الا على ادراك جوهر الانسان مجردا ، منخلصا ، كما يحضر في الدين ، وجوهر التاريخ مجردا كما يحضر في شكل السياسة ، الفن ، الادب ، منظورا اليها على انها تعبيرات واقعية لقوى الانسان الجوهرية ، تجليات لكينونته الجماعية » .

(٢) ص ١٢٢ . « ان سيكولوجيا تجهل هذا التظاهر للجوهر الانساني (الا وهو الصناعة ــ ا. ك.)» اي الجزء الاكثر راهنية والاقرب منالا من التاريخ ، لا يمكن ان تصير علما واقعيا وحيا . ماذا يجب ان نفكر عن علم يدير ظهره لهذا الجزء الجوهري من التاريخ ، لا يعي قصور ذاته ، وعنده لا يثير ميدان من الفاعلية الانسانية بهذا الاتساع وهذه الثروة من تفكيرات سوى كلمات « حاجات » ، « حاجات مبتذلة ! » .

(٣) ص ١٢٣ . « التاريخ الانساني جزء لا يتجزأ من تاريخ الطبيعة ، انه تاريخ انسنة الطبيعة . على هذا الاساس ، ان علوم الطبيعة سوف تشمل في زمن لاحق علوم الانسان ، كما ان العلوم الانسانية سوف تشمل العلوم الطبيعية ، بحيث لن يكون سوى علم واحد » .

(٤) ص ١٢١ . « نرى كيف ان الذاتوية والموضوعية ، الروحانية والمادية ، الفعل والعذاب ، يفقدون ، حين نعتبرهم في علاقاتهم مع المجتمع ، طابعهم المتناقض ونمط كينونتهم كحدود متناقضة . نرى كيف ان حل التعارضات النظرية لا يمكن اكتسابه الا على صعيد الممارسة ، الا بالفاعلية العملية الانسانية ، وكيف ان هذا الحل ليس باي حال مهمة للمعرفة وحدها ، بل مهمة تنطرح على الحياة بعينها ، مهمة لم تستطع الفلسفة حلها ، لان الفلسفة لم تكن تنظر الى هذه المسائل الا على الصعيد النظري » .

بتحويل فعلي للعلاقات الاجتماعية ، الا بالشيوعية التي تحذفها بالفعل (١) .

هكذا فالتعارض بين الوجود والجوهر يعود الى التنافر الموجود في النظام الرأسمالي بين طبيعة الانسان الحقة ، جوهره ، وشروط وجوده ، التنافر الذي يجعل الانسان في هذا النظام يعيش حياة منخلعة تضعه في معارضة جوهره ، طبيعته الحقة . هذا التناقض بين الوجود والجوهر ، المنجب من قبل النظام الرأسمالي ، لا يمكن ان يلغى الا باقامة نظام شيوعي ، فيه هذان الحدان اذ يكفان عن التعارض يصيران متكاملين .

كذلك التعارض بين الذاتوية والموضوعية مرده واقع ان خلق الانسان لذاته في النظام الرأسمالي بتعين ، بتموضع قواه ، يشكل ليس تأكيد ، تحقيق كينونته الحقيقية ، ذاتيته ، بل نفي هذه الذاتية .

كذلك ان حل معضلة الحرية والضرورة لا يمكن نيله الا اذا تصورناهما لا تجريديا ، ميتافيزيا ، بل في علاقاتهما الجدلية . ماركس يعتبر ، مع هيغل ، ان الحرية الانسانية لا تنفصل عن الشروط التي فيها يمكن ان تمارس والتي تشكل بالنسبة لها عنصر الضرورة ، بحيث أنه لا يمكن ان يكون ثمة حرية بلا ضرورة ، اي حرية مطلقة . ولكنه ، بعكس هيغل الذي يعتقد ان الحرية تولد من تفهم معقولية العالم ، يفكر ان الحرية تتولد لا من الفاعلية الروحية المحضة البسيطة ، من النظران، بل من الفاعلية العملية للانسان الذي يوسع باستمرار ميدان حريته بالسيطرة التي يمارسها على الاشياء .

وكذلك من وجهة نظر الفاعلية العيانية ، العملية ، يدرس ماركس مشكلة المعرفة ، اي مشكلة العلاقات بين الفكر والكينونة . سابقا كان هيغل قد تصور مفهوميا ان تملك العالم من قبل الانسان هو ثمرة فاعليته الروحية ، فكره ، وهو ينجم عن اعادة انتاج تحديدات العالم الواقعية في الروح ، ولكنه ، باعادته الواقع الموضوعي الى مفاهيم ، كان يقلص تملك العالم من قبل الانسان الى تملك نظري ، الى معرفة قوانينه .

بعكس هيغل ، ماركس يفكر ، مع فويرباخ ، أن الطبيعة لها واقعية خاصة ، مستقلة عن الانسان ، هي مع ذلك قابلة لان تدرك ، بحكم الوفاق العميق الموجود بين الحساسية وموضوعها ، ولكنه ، متجاوزا فويرباخ ، يعتبر أن الواقع الموضوعي مكون جوهريا ، بالنسبة للانسان ، من مجموع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن فاعليته العملية ، وان وحدة الكينونة والفكر تتحقق في وبهذه الفاعلية .

---

(١) ص ١١٤ . « هذه الشيوعية (الشيوعية الحقة ـ ا. ك.) هي ، بوصفها التحقيق الكامل لتانسن الطبيعة ولتعين و « تطبعن » الانسان ، الحل الحقيقي للتعارض الذي يفصل الانسان عن الطبيعة وعن كينونته ، الحل الحقيقي للتناقض بين الوجود والجوهر ، بين تعين قوى الانسان وتحقق كينونته ، بين الحرية والضرورة ، بين الفرد والنوع » .

في الفاعلية العملية يقوم اتحاد بين الانسان والطبيعة ، الذات والموضوع ، الفكر والكينونة ، الذين لا يمكن اعتبار بعضهم بصورة مستقلة عن بعضهم الآخر. رغم كونهما من طبيعة مختلفة ، الفكر والكينونة متحدان بشكل وثيق في الفاعلية الاجتماعية . فالفكر ، الوعي ، لهما طابع اجتماعي (١) . في الفكر ، في الوعي ، الانسان يكرر ويعيد انتاج حياته الاجتماعية ، بحيث ان الفكر ليس سوى انعكاس هذه الحياة ، شكلها النظري (٢) .

هذا التصور للتاريخ ، الذي يعتبر تطور الطبيعة والانسان نتيجة سيرورة انخلاق هذا الاخير ، يقود الى نفي نظرية الخلق التي تنكر عن الطبيعة والانسان كل واقعية خاصة بهما فتضع خارجهما علة وجودهما وتطورهما (٣) . ولا بأس من الاشارة الى ان هذه النظرية قد دحضتها الجيولوجيا التي تبين كيف تشكلت وتطورت الارض (٤) . رافضا فكرة ذات خالقة تحدد تطور العالم ، ان المفكر الاشتراكي يرى في هذا الاخير علة كينونته (٥) .

ماركس يختم هذا التحليل لانخلاق الانسان بتحليل للملامح العامة لجريان التاريخ . ان طور ما ــ قبل ــ تاريخ الانسان الذي يؤلف مرحلة تطور الحياة الانسانية تحت حكم الانخلاع سيعقبه الان طور اعادة تأنسن الانسان . هذا التأنسن الجديد سيحصل بحذف كل الانخلاعات المنجبة من قبل نظام الملكية الخاصة . هذا الحذف الذي سيتيح للبشر أن يعيشوا حياة متفقة مع طبيعتهم الحقة سيكون عمل الالحاد والشيوعية المتضافر .

---

(١) ص ١٣٣ ــ ١٣٤ . « التناحر المجرد بين الحس والروح يحصل بالضرورة ، طالما ان حس الانسان للطبيعة ، حسه الانساني عنها وبذلك عينه الحس الطبيعي للانسان ، ليس نتاج شغله » . ص ١١٦ . « الفاعلية والروح الهما ، من حيث محتواهما ومن حيث نمط تشكلها ، طابع اجتماعي ، انهما فاعلية اجتماعية وروح اجتماعية » .

(٢) ص ١١٦ ــ ١١٧ . « وعيي ليس سوى الشكل النظري لهذا الذي حياتي الواقعية ، حياتي الاجتماعية ، هي شكله الحي . في اسلوب الحياة المنخلع ، ليس الوعي سوى تجريد لهذه الحياة الواقعية وهو هكذا يظهر معارضا اياها . بوصفها انعكاسا لحياتي الواقعية ، ان فاعلية وعيي تشكل وجودي النظري بوصفي كائنا اجتماعيا ...

في وعيه ، الانسان يثبت حياته الواقعية ، الاجتماعية ، وينسخ وجوده الواقعي في الفكر ، كما بالمقابل يجد الكائن الانساني نفسه مثبتا في الوعي حيث ياخذ وعي كليته » .

(٣) صص ١٢٤ ــ ١٢٥ . ص ١١٤ . « كل حركة التاريخ هي سيرورة انخلاق الانسان الواقعية ــ صك ميلاد وجوده التجربي ــ و ، بالنسبة للفكر ، حركة صيرورته حركة واعية . »

في العائلة المقدسة ، ماركس يلاحظ ان فويرباخ قد دحض تماما في مبادىء فلسفة المستقبل نظرية الخاق لهيغل ، مبينا انه ، بحسب هذه النظرية ، تفقد المادة ، بوصفها تخريجا للروح ، تفقد كل واقعية خاصة بها . (ص ٣١٨) .

(٤) ص ١٢٤ . (٥) ص ١٢٥ .

بما ان العبودية المادية والعبودية الروحية مترابطتان بشكل وثيق وتكيف كل منهما الاخرى ، فان حذفهما سيحصل على نحو مترابط أيضا ، بالالحاد الذي سيحرر الانسان على الصعيد الروحي معطيا اياه بنفي الله مفهوم طبيعته الكلية ، وبالشيوعية التي ستحرره على الصعيد المادي متيحة له ان يحقق كينونته بشكل مليء .

ان الالحاد والشيوعية اللذين يسمان مع انتهاء ما قبل التاريخ مجيء عالم جديد لا يشكلان انتهاء التاريخ . فبعد حذف كل الانخلاعات ، لن تكون الاشتراكية بحاجة الى المرور بوساطة الالحاد والشيوعية لكي تحقق طبيعة الانسان الحقة ، لانها ستبلغ مباشرة وعي الانسان الحق والواقع الانساني الحق (١) .

★ ★ ★

ان **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، المكتوبة تحت التأثير المباشر للبروليتاريا الثورية الباريسية ، تسم منعطفا حاسما في تطور فكر ماركس ، بانضاج تصور مادي جديد عن العالم ذي طابع جدلي وتاريخي .

ان انضاج هذا التصور المحدّد من قبل انتقاله الى الشيوعية يحصل بنقد للمنظومة الرأسمالية ولفلسفة هيغل . ماركس يذهب ، في نقده للمنظومة الرأسمالية من التصور الهيغلي للانسان . في **فينومينولوجيا الروح** ، كان هيغل قد بيَّن ان الانسان يخلق نفسه وهو ينفذ في جوهر العالم الذي يفقد طابعه الموضوعي فيصير بالتدريج نتاج عمل الانسان الذي يفكره من جديد .

عند هيغل ، كانت هذه السيرورة ذات طابع مثالي ، من جراء روحنة الانسان والواقع الموضوعي التي تعيد انخلاق الانسان الي تحول للوعي الانساني ، الى تطور للروح .

بما ان خلق الانسان لذاته يفترض انه يجد نفسه ثانية في منتوج فاعليته ، فقد كان هيغل يلغي كل انخلاع فعلي للانسان ، معيدا تطوره الى تطور الفكر الذي لا يمكن ان يخلع في موضوعه .

---

(١) ص ص ١٢٥ - ١٢٦ . « ولكن الاشتراكية ، بوصفها الاشتراكية ، لا تعود بحاجة الى وساطة كهذه ، فهي تذهب من فكرة الانسان النظرية والعملية كمفهوم اساسي . انها تشكل وعي الانسان ، وعيه المباشر وليس الموسط بحذف الدين ، كما ان الحياة الواقعية تشكل ، على نحو مباشر وليس بوساطة حذف الملكية الخاصة بالشيوعية ، واقع الانسان . الشيوعية هي ، تحت شكل نفي نفي الانسانية ، المرحلة الضرورية في التطور التاريخي القريب ، التي هي مرحلة تحرر واعادة تانسن الانسان. الشيوعية هي الشكل الضروري ومبدأ العمل للمستقبل القريب ، ولكنها ليست بوصفها كذلك هدف تطور البشرية ، الشكل النهائي للمجتمع الانساني » . ص ١٦٦ . « فقط بحذف هذه الوساطة (بالشيوعية - ا.ك.) ، الوساطة التي هي الشرط الضروري لتطور البشرية القادم ، ستولد الانسانوية الايجابية التي لها في نفسها علة وجودها . »

بعكس هيغل ، كان ماركس يفكر ، مع فويرباخ ، ان الانخلاع يؤلف السمة الاساسية للعصر الحاضر وان تحرر الانسان يقتضي الغاء كل انخلاع الغاء كاملا ، ولكنه، بخلاف فويرباخ، كان كمدافع عن المصالح الطبقية للبروليتاريا يعتبر الانخلاع تحت الشكل الاكثر وطأة على كاهل هذه البروليتاريا ، تحت شكل الشغل المنخلع ، الذي ينتجه النظام الرأسمالي .

من وجهة نظر الشغل المنخلع يقوم بنقد الاقتصاد السياسي البرجوازي والمنظومة الرأسمالية . يبين أن خلق الانسان لذاته بفاعليته الحرة ، الواعية والكلية، يجعل مستحيلا في هذه المنظومة التي تنزع انسانية العلاقات الاجتماعية بتحويلها الى أشياء .

ففي هذه المنظومة يتحول منتوج الشغل الى سلع تصبح غريبة عن الانسان الذي يخلقها ، منتوج الشغل المنخلع على النحو المذكور يضبط ويحكم ، في هذه المنظومة ، العلاقات الاجتماعية التي تغدو جوهريا تبادل سلع . بتحوله الى فاعلية مغرّبة ومغرّبة ، مسلوبة وسالبة ، مخلوعة وخالعة ، يفقد الشغل ، مع فقدانه طابعه الانساني الذي يتيح للانسان ان يحقق كينونته ، وظيفته الاجتماعية التي هي اقامة علاقات انسانية بين الناس .

اذ يعتبر الاقتصاديون البرجوازيون الشغل خارج الشغيل واذ يهملون هكذا الطابع المنخلع الذي يتخذه في النظام الرأسمالي ، فانهم لم يستطيعوا القيام بتحليل صحيح لا لهذا النظام ولا لمقولاته : تبادل ، تجارة ، قيمة ، سعر ، مال ، التي ليست سوى آثار وتعبيرات خاصة للشغل المنخلع .

محللا عواقب الشغل المنخلع في النظام الرأسمالي ، يبين ماركس أن منتوج الشغل ، في هذا النظام ، يصبح غريبا عن الشغيل الذي يفقر وينحط قيمة بالقدر الذي فيه ينتج ، أن الشغل بعينه ، بدلا من أن يكون العنصر الخالق والتعبير عن كينونته ، يصبح نفيها ، أن هذا الانخلاع راكب على جميع البشر في نظام الملكية الخاصة ، أن الانسان حين يخلق عالما من الموضوعات المنخلعة يصبح عاجزا عن انسنة الطبيعة ، وأن هذا الاسلوب الحياتي المنخلع يجعله غريبا ليس فقط عن نفسه بل أيضا عن البشر الاخرين ، اذ أن المزاحمة المتولدة من نظام الملكية الخاصة تحدد تعارضا عاما بين البشر وانقسام المجتمع الى طبقات متناحرة .

هذا الانخلاع العام للانسان يجد تعبيره في تزييف الحاجات التي ، اذ تكف عن كونها حاجات انسانية ، تتحول أكثر فأكثر الى حاجات مال . بوصفه وسيطا كليا للمبادلات، المال ينزع انسانية العلاقات الاجتماعية وينزل الانسان تحت عالم الاشياء.

المنظومة الرأسمالية تنجب مع الانخلاعات الاقتصادية والاجتماعية انخلاعات ايديولوجية تخدم في تسويغ وتوطيد المجتمع البرجوازي ولا يمكن أن تفهم الا في

طابعها الطبقي .

من تحليله الشغل المنخلع يخلص ماركس الى ضرورة الغاء النظام الرأسمالي واستبداله بنظام شيوعي . هذا الاخير لا يظهر عنده بوصفه يوتوبيا ، مكانا طوباويا خياليا ، بوصفه محض أثر مطلب اخلاقي ، بل بوصفه النتيجة الضرورية لتطور النظام الرأسمالي الذي ، بصراع الطبقات بين البروليتاريا والبرجوازية ، يقود الى الثورة الشيوعية . الشرط الاساسي لاقامة الشيوعية الحقة هو الغاء كل الانخلاعات بحذف الملكية الخاصة حذفا جذريا . من هنا رفض ماركس الاشتراكية الاصلاحية التي ترتضي أشكالا برجوازية صغيرة للملكية الخاصة ، والشيوعية المبتذلة التي تريد تعميم نظام الملكية الخاصة بتوزيعها توزيعا متساويا .

ان الغاء الملكية الخاصة سيسمح باقامة نظام جماعي للانتاج والاستهلاك ، فيه سيستطيع الانسان ان يعيش بشكل انساني ، فالانتاج سيتجه ، كالاستهلاك ، الى بسط وتطوير طبيعة الانسان الكلية بتوسيع واغناء دائم للعالم المؤنسن .

بنظرية الانخلاع التي كانت تمكنه من القيام ، من وجهة نظر الشغل المنخلع ، بنقد متعمق للمنظومة الرأسمالية ، كان ماركس يصل الى فكرة متزايدة الوضوح والدقة عن الدور المقرر ــ المحدد للشغل ، للفاعلية العملية ، للبراكسيس ، في تطور الحياة الانسانية والتاريخ .

بالارتكاز على مفهوم « البراكسيس » ، الذي يحل آنذاك تدريجيا عنده ، كمفهوم مركزي ، محل فكرة الانخلاع ، التي لم تكن تصلح بقدره لخلق نظرية ثورية، ملائمة لمصالح البروليتاريا الطبقية ، ينضج ماركس تصورا جديدا للعالم مؤسسا على المادية الجدلية والتاريخية (١) .

يوضح ويدقق هذا التصور بنقد لفلسفة هيغل المثالية . بعد الاعتماد على التصور الهيغلي لانخلاق الانسان ، في نقده المنظومة الرأسمالية ، يقدم له تصور « البراكسيس » الذي يخرجه من هذا النقد ، الحجة الفاصلة ضد الفلسفة المثالية الهيغلية .

بتحويله روحيا الانسان والطبيعة والفاعلية الانسانية ، هيغل يعيد حياة الانسان الى سير فكري ثقافي ، والتاريخ الى انبساط الروح ، الى منطق يجد خلاصته الخاتمة في العلم المطلق ، حيث يتحقق تماثل الذات والموضوع ، الفكر والكينونة .

هذه الروحنة للانسان والطبيعة تجعل وهميا اتحادهما الواقعي ، العضوي . اذ لا يمكن الوصول الى تصور عضوي حقيقي عن العالم ، الا باعتبار الانسان والطبيعة

(١) لئن كان ماركس يحل ، كاساس لتصوره العام عن العالم ، محل فكرة الانخلاع فكرة « البراكسيس » التي تمكنه من تفسير التطور التاريخي على نحو افضل ، فانه مع ذلك يحتفظ بفكرة الانخلاع بقدر ما تمكنه من تفسير بعض سمات المنظومة الراسمالية ، وبشكل خاص الطابع الصنمي للسلع .

في واقعهما الحسي ، العيني . عندئذ الفاعلية الانسانية لا تظهر محض فاعلية الروح، بل فاعلية عينية ، عملية ، للانسان ، الذي يخلق نفسه بنفسه بتخريج قواه المادية . ان حامل Sujer هذه الفاعلية لم يعد هو الفكر المجرد ، وعي الذات ، بل ذاتية قوى الانسان المادية ، ونتاجها ليس مكوّنا من « شيئيات » بل من موضوعات عينية تجعل الطبيعة ، باعادة انتاجها في شكل مؤنسن ، صنع الانسان .

ان هذا التحويل ، هذا التأنيس للطبيعة بالفاعلية الانسانية ، بالشغل ، هو ما يطبع الانسان ويميزه عن الحيوان . الانسان هو ، كالحيوان ، كائن طبيعي ، حياته مرتبطة بحياة الطبيعة ، ولكنه ، بخلاف الحيوان ، قادر على الفعل في الطبيعة وعلى تحويلها بفاعليته الحرة ، الواعية والكلية .

هذا « التأنيس » للطبيعة ، الذي خلاله يحوّل الانسان علاقاته الاصلية ، المباشرة ، معها ، الى علاقات مع انتاجه هو ، ليس ممكنا، الا لان الانسان كائن اجتماعي . فالانسان لا يستطيع أن يمارس فاعليته الا بفضل أعمال البشر الاخرين ، التي فيها يجد كينونتهم المطبوعة عليها . يغتني بهذه الاعمال وهو يستخدمها ، كما ان البشر الاخرين يغتنون بمنتوج شغله ، الامر الذي يجعل ان البشر يتكاملون ويتأنسنون تبادليا بأعمالهم .

هذه الانسنة المتبادلة للبشر تكوّن أساس المجتمع ، لذا لا يمكن فصل الانسان كفرد عن المجتمع ووضعه في معارضته . المجتمع يشكله الافراد ، ولكن به فقط يحقق هؤلاء كينونتهم ، اذ في المجتمع فقط توجد الطبيعة في هيئتها الانسانية وتخدم كرابطة بين البشر وكأساس لوجودهم .

كما أن موضوعات الطبيعة المباشرة لا تنال طابعا انسانيا الا بالشغل الاجتماعي للانسان ، كذلك فان حواس الانسان لا تصير انسانية الا حين يكون موضوعها ، العالم الحسي ، قد حوّل بالشغل . اذ فقط بتفتح كل الثروة الانسانية في اعادة انتاج الطبيعة تكتسب الاذن الحس الموسيقي والعين حس جمال الاشكال ، مما يتيح للانسان ان يؤكد نفسه كانسان ليس بالفكر فقط بل أيضا بالحواس .

ان الخلق الذاتي للانسان بأنسنة الطبيعة يشكل أساس التاريخ الانساني . بما ان هذا الخلق الذاتي مرتبط عضويا باعادة انتاج الطبيعة ، فان التاريخ الانساني مكوّن جوهريا من « طبعنة » الانسان ، من تعين كينونته في منتوج فاعليته ، ومن « أنسنة » الطبيعة بالتلازم .

ان العنصر المقرر المحدد لسيرورة انخلاق الانسان هو تلبية الحاجات بتطور الانتاج، الذي يعينه ماركس بكلمة « صناعة »، بحيث إن جريان التاريخ عائد بالواقع الى جريان الصناعة .

ان تطور الصناعة الحاصل الى هنا تحت نظام الملكية الخاصة قد استتبع تفاقما دائما للانخلاع الانساني ، ولكنه في الوقت نفسه خلق ، بزيادة حدة الصراع الطبقي

بين البرجوازية والبروليتاريا ، شروط الثورة البروليتارية التي ستحرر البشرية باحلال النظام الشيوعي محل النظام الرأسمالي .

عن تشكل منظومة الملكية الخاصة وعن ضرورة الغائها ينجم انقسام التاريخ الى طورين كبيرين : طور ما ـ قبل ـ التاريخ الذي يشمل مرحلة تطور البشرية تحت حكم الانخلاع وطور تأنسن الانسان من جديد بالانبساط الكلي لكينونته ، الذي يعطي التاريخ معناه ومداه .

هذه المفهمة المادية للتاريخ تفسر، مع تفسيرها التطور الاقتصادي والاجتماعي، الايديولوجيات التي ينجبها : دين، فلسفة ، أخلاق، قانون ، سياسة ، علوم، والتي لا يمكن أن تفهم الا بالنسبة الى هذا التطور ، وهي تعطي أيضا حل المسائل النظرية : جوهر ووجود ، ذاتية وموضوعية ، حرية وضرورة ، فكر وكينونة ، التي يجب هي أيضا أن تعالج لا على نحو مجرد وميتافيزي ، بل جدليا ، بالنظر اليها في علاقاتها مع التطور الاجتماعي .

معتمدا هكذا على مفهوم « البراكسيس » ، الذي يسمح له بأن يخرج من بقايا المثالية المتضمنة في تصور الانخلاع ، الذي بما أنه ما يزال يعتبر الانسان من وجهة نظر ميتافيزية فقد كان يعارض الانسان « المنخلع » بالانسان « الحق » ، يضع ماركس أسس المادية الجدلية ، بتبيانه ان الانسان والطبيعة يجب تصورهما في علاقاتهما العضوية ، أن الطبيعة ، الواقع المادي ، الموضوعي ، هي العنصر الاول ، الاساسي ، الذي في حضنه تنمو الحياة الانسانية ويتطور الوعي الانساني ، وأن « البراكسيس » تعطي حل ليس فقط المعضلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بل أيضا المسائل الايديولوجية والنظرية (١) .

يقيم في الوقت نفسه الاطروحات العامة للمادية التاريخية . فهو يشدد على أن التطور الاجتماعي محدد من قبل التطور الاقتصادي ، وعلى أنه يستتبع في النظام الرأسمالي صراعا طبقيا بين البرجوازية والبروليتاريا يؤلف العنصر الاساسي في التاريخ الحديث ، وعلى أن استفحال هذا الصراع يقود الى ثورة شيوعية . ويبين أيضا العلاقات بين الايديولوجيا البرجوازية والمصالح الطبقية للبرجوازية .

في انضاج تصوره المادي للعالم ، سيكبّ ماركس بادىء ذي بدء على بسط وانماء نظرية المادية التاريخية، ذات الفائدة الاكثر فورية لنضال البروليتاريا الطبقي.

هذا ما سيفعله الآن في **العائلة المقدسة** التي يحررها بالتعاون مع انجلز، مباشرة بعد **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، حيث سيعالجان عددا من المسائل الفلسفية والاجتماعية والسياسية من وجهة نظر المادية التاريخية .

---

(١) من هنا نرى كم قليلا مؤسسة المحاولات المتكررة دوما على يد مفكرين برجوازيين يريدون ان يخرجوا من تصور الانخلاع ، منظورا اليه كمفهوم اساسي للفكر الماركسي ، « انسانوية » ماركسية تمثل في نظرهم المذهب الحقيقي لماركس ويضعونها في معارضة الماركسية الثورية .

الفصل الثالث

« العائلة المقدسة »

فر. انجلز ـ حالة انكلترة

بينما كان ماركس ينضج في باريس ، في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، السمات الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، كان انجلز يتابع في انكلترة دراسة التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لهذا البلد .

مقالاته المنشورة في **الصحيفة الراينية** ، و **عالم خلقي جديد** ، و **الجمهوري السويسري** ، و **الحوليات الفرنسية الالمانية** ، لم تكن سوى دراسات تمهيدية لعرض أعم عن حالة انكلترة ، نشره بعد زوال **الحوليات الفرنسية الالمانية في جريدة الى الأمام** .

بعد دمار القوة الكولونيالية الفرنسية وهزيمة نابوليون ، التي جعلت من انكلترة القوة المهيمنة في العالم ، كانت الصناعة والتجارة الانكليزيتان قد تطورتا بوتيرة متسارعة (١) .

الا أن أزمة اقتصادية خطيرة كانت قد انفجرت بعد سقوط نابوليون مباشرة ، أثارتها الستوكات الهائلة من السلع التي كان قد كدّسها الصناعيون في أواخر الحروب ضد نابوليون والتي لم تجد التصريف المنشود من جراء افقار أوروبا . وكان يزيد وطأة هذه الازمة الاقتصادية على كاهل الطبقة العاملة أن الـ ٣٠٠,٠٠٠ جندي وبحار المسرحين من الخدمة كانوا يربكون سوق الشغل . كان هبوط الاجور المقرون ببقاء الاسعار في مستوى عال يزيد باستمرار من خطورة حالة العمال . يضاف الى ذلك أنه ، لاستخدام الآلات بمردود كامل ، كان يوم العمل يمدّد بشكل دائم ، بالغا مدة ١٦ وحتى ١٨ ساعة ، وأن الرجال في المصانع كانوا يستبدلون أكثر فأكثر بنساء وأولاد كانوا يستغلون بوحشية أكبر أيضا .

هذا الاستفحال الدائم لشروط حياتهم كان يثير تمردات دائمة عند العمال ويوطد حركة النقابات العمالية . والحالة لم تكن أفضل كثيرا في الريف ، حيث كانت

---

(١) في ١٨٣٣ كان مجموع الانتاج الصناعي لفرنسا والولايات المتحدة لا يعادل سوى ثلث الانتاج الصناعي لانكلترة . كانت الصادرات الانكليزية تصعد من ١٨٢٠ الى ١٨٢٥ من ٤٨ الى ٥٦ مليون جنيه استرليني ، والواردات من ٣٢ الى ٤٤ مليون .

تحصل كذلك انتفاضات عديدة للفلاحين .

تحت ضغط البرجوازية ، تم التصويت على قانون انتخابي رفع عدد الناخبين من ٢٢٠.٠٠٠ الى ٦٧٠.٠٠٠ . هذا القانون ، الذي كان في صالح الحزب الليبرالي (حزب الاحرار) ، حزب الهويغ whiys لم يكن يعطي أي شيء يستحق الذكر للطبقة العاملة ، التي كانت قد ساندت الحملة لصالح هذا القانون بأمل أن يحسن وضعها .

اذ أحرزوا نصرا كبيرا في انتخابات ١٨٣٠ ، نظّم الاحرار ، الذين كانوا خلال عقود بلا انقطاع تقريبا في الحكومة ، حملة ضد رسم الحماية الجمركية الباهظ ، الذي كان بابقائه سعر الحبوب المرتفع يخدم مصلحة الملاكين العقاريين ، سند خصومهم السياسيين ، وهم المحافظون Tories

مدافعين عن مصالح البرجوازية الصناعية والتجارية ، الاحرار كانوا يريدون أن يجنوا من الغاء قانون الحبوب كسبا مزدوجا : اضعاف التوري ، المحافظين الزراعيين ، وبالنسبة للصناعيين امكانية تخفيض الاجور أكثر أيضا بفضل هبوط سعر الخبز .

على الصعيد السياسي ، كانت هزيمة المحافظين تستتبع توطد سلطة مجلس العموم على حساب مجلس اللوردات ، سند المحافظين الزراعيين والتاج . من جهة أخرى ، كان ازدهار الصناعة ، الذي كان مع زيادته القوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للبرجوازية يحدد تطورا موازيا للبروليتاريا ، كان يستتبع توطد نقابات العمال والحزب الشارتي ، المدافع عن مصالح الطبقة العاملة .

لم تلبث سياسة الاحرار الاجتماعية الرجعية ، خصوصا قانون الفقراء الصادر عام ١٨٤٣ أن أقنعت البروليتاريا الانكليزية انها خدعت بالوعود الانتخابية للاحرار الذين كانوا يتكشّفون عن كونهم معادين لمصالحها بقدر عداء المحافظين . كان قانون الفقراء يستجيب لرغبة البرجوازية الصناعية في تخفيض نفقات اعالة العاطلين عن العمل أقصى تخفيض ممكن وفي تحطيم عمل الطبقة العاملة المطلبي ، وذلك بأن يقام في بيوت الشغل المكرّسة للعاطلين عن العمل نظام عقوبات أشد هولا من النظام المخصص لاكثر العمال بؤسا .

ان غيظ الطبقة العاملة ضد الاحرار أمّن نجاح المحافظين في انتخابات ١٨٤١ ، ولكن هؤلاء ، اذ كانوا مضطرين للتسليم بالاوامر الاقتصادية ، فقد واصلوا بالفعل ولو بشكل أكثر اعتدالا سياسة الاحرار المؤيدة لنظام التبادل الحر (١) . احتجاجا على استفحال بؤسهم ، نظّم العمال تحريضا جماهيريا بلغ ذروته في الاضراب الكبير

(١) عن هذا الطور في تاريخ انكلترة ، انظر ا.ل. مورتن A. L. Morton : تاريخ الشعب الانكليزي برلين ، ١٩٥٦ ، ص ص ٤٠٢ ــ ٤٥١ .

لسنة ١٨٤٢ في صناعة النسيج .

كانت الدراسة المتزايدة العمق لحالة انكلترة والمذاهب الاقتصادية قد قادت انجلز الى أن يتصور بشكل متزايد الوضوح ان التطور الاقتصادي يحدد التطور السياسي والاجتماعي وان الصراعات الطبقية الناجمة عنه تؤلف العنصر المحرّك في التاريخ .

تحت تأثير تماسه المباشر مع الحياة الاقتصادية والاجتماعية الانكليزية وبشكل خاص مع التحرك الثوري للبروليتاريا الانكليزية ، كان أنجلز أولا بأول قد تحول ، مع تحوله عن مثالية الهيغليين ـ الشباب ، عن شيوعية هس Hess العاطفية ، متوجها نحو تصور مادي للتاريخ . كان هذا التطور قد حصل بالتدريج ، تاركا عنده لمدة لا بأس بها خليطا من مثالية ومن مادية . هكذا كان في ديسمبر ١٨٤٢ ما يزال يعتبر ان التقدم التاريخي لا تقرره مصالح مادية بل تقرره مبادىء (١) ، الامر الذي لم يكن يمنعه من ان يلاحظ في الوقت نفسه أن المبادىء ، في انكلترة ، بعيدا عن أن تحدد التطور السياسي والاجتماعي ، هي بالعكس محددة من قبله (٢) ، وأن يرى ان تفاقم الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا لا بد أن ينجب ثورة شيوعية (٣) .

ان الاستبعاد المتزايد السرعة لبقايا التصورات المثالية ، المحدد من قبل معرفته المتزايدة العمق للحياة الانكليزية ، كان يتظاهر في مقالاته في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، بشكل خاص في « مسودة نقد للاقتصاد السياسي » ، حيث ، اعتمادا على

(١) انظر فر. انجلز ، الصحيفة الراينية ، ١٨٤٢/١٢/٩ : « الازمات الداخلية » . انظر ميغا ، ١ ، ، حـ٢ ، ص ٣٣١ .

« انه لامر بدهي في المانيا ، ولكن الانكليز العنيدين لا يفهمونه ، أن المطالح المادية لا يمكنها أبدا ان تكون عناصر مستقلة ، ضابطة ومنظمة للتاريخ ، وأنها ، بصورة واعية أو لا ، في خدمة مبدأ يكون العنصر المقرر للتقدم التاريخي » .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، حـ٢ ، ص ٣٥٢ . « في انكلترة ، على الاقل في الاحزاب التي تتطاحن حاليا على السلطة ، عند الاحرار والمحافظين ، لا يعرفون صراعات المبادىء بل فقط صراعات تثيرها مصالح مادية » .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٥٥ . « الكسب الذي جناه الاجراء منه (من اضراب ١٨٤٢ الكبير ـ ا.ك.) هو أن ثورة ما لا يمكن أن تتحقق بوسائل سلمية وأن تحويلا جذريا للتنظيم الاجتماعي غير الانساني والاطاحة بالارستقراطية الاقطاعية والصناعية هما وحدهما يستطيعان تحسين حالة البروليتاريين . ان ما لا يزال يقف عائقا مام هذه الثورة هو الاحترام المثير للفضول الذي يكنه الانكليز للقانون ، ولكن ، في وضع انكلترة الحالي ، ثمة مجاعة لا مفر من وقوعها قريبا وستجعل ان الخوف من الجوع سيغلب عند البروليتاريا احترام القانون . هذه الثورة محتومة في انكلترة ، ولكن ، كما هي الحال بالنسبة لكل ما يجري في هذا البلد ، لن تكون المبادىء بل المصالح هي ما سيطلق ويقود هذه الثورة ، اذ على قاعدة المصالح وحدها تنبسط وتنمو فيه المبادىء ، الامر الذي يعني ان هذه الثورة لن تكون سياسية بل ستكون اجتماعية . »

تحليل نقدي للمنظومة الراسمالية ، كان يرسم تطورها من وجهة نظر مادية .

من وجهة النظر هذه بعينها كان يحلل الحالة العامة لانكلترة في مقاله في جريدة **الالى الامام** (١) . رغم انه قام بوصف هذه الحالة في وقت كانت فيه النقابات والشارتية (٢) قد تلقت بقسوة انعكاس فشل الاضراب الكبير لعام ١٨٤٢ ، فقد كان يحتفظ بايمان لا يتزعزع في النصر الاخير للبروليتاريا والشيوعية . باقيا على تماس وثيق مع القادة الشيوعيين لـ « رابطة العادلين » ، ك. شابر K. Schapper هـ. باور H. Bauer ، ي. مول J. Moll ، ومع القائد الشارتي هارني Harney ، ومع صحيفة انصار أوين Owen ، **العالم الاخلاقي (المعنوي) الجديد** ، ومعززا في تعاطفه مع البروليتاريا بتعرفه على عاملة ايرلندية شابة ، ميري برنز Mary Burns ستصبح رفيقته ، كانت المصلحة الطبقية للبروليتاريا هي التي تلهم الخط العام لمقاله . من هنا الموضوعان الاساسيان في هذا المقال : تصور الدور المقرر الذي تلعبه الحركة الاقتصادية والصراعات الطبقية النابعة منها في تطور التاريخ وتحليل هذا التطور في منظور الثورة الشيوعية التي ستفضي اليها هذه الصراعات حتما .

ان تحليل حالة انكلترة الذي كان يمضي فيه انجلز أكثر فأكثر كان يتيح له ان يتخلص بشكل تام تقريبا من بقايا التصورات المثالية وان يعطي تصوره الجديد التاريخي والمادي للعالم قاعدة أكثر صلابة .

في هذا التحليل ، يشدد باديء ذي بدء على انه ، بسبب الدور الحاسم للصراعات الطبقية ، فان التاريخ ، في انكلترة ، بالتعارض مع المانيا وفرنسا حيث الصراعات الفلسفية والسياسية تلعب دورا مقررا ، ذو طابع اجتماعي بشكل بارز .

ان تاريخ انكلترة الحديث محدد من قبل الثورة الصناعية التي تحققت فيها منذ أواسط القرن الثامن عشر والتي كانت آثارها أعمق بكثير من آثار الثورة الفلسفية في المانيا والثورة السياسية في فرنسا (٣) .

في اعتقادهم بجبروت الافكار ، الالمان سعوا الى تغليب المصالح العامة للبشرية بطريق الفلسفة . رافضين هذا التصور المثالي ، الفرنسيون فكروا ان هذه المصالح

---

(١) فر. انجلز : حالة انكلترة ، ١ ، القرن الثامن عشر ، ١ ، الدستور الانكليزي . أنظر الى الامام ، ٤٤ ، ٤٧ ، ١١ أيلول ، و ١٨ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٨ أيلول ، ٥ ، ١٦ ، ١٩ اوكتوبر ١٨٤٤ . ميغا ، ١ ، ح٤ ، ص ص ٢٩١ ـ ٣٣٤ . هذا المقال حرر في شباط ـ آذار ١٨٤٤ .

(٢) الحركة الشارتية الكبرى التي كانت تعزز على الصعيد السياسي عمل نقابات الشغل كانت بلغت ذروتها في سنة ١٨٤٢ ابان تسليم العريضة الكبرى الثانية لصالح الميثاق Charte الى البرلمان . فشل اضراب ١٨٤٢ الكبير سدد لها ضربة جدية ، عواقب هذا الفشل كانت اخطر ايضا على نقابات الشغل التي نهضت منه بصعوبة .

(٣) حالة انكلترة ، ١ ، القرن الثامن عشر . انظر ميغا ، ١ ، ح٤ ، ص ٢٩١ .

لا يمكن أن تنتصر الا بالعمل السياسي ، باصلاح الدولة (١) .

بعكس الالمان والفرنسيين ، الانكليز أكثر ميلا الى التجربية منهم الى اعتبارات عامة فلسفية وسياسية ، هذا ما يفسر كونهم أكثر تعلقا واهتماما بالمصالح الخاصة منهم بالمصالح العامة وكون العنصر الاجتماعي يلعب عندهم دورا مسيطرا (٢) . بالمقارنة معه ، لا تلعب السياسة الا دورا ثانويا ، وفقط لان الانكليز ما يزالون يعتقدون بعمل الدولة الحاسم ما زالت المسائل الاجتماعية ترتدي عندهم طابعا سياسيا (٣) .

التحول العميق الذي تحقق في انكلترة هو نتيجة التطور ليس فقط الاقتصادي والاجتماعي بل أيضا العلمي والفلسفي الذي حصل في هذا البلد اثناء القرن الثامن عشر . فقد حصل فيه تجدد ليس فقط في علوم الطبيعة بل أيضا في العلوم التاريخية والسياسية ، التي تكوّنت آنئذ بشكل حقيقي كعلوم ، الاولى بتحديد قوانينها ، الثانية بالعلاقات التي قامت بينها وبين مذاهب الاقتصاد السياسي الجديدة (٤) .

هذا التطور للعلوم رافقه نضال ضد الروحانية المسيحية واتجاه متزايد الوضوح نحو المادية والريبية التي تستجيب على الصعيد الايديولوجي للاتجاه الى الفاعلية العملية الغالب عند الانككليز (٥) .

بموازاة هذا التحول في العلوم وفي تصور العالم ، حصل في انكلترة تطور اجتماعي يعرض انجلز أصوله بكيفية نصف ــ مثالية .

بخلاف العالم القديم Antique المؤسس على الرق ، رغم أنف حقوق الافراد ؛ العالم المسيحي ــ الجرماني ، معترفا بهذه الحقوق في المبدأ ، حذف الرق نظريا ، ولكنه احتفظ به عمليا ، تحت شكل القنانة (٦) .

كما أن الرق في العصور الوسطى لم يلغ الا في الظاهر ، كذلك فان القنانة لم تلغ الا بكيفية وهمية في المجتمع الحديث المؤسس على الملكية الخاصة والمحكوم بالمال. تحت تأثير غلبة المصالح الخاصة ، صار الانسان عبد المال ، هذه العبودية ، التي تجد تعبيرها في بيعية عامة كلية ، أكثر عمقا وأشد لاانسانية من تلك التي كانت تثقل كاهن الاقنان (٧) .

---

(١) المرجع نفسه ، ص‌ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ .
(٢) المرجع نفسه ، ص‌ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ .
(٣) المكان نفسه ، ص ٢٩٦ .
(٤) ص‌ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ .
(٥) ص‌ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ ، ٢٩٣ ــ ٢٩٤ .
(٦) ص ٢٩٧ .
(٧) ص‌ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨ . « ان عاقبة واقع ان المصلحة صارت الرابطة بين البشر كانت انحلال المجتمع الى أفراد منعزلين ، تحوله الى عالم من ذرات متقابلة متعارضة . هذا التفريد ، العاقبة

هـذه العبودية التي تشير الى أعلى درجة في الانخلاع الانساني هي مع ذلـك الشرط الضروري لانعتاق الانسانية . اذ ان نزع انسانية البشر الذي بلغ معها ذروته له كعاقبة لا مفر منها تدمير المجتمع البرجوازي والاستعاضة عنه بنظام اجتماعـي عقلي وانساني (١) .

ان الثورة التي ستحرر البشر قريبة . ستنشب بادىء بدء في انكلترة ، حيـث بلغ تطور المنظومة الرأسمالية أعلى درجاته (٢) .

هذه الثورة هي النتيجة الضرورية لتطور انكلترة الاقتصادي والاجتماعي مـنذ القرن السادس عشر ، الذي أحل بالتدريج محل النظام الاقطاعي النظام الرأسمالي. ان ازدهار التجارة والقوة البحرية المتزايد وكذلك الاستيلاء على المستعمرات فـي القرنين السادس عشر والسابع عشر ، قد سهّلا تشكل طبقة وسطى متعاظمة القوة، وقفـت ضد طبقة النبلاء الاقطاعيين وحددت انفصالا متزايد الحدة بين الصناعـة والتجارة والزراعة (٣) .

كانـت الزراعة آنذاك تشمل ثلاثة أصناف من الملاّكين العقاريين هي : كبـار الملاكين النبلاء أو Landlords ، الملاكون المتوسطون العوام أو Squires ، الفلاحون الصغار (٤) . التجارة كانت متمركزة في لنـدن . الصناعة الرئيسية كانت صناعـة النسيج التي كانت تتطور بصورة رئيسية في الريف وفي جوار المدن . مناجم الفحـم



القصوى للذاتوية المسيحية ، يسم مآل العالم المسيحي . طالما أن التعبير الاساسي للانخلاع الانساني في شكـل الملكية الخاصة باق ، فان المصلحة ترتدي بالضرورة شكل مصلحة خاصة تتجلى سيطرتها فـي سيطرة الملكية الخاصة . ان حذف العبودية الاقطاعية قد جعل من المال الرابطة الوحيدة بين البشـر . الملكية الخاصة ، هذا العنصر الطبيعي اللاانساني المعارض للعنصر الروحي الانساني ، ملكة ، وبهـا المال ، شكلها المجرد ، صار ملك العالم . الانسان الذي كف عن كونه عبد البشر الاخرين صار عـبد الاشياء ، انقلاب العلاقات الانسانية الحقة ناجز ، والعبودية ، وليدة عالم « الاعمال » الحديث مـع البيعية العامة التي تحكمه ، أشد لا انسانية وأكثر كلية من تلك التي تخص القنانة ... » . ايضـا ص ٣٠٧ .

(١) ص ٢٩٨ . « العالم المسيحي بلغ درجة تطوره القصوى ، يجب الان أن ينهـار مخليـا المكـان لعالم عقلاني وانساني . الدولة المسيحية هي اخر شكل ممكن للدولة ومعها ستزول الدولة . ان تحلل الانسانية الى كتلة من ذرات منعزلة ، متعارضة فيما بينها ، اذ يؤدي الى دمار مصالح هيئات الحرف والمصالح القومية ، يسم درجة التطور الاخيرة التي تقود الى تحرر البشرية واعادة تكوينها . ان اكتمال الانخلاع المطبوع بهيمنة المال يشكل المرحلة الضرورية التي تقود الى استرجاع الانسان من قبل نفسه . »

(٢) ص ٢٩٨ .

(٣) ص ٢٩٨ .

(٤) ص ٢٩٩ .

لم تكن مستثمرة كثيرا ، فالفحم كان يستخدم بصورة رئيسية للحاجات الاهلية (١) .

هذه الحال تغيرت بسرعة حوالي منتصف القرن الثامن عشر ، تحت فعل الثورة الصناعية التي سهلتها سلسلة من الاختراعات الكبيرة الحاصلة بين ١٧٦٠ و ١٧٨٥ : الآلة البخارية ل واط watt ، مكننة صناعة الفخار ، آلات الغزل لـ هارغريفس وآركرايت ، آلات الحياكة لـ كرومبتن وكارترايت (٢) .

هذه الاختراعات أثارت انقلابا في أسلوب الانتاج ، انقلابا شمل تدريجيا كل فروع الصناعة التي انتقلت بسرعة من مرحلة الانتاج الحرفي الى مرحلة المصنع Fabrique (٣) .

كانت صناعة النسيج ، وهي آنذاك الفرع الصناعي الرئيسي ، أول صناعة تتطور تطورا خارجا عن المألوف بمكننة المغازل والمناسج . كانت صناعة الصوف وكذلك صناعة الكتان والحرير تعرف تطورا مماثلا لتطور صناعة القطن (٤) .

العمل اليدوي كان يستعاض عنه أكثر فأكثر بعمل الآلات ، بفضلها كان طفل في الثامنة من عمره ينتج أكثر مما كان عشرون عاملا ينتجون في السابق ، كان ٦٠٠ر٠٠٠ عامل ، نيف ونصفهم من النساء والاولاد ، ينجزون عملا يحتاج في الوضع السابق الى ١٥٠ مليون عامل (٥) .

الصناعات الاخرى كان لها ان تستفيد من نهوض مماثل ، تحت دفع تطور الآلات وسكك الحديد والملاحة البخارية ، عرفت صناعة المعادن نهوضا خارقا رافقه تطور سريع جدا للصناعات المنجمية : استخراج الحديد والنحاس وخصوصا الفحم الحجري المستخدم اكثر فأكثر لاغراض صناعية (٦) . وتطور الصناعة والتجارة أدى

---

(١) ص‌ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) ص‌ص ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٣) ص ٣٠٣ . « الشغل المنفذ عائليا ، في المنزل ، حل محله الشغل الجماعي في المانيفاكتورات ، والشغل اليدوي حل محله شغل الآلات البخارية » . ص ٣٠٤ - ٣٠٥ . « عواقب هذا الدافع الماخوذ من التصنيع لا حد لها . فقد انتشر التصنيع من فرع صناعي الى اخر . قوى الانتاج الجديدة تطلب استخدامها ... ، مع السكان - العمال الجدد تولد علاقات اجتماعية جديدة وحاجات جديدة . مكننة الصنع تخفض سعر المصنوعات المصنوعة ، الامر الذي يخفض تكاليف تلبية الحاجات ويجر تخفيضا للاجور وتوسع السوق . ما ان تم الاعتراف بمزايا المكننة حتى شملت كل فروع الصناعة . ان تطور الحضارة ، النتيجة اللازمة عن تطور الصناعة ، يخلق حاجات جديدة وبذلك عينه فروع انتاج جديدة وتحسينات صناعية جديدة . »

(٤) ص‌ص ٣٠٢ - ٣٠٣ . هذه الصناعة كانت تشغل منذ سنة ١٨٣٧ مليونا ونصف المليون من العمال ، استيراد القطن الخام ارتفع من ١٧٧٠ الى ١٨٣٦ من ٥ الى ٣٦٤ مليون جنيه .

(٥) ص‌ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٦) ص‌ص ٣٠٤ - ٣٠٦ . تصدير المنتوجات التعدينية تضاعف اربعة أضعاف بين ١٨٠٠ و ١٨٣٤ . استخراج الفحم انتقل من ١٧٠٠٠ طن في ١٧٤٠ الى ٥٥٣٠٠٠ طن في ١٨٣٥ .

الى توسع مواز في وسائل المواصلات والنقل (١) .

هذا الازدهار الصناعي والتجاري الذي كان يجب أن يسهّل ، على أساس نمو الحاجات وامكانية تلبيتها ، تطور المدنية ، صار ، بسبب توسع المنظومة الراسمالية، وبالا على البشر . فقد استخدمت المصلحة الخاصة لاغراضها الخاصة القوى الصناعية الجديدة التي أصبحت ، في أيدي أقلية من الراسماليين الاغنياء ، وسائل اضطهاد واستعباد للشعب الكادح . في الوقت نفسه ، التجارة ، التي كانت الصناعة تابعة لها ، حوّلت العلاقات بين البشر الى علاقات تجارية ، الامر الذي أدى الى اخضاع جميع ابلشر لعالم الاشياء (٢) .

حتى تصبح كلية القدرة ، كان على الملكية الخاصة ان تقلص الى الحد الاقصى سلطة الدولة . هذا ما يفسر ان أول منظر كبير لنظام الملكية الخاصة وللمنظومة الرأسمالية ، آدام سميث ، لم يقر شرعية الدولة والسياسة والاحزاب وحتى الكنيسة الا بالقدر الذي فيه تسهّل المصالح الخاصة وتجعل من الاثراء هدف الفاعلية الانسانية الجوهري . غودون Goduin خطا خطوة اضافية في هذا السبيل بتشكيكه في ضرورة الدولة . أخيرا بنتام Bentham دفع هذا المذهب الى الحد الاقصى فاعتبر الدولة شرا ووضع كمبدأ ان الملكية الخاصة يجب ان تلعب في كل مكان دورا مقررا . جاعلا من المنافسة المبدأ الضابط المنظم للعلاقات الانسانية ، انه يعتبر ان الانسان الحقيقي ليس الفرد المستقل والحر بل الانسان الوحشي الذي لا يطيع سوى قانون المزاحمة (٣) .

في نفس الوقت الذي كانت فيه تعدّل العلاقات بين الافراد الخاضعين أكثر فأكثر لقوانين الملكية الخاصة ، كانت الثورة الصناعية تحول التنظيم الاجتماعي بشكل عميق .

بتدمير المنظومة الاقطاعية وبتطوير النظام الرأسمالي الذي كان يعجل في الازدياد المتوازي للثروة والفقر ، كانت الثورة الصناعية تدمر بعض الطبقات الاجتماعية وتخلق طبقات جديدة : البرجوازية الصناعية وبروليتاريا المدن . بينما في الريف ،

---

(١) صص ٣٠٦ – ٣٠٧ . البواخر الانكليزية الاولى ظهرت في سنة ١٨٢٧ ، وبلغ عددها ٥٥٠ في الخدمة سنة ١٨٣٥ ، طول السكك الحديدية بلغ ما يقرب من ٣٠٠٠ كم في ١٨٣٦ .

(٢) ص ٣٠٧ . « العاقبة الاولى (للثورة الصناعية – أ.ك.) كانت تامين سيطرة المصلحة الخاصة على البشر . مستولية على القوى الصناعية الجديدة ، المصلحة الخاصة استخدمتها لغاياتها الخاصة . هذه القوى التي كان يجب شرعا أن توضع في خدمة البشرية صارت ملك اقلية من الراسماليين الاغنياء ووسيلة لاستعباد الجماهير . التجارة ، محتكرة الصناعة ، صارت كلية القدرة وكونت الرابطة بين البشر ، كل العلاقات الشخصية والقومية تحولت الى علاقات تجارية ، وهذا يعني ان الملكية الخاصة، عالم الاشياء ، هيمن على العالم » .

(٣) صص ٣٠٧ – ٣٠٨ .

كان الملاكون الصغار والمتوسطون يفقدن ملكيتهم لصالح كبار الملاكين وينزلون الى حالة مزارعين Fermiers أو عمال زراعيين (١) ، كانت الطبقة الحرفية في المدن تصاب أكثر فأكثر بالافلاس لصالح البرجوازية الصناعية والتجارية . ان استبعاد الإرستقراطية العقارية كطبقة قائدة ، وانسحاق الطبقات الوسطى وتحولها الى بروليتاريا ، واضطهاد الطبقة العاملة ، كان يجعل من البرجوازية الطبقة القائدة .

لما كانت الثورة الصناعية تفرض استخدام عدد متزايد من العمال ، فقد كان ينجم عن ذلك نمو لا ينقطع للبروليتاريا المدينية التي كانت ترفد على الدوام بصغار الحرفيين المفلسين وبصغار المستثمرين الزراعيين المطرودين من أراضيهم . كان بؤس البروليتاريا يستفحل بلا توقف ، بنتيجة المزاحمة ومن جراء تمركز الصناعة المتزايد في المدن ، الذي كان يجعل مستحيلا الجمع بين الشغل الصناعي والشغل الزراعي الذي كان الى ذلك الحين قد سهّل حياة معظم العمال .

ان برلترة غالبية السكان واثراء البرجوازية التي حلت محل الارستقراطية العقارية كطبقة قائدة قد استتبعا انقسام المجتمع الانكليزي الى ثلاث طبقات كبرى : الارستقراطية العقارية ، البرجوازية الصناعية والتجارية ، البروليتاريا ، وهو انقسام يستجيب له على الصعيد السياسي انقسام الانكليز الى ثلاثة أحزاب كبرى : توري (محافظين) ، هويغ (أحرار) ، شارتيين ، تدافع عن مصالح هذه الطبقات الكبرى الثلاث (٢) .

تزاحم بين جميع البشر ، تزايد سريع للبروليتاريا ، استثمار متعاظم لهذه الاخيرة من قبل الطبقة البرجوازية التي صارت طبقة قائدة ، تفاقم الصراع الطبقي بين المالكين وغير المالكين ، تلك هي الآثار الاجتماعية الرئيسية للانقلاب الصناعي (٣).

ان المنظومة الرأسمالية التي تمثل ، بانفلات المزاحمة من عقالها ، ذروة تزع

---

(١) ص ٢٩٩ .

(٢) ص ٣٠٩ .

(٣) ص ٣٠٩ . « ان اهم نتائج القرن الثامن عشر بالنسبة لانكلترة كانت خلق البروليتاريا بالثورة الصناعية . الصناعة الجديدة كانت تتطلب لفروع العمل التي لا تحصى كتلا من العمال جاهزة دوما ، لم يوجد مثلها من قبل . حتى سنة ١٧٨٠ ، لم يكن في انكلترة سوى قليلٍ من البروليتاريين ... ان الصناعة ركزت الشغل في الفبارك والمدن ، أصبح اتحاد العمل الصناعي والزراعي مستحيلا واضطر العمال على تكريس انفسهم لشغل الفبركة ... ان زراعة القطع الصغيرة في الريف ازيلت ... الامر الذي ادى الى خلق طبقة جديدة من العمال الزراعيين . المدن ضاعفت تعداد سكانها ثلاثة واربعة اضعاف ، هذه الزيادة مؤلفة من عمال فقط . كذلك تطلب استثمار المصانع الكثيف عدداً أكبر من العمال الذين يعيشون فقط من أجورهم .

من جهة أخرى ، ظهرت ارستقراطية جديدة من بين الطبقات الوسطى . بالانتاج الصناعي ضاعف أصحاب الفبارك بسرعة كبيرة رساميلهم وكذلك فعل التجار ، الرأسمال الذي خلقته هذه الثورة خدم الارستقراطية الانكليزية في مكافحة الثورة الفرنسية . »

انسانية الانسان ، يجب ان تلغى . وستلغى بفعل تطورها ذاته الذي لا يمكن الا ان يؤدي الى أزمة عامة تولد الثورة الاجتماعية . هذه الثورة ، عمل البروليتاريا التي تدخل اكثر فأكثر في صراع مكشوف ضد الطبقات المالكة ، ستنشب في انكلترة بعد الغاء قانون الحبوب ، هذا القانون باضعافه الارستقراطية العقارية سيسمح للطبقة العاملة بأن تسدد كل ضرباتها ضد عدوها الرئيسي ، البرجوازية (١) . ان وصول البروليتاريا الى الحكم بتحقيق الميثاق (الشارت Charte) سيسمح باقامة مجتمع شيوعي سيحرر البشر من كل العبوديات .

في هذا التحويل الجذري للمجتمع ، لا يترك انجلز اي سهم للدولة ، التي بات يعتبرها الآن محض اداة هيمنة للطبقات المالكة . هذا التصور كان معززا عنده بدراسة المؤسسات الانكليزية التي كانت تبين له ان الدولة الانكليزية ، سواء كانت بقيادة المحافظين او بقيادة الاحرار ، تستخدم دائما سلطتها ضد الشعب .

كان يشدد على هذا الطابع الطبقي للدولة الانكليزية في القسم الثاني من مقاله المعنون « الدستور الانكليزي » (٢) .

في تحليله وضع انكلترة السياسي ، كان يظهر ان انكلترة ، من جراء تطورها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ونشاطها العلمي والادبي ، ليست فقط أقوى بلدان اوروبا واكثرها تقدما ، بل هي ايضا اكثرها حرية (٣) .

ولكن اذا لم نعتبر سوى هذا الوجه الواحد لانكلترة ، فانه لا يمكننا — على حد قول انجلز — ان نكون صورة صحيحة عن هذا البلد . فوراء مظهرها التقدمي والليبرالي ، تبقى انكلترة دولة محافظة بشكل عميق ، اذ ان كل سلطة الدولة مركزة في أيدي الطبقات المالكة التي تستخدمها لصالحها ، كما يتبين من الدستور والمؤسسات الانكليزية .

ان دستور ١٦٨٨ الذي حول الدولة الانكليزية الى دولة دستورية لم يغير طابع هذه الدولة الطبقي . بأخذهم السلطة ، الهويغ الليبراليون وضعوا ، كما فعل من قبل التوري المحافظون ، الدولة في خدمة مصالحهم الطبقية ، مما يبين ان عيب الدولة العميق يخص لا شكلها بل جوهرها . أيا كانت قوتها ، الدولة طاغية . بدلا من ان يروا ان الدولة لا انسانية بالجوهر ، حاولوا في انكلترة ان يعطوها طابعا اخلاقيا ، بتحويلها الى ملكية دستورية ، هي بالواقع تتعادل في اللاأخلاقية مع سائر اشكال الدولة (٤) .

---

(١) ص ٢٩٨ .

(٢) ص‌ص ٣١٠ — ٣٣٤ . حالة انكلترة ، ٢ . الدستور الانكليزي .

(٣) ص‌ص ٣١٠ — ٣١١ .

(٤) ص‌ص ٣١٢ — ٣١٣ .

المبدأ الاساسي للدستور الانكليزي هــو التوزيع المتساوي للسلطة بين التــاج ومجلس اللوردات ومجلس العموم . بالواقع ليس التــاج ذا سلطة فعلية ، رغم ان الدستور ينص على ان الملك يمثل جوهر الدولة (١) .

الامر كذلك تقريبا بالنسبة لمجلس اللوردات ، الذي اصبح نشاطــه ، كنشاط الملك ، محض شكلي . ولكن ، كما ان تقديس التاج نما بقدر مــا كانت الملكية تفقــد سلطتها ، كذلك احترام الشعب لمجلس اللوردات زاد بقــدر مــا هبطت اهميتــه السياسية (٢) .

تتركز سلطة الدولة في مجلس العموم الذي يصنع القوانين ويقود الدولة بواسطة الوزراء الخاضعين له . على أساس القدرة الكلية لمجلس العموم ، المنبثق مباشرة من الارادة الشعبية ، قد يفكر المرء ان في انكلترة نظامــا ديمقراطيا حاكما ، ولكن تلك ليست الحال . فبسبب النظام الانتخابي القائم على دفع ضريبة حــق الاقتــراع ، يتألف مجلس العموم بصورة رئيسية من ممثلين عن الطبقات المالكة : كبــار الملاكين العقاريين ، الصناعيون والتجار .

في الريف ، كل الناخبين تقريبا مزارعون تابعون بشكــل وثيق لكبــار الملاكين العقاريين ، بحيث ان غالبية النواب العظمى من حــزب المحافظين ، في المــدن ، حيث يلعب الصناعيون والتجار دورا مسيطرا ، غالبية النواب العظمى من حزب الاحرار ، الطبقة العاملة عمليا مجردة من كل حق سياسي ، فقط في المدن الصناعية الكبــرى يتمكن العمال من انجاح مرشحيهم ، وهذا يفسر العدد المحدود نسبيا مــن النواب الشارتيين في مجلس العموم (٣) .

هكذا فان الطبقات المالكة هي التي تمسك بالسلطة . مجلس العموم تحت هيمنة المحافظين او الاحرار ، الذين يدافعون عــن مصالح ارستقراطية الارض وارستقراطية المال . فقط بقدر ما تمارس الارستقراطية العقارية بفضل ثروتها غير المنقولــة تأثيرا على الانتخابات تشكل قوة سياسية . بالواقــع ، ان البرجوازية الصناعية ، التــي اصبحت قوتها الاقتصادية والاجتماعية غالبة ، هي التي تحكم ، هذا ، على كل حال، ليس ممكنا ــ يضيف انجلز ــ الا لان الشعب ، الذي لــم يــدرك بعد مــا هي الملكية الخاصة حقا ، يقبل الخضوع لطغيانها (٤) .

ثمة هكذا تناقض صارخ بين النظرية والعمــل في الدستور الانكليزي . بعكس المبدأ الاساسي ، مبدأ انقسام السلطة بين التاج ومجلس اللوردات ومجلس العموم ،

(١) ص ص ٣١٣ ــ ٣١٤ .
(٢) ص ص ٣١٤ ــ ٣١٥ .
(٣) ص ص ٣١٥ ــ ٣١٨ .
(٤) ص ص ٣١٨ ــ ٣١٩ .

هذا الاخير هو الملك الحاكم في الواقع ومعه البرجوازية (١) .

ان طابع الدولة الانكليزية المناهض للديمقراطية يعززه واقع انها بموجب الدستور دولة مسيحية . الكنيسة الانجليكانية معترف بها رسميا دينا للدولة . المذاهب الدينية الاخرى معتبرة هرطقات ، الامر الذي يفسر اللاحقات ضد المنشقين والكاثوليك الذين عوملوا كمجرمي دولة (٢) .

ان طابع الدولة الانكليزية المناهض للديمقراطية يتجلى ليس فقط في هيمنة الطبقات المالكة والكنيسة بل ايضا في ممارسة الحقوق .

بعكس البلدان الاخرى ، ان حقوق الافراد مكرسة من قبل العرف ، مع الاعتراف بها من قبل القانون . هذه الحقوق الاساسية : حرية الفكر والتعبير ، حق الالتقاء والاجتماع (حق الاجتماع وتشكيل جمعيات) ، و « الهابياس كوربس » (Habers Corpus ، املك جسدك) اي الحق الذي يحمي الفرد ضد كل توقيف عسفي ، اوسع مما هي في اي مكان آخر ، ولكنها مقيدة في تطبيقها بقدر ما تستطيع الطبقة العاملة الاستفادة منها .

حق حرية الفكر والتعبير ، أساس حرية الصحافة ، محدود بالقوانين التي تعاقب على المنشورات والخيانة العظمى والشتائم ، بحيث ان تطبيق هذا القانون رهن ارادة الحكومة ، مع هذا التحفظ الا وهو انها مضطرة ، في حال ملاحقات ضد الصحافة ، ان تحسب حساب الراي العام (٣) .

حق الاجتماع ايضا مقيد بواقع ان كل اجتماع يجب إن يكون هدفه ايداع عريضة ويمكن ان يحل من قبل الشرطة (٤) . ممارسة حق التجمع (تشكيل جمعيات) يجر نفقات كبيرة بحيث انه عمليا امتياز للاغنياء (٥) . وكذلك الحال بالنسبة لل « هابياس كوربوس » : فممارسة هذا الحق ، حق كل متهم بأن يبقى حرا حتى افتتاح المحاكمة ، خاضعة لدفع كفالة ، وهي تبقى اذا وقفا للاغنياء (٦) .

ان طابع الدولة الانكليزية المناهض الديمقراطية يتجلى بشكل خاص في ميدان القضاء ، الذي هو قضاء طبقي . مثل سائر الحقوق ، حق المرء في ان يحاكم من قبل اقرانه امتياز للاغنياء . فالفقير يحاكم من قبل اعدائه الطبقيين ، القضاة والمحلفون ينتمون للبرجوازية وفي أحكامهم يحفظون رحمتهم للاغنياء وقسوتهم للفقراء (٧) .

---

(١) ص‌ص ٣١٩ ـ ٣٢١ .
(٢) ص‌ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥ .
(٣) ص ٣٢٥ .
(٤) ص‌ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .
(٥) ص ٣٢٦ .
(٦) ص ٣٢٦ .
(٧) ص‌ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

فضلا عن ذلك ، ان الفقير ، العاجز عن توكيل محام جيد ، يجد نفسه مغبونا ، من جراء ان طابع القوانين غير المحدد يعطي المحامي دورا جوهريا في المحاكمات (١) .

هذا الفرق نفسه في المعاملة بين الفقراء والاغنياء يتظاهر أيضا في تطبيق العقوبة. بينما يستفيد الاغنياء من حق العفو ، يجب على الفقراء ان يتحملوا كل صرامة عقوبات بربرية لدرجة انها بمثابة اعدام بطيء (٢) .

ملخصا انتقاداته للدولة والمؤسسات والعدالة ، يقول انجلز في الخاتمة : « كل سلطات الدستور : التاج ، مجلس اللوردات ، مجلس العموم ، انكشفت في وجهها الحقيقي ، لقد رأينا ان ما يدعى بحقوق الانكليز الاساسية ما هي الا كلمات باطلة ، ان هيئة المحلفين زائفة ، ان القوانين وهمية ، أن الدولة تنكر بنفسها الاساس الدستوري الذي اتخذته ... وان الدستور الانكليزي ... أكذوبة واسعة (٣) . »

ان هذه الحالة المثيرة للغضب المكرسة لحماية امتيازات المالكين يجب ان تلغى . النضال ضدها قد بدأ ، هذا النضال تخوضه الديمقراطية ، لا الديمقراطية السياسية وليدة التعارض بين البرجوازية والملكية المطلقة بل الديمقراطية البرجوازية وليدة التنافي بين الطبقة العاملة وارستقراطية المال والهادفة الى الاشتراكية : « ان كفاح الممارسة ضد النظرية ، الواقع ضد التجريد ، الحياة ضد الجمل ، باختصار كفاح البشر ضد اللاانسانية يجب ان يقاد الى النهاية ، لا يمكن الشك في الجهة التي سيميل النصر اليها ... ان المستقبل المباشر في انكلترة ملك للديمقراطية ، لا الديمقراطية كما حققتها الثورة الفرنسية التي كانت تناضل ضد الملكية والاقطاعية، بل **الديمقراطية** التي تعارض الطبقة المالكة . هذا ما يبينه تطور التاريخ . السلطة في أيدي المالكين ، والفقير ، المحروم من كل الحقوق ، مسحوق وفضلا عن ذلك مظلوم من قبل الدستور والقانون ، كفاح الديمقراطية ضد الارستقراطية هو في انكلترة كفاح الفقراء ضد الاغنياء . الديمقراطية التي ستظفر في انكلترة هي الديمقراطية **الاجتماعية** . الديمقراطية البسيطة غير قادرة على شفاء الشرور الاجتماعية . المساواة الديمقراطية خرافة ، كفاح الفقراء ضد الاغنياء لا يمكن ان يحسم على صعيد الديمقراطية السياسية . هذه لا تشكل سوى مرحلة انتقالية ... يولد منها عنصر جديد ، مبدأ يتجاوز كل عنصر سياسي ، مبدأ الاشتراكية (٤) . »

في هذا المقال كانت تتعبر كل ثروة الرؤى الجديدة عن اسباب وآثار الثورة الصناعية وكذلك عن دور الدولة والصراعات الطبقية ، التي كان انجلز قد كدسها

(١) ص ٣٣١ .
(٢) ص‌ص ٣٣٠ — ٣٣١ .
(٣) ص‌ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .
(٤) ص‌ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

اثناء اقامته في انكلترة مدة عامين والتي جاءت تسوغ تصوره المادي للتاريخ .

هذا التصور ، بالحقيقة ، لم يكن بعد الا في سير الانضاج ، ومن هنا بقايا المثالية التي نجدها في هذا المقال ، بشكل رئيسي في تفسير الحقب الكبرى الماضية التي ما يزال جزئيا يحدد طابعها ، على طريقة هيغل ، بتطور الوعي الانساني . هكذا فهو يفسر الرق في العالم القديم بواقع ان هذا الاخير كان يجهل حقوق الفرد (١) . كذلك بكيفية مثالية يفسر القنانة ، ناسبا اياها الى واقع ان العالم المسيحي ـ الجرماني لم يع الا بشكل مجرد طبيعة الفرد المستقلة وبالتالي لم يستطع الغاء الرق فعليا فأحل محله القنانة (٢) . وهو يعزو ، من جهة أخرى ، تجربية وريبية الانكليز الخاصتين الى كونهم ، بما انهم لا يستطيعون التغلب على التناقض بين ميلهم الى التدين وجاذبية الكسب ، فريسة خض داخلي يدفعهم الى الفاعلية العملية (٣) .

التعارض بين الطابع السياسي للحياة الفرنسية والطابع الاجتماعي للحياة الانكليزية معلل بكون الانكليز ، بخلاف الفرنسيين الذين يضعون في المستوى الاول المصالح العامة ، يعلقون اهمية اولية على المصالح الخاصة (٤) . الظهور المتأخر لتاريخ اجتماعي محلق بالسيطرة الطويلة للكنيسة والدولة (٥) . واخيرا ، استمرار هيمنة البرجوازية في انكلترة منسوب الى كون الطبقة العاملة لم تع بعد الطبيعة الحقيقية للملكية الخاصة وبالتالي لم تستطع التحرر من قبضتها (٦) .

هذه التعليلات المثالية هي بحقيقة الكلام معزولة ولا تشغل الا مكانا صغيرا في اللوحة الاجمالية التي ينشئها انجلز عن انكلترة . ما ان يغادر ميدان التاريخ الماضي ليتناول الحالة الحاضرة في انكلترة حتى تخلي الاعتبارات المثالية المكان لاعتبارات مادية .

ان تحليل هذه الحالة ، الذي يقوده بوضوح متزايد الى ادراك ان التطور الاقتصادي يحدد التطور الاجتماعي والسياسي ، يمكنه من توضيح وتدقيق المبادىء العامة للمادية التاريخية . هذا ما يصنع فائدة واهمية هذا العرض الاجمالي الاول

---

(١) ص ٢٩٧ . « العصر القديم ، الذي كان لا يزال يجهل بشكل كامل حقوق الذات والذي كان تصوره للعالم بالتالي عموميا ومجردا ، لم يكن يستطيع البقاء بدون الرق » .

(٢) ص ٢٩٧ .

(٣) ص ٢٩٤ .

(٤) ص ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(٥) ص ٢٩٦ . « طالما كانت الدولة والكنيسة الشكلين الوحيدين اللذين فيهما حقق البشر كينونتهم، ما كان ممكنا وجود تاريخ اجتماعي . هذا ما يعلل عدم وجود تطور واقعي لا في العصر القديم ولا في العصر الوسيط . الاصلاح البروتستانتي ، اول رد فعل خجول ضد العصور الوسطى ، جاب تغيرا اجتماعيا عميقا بتحويل القن الى عامل حر . »

(٦) ص ص ٣١٨ ـ ٣١٩ .

احالة انكلترة ، التي يفسرها تفسيرا اوضح بكثير مما في مقالاته السابقة بالتطور الاقتصادي لهذا البلد . على حد قوله : « الثورة الصناعية هي أساس كل الحالة الحديثة لانكلترة ، العنصر المحرك لكل حركتها الاجتماعية » (١) .

بات من الآن يرى بوضوح ان تطور قوى الانتاج الحديثة يقرر ويحدد تغير العلاقات الاجتماعية والسياسية . هكذا يبين كيف أن الثورة الصناعية قد عجلت ، بالتحويل العميق لاسلوب الانتاج من جراء استخدام الآلات ، تفسخ المنظومة الاقطاعية ، وشددت الانفصال بين المدينة والريف ، وخلقت علاقات انتاج جديدة ، وذلك بتحويلها الملكية الخاصة التي تأخذ اكثر فاكثر طابعا صناعيا وتجاريا وبالمكان الذي تشغله البرجوازية والبروليتاريا في سيرورة الانتاج الجديدة ، سواء بسواء .

بينما ، من جراء هذه الثورة التي تسهل خلق احتكارات ، تسحق الطبقات الوسطى ، اي اصحاب الحرف وصغار ومتوسطو الملاكين العقاريين، تحل البرجوازية، بفضل امتلاكها وسائل الانتاج الصناعي ، محل الارستقراطية العقارية كطبقة قائدة ، والبروليتاريا الخاضعة لاضطهاد متزايدة الوطأة عن طريق تخفيض الاجور الدائم والتمديد اللاانساني ليوم الشغل تدخل في صراع مكشوف ضدها .

التناحر بين الطبقات الاجتماعية يتجلى على الصعيد السياسي بالنضال بين الاحزاب : توري ، هويغ ، شارتيين ، الذين يدافعون عن مصالح الارستقراطية العقارية ، البرجوازية ، الطبقة العاملة . ان تحليل الصراعات السياسية والاجتماعية يبين اخيرا لانجلز ان الدولة ليست سوى اداة سيطرة في أيدي الطبقات القائدة .

معتبرا ان المنظومة الراسمالية باخضاعها البشر لعالم الاشياء تؤلف قمة نزع انسانيتهم ، انجلز يفكر انها ستلغى حتما على يد ثورة بروليتارية تولد من احتدام الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا ، ثورة ستؤدي الى قيام الديمقراطية الاجتماعية اي الى قيام الاشتراكية .

بطريق مختلف جدا عن طريق ماركس ، الذي كان ، بوصوله في آن معا الى المادية الجدلية والمادية التاريخية ، يعطي هذه الاخيرة قاعدة اوسع وامتن ، كان انجلز يصل الى نفس النتيجة الجوهرية ، الا وهي ان تطور التاريخ له ، كتطور الطبيعة ، طابع موضوعي ، انه محدد جوهريا من قبل تحول قوى الانتاج ، وان الاقتصاد وحده يعطي تفسير التطور الاجتماعي .

---

(١) ص ٣٠٧ .

ماركس وانجلـز

غادر انجلز انكلترة في اواخر آب ١٨٤٤ عائدا الى بارمن Barmen . مدفوعـا بالرغبة في تعارف ارحب مع محرري جريدة **الى الامام** ، ولا سيما مع ماركس ، عرج الى باريس حيث مكث حوالي عشرة أيام .

في رسالة الى جريدة **العالم الاخلاقي الجديد** ، تتصل بهذه الاقامة ، كان يؤكـد الذهنية الامية للعمال الباريسيين الواعين للمصالح المشتركة التي عليهم ان يدافعوا عنها ضد برجوازية جميع البلدان ويسجل تقدم الشيوعية في باريس (١) .

راح يزور ماركس ، فوجده وحيدا ، اذ ان زوجته جني كانت ذهبت الى المانيا لتقدم ابنتهما الى أهلها . كانت نتيجة لقائهما الجوهرية الحلف الـذي عقداه آنئـذ والذي سيدوم مدى حياتهما . بعد لقائهما الاول الحاصل قبـل عامين في مدينة كولن في جو جليدي ــ ماركس كان يشتبه بأنه موفد من قبل « المعتقين » الذيـن كان قـد قطع الصلة معهم لتوه ــ كانا يدركان انهما وصلا الى آراء متماثلة وانهمـا يستطيعان ان يواصلا معا العمل الذي تابعاه حتى الآن بصورة منفصلـة (٢) . فقـد كان انجلـز بالغا ، مثل ماركس ، تصورا ماديا للتاريخ ، وكان يفكـر ، مثلـه ، ان مهمة العصر الجوهرية هي الغاء النظام الرأسمالي مولد نزع انسانية الانسانية .

ان تعاهدهما ، الذي ستمضي الكفاحات التي سيخوضانها معا بصورة مشتركة في تعزيزه على الدوام ، كان مرده ليس فقط توافق آرائهما بل ايضا واقع ان معارفهما ومواهبهما كانت تتكامل بشكل مثير للاعجاب . اذ كان انجلز عـلى اطلاع بالغ على النشاط الاقتصادي وعلى صلات مباشرة مع مختلف طبقات المجتمع ، فقد كان يشكل بالنسبة لماركس الرفيق المثالي في المهمة التي كانت مطروحة عليـه الا وهـي تطبيق معارفه النظرية على تحليل الوقائع الاقتصادية الاجتماعية . بالمقابـل كـان ماركس ، بوصفه متقدما على انجلز في مضمار انضاج أسس المادية الجدلية والتاريخية ، يقوي ويوسع تصورات انجلز باعطائها القاعدة النظرية المتينة التي كانت تنقصها . من هذه الحيثية كان لماركس ان يضطلع في تحالفهما بالدور القيادي ، كما سوف يعترف انجلز بذلك : « لا استطيع ان انفي انني ، قبل وبعد تعاوني مع ماركس مـدة اربعين عاما ، ساهمت بقسط ، على نحو مستقل ، في انضاج وتسويغ نظريتنا . ولكن القسم الاكبر من الافكار الموجهة ، لا سيما في المجال الاقتصادي والتاريخي والشكـل الدقيق الذي

(١) ميغا ، ١ ، حـ٤ . عالم اخلاقي جديد ، رسالة انجلز بتاريخ ١٨٤٤/١٠/٥ . الاشتراكية فـي البر الاوروبي .

(٢) انظر فر. انجلز : تاريخ رابطة الشيوعيين . في ماركس ــ انجلـز ، المؤلفات المختـارة ، برلين ١٩٥٨ ، حـ٢ ، ص ٣٢٠ . « حين التقيت بماركس في باريس أثناء صيف ١٨٤٤ ، لاحظنا توافق آرائنـا الكامل في جميع الميادين النظرية ، من هنا يبدأ تاريخ عملنا المشترك . »

نالته هما ملك ماركس . ما اتيت به في العمل المشترك كان ماركس يستطيع ان يحققه بدوني ، فيما عدا بعض الميادين الخاصة . ولكن مـا حققه ماركس ليس باستطاعتي ان أفعله . لقد كان يتجاوزنا جميعا بعلو واتساع رؤاه وبسرعة فكـره . كان عبقرية ، بينما كنا في الاكثر مواهب . لولاه لما كانت نظريتنا ، ومن بعيد ، مـا هي اليوم ، ولذا فهي بحق تحمل اسمه (١) . »

ان مساهمة انجلز في العمل المشترك كانت مع ذلك أهم مما يقـر . هكذا ، فـي بداية حلفهما ذاتها ، كان يعطي ماركس ، في اللحظة التي كان فيها هذا الاخير يخـرج ويبلور ، من وجهة نظر أخرى تماما ، الاطروحات الاساسية للمادية التاريخية ، مثالا مرموقا عن تطبيق هذه الاطروحات ، بتحليله لحالة انكلترة .

على أساس عدم فصل العمل الثوري عن المذهب الثوري ، كان ماركس وانجلـز يعتبران ان ضعف الحركة العمالية آت بشكل رئيسي مـــن افتقارها لقاعدة نظريـة صلدة ، لذا فقد كانا يفكران ان المهمة الاكثر الحاحا هـي توسيع وتعميق تصوراتهما النظرية ، بغية اعطاء العمال وعي دورهم الثوري وارشادهم في عملهم . وسوف يقول انجلز : « كنا غاطسين في الحركة السياسية ، كان لنـا عدد من الانصار في الاوساط المثقفة ، لا سيما في المانيا الغربية ، وكنا على تماس وثيق مـع البروليتاريا المنظمة . كنا ملزمين بأن نعطي قاعدة علمية لتصوراتنا وكان ذا اهمية بالغـة بالنسبة لنـا ان نكسب لافكارنا البروليتاريا الاوروبية والبروليتاريا الالمانيـــة باديء بـدء . وما ان وضحنا تصوراتنا حتى أكببنا على العمل (٢) . »

---

(١) انظر فر. انجلز : لودفيغ فويرباخ . في ماركس ـ انجلز ، المؤلفات المختارة ، برلين ، ١٩٥٨ ، حـ٢ ص ٣٥٩ .

(٢) انظر فر. انجلز ، تاريخ رابطة الشيوعيين . في ماركس ـ انجلز ، المؤلفات المختـارة ، برلين ١٩٥٨ ، حـ٢ ، ص ٣٢٠ . انظر ميغا ، ٣ ، حـ١ ، ص ص ٧ ـ ٨ . رسالة انجلز الى ماركس ، ١٩/ ١٨٤٤/١١ : « كل هذا الركام النظري يزعجني اكثر فاكثر ، وكل الاقوال العابثة عن الانسان معتبرا فـي ذاته ومعها الانتقادات ... ضد اللاهوت ، الفكر المجرد او المادية المبتذلة ، تثير اعصابي . مـن الافضل الاهتمام باشياء واقعية ، حية ، بتطورات ونتائج للتاريخ ، من اضاعة الوقت في هذه الترهات ... هذا افضل ما يتاتى علينا عمله ، على الاقل طالما نحن في موقف يفرض علينا ان نستخدم اقلامنا ولا يمكننا مـن تحقيق افكارنا بايدينا وعند اللزوم بقبضاتنا . » . انظر المرجع نفسه ، ص ١ . رسالـة انجلز الـى ماركس ، ٨ ـ ١٠/١٠/١٨٤٤ : « الاخوان (عمال مدينة كولن ـ ا. ك.) نشيطون جدا ، ولكـن نقص القاعدة النظرية محسوس جدا . طالما لم يبين في بعض الكتابات كيف ان المباديء تنبع منطقيا وتاريخيا من التصورات الغالبة حتى ذلك الحين ومن تطور التاريخ الذي ليست المباديء سوى نتيجته اللازمة ، فـان الاختلاط في الفكر والتردد في العمل سيستمران في حكم الامور . »

ان العمل الاول الذي اضطلع به ماركس وانجلز معا كان ضبطا لتصوراتهما بنقد للهيغليين الشباب في برلين ، الذين كان مذهبهم **النقد النقدي** يشكل عـلى الصعيد الايديولوجي تفاقما للفلسفة النظرانية ومـن وجهـة النظـر السياسية مساندة للرجعية (١) .

عن يد جورج يونغ Georg Yung من كولن ، كـان ماركس يتلقـى مجلـة برونو باور Bruno Bauer الشهرية ، **الصحيفة الادبية العامة** ، التي كانت الناطقـة الرئيسية بلسان الهيغليين الشباب البرلينيين . ومـع ارسال المجلة اليـه ، كان ج. يونغ يدعوه الى اتخاذ موقف ضد هؤلاء (٢) .

في أواخر آب ، قبل زيارة انجلز بقليل ، كان ماركس قد تلقى العدد رقم ٨ من **الصحيفـة الادبية العامة** الذي كان يحوي المقالات : « ١٨٤٢ » ، مقال موجه ضـد

(١) عن الهيغليين الشباب في برلين، انظر الفصل الاول من هذا المجلد ، انظر كتاب العلوم السياسية، يينا ، ١٨٩٢ ، حـ٤ ، ص ١١٣١ . ف. انجلـز ، ماركس هاينريش ، كارل . « في ايلـول ١٨٤٤ ، فريدريك انجلز جاء يقضي بضعة ايام في باريس ، حيث التقى بماركس . كانا في صلات رسائلية منـذ مساهمتهما في الحوليات الفرنسية - الالمانية ، من هنا بدأ تحالفهما الذي لم ينقطع الا مع وفاة ماركس. الثمرة الاولى لتعاونهما كانت مجادلة ضد برونو باور الذي كانا قد انفصلا عنـه في سير تفكك المدرسة الهيغلية ، المجادلة التي نشرت عام ١٨٤٥ في مدينة فرانكفورت - على - نهـر الماين ، تحت عنـوان : العائلة المقدسة . نقد برونو باور وشركاه . »

(٢) انظر رسالة ج. يونغ الى ماركس ، ٣١ تموز ١٨٤٤ . هذه الرسالة موجودة في ارشيف الحـزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني بآمستردام . « ارسل اليك ، تحت ورقة أغلاق ، بالبريد ، الاعداد ٥ ، ٦ ، ٧ ، من الصحيفة الادبية العامة . ان ملاحظاتك على برونو باور صحيحة جدا ، ولكن من المستحسن ان تحولها الى نقد ينشر في جريدة المانية ، بغية دفع باور الى الخروج من تحفظه الخفي الغريب . فهـو الى هنا لم يفصح عن أي رأي واضح في أي موضوع ، حيث ان مهمة النقد على حد قوله تقتصر على تفهم الحوادث . وهو يجعل هذه المهمة سهلة جدا عليه فاضحا مع ابتسامة ساخرة التناقضات التي يكتشفهـا فيها ، ثم يتملص من اي تعليق . بطبيعة الحال ليس صعبا ان يحقق هكذا الانتصار البارع الذي يفاخـر به الى هذا الحد الا وهو الكتابة تحت مراقبة الرقابة البروسية . صحيح ان الاخوة باور فيما لـو اتت الى ذهنهم ارادة حل التناقضات التي يفضحونها لسرعان ما اعوزتهم الموهبة التي يفاخرون بهـا ولاصبح طريق المنفى المخرج الوحيد بالنسبة لهم . باور مغرم بهذه العادة المهووسة في نقد كل شيء لدرجة انـه كتب لي منذ أمد قصير انه يجب ان لا ننتقد فقط وببساطة المجتمع ، الامتيازات ، الملاكين ، بـل يجب ايضا ، وهذا امر لم يفكر به احد الى هنا ، نقد البروليتاريين ، كما لو ان نقد الاغنياء والملكية والمجتمع ليس مشتقا من نقد وضع البروليتاريا اللاانساني والشائن . اكتب لي ماذا تنوي عمله ضد برونو باور، اذا كنت لا تريد ان تكرس وقتا لهذا النقد ، فاننا ، انا وهس ، نفكر باستخدام رسائلك لنجعل منهـا مقالا . »

الشيوعية، و «ما هو الان موضوع النقد ؟» الذي كان بمثابة برنامج **النقد النقدي** (١).

ماركس ، الذي كان قد هاجم بحدة برونو باور في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، حيث كان قد أعلن عن نقد عام لـ **النقد النقدي** (٢) ، تحدث مع انجلز عن هذا المشروع . اتفقا بسرعة على انه من الضروري فضح كلامولوجيا هذا النقد وطابعه الرجعي الموسوم بهجماته ضد « الجمهور » ، أي ضد الطبقة العاملة وضد الليبرالية والشيوعية ، الهجمات التي كان يقنعها بمظاهر شبه ـ ثورية .

انجلز كتب بسرعة ما كان عنده ليقوله ودهش لسماعه بعد عدة أسابيع المدى الذي يعطيه ماركس لحربهما . بينما في ذهنه كان يجب أن تبقى هذه المناظرة في حدود تصفية حساب سريعة تحقق بأسلوب ساخر ، فقد حوّلها ماركس مع احتفاظه بهذا الاسلوب الى مناقشة معمّقة لكل المسائل التي يضعها **النقد النقدي** ، بحيث أن ما كان مفروضا أن لا يكون سوى كراس تحوّل الى مؤلف كبير .

كان الامر الجوهري بالنسبة لانجلز وخصوصا بالنسبة لماركس ان يحددا ، بمساعدة هذا النقد ، وضع تصوراتهما الخاصة . وهذا ما يفسر عظيم أهمية **العائلة المقدسة** في تشكل فكرهما . وقد أشارا الى الخطوط الكبرى لنقدهما في المقدمة حيث قالا : ((**الانسية الواقعية** ليس لها في المانيا عدو أشد خطرا من **الروحانية** أو **المثالية النظرانية** التي تحل محل **الفرد الواقعي** الـ « وعي » أو الـ ((**روح**)) والتي تعلّم مع الانجيل « ان الروح هي التي تحيي وان الجسد يستحق الاهمال » . غني عن البيان ان هذه الروح التي لا جسد لها ليس لها واقعية الا في خيالها . ما نكافحه في مثالية **باور** هو المضاربة التأملية الفلسفية التي تتخذ عنده شكلا **كاريكاتوريا** . انها بالنسبة لنا التعبير الناجز للمبدأ **المسيحي ـ الجرماني** الذي ، في تجليه الاخير ، يحوّل النقد الى قوة متعالية خارقة .

ان عرضنا يتصل على نحو رئيسي **بالصحيفة الادبية العامة** لبرونو باور ، التي بين أيدينا أعدادها الثمانية الاولى ، اذ هنا بلغ نقد ب. باور ومعه حماقة **النظران الالماني** أوجهما . ومما يزيد فائدة **النقد النقدي (نقد الصحيفة الادبية العامة)** التنويرية أنه يكمل تشويه الواقع بالفلسفة ، محوّلا اياه الى كوميديا ، وهذا ما يفعله بشكل خاص فاوخر Faucher وشيليغا Szeliga . **فالصحيفة الادبية العامة** تقدم العناصر التي تسمح بافهام حتى الجمهور الكبير أوهام الفلسفة النظرانية . ذلك هو هدف عملنا (٣) . »

---

(١) انظر الصحيفة الادبية العامة (ومن الان سنرمز اليها باحرفها الاولى ص. ا. ع.) ، الدفتر الثامن ، ص ص ١ ــ ٨ ، ١٨٤٢ ، ص ص ١٨ ــ ٢٦ ، ما هو الان موضوع النقد ؟

(٢) انظر ميغا ، ١ ، حـ٣ ، ص ص ٣٣ ، ٣٤ ــ ٣٥ .

(٣) ميغا ، ١ ، حـ٣ ، ص ١٧٩ .

الكتاب ، الذي يتألف من سلسلة من الانتقادات المتباينة الى حد لا بأس بـه ، يبـدأ ببضع مناوشات من انجلز ضد عاملين ثانويين في **الصحيفة العامة الادبيـة** : رايشهاردت ، يونغنتس ، فاوخر .

انجلـز ، أولا بأول ، يصفي بسرعـة حساب المجلد ـ السيد رايشهـاردت Reichhardt ، الذي لم يكن ، بعد اعلانه في تحليل لحالة الطبقة العاملة ضـرورة انهاء الاثراء الفاضح لدى البعض الذي يقابله بؤس الآخرين ، قد وجد حلا اخر لهذه المشكلة سوى اللجوء الى حكمة الملك (١) .

ثـم وجه انجلز ضرباته ضد أرنست يونغنتس Yungnitz ، الذي كـان ، بمناسبة اجراء متخذ ضد كارل ناوفرك ، الاستاذ في جامعة برلين ، قد اتهم كليـة الفلسفة في هذه الجامعة بالجبن في الدفاع عن هذا الاخير ، مع امتناعه تماما عن ذكر أية اجراءات كان يجب ان تتخذ لهذا الغرض (٢) .

بهجومه على جول فاوخر Faucher ، كان انجلز يتوجه الى خصم أكثر جدية، وفي الوقت نفسه يتعرض لمسائل ذات فائدة أعم . ج. فاوخر ، الذي كان يعـرف جيدا المسائل الانكليزية ، كان قد نشر في **الصحيفة الادبية العامة** مقالا طويلا عـرض فيه عواقب الغاء رسوم دخول الحبوب وادخال يوم العمل ذي العشـر ساعات (٣) . معتمدا على التصور الريكاردوي ، الذي يرى ان الاجور لا تستطيع أن تتجاوز معدلا أعلى ، كان يفكر ان هذين التدبيرين سيظلان بلا آثار على حالة العمال ، فالغاء رسوم دخول الحبوب لا بد أن يؤدي الى هبوط أكلاف المعيشة ومعه هبوط الاجور ، بينما ادخال يوم العمل ذي العشر ساعات بتسريعه استخدام الآلات سيزيد البطالة وبالتالي سيؤدي هو أيضا الى انخفاض في الاجور .

---

(١) ميغا ، ١ ، حـ٣ ، ص ص ١٨٠ ـ ١٨٢ . ف. انجلز : النقد النقدي في وجه سيد ـ مجلد او النقـد النقدي في ملامح السيد رايشهـاردت . انظر ص.أ.ع. ، الدفتر الاول ، ديسمبـر ١٨٤٣ ، ص ص ١٧ ـ ١٩ ، كارل رايشهاردت : مؤلفات عن الفقر ، كفاح النقد ضد تناقضات الازمنة الحديثة .

(٢) المرجـع نفسه ، ص ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ، عمق النقد النقدي او النقد النقدي في ملامح السيـد ي. (يونغنتس) . انظر ص.أ.ع. ، الدفتر الرابع ، أيار ١٨٤٤ ، ص ص ٢١ ـ ٢٢ . ا. يونغنتس : عـن المشاركة في الدولة ، لكارل ناوفرك ، لايبتسيغ ، فيغان ، ١٨٤٤ . انظر المرجع نفسه ، الدفتـر السادس ، أيار ١٨٤٤ ، ص ص ١٧ ـ ٢٠ ، ي. : السيد ناوفرك وكلية الفلسفة .

(٣) ميغا ، ١ ، حـ٣ ، الدفتر السابع ، حزيران ١٨٤٤ ، ص‌ص ١ ـ ١٨ ، الدفتر الثامن ، تمـوز ١٨٤٤ ، ص‌ص ٢٨ ـ ٣٨ ، الدفتـر التاسع ، آب ١٨٤٤ ، ص‌ص ٣٠ ـ ٣٢ . ج. فاوخر : مسائـل راهنة انكليزية . انجلز لم يستخدم في نقده القسم الاخير من هذا المقال .

في نقده لفاوخر (١) ، انجلز يعترض بقوله ، من جهة ، ان الغاء رسوم الدخول على الحبوب لن يؤدي بالضرورة الى هبوط في الاجور ، نظرا الى أن هذه الاجور قد خفضت الى الحد الاقصى وأن العمال لن يسلموا بهبوط جديد ، ومن جهة أخرى ، ان تقصير يوم الشغل سيستتبع اضعاف الصناعة الانكليزية بتسهيله المزاحمة الاجنبية (٢) .

ثم ، موجها هجماته ضد برونو وادغار باور ، كان أنجلز يقوم بنقد عام لمبادىء **النقد النقدي** (٣) .

رغم كونه يرعد ضد المثالية ويتبجح باحلاله محل فلسفة هيغل المجرّدة فلسفة تزعم احتواء « كل ثروة الحياة الانسانية والمضمون الهائل للتاريخ » (٤) ، ان **النقد النقدي** ، بتحويله كل الواقع الى مقولات مجردة ، يشكل ، على حد قول انجلز ، كاريكاتورا للتاريخ وأيضا لهيغل الذي عرض ، في شكل مصوّف ، المحتوى الواقعي للتاريخ .

بالواقع ، ليس ب. باور بل فويرباخ هو من كشف عدم المثالية ، محلا محل جدل المفاهيم المجرّدة تاريخ البشر الحقيقي (٥) .

---

(١) المرجع نفسه ، صص ١٨٢ ـ ١٨٧ . ف. انجلز : النقد النقدي مجسدا من قبل « طحان » او النقد النقدي في ملامح السيد ج. فاوخر .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ١٨٥ ـ ١٨٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ١٨٨ ـ ١٩٠ . ف. انجلز : « النقد النقدي في شكل طمانينة المعرفة او النقد النقدي في ملامح السيد ادغار : ١) فلورا تريستان Flora Tristan عن الاتحاد العمالي ٢) بيرو Béraud عن البغايا .

انظر ص.أ.ع ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ ، ص ص ١٨ ـ ٢٣ . ا. باور : الاتحاد العمالي ، بقلم السيدة فلورا تريستان ، اصدار شعبي ، باريس ، ١٨٤٣ . كذلك صص ٢٥ ـ ٣٥ : بيرو عن البغايا . انظر ميغا ، ١ ، ح٣ ، صص ٢٦٤ ـ ٢٦٧ ، ف. انجلز : الحملة الثانية للنقد النقدي ضد هينريش Hinrichs ، ح٢ ، النقد وفويرباخ . ادانة الفلسفة . انظر ص.أ.ع ، الدفتر الخامس ، ص ص ٢٣ ـ ٢٥ . (ب. باور) : محاضرات هينريش السياسة ، ح٢ ، ١٨٤٣ .

في هذه المحاضرات ، حيث كان يرسم لوحة عامة عن أوروبا وبخاصة عن المانيا، كان هينريش قد فضح عدم النقد النقدي ، من هنا حملات ب. باور عليه .

(٤) ميغا ، ١ ، ح٣ ، ص ٢٦٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٦٥ . « ولكن من الذي كشف سر المنظومة (منظومة هيغل ـ ا.ك.) ؟ انه فويرباخ . من الذي اباد جدل المفاهيم ، حرب الآلهة ، الحرب الوحيدة التي عرفها الفلاسفة ؟ انه فويرباخ . من الذي أحل محل كل الركام المثالي العتيق وأيضا محل « وعي الذات لا حد له » ، لا « أهمية الانسان » ـ وكأن الانسان يمكن ان يكون ذا أهمية اخرى غير اهمية كونه انسانا ! ـ بل الانسان نفسه ؟ فويرباخ وفويرباخ فقط . فعل اكثر ايضا . اباد منذ فترة طويلة المقولات التي يطيب للنقد ان يشعوذ بها : « غنى الحياة الانسانية الحقيقي ، محتوى التاريخ الهائل ، معارك التاريخ ، صراع الجمهور ضد الروح » ، الخ » .

بتحويله الواقع الى مقولات مجرّدة يستطيع أن يلعب بها ما يشاء من العاب الخفة ، **النقد النقدي** أفقر الفلسفة الهيغلية الى الحد الاقصى . فكل ثروة المقولات الهيغلية قد قلصت من قبله الى مقولتين : « الروح » و « الجمهور » ، كل التاريخ يتلخص بالنسبة اليه في الصراع بين هاتين المقولتين ، حيث العنصر المحرّك هو الروح ، بينما « الجمهور » يؤلف العنصر اللاعقلي والخسيس الذي يقف عقبة أمام تطور الروح (١) . هذا يسمح له بأن يرسم كما يريد ، بوصفه تجسيدا للروح ، سير التاريخ (٢) . ويرد انجلز : « ان **التاريخ لا** يصنع **شيئا ، لا** يملك « ثروات جبارة » ، « لا يخوض معارك » ، ان الانسان الواقع ، الحي ، هو وحده الذي يحقق ويحوز كل شيء ويخوض المعارك ، التاريخ لا يستخدم البشر ليحقق غاياته ، كما لو كان هو شخصا خاصا ، انه ليس شيئا اخر سوى فاعلية الانسان الذي يسعى الى تحقيق غاياته (٣) » .

هذا التصور المثالي للانسان والعالم والتاريخ يفسر بطلان الاحكام التي يصدرها **النقد النقدي** على كل المواضيع التي يتناولها ، بخاصة على فلسفة عصر الانوار وعلى الاشتراكية .

في حين أن ب. باور كان ما يزال في سنة ١٨٤٣ ، في كتابه **المسيحية المكشوفة** ، يمتدح فلسفة الانوار التي كان يقول عنها انها ثوّرت العالم ، فهو الان يدينها على كونها لم تستطع الخروج أو التحرر من زمنها ، الامر الذي جعلها عاجزة عن الفعل فيه (٤) .

ان الموقف الرجعي ذاته يتجلى في الحكم الذي يصدره ا. باور على حركة العمال وعلى الاشتراكية .

فهو يدين الاشتراكية التي يرفض لها أي منظور مستقبل ، مفكرا انها وصلت الى حدها مع مذهب فوريه . ويرد انجلز بقوله ان الاشتراكية ، بعيدا عن أن تكون قد استنفدت قابلياتها على التطور مع الفوريرية و « الديمقراطية السلمية » لـ ف. كونسيديران V. Considérant ، لا تكف عن التطور وقد وجدت شكلها الحقيقي

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٦٥ . « لما كان الانسان قد جرى الاعتراف به والتعرف عليه بوصفه يشكل جوهر ، أساس الفاعلية الانسانية والعلاقات الانسانية ، فقد كان النقد وحده ما يزال قادرا على اختراع مقولات جديدة ، على تحويل الانسان نفسه الى مقولة وعلى جعله مبدأ سلسلة كاملة من المقولات ... ». انظر ص ٢٦٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٣ . « ان النقد الذي يكفي ذاته بذاته ، الذي هو ناجز كامل ، لا يستطيع بطبيعة الحال ان يقبل التاريخ كما جرى فعليا ... بما ان التاريخ معرى من طابعه « الكتلي الجماهيري » فان النقد ، الذي ياخذ كامل الحرية مع موضوعه ، يستطيع أن يقول له « هكذا وليس على نحو اخر جريت ! » . »

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٦٥ . (٤) ص ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

في الشيوعية (١) .

موسعا احتقاره الاشتراكية الى الطبقة العاملة ، ا. باور يزعم أن العامل لا يستطيع أن يخلق شيئا ذا ديمومة وجدية ، لان شغله هو بالجوهر شغل منعزل وجزئي ، خالصا من ذلك الى عبث الجهود التي يبذلها الاشتراكيون ولاسيما فلورا تريستان بغية تحريره (٢) .

بالواقع - يقول أنجلز - العامل هو الذي يخلق كل شيء وأهمية دوره الاجتماعي تقاس بعدم **النقد النقدي** . ان ما يعذّب الشغيل ليس طابع شغله « الجزئي المعزول » بل طابعه اللا انساني الناتج عن الاستغلال الرأسمالي . من هنا ضرورة انعتاقهم وبذلك عينه تسويغ العمل الذي تقوم به فلورا تريستان لتنظيم العمال بغية تحريرهم (٣) .

ويخلص انجلز الى أن ليست الاشتراكية هي التي تظهر آثار انهاك بل **النقد النقدي** الذي ليس ، برغم شتائمه ضد الدوغمائية ، سوى الشكل المجرّد والكاريكاتوري للفلسفة الهيغلية (٤) .

انتقادات ماركس

في نقده **للنقد النقدي** ، كان ماركس يبسط نفس الفكرة الاساسية ، ولكن بكيفية اكثر تعميقا . مؤجلا الى فترة لاحقة تحريره لمؤلفه عن الاقتصاد السياسي ، كان يكرّس نفسه بالكامل لهذا النقد ويستخدم من أجله ليس فقط **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** بل أيضا دراساته عن المادية الانكليزية والفرنسية وعن الثورة الفرنسية .

هذا النقد ، الذي كان بالنسبة له كما بالنسبة لانجلز مصدر فرح كبير ، كان

---

(١) ص ٣٢٠ .

(٢) انظر ص.ا.ع. ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ ، ص‌ص ١٨ - ٢٣ . ا. باور : الاتحاد العمالي ، بقلم السيدة فلورا تريستان ، الاصدار الشعبي ، باريس ، ١٨٤٣ .

فلورا تريستان (١٨١٣ - ١٨٤٤) كانت تريد تأسيس اتحاد عام لكل الشغيلة الفرنسيين . كل عضو كان عليه أن يدفع اشتراكا سنويا قدره فرنكان ، وغرض هذه الاشتراكات ان تخدم في تامين حق العمال في الشغل بتنظيم هذا الاخير .

(٣) ميغا ، ١ ، ح٣ ، ص ١٨٩ . « النقد النقدي لا يخلق شيئا ، العامل هو الذي يخلق كل شيء وذلك لدرجة انه يلقي العار على كل النقد بابداعات روحه ، والبرهان يعطيه العمال الانكليز والفرنسيون . »

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٨٩ . « النقد يكتفي بان يحول الى صيغ مقولات الواقع ، وبخاصة فلسفة هيغل والمطامح الاجتماعية ، فاعليته تستنفد في هذا الخلق لصيغ . رغم شتائمه على الدوغمائية ، يحكم على نفسه بالدوغمائية . »

يقدم له فرصة بسط وانماء وتطوير تصوره الجديد للتاريخ بمساعدة تحليل عدد من المسائل الفلسفية والاجتماعية . وهذا يفسر انه رغم تنوع المواضيع المعالجة ورغم الاستطرادات العديدة فان انتقاداته تتسم بوحدة عميقة .

تسهيلا لفهمها ، يبدو ضروريا ان نجمعها في التسلسل الآتي . ١) نقد عام للفلسفة النظرانية وللنقد النقدي . ٢) الثورة الفرنسية . ٣) المادية الانكليزية والفرنسية . ٤) الاشتراكية . ٥) برودون . ٦) المسألة اليهودية . ٧) « أسرار باريس » ، تأليف سو Sue .

١ . نقد عام للفلسفة النظرانية وللنقد النقدي

في تفنيده **للنقد النقدي** ، ماركس يذهب من تحليل للفلسفة النظرانية ، يلخص فيه ، من وجهة نظر جديدة ، التحليل الذي كان قد انشأه في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** . ان الفلسفة النظرانية ، على حد قوله ، وبخاصة فلسفة هيغل ، تجعل من الواقع العياني محمولا للفكرة ، من الروح جوهر العالم ، ومن التاريخ انبساط الروح . ان روحنة العالم هذه تتعبَّر على النحو الاكمل في **فينومينولوجيا الروح** حيث هيغل يحل محل الانسان وعي الذات ، محل الطبيعة وعي الانسان لها ، ومحل تطور الانسان والطبيعة تطور الروح . هكذا يتحول العالم الى جملة من المفاهيم التي تنبسط بكيفية جدلية ، بحيث ان كل تاريخ الانسان والطبيعة مقلص الى العلم Savoir . الواقع العياني ، المحذوف في النظرية على يد الفلسفة النظرانية ولكن الباقي بالفعل ، يصير ، بوصفه غير موافق للروح وعائقا أمام تطوره ، العنصر المطلوب حذفه ، الامر الذي يحققه هيغل بروحنته (١) .

(١) ميغا ، ١ ، ح٣ ، ص ٢٧٠ . « ان فينومينولوجيا هيغل هي التي تعطي مفتاح سر جسارة باور. بما ان هيغل يحل هنا محل الانسان وعي ـ الذات ، فان الواقع الانساني في هيئاته المختلفة يظهر شكلا محددا ـ معينا ، تحديدا ـ تعيينا لوعي الذات . ولكن محض تحديد بسيط لوعي الذات هو « مقولة محضة » ، « فكرة » خالصة طاهرة ، أستطيع ، بذلك عينه ، ان احذفها وان اتجاوزها في الفكر « الخالص » . في فينومينولوجيا هيغل ، القواعد المادية ، الحسية ، الموضوعية ، لمختلف الاشكال المنخلعة لوعي الذات تبقى بلا تغير ، وكل هذا العمل المدمر يفضي الى اشد الفلسفات محافظة ، لانه يتصور أنه انتصر على العالم الموضوعي ، على العالم المحسوس الواقعي ، فور كونه حوله الى فكرة ، الى محض تحديد لـ وعي الذات ، الامر الذي يتيح له أن يحذف خصمه الذي صار أثيريا ، في « أثير الفكر الخاص » . الفينومينولوجيا تنتهي على نحو طبيعي تماما الى احلال العلم المطلق محل مجموع الواقع الانساني ، لان العلم هو نمط الكينونة الوحيد لوعي الذات ولان هذا الاخير معتبر النمط الوحيد لوجود الانسان ، لانه في العلم المطلق لا يبقى لوعي الذات المنطوي على ذاته عالم موضوعي يزعجه . هيغل يحول الانسان الى وعي ذات بدلا من ان يعتبر وعي الذات وعي الانسان الواقعي لذاته ، وعي ذات الانسان الواقعي الذي يعيش في عالم واقعي ، موضوعي ، والمحدد من قبله . بهذا التحويل ، يستطيع ←

في تحليل لمفهوم الفاكهة كله دعابة ، يعرض ماركس آلية الفلسفة النظرانية (١). يقول انه اذا حوّلنا وقلصنا الفواكه المختلفة : تفاح ، اجاص ، الخ ، الى مفهوم الفاكهة واذا جعلنا هذا الاخير جوهر كل الفواكه ، ماهيتها الحقيقية أو مادتها الحقة، نكون حوّلنا الفواكه الواقعية الى تخرجات ، الى أنماط كينونة مفهوم الفاكهة . الامر الجوهري في الفواكه المختلفة ، تفاح ، اجاص ، لا يكون بعد الان كينونتها الخاصة ، كيانها الواقعي ، بل مفهوم الفاكهة الذي أخذ مكانها . الفواكه الواقعية لم تعد سوى أشكال ظاهرية يؤلف مفهوم الفاكهة ماهيتها ، مادتها .

بعد أن حوّل هكذا الثمار المختلفة الى مفهوم الثمرة ، يجب على النظران لكي يصل ، على الاقل في الظاهر ، الى محتوى واقعي ، أن ينتقل من مفهوم الثمرة الى الثمار الواقعية . ولكن ، لئن كان من السهل ان نسحب ، بأسلوب التجريد ، من الثمار المختلفة ، مفهوم الثمرة ، فانه من غير الممكن ، ذهابا من هذا المفهوم ، أن نصل الى الثمار الواقعية ، الا بالتخلي عن التجريد (٢) .

هذا ما تفعله ، ولكن في الظاهر فقط ، الفلسفة النظرانية . على حد قولها ، اذا كانت الثمار ، التي ليست موجودة فعلا الا بوصفها ماهية روحية ، الا بوصفها مفهوم الثمرة ، اذا كانت تظهر تحت أشكال متنوعة ، وهذا أمر مضاد لوحدة الماهية، فان ذلك يأتي من كون مفهوم الثمرة ليس كيانا ميتا ، بل واقع حي دائما في سير انبساط . الثمار الواقعية : تفاح ، اجاص ، الخ ، ليست الا تعبيرات مختلفة ، درجات متتالية ، لانبساط مفهوم الثمرة الذي يشمل كل الثمار (٣) .

هكذا فالفلسفة النظرانية ، بعد تحويلها وتقليصها الموضوعات المختلفة الى ماهية مجردة ، الى مفهوم ، تخلقها ثانية جاعلة منها تخريجات لهذا المفهوم . الموضوعات العيانية تفقد من جراء ذلك طابعها الخاص ، لا يبقى لها وجود واقعي ، وهي تصبح كائنات وهمية ، محض تظاهرات لمفاهيم . صفتها الجوهرية ليست

←

هيفل ان يحذف بالفكر كل الحدود ـ التخوم التي تبقى بشكل طبيعي بوصفها حدودا تحد الواقع العياني للانسان الواقعي . بالضرورة انه يعتبر حدا يجب حذفه كل ما يظهر حدا يحد الوعي الكلي ، أي الواقع المحسوس ، خصوصية البشر وعالمهم . كل الفينومينولوجيا تتجه الى تبيان أن وعي الذات يشكل الواقع الوحيد وكل الواقع . » .

(١) المرجع نفسه ، ص ص ٢٧٢ ـ ٢٣٢ . سر البناء النظراني . أنظر الاعمال الفلسفية ، ترجمة ج. موليتور J. Molitor ح٢ ، العائلة المقدسة ، باريس ، الفريد كوست ، ١٩٢٧ ، ص‌ص ٩٩ ـ ١٠٦ (من الآن سنذكر هذا المرجع تحت عنوان موليتور) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

(٣) ص ٢٢٩ .

صفتها الطبيعية ومبررها الوحيد كونها تحققات ، درجات تطور ، لمفاهيم (١) .

الانسان العادي لا يعتقد انه يصرّح بشيء ما مدهش حين يقول هناك تفاح واجاص ، أما الفيلسوف النظراني فهو حين يصرّح بهذه الحقيقة نفسها يحقق معجزة . اذ أنه ، بفعل خلق سري ، يسحب من روحه ، من ذهنه ، الذي يتمثله في شكل ذات مطلقة ، موجودة خارجه ، موضوعات عيانية ، من هويات مجردة ، من مفاهيم ، هنا من مفهوم الثمرة ، يسحب ثمارا واقعية ، تفاحا ، اجاصا ، ويحقق هكذا ، في كل وجوده العياني الذي يصرّح به ، معجزة (٢) . هذا الخلق العجيب ، لا يستطيع الفيلسوف النظراني ، بالحقيقة ، أن يحققه الا بتحميله الموضوعات التي يخلقها الصفات التي لها واقعيا ، الا بتحديد مجرداته بحسب طابع الموضوعات الواقعي الفعلي . هذا الاسلوب في الخلق بالفاعلية المستقلة للروح المعتبر ذاتا مطلقة هو ما يطبع الفلسفة النظرانية (٣) .

هذه الفلسفة النظرانية بلغت ذروتها مع **النقد النقدي** . **فالنقد النقدي** فاقم الطابع النظراني للفلسفة الهيغلية ، باعادة الروح المطلق لهيغل الى وعي الذات الذي ينبسط ، بعكس الروح المطلق ، لا في وحدته التي لا تنحل مع العالم ، بل في معارضته اياه وبتحويله جملة العلاقات الانسانية الى مقولات مجردة يدمرها وعي الذات بوصفها تعيينات خاصة لكينونته وبالتالي غير مطابقة .

النقد النقدي يشكل افقارا كبيرا جدا للفلسفة الهيغلية ، حيث تطور الفكرة ، بوصفها ذاتا ــ موضوعا ، كان مرتبطا ارتباطا لا ينحل بتطور العالم . مقلصا الى تطور الوعي الكلي المعتبر في علاقاته مع الماهية ، المتصورة هي أيضا على نحو مجرد كمجموع التحديدات الخاصة لهذا الوعي ، التاريخ يصير أكثر أيضا مما هو عند هيغل حركة محض روحية (٤) .

من جراء ذلك ، ليس **النقد النقدي** ، كما يتبجح ، هو الذي تجاوز الفلسفة الهيغلية ، التي لم يفعل سوى مفاقمة طابعها التأملي المضارب ، بل فويرباخ الذي باحلاله محل الفكرة المطلقة الانسان ، العياني ، المعتبر في علاقاته مع الطبيعة ومع

---

(١) ص ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

(٢) ص ٢٣٠ .

(٣) ص ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٤) ص ٣٧١ . « من البدهي انه ، لئن كانت فينومينولوجيا هيغل ، رغم لوثتها الاصلية ، تقدم في نقاط كثيرة عناصر تحديد واقعي لطابع الشروط الانسانية ، فان السادة برونو وشركاه لا يعطوننا سوى كاريكاتور عنها ، بعزلهم هذا الطابع الخاص او ذاك لفكرة او شروط وحركات واقعية بغية تحويله الى تعيين ، الى مقولة ، يقدمونها بوصفها عنصرا مميزا لهذه الفكرة ، لهذه الشروط ، لهذه الحركات ، ومن ثم يدينونها بتعال رفيع ، من وجهة نظر عامة مجردة ، من وجهة نظر الوعي الكلي ، بوصفها ليست سوى تعيين خاص لهذا الاخير . » .

البشر الآخرين ، دمر جدل المفاهيم الخاص بالفلسفة النظرانية (١) .

بنقد د. ف. شتراوس D. F. Strauss أنمى ب. باور الملامح الجوهرية للفلسفة النقدية . الصراع بين شتراوس و ب. باور يقع داخل الفلسفة الهيغلية التي تتضمن ثلاثة عناصر : ماهية سبينوزا ، وعي الذات لفيخته ، والروح الذي هو تركيبهما . العنصر الاول ، الماهية ، هو القناع الميتافيزي للطبيعة ، المعتبرة خارج الانسان . العنصر الثاني ، وعي الذات ، هو القناع الميتافيزي للانسان ، المعتبر خارج الطبيعة . العنصر الثالث ، الروح ، هو القناع الميتافيزي لوحدتهما الحقيقية ، القناع الميتافيزي للانسان الواقعي . شتراوس بسط العنصر الاول في فلسفة هيغل ، جاعلا الماهية المطلقة ، ب. باور بسط الثاني ، معتبرا ان هذا الثاني قوامه الوعي الكلي . بانمائهما على نحو منطقي منسجم واحدا من مبادىء الفلسفة الهيغلية ، بقيا كليهما في ميدان التأمل المضارب ، شتراوس بجعله الماهية و ب. باور بجعله وعي الذات ، ذاتا ميتافيزية ، مطلقة (٢) .

متجاوزا هيغل ، الذي كان يعيد انبساط التاريخ الى انبساط الروح الموضوعي الذي لا يأخذ الفيلسوف وعيه الا بعد تحققه الواقعي (٣) ، ب. باور يجعل من الوعي الكلي الذي يتجسد في الارواح ـ النخبة اي في الفلاسفة « النقديين » العنصر الخالق والضابط المنظم للتاريخ (٤) .

ان انبساط التاريخ ، المعاد الى انبساط الوعي الكلي ، يحصل ، لا كما عند هيغل حيث هو نتيجة حركة الروح الموضوعي الجدلية في اتحاد وثيق مع العالم ، بل في تعارض معه ، مع الماهية المحولة الى مقولات ، الى تحديدات خاصة تعارض كلية

---

(١) ص ٣١٦ . باحلاله محل الروح المطلق ، الميتافيزي ، الانسان الواقعي المؤسس على الطبيعة ، فويرباخ أكمل مع نقد هيغل ... نقد الدين ، ووضع المبادىء الخادمة كاساس لنقد النظران الهيغلي وبالتالي كل ميتافيزياء . »

(٢) ص ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

(٣) ص ٢٥٧ . « التصور التاريخي لهيغل يفترض روحا مجردا او مطلقا ينبسط على نحو لا تكون معه البشرية سوى كتلة تخدمه ، بشكل واع كثيرا أو قليلا ، كمسند . انه اذا يجعل تاريخا نظرانيا باطنيا يجري في اطار التاريخ التجريبي ، الظاهري . وتاريخ البشرية يغدو تاريخ روح البشرية المجرد ، الغريب عن الانسان الواقعي . »

(٤) ص ص ٣١٤ ـ ٣١٥ . « عند ب. باور ، وعي الذات هو ايضا الماهية المحولة الى وعي ذات او وعي الذات المحول الى ماهية ، بدلا من أن يكون محمولا للانسان ، وعي الذات يغدو هكذا ذاتا مستقلة . ذلك هو الكاريكاتور الميتافيزي ـ اللاهوتي للانسان المفصول عن الطبيعة . ان جوهر وعي الذات هذا ليس اذا الانسان ، بل الفكرة ، التي هو يؤلف وجودها الواقعي . انه الفكرة المجسدة وبالتالي اللامتناهية . »

الوعي ويلغيها الوعي حسب مشيئته (١) .

بنفي كل ماهية ، **النقد النقدي** يلغي الطبيعة سواء في شكلها الخارجي ازاء الانسان أو بوصفها عنصرا مكوّنا لكينونته ، ويفضي هكذا الى نفي كل موضوع وكل كائن مختلف عن نفسه (٢) .

ان روحنة العالم هذه التي كانت تميز سابقا الفلسفة الهيغلية والتي يكملها ب. باور تفسر التماثل الذي يقيمه بين النظرية والممارسة ورفضه لكل نظرية وكل ممارسة تضع لنفسها مهمة أخرى غير مهمة الغاء مقولات خاصة على يد الوعي الكلي (٣) .

---

(١) ص ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ . « عند هيغل ايضا كان الروح المطلق للتاريخ يستعير مواده من الجمهور ــ الكتلة ، ولكنه لا يجد تعبيره الحقيقي الا في الفلسفة . الا ان الفيلسوف ليس ، عنده ، سوى الاداة التي تخدم الروح المطلق ، خالق التاريخ ، في اخذ وعي نفسه بعد انجاز التاريخ . في هذا ينحصر نصيب الفيلسوف في تطور التاريخ الذي يحققه الروح المطلق بكيفية غير واعية ، انه لا يتدخل الا بعد تحققه الواقعي .

باور يوجه لوما مزدوجا لهيغل . مع اعلانه ان الفلسفة تشكل وجود الروح المطلق ، هيغل يمتنع عن اعتبار الفيلسوف من حيث هو فرد تجسيدا للروح المطلق . من جهة أخرى ، في الظاهر فقط التاريخ محقق من قبل الروح المطلق . بما ان هذا الاخير لا يعي ، على يد الفيلسوف ، الا بعد وقوع الوقائع ، أنه الروح الخالق للعالم ، فان خلقه للتاريخ غير موجود فعلا الا في الوعي ، في روح الفياسوف ، أي في التخيل النظراني . باور يصحح هاتين النقيصتين باعلانه من جهة ان النقد هو الروح المطلق وانه هو يجسد النقد . بما ان « الجمهور » مطرود من النقد و النقد مطرود من « الجمهور » ، فان النقد يعلم أنه يتجسد لا في « الجمهور » بل في نخبة صغيرة تتالف فقط من السيد باور وحوارييه . يصحح نقيصة هيغل الاخرى بادائه ــ بخلاف روح هيغل الذي لا يعي نفسه الا بعد خلقه التاريخ ــ بكيفية واعية وبمعارضة جمهور البشرية دور روح العالم ، بتحديده بكيفية واعية ومتبصرة سير التاريخ بالمعارضة التي يقيمها بينه وبين الجمهور . »

(٢) ص ص ٣١٨ ــ ٣١٩ . « السيد باور ، الذي يبسط في كل الميادين فلسفته عن وعي الذات أو عن الروح بمعارضة الماهية ، لا يمكن ان يكون له عمل في كل الميادين الا مع اختراعاته . النقد يخدمه في تحويل كل ما يزعم امتلاك وجود مادي خاص خارج الوعي الكلي الى محض ظاهر عادي ، الى فكرة خالصة . ما يكافحه في الماهية ليس الوهم الميتافيزيقي بل هو الواقع المادي للطبيعة كما هي موجودة خارج الانسان وكما هي ايضا تؤلف كينونته . نفي الماهية في كل الميادين يعني اذا بالنسبة له عدم الاعتراف باي كائن مختلف عن الفكرة ، باية قدرة طبيعية مختلفة عن الروحية ، باية فاعلية انسانية مختلفة عن النظرية ، باية جماعة انسانية مختلفة عن عمومية المجردات ، باي انت مختلف عن الأنا . ب. باور اذا منسجم مع نفسه، حين يذهب الى حد مماثلة ذاته مع الوعي الكلي ، مع الروح ، والى احلال خالقهما محلهما . كذلك منطقي من جانبه أن يرفض كجمهور محدود ضيق ومادة بخسة العالم الذي يعاند في اعتبار نفسه شيئا ما مختلفا عن مخلوقات ذهنه . »

(٣) ص ٣٧١ . « لما كان « العالم الديني بوصفه كذلك » غير موجود الا بوصفه عالم وعي الذات ، فان الناقد النقدي الذي هو بالجوهر عالم لاهوت لا يستطيع ان يتصور انه من الممكن وجود عالم فيه الكائن مختلف عن الوعي ، عالم يبقى موجودا حين أحذف وجوده الروحي ، وجوده من حيث هو مقولة



النظرية ، التي تتطابق في الهورية مع الممارسة على النحو المذكور ، لها كموضوع واحد وحيد تدمير كل ماهية لها وقاحة زعم وجود مستقل عن الوعي الكلي ، وهـذا الوعي الشمولي ينتصر عليها بسهولة بمجابهة خصوصيتها مع شموليته (١) .

ان انبساط التاريخ ، المعاد الى التعارض بين الوعـي الكلـي والماهية ، يتقلص بالواقع الى التعارض بين الوعي الكلي و « الجمهور » ، الذي يرمز الى العنصر المادي غير القابل لنفوذ الروح . كل اعلاقات البشرية ، كل العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، معادة الى علاقة اساسية واحدة ، الى العلاقة التـي تقوم بين الحكمة المطلقة **للنقد النقدي** ، تجسيد الوعي الكلي ، وحماقة او تفاهة الجمهور المطلقة ، التي ليس لها قياس ولا علاج ، العلاقة التي يقلص اليها ب. باور كل التاريخ الانساني (٢).

ان « الجمهور » متصورا هكذا ، هو ، على حـد قـول ماركس ، مختلف كـل الاختلاف عن الجمهور الواقعي الذي يمثل مجموع البشر ، هذا « الجمهور » ، المقلص الى مقولة مجردة والذي دوره ان يكون ، بوصفه نفـي الوعي الكلي ، عنصر التاريـخ المنفعل ، ليس موجودا في هذا الشكل الا بالنسبة **للنقد النقدي** (٣) .

هذا التعارض بين الوعي الكلي و « الجمهور » ليس الا شكلا واحـدا للتعارض بين الله او الروح المطلق والعالم ، الـذي هـو أساس وجوهـر الفكـر الهيغلـي

فكر ... اي حين اعدل وعيي الذاتي دون ان اعدل بشكل عياني الواقع الموضوعي اي دون ان اعـدل واقعي الموضوعي الخاص ، واقعي وواقع البشر الاخرين . ان التماثل النظراني الصوفي بين الكينونـة والفكر نجده ثانية في تصور التماثل الصوفي هو ايضا بين الممارسة والنظرية ، من هنا غضب النقـد ضد الممارسة التي تزعم انها شيء اخر غير النظرية وضد النظرية التي تزعم انها شيء اخر غير تقليص مقولة محددة الى الكلية اللامحدودة لوعي الذات . ان نظريته هو تكتفي باعلان أن كل ما هو محدد هو في تناقض مع الشمولية اللامتناهية لوعي الذات وهو بذلك عينه غير موجود ، غير واقعي ، هكذا مثلا الدولة والملكية الخاصة . »

(١) ص ٢٥٥ .

(٢) ص ٢٥٨ . « هناك من جهة « الجمهور » ، عنصر التاريخ المادي المنفعل والاحمق والعاطل ، ومن الجهة الاخرى الروح ، النقد ، السيد برونو واقرانه ، مصدر كل فعل تاريخي . الفاعلية الاجتماعيـة مقلصة هكذا الى الفاعلية الدماغية للنقد النقدي .

ان العلاقة بين النقد المجسد في السيد برونو واقرانه وبين الجمهور هـي ، بالحقيقـة ، العلاقـة التاريخية الوحيدة للازمنة الحاضرة . كل التاريخ الراهن عائد الى انبساط حدي هـذه العلاقة . كـل التعارضات مقلصة الى هذا التعارض الوحيد بين النقد والجمهور . النقد النقدي ، الذي لا يحقق نفسه الا بمعارضته الجمهور البليد ، مضطر الى ان يخلق لنفسه بصورة دائمـة هـذا التعارض » . ص ٢٥٠ « كل علاقات النقد مقلصة الى العلاقة بين حكمته المطلقة وبلاهة الجمهور المطلقة . هذه العلاقة الاساسية هي التي تحدد معنى واتجاه وشعارات الاعمال التي خاضها الى هنا النقد النقدي . »

(٣) ص ٢٣٣ ، ص ٢٥٥ .

والمسيحي (١) . هذا التصور ، الخاص بكل النظريات الرجعية (٢) ، عـــن تعارض جذري بين روح مطلق ، عال خارق ، عنصر التاريخ الفاعل ، و « الجمهور » الذي هو عنصره المنفعل ، يحدد في آن فكر وفعل **النقد النقدي** .

هذا الفعل ، عمل افراد النخبة الذين فيهم يتجسد الوعـي الكلـــي ، قوامــه الحملات التي يوجهها **النقد النقدي** ضد « الجمهور » . هذه الحملات مقلصة بالواقع الى فضح الطابع الزائف والوهمي لكل تصورات ومشاريع الجمهور والـــى اعـــلان الحقيقة بتدمير هذه الاوهام ، بحيث ان التاريخ معاد ، عند ب. باور كما عند هيغل، الى أخذ وعي الحقيقة المطلقة (٣) .

هذه الحملات يسوقها **النقد النقدي** جزئيا بواسطة مراسلين يعرضون لــه مـا يضعهم في معارضة « الجمهور » ويحثونه على الذهاب الى الحرب ضده (٤) .

النقد النقدي يؤلف اكتمال الفلسفة الهيغلية معتبرة تحت هيئتهــا اللاهوتية . انه مثلها كشف روح فوق البشر ، خالق العالم والتاريخ (٥) . اذ مثل الفكرة المطلقة، الوعي الكلي يلغي ، بعمل **النقد النقدي** ، العالم بوصفه غير مناسب لجوهره ، ليعيــد صنعه على صورته (٦) .

عازلا نفسه عن العالم الذي يتخيل ان بمقدوره تحويله كما يشاء بسلطة الروح العجائبية ، **النقد النقدي** ، تجسيد الوعي الكلـــي ، يتحول الـــى روح الهي . نظيرين للآلهة ، ممثلوه يجلسون على عرش في وحدانية مملكة الروح ، من حيث يطلقون مثــل

---

(١) ص ٢٥٧ . « ان العلاقة (بين الروح والجمهور) المكتشفة من قبل السيد برونـــو ليست سوى الاكمال الكاريكاتوري لتصور هيغل التاريخي الذي ليس بدوره سوى التعبير النظراني عـــن العقيـــدة الجرمانية ـ المسيحية عن التعارض بين الروح والمادة ، بين الله والعالم . هذا التعارض يتعبر في التاريخ وفي البشرية على النحو الاتي : بعض الافراد المختارين الذين يؤلفون عنصر البشرية الفاعل ينتصبون فـي وجه بقية البشر المعتبرة كتلة بلهاء ، مادة محضة . » .

(٢) ص ٢٥٧ .

(٣) ص ٢٥٠ . « الانسان ليس موجودا الا لاجل التاريخ والتاريخ لاجل البرهنة على حقائق . لا يفعل النقد سوى تكرار هذا المبدأ تحت هذا الشكل المبتذل ، مبدأ الفلسفة النظرانية ، الا وهـــو ان الانسان والتاريخ غير موجودين الا لكي تستطيع الحقيقة وعي ذاتها .

بالنسبة للسيد باور ، الحقيقة هي ، كما بالنسبة لهيغل ، شيء يتبرهن اوتوماتيكيا . دور الانسان ان يتبعها . وعلى هذا الاساس ليست نتيجة التطور التاريخي شيئا اخر سوى البرهنة عـلى الحقيقة ، سوى الحقيقة التي جعل البشر يعونها . »

(٤) ص ص ٣٢١ ـ ٣٢٥ .

(٥) ص ٢٥٧ . ص ٣٣٨ . « ان النقد النقدي ، الذي يقع خارج البشرية ، لا يعبر عـــن الفاعليـــة الجوهرية للانسان الواقعي الذي يعيش ويعاني في المجتمع الحاضر مشاركا في افراحه وآلامه . ان الفـــرد الواقعي لا يلعب عنده سوى دور تابع ثانوي ، انه ليس سوى الشكل المادي الذي يتخذه النقـــد النقدي لينكشف فيه كماهية ازلية . »

(٦) ص ٣١٣ .

الله ، يوم الدينونة ، لعناتهم على الجمهور منتهك المقدسات (١) .

هذه الهجمة من **النقد النقدي** على « الجمهور » ، على الشعب المعتبر عدو البشرية والتقدم ، التي تتيح له ان يوفر ، تحت مظاهر ثورية زائفة ، اعداءهما الحقيقيين ، تبين طابعه الرجعي .

ان العدو الحقيقي للانسانية والتقدم هو ، كما يقول ماركس ، لا « الجمهور » بل نزع انسانية العلاقات الاجتماعية الذي ينجبه النظام الرأسمالي (٢) . ان تحويل هذا النظام لا يمكن ان يكون نتاج قتالات ايديولوجية ، كتلك التي يخوضها **النقد النقدي** ، بل فقط نتاج النضال الثوري الذي يخوضه الجمهور (٣) .

ان مثلنة التاريخ المدفوعة الى أقصى حد تفسر بطلان الاحكام التي يصدرها **النقد النقدي** على كل المواضيع التي يتناولها . هذه الاحكام يخضعها ماركس لنقد لا يرحم ، مشددا على ان تحليلا معمقا للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، وهو التحليل الذي ينال من جانب **النقد النقدي** أكبر ازدراء ، هو وحده يسمح بحل المسائل الفلسفية والسياسية والاجتماعية التي يتناولها هذا الاخير (٤) .

---

(١) ماركس يخط هنا موضوعة الايديولوجيا الالمانية واصفا تجلي النقد النقدي ربانيا بعد ظفره النهائي على الشر وصعوده الى السماء . انظر ص ٣٣٩ . « بعد ان كافح كفاح هرقل بغية الانفصال عن الجمهور الدنيوي وعن العالم اجمع ، انتهى النقد النقدي الى الانعزال والاستحكام في وجود يكفي ذاته بذاته ، وحداني ، الهي ، مطلق . ولئن كانت هذه المرحلة الجديدة ، في تظاهراتها الاولى ، ما تزال تشير الى ان العالم القديم الدنيوي يحتفظ ببعض السلطة عليه ، فاننا سنراه الان يتمثلن ، منفرزا عن كل شيء ، يتجلى نورانيا ويتوب حتى يستطيع ، مثل مسيح جديد ظافر ، ان يعلن يوم دينونة النقد وان يرتفع مطمئنا الى السماء ، بعد انتصاره النهائي على تنين الشر . »

(٢) ص ٢٥٤ . « ان اعداء التقدم ، خارج الجمهور ، هم نتاجات انبخاسه ، انخلاعه ، التي تتأكد ازاءه كعناصر تتمتع بحياة وطابع خاصين بها . يقف الجمهور ضد نتاجات انخلاعه التي هي مصدر ووسم اذلاله ، كما يقف الانسان ضد تدينه نافيا وجود الله . بما ان منتوجات انخلاعه موجودة بشكل عياني في العالم الواقعي ، فان الجمهور مضطر ان يكافحها بشكل عياني ايضا . لا يستطيع ان يأخذها على انها منتوجات تصوره ، محض انخلاعات لـ وعيه ، وان يلغيها بفعل محض روحي . »

(٣) ص ٢٥٤ . « لقد تعلم النقد المطلق ... من فينومينولوجيا هيغل فن تحويل السلاسل الواقعية ، الموضوعية ، الخارجية ، الى سلاسل محض فكرية ، ذاتية ، داخلية ، وان يحول هكذا الصراعات الخارجية ، الواقعية ، الى محض صراعات افكار . » . ص ٢٥٣ . « مع تعمق العمل التاريخي نرى تعاظم الجمهور الذي يحققه . بالطبع ، في التاريخ النقدي حيث ليس الامر ، في الاعمال التاريخية ، لا جماهير فاعلة ، ولا اعمال واقعية ، ولا مصالح عيانية هي بواعث هذه الاعمال ، بل هو فقط افكار تجري الامور بشكل مختلف . »

(٤) ص ٣٢٧ . « النقد النقدي هل يعتقد ان بوسعه ان يبلغ ولو بدايات معرفة الواقع التاريخي ، وهو يطرد من التطور التاريخي علاقات الانسان النظرية والعملية مع الطبيعة اي العلوم الطبيعية والصناعية ؟ هل يعتقد انه يعرف طورا تاريخيا ايا كان بدون ان يكون قد درس صناعة هذا الطور اي اسلوب انتاج الحياة المباشر ؟ ان النقد الناقد الروحاني واللاهوتي لا يعرف ـ على الاقل بالتصور ،

٢ ـ الثـورة الفرنسية

في نقده لبرونو باور بصدد الثورة الفرنسية ، ماركس ينطلق من واقع ان هـذه الثورة لم تكن ، كما يفكر ب. باور ، كفاحا ايديولوجيا في سبيل الحريـة والمساواة ، بل صراعا طبقيا جبارا بين البرجوازية وانصار العهد القديم (١) .

على باور الذي كان يعزو فشل هـذه الثورة الـى كون الافكار التي تظهر منهـا لا تتجاوز بالواقع حالة الاشياء التي كانت تريد الغاءها (٢) ، يعترض ماركس بقولـه ان الافكار بحد ذاتها عاجزة عن خلق أي شيء . « ان الافكـار لا تستطيع ان تتجاوز حالة تاريخية معينة ، تستطيع فقط ان تتجاوز الافكار التي تستجيب لهذه الحالة . بالواقع ، الافكار لا تستطيع ان تحقق شيئا . لتحقيق الافكار ، يلزم رجال يتصرفون بقوى واقعية (٣) . »

الافكار لا تستطيع ان تنتصر الا حين تمثل مصالح واقعية ، مصالح طبقية ، في الحالة المعاكسة انها تهزم دوما . لئن كانت الصراعات السياسية والاجتماعية كثيرا ما ترتدي شكل صراعات افكار ، الامر الذي أتاح الاعتقاد بأن المسألة في الثورة الفرنسية كانت مسألة صراع ايديولوجي (فكرولوجي) ، فذلك مرده ان المصالح الطبقية التـي تحدد هذه الصراعات تتخذ هيئة مصالح عامة ، حين هـي ، متجاوزة حدود طبقـة معينة ، ترتدي شكل افكار مجردة ، افكار عامة (٤) .

تلك كانت الحال اثناء الثورة ، حيث البرجوازيـة الفرنسيـة وضعت نفسهـا مدافعا عن المصالح العامة للشعب المضطهد من قبل الاقطاعية والاستبدادية ، وحيث من جراء ذلك تعبرت مصالحها الطبقية في شكل افكـار الحريـة والمساواة والاخاء ،



بالمخيلة ـ سوى الوقائع الكبيرة السياسية والادبية واللاهوتية في التاريخ . كما هـو يفصل الفكر عـن الحواس ، النفس عن الجسد ، وذاته عن العالم ، كذلك يفصل التاريخ عن العلوم الطبيعية والصناعة ، لذا بالنسبة له ليس الميدان الذي ينبسط فيه التاريخ هو ميدان الانتاج المادي والفظ ، الحاصل علـى الارض ، بل ميدان الغيوم البخارية التي تسبح في السماء . »

(١) ص ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠ . كفاح النقد الناقـد ضد الثورة الفرنسية . موليتور . انظـر العائلة المقدسة ، حـ٢ ، ص‌ص ٢١٢ ـ ٢٢٢ و ص‌ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .

(٢) ميغا ، ص ٢٩٤ . موليتور ، ص ٢١٣ .

(٣) ميغا ، ص ٢٩٤ . موليتور ، ص ٢١٣ .

(٤) ميغا ، ص ٢٥٣ . « الفكرة جعلت نفسها على الدوام شيئا مثيرا للضحـك والسخريـة ، حين انفصلت عن المصالح الواقعية . من السهل ، من جهة اخرى ، ان نفهم ان كل مصلحة اجتماعية وهـي تتحقق في التاريخ تتخطى كثيرا ، حين تشرع في التظاهر على مسرح العالم ، حدودها الواقعية ، متخـذة شكل فكرة ، شكل تصور مجرد ، ومتطابقة هكذا في الهوية مع المصلحة العامة الانسانية . وهـذا الوهم هو الذي يعطي ما يدعوه فورييه Fourier نغم كل عصر تاريخي . »

العامة . باسم هذه الافكار سير الكفاح ولكن ذلك لـم يكن سوى وهـم . فالموضوع الفعلي للصراع كان المصالح الطبقية للبرجوازية ، وهذه المصالـح احرزت فعليا النصر على الافكار ، حين أضحت هذه الافكار غير قابلـة للاتفـاق مـع شروط انعتاق البرجوازية .

بعيداً عن ان تكون فشلا للبرجوازية ، كما يزعم ب. باور ، كانت ثـورة ١٧٨٩ نجاحا ساطعا لها (١) . لم تكن فشلا الا بالنسبة للجمهور ، بالنسبة للشعب ، الذي لم تكن مصالحه الحقيقية تتطابق مع الاهداف الواقعية للثورة . هذا مـا يفسر ان الثورة لم تمثل بالنسبة له سوى فكرة ، ولم تكن بالنسبة لـه سوى باعث حماسة عابـرة (٢) .

ب. باور يعتبر ان احدى السمات المميزة للثورة تكمن في واقع انه ، بعد حذف النظام الاقطاعي ، انتصرت الانانية الخالصة سواء في الدولـة حيث تجلت في ابـراز مبدأ القومية ووضعه في مكان الصدارة ، او عند الافـراد ، الذين أثـار انفصالهم وتذررهم انفلاتا خلقيا حاولت السلطة ان تلجمه باقامـة عبادة الكائـن الاسمى (٣) . هذا الانماء لمبدأ القومية وهذا الاختلال في الاخلاق يؤلفان ، في نظر ب. باور ، الاسباب الجوهرية لاخفاق الثورة الفرنسية .

ان مبدأ القومية ــ يجيبه ماركس ــ هـو التعبير الطبيعي لانانية كل دولة ، ولا يفصح المرء عن شيء ذي أصالة ما حين يقول ان مبدأ القومية كان سبب فشل الثورة الفرنسية ، لانه قاد ايضا الى سقوط اليونان وروما (٤) .

اما بخصوص الانانية التي ولدتها الثورة الفرنسية عنـد الافراد ، الذين يقارنهم

---

(١) ميفا ، ص ٢٥٣ . « في ثورة ١٧٨٩ ، ان مصالح البرجوازية ، بعيدا عن ان تكون عرفت الفشل، قد احرزت نصرا كاملا واصابت النجاحات الاكثر دواما ، حتى بعد خمود الثوران العاطفي وذبول ازهـار الحماس التي زينت مهدها . هذه المصالح كانت قوية قادرة لدرجة انها غلبت قلم مارا ومقصلة الارهابيين وسيف نابوليون وكذلك صليب آل بوربون ودمهم الملكي . »

(٢) ص ٢٥٣ . « الثورة لم تكن فشلا الا بالنسبة للجمهور الذي لـم تكـن مصالحه الواقعية ومبادئه الحيوية تتطابق لا مع الفكرة السياسية للثورة ولا مع مبدئها الاساسي والذي كانت شروط انعتاقه مختلفة بالتمام عن شروط انعتاق البرجوازية والمجتمع البرجوازي . لئن اصيبت الثورة ، التـي جسدت كـل اعمال العصر التاريخية الكبرى بكبو او اخفاق ، فان ذلك مرده فقط ان الطبقـة ، التـي كانت الثورة دفاعاً عن شروط وجودها ، كانت تؤلف جمهورا خاصا ـ جزئيا ، محدودا ، لا يشمل جملة المجتمع . لئن اخفقت فذلك ليس لان الجمهور اهتم بها (راى فيها مصلحة له) وتحمس لها ، بـل لانـه ، بالنسبة للجمهور الكبير المتميز عن البرجوازية ، لم اكن مبدأ الثورة بتطابق مع مصالحه الواقعية ، لم يكن يؤلف مبداه الثوري الخاص به ولم يكن من جراء ذلك ممكنا ان يكون بالنسبة له سوى فكـرة ، سوى موضوع حماس سطحي وموقت . »

(٣) ص ٢٩٥ .

(٤) ص ٢٩٥ .

باور بالذرات ، فان ماركس يلاحظ اولا بأول انه من غير الممكن مماثلة الافراد بالذرات، التي ليس لها نفس طابع البشر ولا نفس العلاقات فيما بينها (١) . ان الفرد الاناني ، البرجوازي ، أجل يستطيع ان يفكر عن نفسه انه ذرة اي كائن مطلق ، بلا علاقات مع الافراد الآخرين ويكفي نفسه بنفسه . ولكن الحياة التي تقتضي تلبية حاجاته وتظاهر غرائزه وممارسة فاعليته تفرض عليه الاعتقاد بوجود وسطه اي المجتمع (٢) . ان اشباع حاجاتهم المتبادل يجمع اعضاء المجتمع البرجوازي ، وعليه فان الرابطة الحقيقية هي الحياة الاجتماعية وليس ، كما يفكر باور ، الحياة السياسية ، اي الدولة التي هي ذاتها محددة من قبل التنظيم الاجتماعي (٣) .

ان بطلان تصور باور بصدد العلاقات السياسية والعلاقات الاجتماعية ، التي يعتبرها جوهريا مختلفة ومتعارضة فيما بينها ، يظهر في الفكرة التي لديه عن حكومة الارهاب بقيادة روبسبيير وسان ـ جوست . فهو يعتبر ان سبب سقوطهم كان انهم ، اذ ارادوا صهر شعب حر في دولة يحكمها العدل والفضيلة ، فقد اصطدموا بأنانية الافراد ، الامر الذي ارغمهم على اللجوء الى تدابير ارهابية أدت الى سقوطهم (٤) .

ان هذا السقوط ـ يرد ماركس ـ يعلل لا بتعارض بين مثلهم الاعلى ، الفضيلة المدنية ـ الوطنية civique ، وانانية البرجوازيين ، بل بتصورهم الخاطىء للدولة والمجتمع وعلاقاتهما .

لقد خلطوا الدولة القديمة المؤسسة على الرق مع الدولة السياسية الحديثة التي ترتكز على شكل العبودية الحديث الذي ينجبه المجتمع البرجوازي . ان غلطتهم الرئيسية كانت ارادتهم في ان يفرضوا على هذا المجتمع طابعا يفترضون انه طابع الدولة القديمة . اذ اعتبروا العدالة والفضيلة الصفتين الاساسيتين للدولة الخاصة بالاغريق والرومان ، الشعبين النموذجين الاولين للشعوب الحرة ، فقد ارادوا ان

---

(١) ص ٢٩٦ .

(٢) ص ٢٩٦ . « اجل يستطيع الفرد الاناني في المجتمع البرجوازي ، في التصور المجرد الذي لديه عن نفسه ، ان يعتبر نفسه ذرة ، اي كائنا بلا علاقات مع الكائنات الاخرى ، بلا حاجات ، سعيدا وكاملا. لسوء الحظ ، ان الواقع لا يبالي بهذا التصور الخيالي ، والفرد المذكور يرى نفسه مرغما ، بكل من حواسه ، على الايمان بالعالم الخارجي وبالافراد الاخرين ... ان كلا من فاعلياته ، من كيفاته (صفاته)، من مطامحه ، يصبح حاجة ، ضرورة ، تدفعه الى البحث خارجه عن اشياء اخرى وبشر اخرين . »

(٣) ص ٢٩٦ . « انها اذن الضرورة الطبيعية ، انها الصفات الجوهرية للانسان ... انها المصلحة هي التي توحد اعضاء المجتمع البرجوازي ، وهكذا فان رابطتهم الواقعية ليست الحياة السياسية بل الحياة الاجتماعية . ليست الدولة هي التي تعقل فيما بينهم اعضاء المجتمع البرجوازي ... الذين ليسوا ذرات الا في تصورهم ، في مخيلتهم ... وليسوا بالواقع سوى افراد انانيين تربطهم علاقات اجتماعية . الوسواس السياسي وحده يستطيع ان يتخيل في ايامنا ان الدولة هي العنصر الضابط المنظم للمجتمع ، بينما بالعكس الدولة محددة من قبل المجتمع . »

(٤) صص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

ينظموا المجتمع الحديث على مثال هذه الدولة القديمة المثلنة (١) .

ب. باور يعتبر ان العاقبة الاولية لسقوط روبسبيير وسان ـ جوست كانت سحق الليبرالية السياسية ، أس وهدف الثورة (٢) . ان العاقبة الجوهرية لهذا السقوط ـ يجيبه ماركس ـ كانت بالعكس ظفر المجتمع البرجوازي الذي ، بتحرره من قيود الاقطاعية ومن اضطهاد الارهاب ، أعطى نفسه ، مع حكومة الادارة Directoire ، شكل الدولة المناسب لحاجاته الاقتصادية والاجتماعية ، والذي استطاع في كنفها وحمايتها ان يأخذ كامل انبساطه . « بعد سقوط روبسبيير ، **الليبرالية السياسية** ، التي كانت اذ أرادت ان **تتجاوز** نفسها قد ارتكبت خطيئة **الحماس المتجاوز** ، تبدأ وحسب في التحقق **فعلا** . في ظل حكومة **الادارة** ، **المجتمع البرجوازي** ، الذي كانت الثورة قد حررته من القيود الاقطاعية واعترفت به رسميا، رغم ان **الارهاب** كان قد أراد أن يضحي به على مذبح شكل قديم للحياة السياسية ، يظهر كل حيويته : ركض الى المشاريع التجارية ، رغبة في الاثراء ، سكر الحياة البرجوازية الجديدة ، التي ما يزال تظاهرها الاول ذا طابع جسور ، مندفع ، طائش، مسكر ، **تحرر الملكية العقارية** ، التي حطمت مطرقة الثورة تنظيمها الاقطاعي والتي يخضعها الملاكون الجدد في حمى الامتلاك الاولى لزراعة كثيفة ، توسع الفاعلية الاقتصادية المحررة ، تلك هي بعض تجليات المجتمع البرجوازي الجديد . **البرجوازية** التي **تقود** هذا المجتمع **دشنت** نظامها وعلى هذا الاساس فان **حقوق الانسان** كفت عن ان لا تكون موجودة الا في **النظرية** (٣) . »

ب. باور يرتكب خطيئة مماثلة في حكمه على انقلاب نابوليون الاول ، الذي يسم في نظره فشل الليبرالية السياسية النهائي . ان ما يميز نابوليون ، على حد قول ماركس هو كونه يمثل آخر محاولة في اخضاع البرجوازية لارهابية ثورية . بخلاف روبسبيير ، نابوليون لم يقد هذا الكفاح ضدها باسم مثل أعلى مستلهم من الدولة القديمة بل باسم السلطة السيدة للدولة التي كان يجعلها غاية في ذاتها . لم يكن ، كما كان روبسبيير ، صاحب رؤيا نورانية بل بالعكس كان صاحب فكرة صحيحة ودقيقة عن المجتمع البرجوازي ، الذي كان يريد حمايته ضد التهديدات الثورية . حقق

(١) ص ٢٩٨ . « روبسبيير وسان جوست وحزبهما سقطوا لانهم كانوا يخلطون الدولة الواقعية الديمقراطية القديمة المؤسسة على الرق مع الدولة الدستورية الحديثة الروحانية والديمقراطية المؤسسة على شكل العبودية الخاص بالمجتمع البرجوازي . يا لها من خطيئة جبارة ان يكونوا من جهة مضطرين ، في حقوق الانسان ، الى الاعتراف ب والمصادقة على المجتمع البرجوازي الحديث ، مجتمع الصناعة ، مجتمع تزاحم المصالح الخاصة المعمم الذي لا يعيقه عائق في ملاحقة اهدافها ، مجتمع الفوضى ... وان يريدوا من جهة اخرى ان يلغوا عند الافراد تظاهرات هذا المجتمع وان يشكلوا تنظيمه السياسي ، الدولة، على الطريقة القديمة . »

(٢) ص ٢٩٨ .　**(٣) ص ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .**

ارهابية ــ الدولة باعلانه محل الثورة الدائمة الحرب الدائمة . بذلك أعطى رضى للقوموية الفرنسية ولكنه انتهى الى ايذاء المصالح لا السياسية فقط بل ايضا الاقتصادية للبرجوازية ، بحروبه الطويلة والمكلفة ، وان تطبيق اجراءات كانت تذهب بعكس مصالح البرجوازية أدى الى سقوطه كما كان قد حدد سقوط الارهاب (١) .

كما ان نظام الارهاب الثوري عارض من جديد البرجوازية مع نابوليون ، كذلك رات ينتصب ضدها من جديد العهد القديم مع عودة آل بوربون . أقل ايضا من نابوليون ، استطاع البوربون ان يبقوا في وجهها ، لانهم كانوا يصدمون بشكل أقوى ايضا من هذا الاخير مصالحها الطبقية بمحاولتهم اعادة الحكم المطلق وبمحاباتهم النبلاء (٢) .

البرجوازية حققت نهائيا ظفر مصالحها الطبقية مع ثورة ١٨٣٠ ، بخلقها مع الدولة الدستورية أداة هيمنتها التي بفضلها حققت أهدافها ، ليس الآن كما في ظل ثورة ١٧٨٩ وهي تفكر ان هذه الاهداف تعبر عن المصالح العامة للبشرية بل مع الفكرة الواضحة انها تستجيب لمصالحها الطبقية (٣) .

ثورة ١٨٣٠ لم تمض بالحركة الثورية الى نهايتها . لم تحقق سوى هدف واحد من هدفي ثورة ١٧٨٩ : الحرية . الهدف الآخر ، المساواة ، ولد الفكرة الشيوعية التي تشكل المبدأ الاساسي للعالم الجديد (٤) : « ان الحركة الثورية التي تكونت في

(١) ص ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ . « نابوليون كان اخر معركة للارهابية الثورية ضد المجتمع البرجوازي وسياسته التي دشنتها الثورة . اجل نابوليون كان يفهم منذئذ طبيعة الدولة الحديثة ، كان يدرك انها مؤسسة على الانبساط الحر للمجتمع البرجوازي ، على اللعب الحر للمصالح الخاصة . قرر الاعتراف بهذا الاساس وحمايته . لم يكن ارهابيا حاملا رؤيا نورانية دينية . ولكن نابوليون كان يعتبر الدولة غاية في ذاتها ويرى في المجتمع البرجوازي عنصرا تابعا مرؤوسا ، لا يجوز ان يكون له ارادة خاصة ودوره الجوهري ان يقدم له الاموال التي كان بحاجة اليها . حقق الارهابية وهو يعلن محل الثورة الدائمة الحرب الدائمة . أعطى كامل الرضى للقوموية الانانية الفرنسية ولكنه اشترط بالمقابل ان يضحى بالاعمال واللذة والثروة كلما تطلبت ذلك اهداف الفتح السياسية . لئن كان يضطهد ، اضطهاد مستبد حقيقي ، ليبرالية المجتمع البرجوازي ، مثاليته السياسية ، فانه ايضا لم يكن يوفر اكثر من ذلك المصالح المادية الاكثر جوهرية لهذا المجتمع ، مصالح التجارة والصناعة ، في كل مرة كان فيها نزاع بينها وبين مصالحه السياسية الخاصة . كان احتقاره لرجال الاعمال يكمل احتقاره للايديولوجيين . هكذا مثلا اعلن لمجلس الدولة انه لن يسمح بان يكون ملاكو الاراضي الكبرى قادرين ، كما يطيب لهم ، ان يزرعوها او ان لا يزرعوها . وهكذا ايضا صمم على اقامة مونوبول (احتكار) النقل على عجلات ، بغية اخضاع التجارة للدولة . بالمقابل ، ان الحدث الذي سدد الضربة الاولى لقوة نابوليون قد هياه تجار فرنسيون . باثارتهم بصورة مفتعلة مجاعة ، ارغم مضاربون باريسيون الامبراطور على تاجيل افتتاح حملة روسيا مدة شهرين وبالتالي على بدئها في فصل متقدم . »

(٢) ص ٣٠٠ . موليتور ، ص ٢٢٢ .

(٣) ص ٣٠٠ . موليتور ، ص ٢٢٢ .

(٤) ص ٣٠٠ . موليتور ، ص ٢٢٢ .

سنة ١٧٨٩ في الحلقة الاجتماعية ، التي كان ممثلاها الرئيسيان في منتصف تطورها لوكليرك Leclerc و رو Roux والتي سحقت موقتا مع مؤامرة بابف Babeuf كانت قد فتحت الفكرة الشيوعية التي عاد بووناروتي Buonarotti ، صديق بابف وادخلها ثانية الى فرنسا بعد ثورة ١٨٣٠ . هذه الفكرة ، مبسوطة في كل نتائجها ، تؤلف مبدأ العالم الجديد (١) . »

٣ ـ المادية (٢)

في نقده للمادية ، ب. باور يعترف للماديين بمأثرة اعتبار ان العالم مكون من حركة المادة ، ولكنه يلومهم على كونهم لم يروا ان هذه الحركة لم تصبح حقيقة حركة العالم الا حين اتخذت شكل انبساط الوعي الكلي (٣) . على حد قول ماركس ، تلك طريقة فريدة في فهم المادية أن تحولها الى ضدها ، الى مثالية . فالوعي الكلي يغدو في هذا التصور هو الواقع الجوهري الذي ليس خارجه شيء ، انه يكون العنصر الخالق للعالم الذي بما أنه ليس سوى تخريجه فانه يفقد كل واقعية خاصة .

ب. باور يجعل المادية مشتقة من مذهب سبينوزا Spinoza الذي منه ، على حد قول باور ، خرجت في نفس الوقت مع الالهية théisme . انها تشكل واياها وجهي العقلانية التي هيمنت على الفكر الفرنسي حتى سحق الثورة (٤) . ذلك حكم اجمالي متسرع . بالواقع ، ان المادية ، التي كانت في البداية متضمنة مع السبينوزية في الروحانية ، خرجت تدريجيا منها وشكلت تيارين : الاول الذي يستمد أصله من ديكارت Descartes ذو طابع ميكانيكي وقد تظاهر بصورة رئيسية في ميدان علوم الطبيعة ، الثاني المتحدد من لوك Loche ذو طابع اجتماعي وقد أفضى الى الاشتراكية ، وقد تصالب هذان التياران في سير تطورهما (٥) .

المادية تشرع تتحرر في فرنسا من الروحانية مع ديكارت الذي ، بفصله الفيزياء عن الميتافيزياء (الطبيعية عن ما وراء الطبيعة) ، يعير في فيزيائه المادة قوة خالقة ويتصور الحركة الخاصة بها في شكل ميكانيكي . في اطار فيزيائه ، المادة تؤلف الماهية الوحيدة ، أساس الكينونة والمعرفة (٦) .

بعده ، يحصل الانفصال بين المادية والروحانية عن طريق نبذ الروحانية نبذا

---

(١) ص ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .
(٢) ص ص ٣٠٠ ـ ٣٠٧ . قتال النقد ضد المادية الفرنسية .
(٣) ص ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .
(٤) ص ٣٠٠ .
(٥) ص ٣٠١ .
(٦) ص ٣٠٢ .

متزايد الحدة . هذا الصراع يبدأ وديكارت ما يزال حيا ، مع غاسندي Gassendi الذي يعارض الروحانية الديكارتية بمادية ابيقور (١) .

الرجل الذي دشن بعده في فرنسا الكفاح الحاسم ضد الروحانية هو بيار بيل Pierre Bayle الذي يشكك ويطعن في الاطروحات الدينية والميتافيزية (٢) .

في القرن السابع عشر ، الميتافيزياء لم تكن بعد منفصلة عن العلوم، والميتافيزيون الكبار ، امثال ديكارت ولايبنتس Leibniz ، كانوا علماء يحققون اكتشافات مرموقة في ميدان الرياضيات والفيزياء . ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر ، تنفصل العلوم اكثر فاكثر عن الميتافيزياء التي تتقلص كل ثروتها الى أفكار خالصة ، الى اشياء سماوية ، الامر الذي يجعلها تفقد كل حظوة (٣) .

الكفاح الذي يخاض في القرن الثامن عشر ضد الميتافيزياء له كأسباب عميقة علل محض فلسفية أقل مما له علل اجتماعية ، فهو يجد تفسيره في اسلوب الحياة المادي الذي ينتشر اكثر فاكثر في فرنسا والذي يستهدف اللذة والمصلحة . هذا النمط الحياتي كان لا بد ان تتوافق معه نظرية مادية ، مناهضة للاهوت وللميتافيزياء (٤) .

ان متابعي ديكارت الرئيسيين في القرن الثامن عشر ، لوروا Leroy ، لا متري La Mettrie ، كابانيس Cabanis ، اذ يلفظون ميتافيزياءه ، يعتبرون الانسان آلة معقدة ويعيدون الافكار الى حركات ميكانيكية (٥) .

الى جانب هذه المادية التي تحتفل بأعظم نجاحاتها في ميدان علوم الطبيعة ، ينمو وينبسط خلال القتال الموجه من قبل البرجوازية ضد الدين والحكم المطلق تيار مادي آخر ذو طابع اجتماعي يستلهم الاحساسية Sensualisme الانكليزية .

ان تطورا مشابها لذلك الذي كان يحصل في فرنسا ، من الروحانية الى المادية، يتحقق في انكلترة بدءا من بيكن Bacon ، أبي المادية الانكليزية .

حسب بيكن ، الذي يعتبر علم الطبيعة ، خصوصا الفيزياء ، العلم الوحيد ، ان الحواس تؤلف المصدر الوحيد للمعرفة وبذلك ذاته للعلم Science ، الذي لا يمكن ان يكون له أساس آخر سوى التجربة . بخلاف ديكارت ، يتصور الحركة ، التي يعتبرها هو أيضا الصفة الاساسية للمادة ، لا في وجهها الميكانيكي بل في وجهها الديناميكي ، بوصفها العنصر المحرك للمادة . رغم ان نظريته ما تزال تحوي عناصر مثالية عديدة مردها انه لا يتحرر تماما من اللاهوت ، فان مذهبه يحوي بذور بسط

(١) ص ٣٠٢ .
(٢) ص ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .
(٣) ص ٣٠٣ .
(٤) ص ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .
(٥) ص ص ٣٠٢ ، ٣٠٦ — ٣٠٧ .

كلـي (١) .

هذا البسط يتحقق بادىء بدء على صعيد محدود . الواقـع الحسي الـذي يشمل ، عند بيكن ، جملة الكائنات والاشياء ، يعاد الـى واقـع الهندسة المجرد ، والحركة الفيزيائية الى الانبساط الميكانيكي والرياضي . آخـذة هكـذا في اعتبارها عناصر الواقع المجردة ، المادية الانكليزية تبقى في البداية غريبة في كثير او قليـل عـن الانسان ، مع اسهامها كثيرا في تطور اللعم والمعرفة (٢) .

بتحليل المعرفة ينمو ويتطور المذهب الاحساسي الانكليزي . مستلهمـا مذهب بيكن ، وطاردا منه بقايا المثالية الدينية ، هوبس Hobbes ، منطلقا من مبدأ انه ليس ثمة ماهية غير جسمية وان الحساسية هي قاعدة المعارف ، يبين ان الفكر لا يمكن ان يفصل عن الحساسية وان الافكار ليست سوى انعكاس العالـم المادي ، المحسوس . على هذا الاساس ، لا يمكن الزعم ان هناك افكارا موجودة بذاتها ، بصورة مستقلة عن العالم القابل لان يحس ، الذي هو وحده قابل لان يدرك وان يعرف ، مـن هنا نفـي الله . بما أن الانسان مرتبط بالعالم الحسي وخاضع لقوانين الطبيعة ، ينجم عن ذلك أيضا ان الخير لا يمكن ان يكون شيئا آخر سوى موضوع الميول الطبيعية (٣) .

في مؤلفه عن **اصل الفهم** ، لوك Loche يستنتج مـن تصورات هوبس فلسفة للحس العالم (الادراك السليم Sens commun) ، مرتكزة علـى معطيات الحواس وعلى العقل الذي تؤلف هذه المعطيات اساسه (٤) .

مستلهمين احساسية لوك ، ولكن مستبعدين العنصر المثالـي في فلسفتـه ، الهيته ، كونديـاك Condillac وهلفيسيوس Helvétius وهولبـاخ Holbach يخرجون منها مذهبا اجتماعيا يعطي المادية الفرنسية في القـرن الثامن عشر طابعها الخاص .

في **محاولته عن اصل المعارف الانسانية** ، كونداياك يبين ان الافكـار ، المؤسسة على الاحساسات ، تأتي من التجربة ، وان الانسان هو مثلها نتاج التجربة ، اي نتاج الظروف والتربية (٥) . مطبقا مذهب لوك على دراسة الحياة الاجتماعية ، هلفيسيوس يشدد في كتابه **عن الانسان** على العلاقات بين تقدم الصناعة وتقدم العقل . واضعـا في المبدأ طيبة ومساواة البشر الطبيعيتين ، يعتبر ان الانانية اي المصلحة الشخصية التي تؤلف الدافع الجوهري للفاعلية الانسانية يجب ان تتطابق في الهوية مع المصلحة العامة بفضل النفوذ المقرر والتأثير المحدد اللذين تتمتع بهما التربية وخصوصا البيئة التـي

---

(١) ص ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .
(٢) ص ٣٠٥ .
(٣) ص ٣٠٥ .
(٤) ص ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .
(٥) ص ٣٠٦ .

يجب ان تنظم بشكل عقلي (١) . هولباخ اخيرا يبسط في كتابه **منظومة الطبيعة**، مذهبا مماثلا بدرجة محسوسة . بما أن غريزة الانسان الاساسية هي الانانية التي تحمله ، عن مصلحة فهمت جيدا ، على حب البشر الآخرين ، الذين يعلم أنهم ضروريون لرفاهه ، ينجم عن ذلك أنه من غير الممكن وجود تناحر بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة وأن تطور المجتمع منجب بالضرورة سعادة البشرية (٢) .

٤ . الاشتراكية (٣)

الاشتراكية هي مآل المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر . كما أن فويرباخ قد جاء ، في كفاحه ضد الاتجاهات الرجعية وضد الميتافيزياء ، الى الانسية ، بطريق المادية ، كذلك فمن مذهب ماديي القرن الثامن عشر الفرنسيين النابع من كفاحهم ضد الدين والاقطاعية والحكم المطلق خرجت المذاهب الاشتراكية والشيوعية الحديثة (٤) .

بدلا من أن يسعى الى تفسير أصل وطابع الاشتراكية ، يكتفي ب. باور بأن يصدر ضدها أحكاما دوغمائية . اهتمامه بالاشتراكية استيقظ حين بدأت الكتابات الاشتراكية تنشر في المانيا فكرة ان الفاعلية الانسانية لها طابع اجتماعي جوهريا (٥) . بنتيجة نفوره من الشعب ، من « الجمهور » ، اتخذ من الوهلة الاولى موقفا عدائيا ازاء الاشتراكية ، التي يدينها بوصفها تعبيرا نموذجيا عن مطامحه وتطلعاته . يرى فيها محاولة لتنظيم الجمهور ، يعزو عدم نجاحها الى تحالفها معه ، ويخلص ، في نقده للاشتراكية الذي يقرنه مع نقده للراديكالية الليبرالية ، الى ان السبيل الواحد المؤدي الى انعتاق الانسان هو سبيل **النقد النقدي** (٦) .

على هذا الزعم لباور الذي فحواه ان تطور البشرية انما يقرره النقد اي عمل الروح ، يعترض ماركس بقوله أن تقدم الروح ، كما أبرز ذلك الاشتراكيون والشيوعيون ، قد تترجم الى هنا بنزع انسانية المجتمع . هذا النزع للانسانية لا يمكن ان يلغى بمحض النقد ، اي بنضالات روحية ، ان الغاءه يشترط كفاحات

(١) ص ص ٣٠٦ ، ٣٠٩ .
(٢) ص ص ٣٠٧ ، ٣٠٩ - ٣١٠ .
(٣) ص ص ٣١٠ - ٣١٢ . مولينتور ، ص ٢٤٠ - ٢٤٥ .
(٤) ص ٣٠١ . « هذه (الميتافيزياء) ستسقط نهائيا تحت ضربات المذهب المادي المهيا بعمل النظران والذي يتطابق في الهوية مع المذهب الانساني . ان الاشتراكية والشيوعية الفرنسية والانكليزية تمثلان في الميدان العملي ما يمثله فويرباخ في ميدان النظرية ، اتحاد الانسية والمادية . »
(٥) ص ٣١٠ .
(٦) ص ٣١٠ . « لقد اقام الفرنسيون سلسلة من المنظومات لتبيان كيف يجب تنظيم الجمهور . »

قاسية سياسية واجتماعية لا يستطيع ان يخوضها الا « الجمهور » المستغل (١) .

ليست الاشتراكية والشيوعية سوى التعبير النظري عن هذا النضال الثوري الذي يخوضه الجمهور من أجل انعتاقه ، النضال الذي سانده المذاهبة الاشتراكيون والشيوعيون بنقدهم للمجتمع البرجوازي (٢) .

بعكس هؤلاء ، ان **النقد النقدي** ، اذ يعتبر أن تطور التاريخ كان فشلا دائما للروح ناجما عن عجز « الجمهور » عن المساهمة بشكل مفيد في ظفر العقل ، فهو يدين كل حركة ثورية تعتمد عليه .

رابطا الاشتراكية بالراديكالية الالمانية ، ب. باور يعلل مولدها بهزيمة هذه الاخيرة في سنة ١٨٤٢ ، الهزيمة التي ساقت الراديكاليين الى ان يتوجهوا نحو الاشتراكية والى أن يرتكبوا هكذا ، بتحالفهم على نحو أوثق مع « الجمهور » اثما ضد الروح (٣) .

بدلا من ان يرى ان الاشتراكية الالمانية هي نتاج الاشتراكية الانكليزية والفرنسية ، ب. باور ، عاكسا العلاقات الحقيقية بينهما ، يحكم على الاشتراكية الانكليزية والفرنسية بحسب الاشتراكية الالمانية ، يدينهما كما يدين هذه الاخيرة لكونها ارتبطت بـ « الجمهور » ، ويقلص كل مذهب وكل عمل الاشتراكية الى واقع واحد : تنظيم « الجمهور » .

اذا استثنينا **النقد النقدي** ـ يقول ماركس ـ ليس من مكان يجري فيه الحديث عن تنظم الجمهور ، بالمقابل كثيرا ما يجري الحديث عن تنظيم الشغل ، وهو الشعار الذي أطلقه في فرنسا الحزب الراديكالي الذي حاول بذلك ان يربط عمله بعمل الاشتراكية (٤) .

الاشتراكيون والشيوعيون يدركون تماما ، بخلاف ب. باور ، ان الجمهور ليس بأية حاجة الى ان ينظم ، فتنظيمه يولد من تنظيم المجتمع البرجوازي ويتطابق معه في الهوية . وهدف الاشتراكية والشيوعية هو ارشاده ، على الصعيد النظري والعملي معا ، في كفاحه التحرري (٥) .

الاشتراكية والشيوعية تعللان بالتطور التاريخي الحديث . بوصفهما نظرية ،

---

(١) ص ٢٥٤ . « بما ان آثار خلع جمهور البشر لذاتهم موجودة بكيفية حسية في العالم الواقعي ، لذا فان « الجمهور » مضطر لان يكافحها بكيفية ايضا فعلية . انه لا يستطيع ان يعتبر منتوجات خلعه لذاته اشباحا ، محض انخلاعات لوعيه ، ولا ان يزعم الغاءها بفعل محض روحي ... ولكن النقد المطلق تعلم من فينومينولوجيا هيغل فن تحويل الاصفاد الواقعية ، الموضوعية ، الموجودة خارجي ، الى اصفاد محض روحية ، ذاتية ، داخلية ، وبذلك تحويل الصراعات الخارجية ، العينية ، الى محض صراعات افكار . »

(٢) ص ٢٥٠ . (٣) ص ٣١٠ .

(٤) ص ٣١١ . (٥) ص ٣١٠ .

انهما مشتقتان من الاتجاه الاجتماعي لمادية القـــرن الثامن عشر الفرنسية التـــي ، بوضعها في المبدأ مساواة البشر الطبيعية وبتأكيدها الدور الحاسم الذي تلعبه البيئـة في تكوينهم ، فتحت الطريق للاشتراكية . فلئن كان الانسان مشكلا مــن قبل بيئته ، اذن يجب تنظيم هذه البيئة بحيث تساعد على انسنة البشر ، ولئن كانت الانانية هي الحافز الاساسي للفاعلية الانسانية ، اذن يجب العمل بحيث تتطابق المصلحة الخاصة مع الصالح العام (١) .

ان انبساط الاشتراكية والشيوعية موسوم بتعاقب نظريات تذهب من نظريتي بابف وفوريه الى نظريتي كابه Cabet ودزامي Dezamy ، حيث هذه الاخيرة تؤلف بماديتها تعبير الانسية العملية التي هي اساس الشيوعية . « **فوريه** يستلهم مباشرة مذهب الماديين الفرنسيين . **اتباع بابف** كانوا ماديين فظين ، بـــلا ثقافـــة ، ولكـن الشيوعية الاكثر تطورا تأتي هي ايضا **مباشرة** من **المادية الفرنسية**. اذ ، تحت الشكل الذي أعطاها اياه **هلفيسيوس** ، هذه المادية عادت الى وطنها ــ الأم ، انكلترة . فـــي انكلترة ، بنتام Bentham يؤسس منظومته عن **المصلحة المفهومة جيدا** علـى أخـلاق هلفيسيوس ، وذهابا من منظومـــة **بنتام** ، يضع **أويـــن** Owen أسس الشيوعية الانكليزية . منفيا الى انكلترة ، الفرنسي **كابه** Cabet ، مفتونا بالافكار الشيوعيـة يعود الى فرنسا ليصير فيها الممثل الاكثر شعبية ولكن ايضا الاكثر ابتذالا للشيوعية. الشيوعيون العلميون الفرنسيون ، **دزامي** Dezamy ، غي Gay ، الخ ، يبسطون ، مثل أوين ، مذهب المادية بوصفه مذهب **الانسية الواقعية** ، بوصفه الاساس **المنطقي** للشيوعية (٢) . »

٥. برودون (٣)

ان النقد الذي كان ادغار باور قد سلطه على برودون (٤) يعطـي ماركس فرصة

(١) ص ص ٣٠٧ ــ ٣٠٨ . « كما المادية الديكارتية تجد مآلها في العلوم الطبيعية ، الاتجاه الاخر في المادية الفرنسية ينتهي مباشرة الى الاشتراكية والى الشيوعية . لا حاجة لفطنة خارقة كي يرى ما يربط بالضرورة نظريات المادية عن الطيبة الاصلية والذكاء المتساوي للبشر ، عن كلية قدرة التجربة ، العادة ، التربية ، عن تأثير الظروف ، عن اهمية الصناعة ... الخ ، بالشيوعية والاشتراكية . اذا كـان الانسان يستمد كل معرفته من العالم الحسي ومن خبرته بهذا العالم ، يجب تنظيم هذا الاخير بحيث يجد الانسان فيه ويتمثل فيه ما هو انساني فعلا ، بحيث ينمو وينبسط فيه كانسان . لئـــن كانت المصلحة المفهومة جيدا هي مبدأ كل اخلاق ، يجب ان تتطابق مصلحة الانسان الخاصة في الهوية مـــع المصلحة الانسانية العامة ... اذا كان الانسان مشكلا من قبل الظروف ، يجب اعطاء هذه الظروف طابعا انسانيا . »

(٢) ص ٣٠٨ . (٣) ص ص ١٩٣ ــ ٢٢٥ .

(٤) انظر ا. باور : برودون (مختارات من: ما هي الملكية ؟ ، ترجمة وتعليق ا. باور) . ص.ا.ع. ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ ، ص ص ٣٧ ــ ٥٢ .

أن يوسع ، مع نقده **للنقد الناقد** بصدد الاشتراكية ، نقده لبرودون ، النقد الذي كان قد بداه في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفية** (١) . كان ماركس لا يزال يقدر كثيرا برودون ، الذي أعلنه ماركس ، في مجادلته ضد روجه ، أعظم منظر للبروليتاريا الفرنسية (٢) .

كان استحقاقه الرئيسي ، في نظره ، أنه شق الطريق لنقد أساسي للملكية الخاصة وللمجتمع البرجوازي ، نقد لم يستطع دفعه ألى النهاية ، نظرا لانه لا يريد الغاء الملكية الخاصة الغاء جذريا . اذ لم ير أن الطابع اللاانساني للمجتمع البرجوازي يأتي من عين طبيعة الملكية الخاصة التي هي قاعدته ، فانه لا يخلص من نقده للملكية الخاصة الى ضرورة الغائها المطلق . في هذا تكمن حدود وعيوب منظومته .

ما يأخذه ا. باور على برودون ليس كونه لم يدخل بشكل أعمق في العمل الثوري بل بالعكس كونه لم يتحول عنه لينصرف، مثل **النقد النقدي**، الى التأمل المضارب (٣). على برودون الذي أخذ على الفلسفة بقاءها نظرانية وابتعادها عن العمل ، يرد ا. باور ان الفلسفة ، بعيدا عن ان تزج نفسها في العمل ، يجب عليها بالعكس ان تتحرز منه تماما . هذا التصور ، على حد قول ماركس ، يأتي من كون ا. باور فيلسوفا نظرانيا، بالنسبة له ليست الحياة والفاعلية الانسانيتان موجودتين حقا الا تحت شكل تجريدات ، وفي نظره كل المسائل تجد حلولها على الصعيد الروحي (٤) .

من وجهة نظر الفلسفة النظرانية ، التي ، بدلا من ان تشارك في الكفاحات السياسية والاجتماعية ، تحلق فوقها ، يدين باور برودون ، لائما اياه على كونه يؤمن ، كالطوباويين واللاهوتيين ، بالافكار المطلقة ، وعلى كونه حاكم وادان المجتمع البرجوازي باسم أفكار العدالة والمساواة (٥) .

---

(١) ميغا ، ١ ، حـ٣ ، ص ص ٤٢ ، ٩٨ ، ١٣٨ .

(٢) المكان نفسه ، ص ١٨ .

(٣) ص ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

(٤) ص ٢١٠ . « بينما فويرباخ ينتهي الى هذه النتيجة ... وهي ان الفلسفة يجب ان تنزل من سماء النظران نحو اعماق البؤس الانساني ، السيد ادغار يعلمنا بالعكس ان الفلسفة مرتبطة كثيرا بالعمل. يبدو بالاحرى ان الفلسفة بما انها التعبير الخارق المتعالي والمجرد عن وضع الاشياء الواقعي كان لا بد ، بسبب طابعها المتعالي والمجرد وبسبب الفرق الذي تقيمه بينها وبين العالم ، ان تتخيل انها تترك بعيدا تحتها العالم الواقعي والبشر العيانيين ، بما انها من جهة اخرى لا تختلف فعليا عن العالم الواقعي ولا تستطيع ان تعارضه واقعيا وان تمارس عليه فعلا واقعيا ، فقد اضطرت الى الاكتفاء بفعل روحي ، مجرد. لم تكن « سوبر عملا » (فورق الممارسة) الا بهذا المعنى ، بمعنى انها حلقت فوق العمل ... حين النظران ... يتكلم عن الانسان ، فانه لا يعتبر الانسان العياني ، بل فقط الانسان المجرد ، في شكل فكرة ، روح . »

(٥) ص ص ٢٠٣ – ٢٠٤ . انظر ص. ا. ع. ، الدفتر الخامس ، ص ص ٤٠ و ٤٨ .

ويقول ماركس ان برودون ، بعكس **النقد الناقد** الذي يحول جميع المسائل الى مسائل نظرانية ، يؤسس نقده ، بوصفه مدافعا عن مصالح الطبقة العاملة على وقائع اقتصادية واجتماعية عيانية ، ان عمله له من جراء ذلك مدى أكبر من مدى **النقد الناقد** ، اذ بدلا من ان يكون محض ثرثرة كهذا الاخير يمهد الطريق للثورة الاجتماعية (١) .

بعيداً عن ان يكون طوباويا ، برودون أكب على نقد نظام الملكية الخاصة ، اساس المجتمع البرجوازي والسبب العميق لبؤس العمال ، وقد ارتكز على هذا النقد ، لا لكي ينصرف على طريقة **النقد النقدي** الى مضاربات نظرية مجردة ، بل لكي يصوغ مطالب واضحة محددة لصالح الطبقة العاملة .

في نقده المجتمع البرجوازي ، يذهب برودون من مسالة معرفة ما اذا كان البؤس ، الذي يؤلف في هذا المجتمع نصيب غالبية البشر ، ضرورة طبيعية لا مفر منها . دارسا أسباب البؤس ، يبين ان النظام الراسمالي الذي ينجبه لا يمكن ان يتفق مع مبدأ المساواة الذي يجمع الفلاسفة والاقتصاديون البرجوازيون على الاعتراف به مبدأ اجتماعيا أساسيا (٢) .

لئن كان يعتمد في هذا النقد على فكرة المساواة ، وهو أمر يلومه ا. باور عليه ، فلأن هذه الفكرة هي ، في فرنسا ، التعبير الايديولوجي للعلاقات التي يجب او يفترض او يراد ان تكون موجودة بين البشر ، ولانها تؤلف أساس مذهب ثوري (٣) .

ان كون الملكية الخاصة تنجب ، مع اللامساواة الاجتماعية بين البشر ، الثروة

---

(١) ص ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٢) ص ٢١١ . « برودون يطرح على نفسه السؤال الاتي : كيف يحصل ان المساواة التي يجعلون منها المبدأ الخالق والمبرر للملكية غير موجودة بينما بالعكس موجود نفيها في شكل الملكية الخاصة ، يبين « ان الملكية بالحقيقة ليس لها مبرر لا نظريا ولا عمليا » (ص ٣٤) ، انها تتناقض وتدمر نفسها بنفسها ، انها ، بلغة المانية ، تعبير المساواة في شكلها المنخلع والمتناقض . ان حالة الاشياء الموجودة في فرنسا ، ومعها ملاحظة الانخلاع المتولد منها ، تدفعان برودون الى التفكير ، بحق ، بان الملكية الخاصة يجب ان تلغى فعلا . »

(٣) ص ٢٠٩ . « فليتفضل السيد ادغار وليقارن برهة المساواة الفرنسية والوعي الكلي الالماني وسيرى ان هذا يعبر ، بالطريقة الالمانية اي في اطار الفكر المجرد ، عما تعبر عنه المساواة بالطريقة الفرنسية اي في لغة السياسة وفي اطار الفكر العياني . وعي الذات هو الانسان متساويا مع نفسه على صعيد الفكر الخالص . المساواة هي الوعي الذي لدى الانسان عن نفسه في العمل ، في الممارسة ، بالتالي هي ايضا وعيه ان كل انسان اخر هو مساويه وان سلوكه ازاءه يجب ان يكون سلوكا ازاء مساو . المساواة هي التعبير الفرنسي عن وحدة الجوهر الانساني ، هي تعبير وعي وسلوك الجنس البشري ، تعبير الهوية العملية التي يجب ان توجد بين البشر وفي علاقاتهم . كما في المانيا حاول النقد المدمر ، قبل بلوغه مع فويرباخ تصور الانسان الحقيقي ، ان يلغي كل واقع محدد ، بارتكازه على مبدا وعي الذات ، كذلك حاول النقد المدمر في فرنسا ان يصل الى النتيجة ذاتها مرتكزا على مبدا المساواة . »

للبعض والبؤس للبعض الآخر ، يقوده الـــى دراسة العلاقات بين الملكيـــة الخاصة والبؤس واستنتاج ان الغاء البؤس يتطلب الغاء الملكية الخاصة .

ان الكيفية التي بها يتصور برودون ويعالج المسألـــة الاجتماعية تبين الفـرق الاساس الذي يفصل مذهبا ثوريا عن **النقد النقدي** الذي يقلص الصراعات السياسية والاجتماعية الى صراعات ايديولوجية ، الى معارك بين مقولات ، بين أفكـار مجردة . هذا يظهر ، بشكل خاص ، في طريقة نظر ا. باور وبرودون الى العلاقات بين الملكيـة الخاصة والبؤس . ا. باور يقلص الملكية الخاصة والبؤس الـــى مقولتـي avoir و non - avoir (فعل الملك واللاملك ، عندي وليس عندي) .

مجردتين من كل صفة (من كل كيف) ومن كـــل أهمية اجتماعية ، يستطيع ا. باور ان يلعب بهما عـلى راحته ، بفضل الفضيلـة السحرية للمحاكمة النظرانيـة المضاربة ، الامر الذي يعفيه من كل دراسة عينية للمسألة الاجتماعية ومـن اي اتخاذ لموقف سياسي (١) . مختالا بكونه قلص مسألة العلاقات بين الملكية الخاصة والبؤس، كما يفعل مع كل المسائل ، الى علاقات بين أفكار مجردة ، بين مقولات ، يلوم برودون على كونه انحاز للملكية الخاصة ضد البؤس ، بدلا من ان يعاملهما باللامبالاة السلطانية للفيلسوف النظراني (٢) .

ماركس يلاحظ له ان « عندي» و « ليس عندي »، في شكل الحيازة واللاحيازة، ليست أبدا أفكارا مجردة. فاللاحوز هو التعبير العياني عن نزعانسانية العاملالمفصول عن والمحروم من منتوج شغله ، نزع الانسانية الـــذي لا يمكـــن أن يلغـــى بطريق النظران (٣) ، بل فقط بالعمل المتضافر للنقـد ولعمـل البروليتاريا الثوري . « ان

---

(١) ص ٢٠٥ ، ص ٢٠٧ ، ص ص ٢١٢ و ٢٠٧ . « حسب السيد ادغار ، الحـوز واللاحوز همـا بالنسبة لبرودون مقولتان مطلقتان . لا يرى النقد النقدي في اي مكان سوى مقولات . هكذا فان الحـوز واللاحوز ، الاجر ، نصيب الشغل ، البؤس والحاجة ، الشغل الهادف الى تلبية الحاجات ، هذا كلـه ليس سوى مقولات ...

الحوز واللاحوز نالا التكريس الميتافيزي للتناحرات النظرانية . يد النقد النقدي وحدها تستطيع ان تلمسها بدون ان ترتكب اثم انتهاك المحرمات . ليس الراسماليين والعمال ان يهتموا بعلاقاتهم . »

(٢) ص ٢٠٤ .

(٣) ص ٢١٢ . « لو لم يكن على المجتمع ان يتحرر سوى من مقولتي الحوز واللاحوز ، لشد ما كان سهلا على جدلي ، حتى اضعف من السيد ادغار ، ان يسهل له حذف هاتين المقولتين ! والسيد ادغار ، من جهة اخرى ، يعتبر هذا كله تافها لدرجة انه يرى ان الامر لا يستحق عناء اعطاء شرح لمقولتي الحـوز واللاحوز ردا على برودون . والحال ، بما ان اللاحوز ليس محض مقولة ، بل هو واقع كئيب ، بما ان في ايامنا الانسان الذي ليس عنده شيء هو لا شيء ، بما ان هذا الانسان المقطوع عن كل وجود ليس لـه اية علاقة مع الحياة ، بما ان حالة اللاحوز هي الحالة التي فيهـا الانسان مفصول تماما عـن واقعه الموضوعي ، فان اللاحوز يبدو ، بحق ، بالنسبة لبرودون ، الموضوع الاسمى للتفكير ، لا سيما ان هـذا الموضوع نادرا ما كان ، قبله والاشتراكيين الفرنسيين ، موضع تفكير . اللاحوز هو الروحانية في شكلها

العمال الفرنسيين والانكليز، الذين يشتغلون في معامل مانشستر وليون، لا يتصورون ان بامكانهم يوما ان يتحرروا من أسيادهم ومن اذلالهم بفضيلة « الفكر المحض » والاستدلال وحدها . انهم يشعرون بألم بالغ **الفرق** الموجود بين **الكينونة والفكر** ، بين **الوعي والحياة** . انهم يعلمون أن الملكية والرأسمال والمال والشغل المأجور الخ ليست نتاجات للخيال ، بل بالعكس هي نتاجات واقية وعيانية لانخلاعهم ، نتاجات يجب ان تلغى ايضا بشكل عملي ، عياني ، كي يصير الانسان حقا انسانا ، ليس فقط في **الفكر**، في **الوعي** ، بل ايضا في **الوجود** العيني ، في الحياة الواقعية . اما **النقد الناقد** فيعلمهم بالعكس ، يعلمهم انهم يكفون عن كونهم في الواقع اجــراء ، اذا حذفوا بالفكر فكـرة الشغل المأجور ، اذا كفوا بالفكر عن اعتبار أنفسهم اجراء ، واذا كفـوا أيضا ، طبقا لهذا الوهم ، عن تقاضي أجرهم كأجراء . اذ هكذا صاروا مثاليين طاهرين ، كائنـات أثيرية ، يستطيعون بالطبع ايضا ان يعيشوا من اثير الفكر الخالص . **النقـد النقـدي** يعلمهم انهم يحذفون الرأسمال الواقعي بالغائهم في **الفكر** مفهــوم الرأسمال ، أنهـم يتحولون **فعليا** ويصيرون بشرا حقيقيين بتحويلهم في الوعي **أنا** هم **المجرد** ، بازدرائهم بوصفه عملية غير جديرة بالنقد كل تحويل **عياني** لوجودهم الواقعي ، كل تحويل فعلي لشروط وجودهم الواقعية ، اي **لأنا** هم **الواقعي** . ان « **الروح** » الذي لا يـرى فـي الواقع سوى مقولات يعيد بشكل طبيعي كل فاعلية الانسان العملية الى الفكر الجدلي **للنقد الناقد** . في هذا تتميز اشتراكية **النقد النقدي** عــن الأشتراكية والشيوعيـة **العاميتين** (١) . »

بتبيانه ان الملكية الخاصة هي منبع اللامساواة والبؤس ، برودون فضح الرذيلة الاساسية للاقتصاد السياسي ، الذي يجهد لتسويغ المنظومــة الرأسمالية رغـم لا انسانيتها ، معتبرا عقلانيا وضروريا نظام الملكية الخاصة الذي عليه ترتكز (٢) .

وقد بين في الوقت نفسه التناقضات الملازمة للاقتصاد السياسي ، بشكل خاص تلك التي تتصل بنظريته عن الاجر ونظريته عن القيمــة . الاقتصاد السياسي يضع ، في المبدأ ، ان الاجر يمثل حصة منتوج الشغل التي تعود شرعا الى الاجر ، ولكن فـي الواقع الاجر يثبت دوما على المعدل الادنى . أما القيمة ، فالاقتصاد السياسي يزعـم ان مقدارها يتحدد بحسب تكاليف الانتاج وفائدة الموضوع، في حين أنه بالواقع يتحدد بكيفية عسفية (٣) .

اليائس ، لا واقعية الانسان المطلقة وبالمقابل واقعية ما هو غير انساني الكاملة ، انه شكل حيازة ايجابية جدا ، انه حيازة الجوع والبرد والامراض والجرائم والانذلال والبلاهة وكل مــا هــو معاكس للانسان والطبيعة . »

(١) ص ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢) ص ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٣) ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

في الوقت نفسه الذي فيه يشدد ماركس على مآثر برودون ، الذي فتح نقده الطريق امام تحليل علمي للاقتصاد السياسي ، يبين ماركس حدود وعيوب منظومته (١) . هذه العيوب ، ماركس لا يعللها ، كما سيفعل بعد بضع سنوات في **بؤس الفلسفة** (١٨٤٧) ، بموقع برودون الطبقي الذي يقوده بوصفه مدافعا عن الطبقات الوسطى ، عن صغار الفلاحين والحرفيين ، الى تسويغ شكل الملكية الخاص بهذه الطبقات ، الملكية الصغيرة ، بل بكونه ، بما أن نقده للاقتصاد السياسي البرجوازي كان أول حملة أساسية على هذا الاخير ، لم يكن في استطاعته ان يتحرر تماما من مبادئه وبالتالي ان يتجاوزه تماما (٢) .

لقد عمل كل ما يمكن ان نعمله مع بقائنا على صعيد الاقتصاد السياسي ، اي على صعيد الملكية الخاصة ، بما أنه لم ينبذ ، بشكل جذري ، مطلق ، الملكية الخاصة، فانه لم يستطع ان يدفع الى القاع نقد هذه الملكية الخاصة وبذلك عينه نقد الاقتصاد السياسي (٣) .

أجل يريد حذف نظام يرغم العامل على خلع قوة شغله ومنتوج هذا الشغل وفيه من لا يحوز شيئا هو لا شيء ، ولكنه ، اذ يدين أساس هذا النظام ، الملكية الخاصة في شكلها غير المحدود ، المطلق ، يضع في معارضتها ، بوصفه أسلوبا للملكية ظاهرا أكثر عدالة ، حق ملكية محدودا ، حق الحيازة ، بدون أن يرى ان الحيازة possession مصابة باللوثة الاساسية التي تلازم كل شكل للملكية الخاصة .

---

(١) ص ٢٠١ . « في كل انماءاته ، الاقتصاد السياسي ينطلق من واقع الملكية الخاصة ، التي يعتبرها ، في شكل بديهية ، واقعا يحمل تسويغه في ذاته ولا يخضعه لاي فحص نقدي ... ولكن ها هنا ياتي برودون ويخضع قاعدة الاقتصاد السياسي ، الملكية الخاصة ، لفحص نقدي وبالحقيقة لاول فحص نقدي كامل وعلمي . هذا هو التقدم العلمي الكبير الذي حققه ، التقدم الذي قلب الاقتصاد السياسي راسا على عقب والذي جعل ممكنا تحوله الى علم حقيقي . ان مؤلف برودون « ما هي الملكية ؟ » له بالنسبة للاقتصاد السياسي الحديث نفس الاهمية التي كانت لمؤلف سييس Sieyès « ما هي الطبقة الثالثة ؟ » بالنسبة للسياسة الحديثة . »

(« الطبقة الثالثة » ، tiers état ، عمليا : البرجوازية . الطبقة الاولى هي الاكليروس والثانية النبلاء ، في فرنسا « العهد القديم » . كتاب الاب سييس صدر في عشية ثورة ١٧٨٩ ، وظل صاحبه شخصية بارزة في الجمعية التاسيسية والتشريعية ، ثم في المؤتمر ، ثم في الادارة ، في القنصلية ...) .

(٢) ص ٢٠١ . « ان اول نقد لاي علم يذهب بالضرورة من مبادىء العلم الذي هو يكافحه ، وهذا يفسر كون برودون في مؤلفه ما هي الملكية ؟ ينقد الاقتصاد السياسي من وجهة نظر هذا الاخير ... ان مؤلف برودون يتجاوزه النقد الاساسي للاقتصاد السياسي بما فيه الاقتصاد السياسي كما يتصوره برودون . هذا النقد ، على اي حال ، لم يكن ممكنا الا بفضل برودون نفسه ، كما ان نقده لم يكن ممكنا الا بفضل نقد المركانتيليين على يد الفيزيوقراطيين ، والفيزيوقراطيين على يد آدام سميث ، وآدام سميث على يد ريكاردو ، وكذلك بفضل اعمال فوريه وسان ـ سيمون . »

(٣) ص ٢٠٣ .

« القول بان برودون يريد حذف الملكية الخاصة ، أسلوب الملكية القديم ، معناه القول بانه يريد حذف حالة الاشياء التي فيها صار الانسان **موضوعيا غريبا** عن نفســـه ، الشكل الاقتصادي للانخلاع . ولكن بما أنه في نقده للاقتصاد السياسي لم يتحرر من مبــادىء هذا الاخير فان تملك العالم الموضوعي ما يزال متصورا من قبله في شكــل الملكية الذي هو شكل خاص بالاقتصاد السياسي . ان برودون لا يعارض ، كما يزعم **النقد النقدي** ، اللاحيازة بالحيــازة . انــه يعارض أسلوب الملكية القديــم ، **الملكيــة الخاصة** ، **بالحيازة** معلنا أنها **وظيفة اجتماعية** . والحال ، ما هو **مثير للاهتمام** فــي **وظيفة اجتماعية** ليس **طرد** الغير منها بل السماح للانسان بأن يؤكد ويحقق بواسطتها قواه الخاصة .

بــــرودون لم ينجح في بسط هذه الفكرة كــما يجب . ان تصور « **الحيـــازة المتساوية للجميع** » هو ، لكن في الشكل المنخلع الذي يتخذه في الاقتصاد السياسي، التعبير عن فكرة أن الموضوع ، بوصفه ... **تحقق الانسان موضوعيا** ، هو في الوقت نفسه **أسلوب وجود الانسان للغــير** ، **علاقته الانسانية مع البشر الاخرين** ، شكــل **العلاقات الاجتماعية بين البشر** . أجل يلغي برودون الانخلاع الاقتصادي ، ولكنــه لا يفعل ذلك بعد الا **في اطار** هذا الانخلاع (١) . »

اذ يريد تعميم الملكية الخاصة في شكل الحيازة، برودون لا يستطيع بلوغ تصور جديد ، تصور حقا انساني للعلاقات الاجتماعية ، فيه بحذف الملكية الخاصة حذفــا جذريا ينحذف كل شكل من أشكال الانخلاع .

بهذا يختلف برودون اختلافا عميقا عن انجلز ، الذي بيّن ، في نقده للنظـــام الرأسمالــي ، أن المقولات الاقتصادية : تبادل ، قيمة ، سعر ، المعتبرة من قبــل الاقتصاديين البرجوازيين طبيعية وضرورية ، هي في الواقع محددة من قبل هــذا النظام وأن منظومة الملكية الخاصة مصيرها الدمار على يد الطبقة الثورية المتولــدة منها ، البروليتاريا (٢) .

نظرا لكونه يسوّغ الحيازة ، التي يريد تعميمها ، لم ينجح بــرودون ، بخلاف انجلز، فيتبيان بأي طريق اللامساواة الاجتماعية والبؤس يمكن ويجب ان يلغيا فعليا. بالفعل ان الغاءهما لا يمكن أن ينتج عن تخفيف التعارض الطبقي بين الحائزين وغيــر الحائزين ، التخفيف الذي نحوه تتجه منظومة برودون ، بل بالعكس عــن اشتداد هذا التعارض ، عن احتدام الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريــا الذي يفضي الى الثورة الاجتماعية .

أجل برودون يدرك ان المسألة الاجتماعية هي مسألة عملية قبل كــل شيء ،

---

(١) ص ص ٢١٢ - ٢١٣ .
(٢) ص ٢٠٢ .

ولكن بما انه لا يرى ان الثروة والبؤس المتولدتين من النظام الرأسمالي لا يمكن ان يلغيا الا بالتطور الجدلي لهذا النظام ، فانه لا يعتبر في البؤس سوى البؤس ، الذي يريد حذفه بتخفيف آثار هذا النظام دون أن يدرك قيمته التحريرية ، دون ان يرى ان تعمم البؤس يقود الى حذفه باشتداد الصراع الثوري . « البروليتاريا والثروة هما اثنان ـ في ـ تناقض وتؤلفان على هذا الاساس كلا واحدا . انهما شكلان لعالم الملكية الخاصة . والمطلوب تحديد المكان الذي تحتله هذه وتلك في هذا العالم ، اذ لا يكفن القول انهما وجها لحال واحد .

الملكية الخاصة ، بوصفها كذلك ، اي بوصفها ثروة ، مضطرة مع ابقائها ذاتها ان **تبقي** ضدها ، البروليتاريا . انها تؤلف وجه التناقضية **الموجب** ، الملكية الخاصة التي تجد في نفسها رضاها . والعكس بالعكس ، البروليتاريا مضطرة لكي تحذف نفسها كبروليتاريا أن تحذف ضدها ، الملكية الخاصة ، الذي يحدد شرطها . انها تؤلف وجه التناقضية **السالب** ، الملكية الخاصة غير الراضية عن نفسها والتي تطمح الى حذف نفسها .

الطبقة الحائزة والطبقة البروليتارية هما كليهما تعبير الانخلاع الانساني . ولكن بينما الاولى راضية في الانخلاع ، الذي به تجد نفسها مثبتة كطبقة حائزة والذي تعلم انه مصدر قوتها والذي يمنحها مظهر وجود انساني ، الثانية بالعكس تشعر انها معدمة على يد هذا الانخلاع الذي ترى فيه مصدر عجزها ووجودها اللاانساني . . . في اطار هذه التناقضية الثنائية ، الحائزون يشكلون الحزب **المحافظ** والبروليتاريون الحزب **الهادم** ، اولئك يعملون على ابقاء وهؤلاء على هدم هذا التعارض .

بتطورها ، الملكية الخاصة تخلق بنفسها شروط الغائها ، تفعل ذلك على نحو غير واع وغير ارادي ، وهي تخلق البروليتاريا كبروليتاريا ، مولدة معها البؤس الواعي سقوطه المعنوي والمادي ، اللاانسانية الواعية ذاتها والساعية هكذا بالضرورة الى حذف نفسها . ان البروليتاريا لا تفعل سوى تنفيذ الحكم الذي تصدره الملكية الخاصة ضد نفسها بتوليدها البروليتاريا ، كما انها لا تفعل سوى تنفيذ الحكم الذي يصدره الشغل المأجور ضد نفسه بانتاجه مع ثروة الغير بؤسه الخاص (1) . »

بانجابها البروليتاريا ، الملكية الخاصة تخلق بنفسها ، دون أن تريد ذلك ، أداة دمارها ، فدور البروليتاريا هو تنفيذ الحكم الذي تصدره الملكية الخاصة ضد نفسها بخلقها اياها . لئن كان الشيوعيون يحملون البروليتاريا هذا الدور ، فهذا ليس ، كما ينكر **النقد النقدي** ، لانهم يؤلهونها ، بل لان البروليتاريا عليها ، لكي تعتق نفسها ومعها البشرية كافة ، ان تدمر المجتمع البرجوازي . « مع احرازها النصر ، البروليتاريا لا تصير بموجب ذلك العنصر الممثل للمجتمع . فهي لا تستطيع بالفعل

---

(1) ص ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

ان تكـون منتصرة الا بحذف ذاتها وبحذف العنصر المضاد الذي يحددها ، الملكيـة الخاصة ، بحيث يزولان كليهما .

لئن كان الكتّاب الاشتراكيون يعزون اليها هذا الدور العالمي ، فذلـك ليس ابـدا ، كما يحب النقد النقدي أن يعتقد ، لانهم يؤلهونها . بالاحرى العكس هـو الصحيح . لان البروليتاريا ، الواصلة الى انبساطها المليء ، تجسد نفي ليس فقط كل انسانية بل أيضا كل مظهر من انسانية ، بنتيجة ان شروط وجودها تمثل أعلى درجات اللاانسانية في المجتمع البرجوازي . لان الانسان ، اذ يضيع نفسه تماما فيها فانه يجد نفسه ، في الوقت الذي يعي فيه لاانسانيته ، مرغما على الثورة على هـذا المجتمع ، لذلك فالبروليتاريا يمكن ويجب ان تتحرر . انها لا تستطيع أن تتحـرر بدون أن تحذف شروط حياتها ولا تستطيع ان تحذف شروط حياتها بدون أن تلغي كل الشروط الحياتية اللاانسانية التي تطبع المجتمع الراهن والتي تجد اختصارهـا في البروليتاريا . ليس عبثا تمر البروليتاريا بمدرسة الشغل القاسية ولكن الحافزة. ليس ذا أهمية كبيرة ان نعلم ما هو الهدف الموقت الذي يريده هـذا البروليتاري أو ذاك أو حتى البروليتاريا بأسرها . الامر الجوهري هو أن نعلم ما هي البروليتاريا وما عليها تاريخيا أن تعمل بحكم ما هي . ان هدفها وعملها التاريخي مرسومان لها عـلى نحـو واضح ولا رجوع عنه من قبل شروطها الحياتية ومن قبل التنظيم الحاضـر للمجتمـع البرجوازي . من النافل أن نبرز هنا أن قسما كبيرا من البروليتاريـا الانكليزيـة والفرنسية قد وعى من الان رسالته التاريخية وهو يجهد بشكل دائـم لتوضيح هذا الوعي تماما (١) . » .

٦ ـ المسالة اليهودية

في مقالـين كبيرين صدرا في سنتي ١٨٤٢ و ١٨٤٣ ، كان ب. باور قد عالـج مسألة انعتاق اليهود التي كانت آنذاك مسألة ذات راهنية بالغة (٢) . مرتكزا عـلى واقع ان اليهود كانوا يزعمون أنهم شعب ، مختار ، ذو امتياز ، كان ينكر عليهم حـق أن يتحرروا سياسيا ، على أساس ان التحرر السياسي يتضمن نبذ كل امتياز (٣) . ردا على الانتقادات العديدة التي تسببت عن مقاليه ، كان ب. باور قد أصدر فـي

(١) ص ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٢) انظـر برونو باور : المسالة اليهودية ، في الحوليات الالمانية ، ١٧ و ١٩ نوفمبـر ١٨٤٢ . برونو باور : قابلية يهود ومسيحيي اليوم للانعتاق ، في الـ ٢١ ورقة من سويسرة ، زوريخ وفنترثور ، ١٨٤٣ ، ص‌ص ٥٦ ـ ٧١ .

(٣) انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

الصحيفة العامة الادبية مقالين ثبّت فيهما أطروحته (١) .

في نقده ، ماركس يوسع تفنيد هذه الاطروحة الذي سبق أن كان موضوع مقاله في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** عن المسألة اليهودية (٢) .

بدلا من دراسة مسألة تحرر اليهود السياسي كما هي مطروحة فعلا ، ب. باور ، على حد قول ماركس ، يفيض في اعتبارات طويلة عن الدين اليهودي والدولة المسيحية (٣) . يحلل الدين اليهودي ، دون أن يأخذ حساب الاسباب الاجتماعية ، يعلل اليهودي بدينه بدلا من أن يعلل الدين اليهودي بأسلوب حياة اليهود ، ولا يهتم فعلا باليهودي الا بقدر ما هو موضوع اللاهوت (٤) .

بما ان الكفاح الحقيقي الوحيد بالنسبة له هو كفاح الوعي الكلي ضد الدين وبما أنه يعتبر نقد الدين الطريق الوحيد الذي يقود الى التحرر ، فانه يعيد قابلية اليهود والمسيحيين للتحرر الى قابليتهم لان ينقدوا الدين ، القابلية التي يعتبرها اكبر عند المسيحي منها عند اليهودي بسبب كلية أو كونية دينه (٥) .

هذا التصور للانعتاق يفسَّر ، على حد قول ماركس ، بتطوره السياسي ـ الديني . الحركة السياسية التي ولدت في سنة ١٨٤٠ حرّرته من تصوراته الارثوذكسية في مضمار الدين والمحافظة في مضمار السياسة. سلطة الدين والكنيسة أخلت المكان لسلطة الدولة ، التي لم يكن يتصورها من جهة أخرى الا في علاقاتها مع الدين وكخصم للدين (٦) . هذا التصور للدولة ، المعتبرة جوهريا في علاقاتها مع الدين ، يحدد تصوره للانعتاق ، الذي لا ينظر اليه الا في شكل انعتاق سياسي والذي لا يمكن تحقيقه ، في نظره ، الا على يد دولة محررة من كل نفوذ ديني . هذا يقوده الى التفكير ان الدولة البروسية لا تستطيع ، بوصفها دولة مسيحية ، أن تحرر رعاياها ، وانه من الوهم ، من جانب اليهود ، الاعتقاد بأنهم يمكن أن يحرروا من قبلها (٧) .

---

(١) انظر برونو باور : مؤلفات حديثة العهد عن المسالة اليهودية ، في ص.ا.ع، الدفتر الاول ، ديسمبر ١٨٤٣ ، ص‌ص ١ ـ ١٧ ، والدفتر الرابع ، آذار ١٨٤٤ ، ص‌ص ١٠ ـ ١٩ . برونو باور : ما الذي هو الان موضوع النقد ؟ ص.ا.ع ، الدفتر الثامن ، تموز ١٨٤٤ .

(٢) ميغا ، ١ ، ٣ ، ص‌ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢ . ك. ماركس : المسالة اليهودية ، رقم ١ ، وضع المسائل ، ص‌ص ٢٦٧ ـ ٢٧١ . المسالة اليهودية ، رقم ٢ . اكتشافات حققها النقد في صدد الاشتراكية والقضاء والسياسة (القومية) ، ص‌ص ٢٨٠ ـ ٢٩٤ . المسالة اليهودية رقم ٣ .

(٣) ص ٢٦٢ .

(٤) ص ٢٨٣ .

(٥) ص‌ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٦) ص‌ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٧) ص ٢٨٥ .

ويلاحظ ماركس بادىء بدء ان تصور ب. باور للتحرر يأتي من تصوره المجرد للحرية . فهو اذ يعتبر الحرية فعل انعتاق ذا طابع روحي في الجوهر يخلص من ذلك الى ان اليهود لا يمكن ان يحرّروا الا بقدر ما هم يتحررون بأنفسهم نظريا. في الواقع، يتطلب التحرر ، خارج فعل روحي ، شروطا بالغة العينية والمادية لكي يتحقق . هذا ما يحسه ويشعر به بشكل واضح تماما الجمهور ، الطبقة العاملة ، التي ، بعكس **النقد النقدي** ، ترى من الضروري اللجوء الى أفعال ثورية من أجل الانعتاق .

« لليهود الذين ينتسبون الى الجمهور ، لليهود الملقين بالمادة ، يقدّم المذهب **المسيحي** ، مذهب الحرية **الروحية** ، الحرية **النظرية** ، هذه الحرية الروحانية التي **تتخيّل** انه يمكن أن يكون المرء حرا وهو مثقل بالسلاسل ، التي تجد السعادة الكاملة في مملكة **الافكار** والتي لا يمكن الا أن تزعج من قبل تحققها الفعلي .

« اليهود **هم** حاليا محرّرون بقدر ما هم محررون **نظريا** ، **هم أحرار** بقدر ما **يريدون أن يكونوا أحرارا** . » . هذه الجملة تسمح بأن نقيس مباشرة الهوّة التي تفصل الشيوعية والاشتراكية **المبتذلتين** والدنيويتين عن الاشتراكية **المطلقة** . ان المبدأ الاول للاشتراكية الدنيوية (غير المقدسة) يرفض التحرر **النظري المحض** باعتبار أنه وهم ، مقدّرا ان تحقق الحرية **الفعلي** يتطلب ، عدا ارادة التحرر ، شروطا جد مادية . نرى بذلك كم أدنى من النقد القديس **الجمهور** الذي يعتبر ضرورية لا غنى عنها تحويلات عميقة مادية ، عملية ، على الاقل بغية احراز الوقت والوسائل اللازمة للاهتمام **بالنظرية** (١) . »

ان الانعتاق ، من جهة أخرى ، يجب ان يعتبر لا في شكله الديني والسياسي بل في شكله الاجتماعي . فكل المسائل ، حتى تلك التي ترتدي مظهرا سياسيا أو دينيا ، لها بالفعل طابع اجتماعي . هذا جلي بالنسبة للمسائل السياسية . أما المسائل الدينية ، فلا يستطيع البقاء على الاعتقاد بأنها مسألة دين فقط سوى رجل لاهوت (٢) . لهذا ، يقول ماركس ، هو اعتبر ، في مقاله في **الحوليات الفرنسية ــ الالمانية** ، اليهودي لا تحت هيئته الدينية ، كمؤمن ، بل تحت هيئته الاجتماعية كعضو في المجتمع البرجوازي ، وعرّف موقعه في هذا المجتمع . فقط بعد اخراجه اليهودي من لباسه الديني وتبيانه ما هو واقعه الاجتماعي ، استطاع ان يصل الى حل واقعي للمسألة اليهودية . هذه المسألة تتطابق في الهوية مع المسألة الاجتماعية منظورا اليها في هيئتها الاعم . لما كان العالم الحديث ، العالم الرأسمالي ، قد انطبع بالروح اليهودية المتميزة بروح الكسب ، فان انعتاق اليهود يتطابق في الهوية مع انعتاق المجتمع الحديث ، المجتمع البرجوازي ، من اليهودية ، أي من نمط حياة لا

(١) ص ٢٦٧ .
(٢) ص ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ .

انساني طابعه هيمنة المال (١) .

معتبرا اليهودي في هيئته الدينية وليس في هيئته الاجتماعية ، ب. باور لم ير انه ، مثل المسيحي ، متولد دائما ، فيما يتصل بملامحه الجوهرية ، من المجتمع البرجوازي ، لذا لم يستطع اعطاء حل صحيح لا للمسألة اليهودية ولا للمسألة الاعم ، مسألة الانعتاق الانساني (٢) .

غير متصور انعتاق اليهود في شكله الحقيقي ، في شكله الاجتماعي ، بوصفه انعتاق اليهود من اليهودية الواقعية ، أي من الرأسمالية ، انه يقصر انعتاق اليهود على الانعتاق السياسي ، الذي لا يميّز من قبله عن الانعتاق الحقيقي ، عن الانعتاق الانساني . بما أنه يعتبر ان دولة محرّرة من الوصاية الدينية هي وحدها قادرة على أن تعتق سياسيا ، فانه ينكر هذه القدرة بالنسبة للدولة البروسية ، التي يضعها بوصفها دولة مسيحية في معارضة الدولة الدستورية الحديثة ، التي ، بما أنها على حد قوله قد ألغت كل الامتيازات بما في ذلك الامتياز الديني ، تستطيع هي وحدها أن تمنح الانعتاق السياسي ، دون أن يرى ان هذه الدولة ليس فقط لم تلغ الامتيازات بل عززتها وانها بالتعارض الذي قام بينها وبين المجتمع هي الدولة المسيحية الحقيقية (٣) .

الدولة الحديثة ولدت من اشتداد التعارض بين المجتمع البرجوازي ، دائرة المصالح الخاصة ، الذي تكوّن بتطور الصناعة والتجارة المحررتين من جميع قيود هيئات الحرف ، والدولة دائرة المصالح العامة . ان هذا الانفصال الكامل بين المجتمع والدولة هو الذي يجعل الدولة الحديثة الدولة المسيحية حقا ، فيه فقط تستطيع هذه الدولة الحديثة ان تلعب ازاء المجتمع بوصفها تجسيدا وهميا للمصالح العامة الدور الذي تلعبه السماء ، في الدين ، ازاء الارض ، بحيث أن الدولة المسيحية الحقيقية ، الدولة التي تخدم كأساس واقعي للدين والتي الدين انعكاسها حقا ، هي لا كما يفكر ب. باور الدولة الرجعية البروسية بل الدولة الحديثة المنعتقة تماما من وصاية الدين .

رغم تعارضهما، تعارضا هو بالواقع ظاهري أكثر منه واقعي، الدولة السياسية

(١) ص ٢٨٣ .

(٢) ص ٢٨٣ .

(٣) ص ٢٩١ . « كما أن النشاط الصناعي لم يحذف بالغاء امتيازات الحرف والمحلفين والهيئات وأن الصناعة لم تبدأ تتطور حقا الا بعد حذف هذه الامتيازات ، كما ان الملكية العقارية لم تحذف بالغاء الملكية العقارية ذات الامتياز ولم تبدأ ، بالعكس ، تتطور تماما الا مع حذف هذه الامتيازات واقامة حرية التجزئة والبيع الكاملة ، كما أن التجارة لم تحذف بالغاء الامتيازات التجارية بل بالعكس لم تتفتح الا مع حرية التجارة ، كذلك فان الدين لا ينبسط ويتطور في كل امتلائه (ولنفكر بالولايات المتحدة الاميركية) الا حيث لم يعد يوجد دين ذو امتياز . » انظر ايضا ص ٢٩٢ .

والمجتمع البرجوازي لهما علاقات وثيقة فيما بينهما . ان تحرر كل الروابط الاقتصادية والاجتماعية بانفلات المزاحمة قد ولّد فوضى عامة ، تؤلف السمة الاساسية للمجتمع البرجوازي (١) . تحت هذا الظاهر ، ظاهر الفوضى والحرية الكاملة والاستقلال الكامل للافراد المحرّرين من كل قيد ، يحكم، بالواقع، في المجتمع البرجوازي ، من جراء هيمنة الملكية الخاصة ، أكبر عبودية وأكمل لاانسانية (٢) .

رغم كونها في الظاهر معارضة تماما للمجتمع البرجوازي ، الدولة السياسية لها بالواقع كوظيفة أولية ضمان النظام الاجتماعي البرجوازي . الحرية ، التي تؤلف جوهر هذه الدولة ، ليست شيئا اخر سوى الانعكاس الايديولوجي للفوضى ، منجبة اللاانسانية، التي هي طابع المجتمع البرجوازي، بحيث أن الدولة السياسيةوالمجتمع البرجوازي ، رغم تعارضهما الظاهر ، يحدد ويكمل كل منهما الآخر (٣) .

في المجتمع البرجوازي ، ليست حرية الافراد سوى انفلات العناصر المنخلعة لحياتهم : الملكية ، التجارة ، الصناعة ، التي صارت مستقلة عنهم والتي يخلطونها مع حريتهم ذاتها ، ان هذه الحرية هي التي تؤلف أساس الدولة السياسية وهي التي تكرّسها هذه الدولة .

هذا الطابع الاساسي للمجتمع البرجوازي وللدولة الحديثة هو الذي يوافقه

(١) ص ٢٩١ . « الصناعة الحرة والتجارة الحرة ، بحذفهما الانعزال الذي كان يبقى فيه ذوو الامتياز وتصارعاتهم ، قد أحلتا محل الانسان ذي الامتياز الانسان المحرر تماما ... الذي لم يعد معلقا بالبشر الاخرين حتى بمظهر رابطة جماعية ، واثارتا بذلك صراعا عاما بين كل البشر . المجتمع البرجوازي ليس الا تعبير هذه الحرب بين الافراد الذين لم يعودوا يختلفون بعضهم عن بعض الا بفردياتهم ، ليس الا انفلات القوى الابتدائية المحررة من عوائق الامتيازات . »

(٢) ص ص ٢٩١ - ٢٩٢ . « الرق الواقعي للمجتمع البرجوازي يرتدي مظهر اكبر حرية ، لان الفرد ، المستقل تماما في الظاهر ، ياخذ انفلات عناصره الحيوية ، المحررة من كل عائق والتي ليست الا تعبير انخلاعه ، ياخذه على انه تجلي حريته الخاصة ، حريته هو ، في حين انه ليس الا تعبير عبوديته الكاملة ولا انسانيته المطلقة . »

(٣) ص ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٨٨ . « ان ما يكون قاعدة ... الدولة الحديثة ليس ، كما يفكر النقد ، مجتمع الامتيازات ، بل مجتمع الامتيازات الملغاة ، المجتمع البرجوازي المبسوط . الفوضى anarchie هي قانون المجتمع البرجوازي المحرر من الامتيازات ، هذه الفوضى هي قاعدة الدولة الحديثة التي من جهتها تضمنها . هكذا ، رغم تعارضهما ، الدولة والمجتمع البرجوازي يقرر ويحدد كل منهما الاخر ... لقد بين ان الاعتراف بحقوق الانسان من قبل الدولة الحديثة ليس له معنى اخر غير الاعتراف بالرق من قبل الدولة القديمة . ان قاعدة الدولة القديمة كانت الرق ، وقاعدة الدولة الحديثة هي المجتمع البرجوازي ، انسان المجتمع البرجوازي ، الانسان المستقل الذي تربطه المصلحة الخاصة والضرورات الطبيعية وحدها بالبشر الاخرين ، عبد العمل النفعي ، عبد حاجاته الانانية وحاجات البشر الاخرين الانانية . هذه القاعدة الطبيعية ، الدولة الحديثة اعترفت بها باصدارها حقوق الانسان . »

الانعتاق السياسي ، الذي ليس ، كما تبين ذلك حقوق الانسان ، سوى الاعتراف بحقوق الفرد الاناني . الدولة الحديثة ليس فقط تستطيع أن تعتق اليهود بوصفهم أعضاء في المجتمع البرجوازي بل هي أعتقتهم فعلا (١) .

حين يطالب اليهودي بتحرره السياسي مع زعمه المحافظة على دينه ، وهما امران يبدوان متناقضين لبرونو باور ، فانه لا يضع شروطا لا تتفق مع تحرره السياسي . ان انفصال الانسان الى مواطن محرَّر من الوصاية الدينية والى انسان خاص دين لا يسير ، بالفعل ، أبدا ضد تحرره السياسي . كما ان الدولة تنعتق من الدين بكفها عن الاعتراف بدين للدولة مع تركها الدين يبقى كدين ، فان الفرد يتحرر سياسيا بأن لا يعتبر دينه بعد الان قضية عامة بل قضية خاصة .

ان الانعتاق السياسي ، الذي ، بعيدا عن تحرير الانسان من الانخلاعات التي تنزع انسانيته ، يعزز هذه الانخلاعات ، هو عكس الانعتاق الحقيقي ، الانعتاق الانساني ، الذي يشترط الغاء الملكية الخاصة الغاء كاملا والذي لن يتحقق الا بالشيوعية .

٠٧ « أسرار باريس »

الجزء الاكبر وان ليس الاهم من **العائلة المقدسة** مكرَّس لرواية أوجين سو Eugène Sue : **أسرار باريس** (٢) .

كان أوجين سو كاتبا ذا لون اشتراكي ، كان ، مستفيدا من الاهتمام المتعاظم الذي كانت تثيره آنذاك المسألة الاجتماعية ، يعالجها على نمط عاطفي ، كفيل باثارة شفقة النفوس الحساسة على بؤس الناس الفقراء دون اقلاقها مع ذلك بذكر نضالات ثورية . الامر الجديد عنده انه كان ، بخلاف كتّاب اخرين مثل بالزاك Balzac وجورج ساند Georges Sand كانوا أيضا يعالجون المسألة الاجتماعية ، كان يصف ، وان تحت شكل ممثلن ، شروط حياة الشعب .

أسرار باريس (٣) صدرت أولا في حلقات مسلسلة في اكبر جريدة آنذاك وهي **جريدة المناظرات** Journal des Débats . وقد نالت نجاحا هائلا ، ليس فقط في فرنسا ، بل أيضا خارجها ، لاسيما في المانيا ، حيث صدرت ترجمات وتقليدات

(١) ص ٢٨٨ .

(٢) ص ص ٢٢٥ ـ ٢٤٩ ، الفصل الخامس ، النقد النقدي في دور بائعة اسرار او النقد النقدي في ملامح السيد شيليغا ، ص‌ص ٣٣٩ ـ ٣٨٧ ، الفصل الثامن ، الحياة الارضية والتجلي الرباني للنقد النقدي او النقد النقدي في ملامح رودولف ، امير جيرولشتاين .

(٣) انظر أوجين سو : اسرار باريس (٤ مجلدات) ، بروكسل ١٨٤٣ .

عديدة (١) .

مستنـــدا على خياله الفيّاض ومضاربا على ذوق الجمهور المحب للغريـــب والفظيع ، كان سو Sue ، في روايته التي كانت تتمدد في حلقات لا تنتهــي ، يسوق القارىء في الاحياء المظلمة حيث الرذيلة والجريمة ليجعله يصل أخيرا الى دائرة فيهــا تهيمن الفضيلة .

من أجل فهم نقد ماركس ، يمكن تلخيص هذه الرواية على النحو التالي . بعد أن تــزوّج في السر من شابة محبــة للدسائس ، هي الآنسة ســاره سيتـــون Miss Sarah Seyton ، رودولف Rodolphe ، أمير جيرولشتاين ، يقطع الصلة معها لانها خانته ، ويطوف العالم ، مكرّسا حياته مــن الان فصاعدا لمعاقبــة الاشرار ومكافأة الاخيار ونجدة البؤساء ومداواة الادواء التي تعذب البشرية . خلال رحلة في فلوريدا ، ينتزع خلاسية ، اسمها سيسيلي Cecily ، من أيدي غارس ظالــم ، ويجعلهــا تتزوج طبيبه . وتعيش سيسيلي حياة منحلة فيجعلها تحبس في بيـــت للاصلاح . ثم يرحل الى باريس ، حيث كانت ساره سيتون قد تخلصت ، بمساعدة كاتب بالعدل سافل ، اسمه جول فران Jules Ferrand ، من الطفل الذي أنجبتــه من رودولف . أثناء نزهة في حي ساقط ، رودولف يتنطّع للدفاع عن مومس شابة ، اسمها Fleur de Marie أي زهرة ـ مريم ، كان يقسو عليها حاميها واسمـــه le Chourineur أي القاتل بالسكين . اذ يعلم انها ابنته ، يقرر رفعها ويسلــم تربيتها لكاهن . في الوقت نفسه يأخذ في خدمته القاتل بالسكين ، الذي يحميه ضد اثنين من الاشقياء ، هما « أستاذ المدرسة » و « البومة » . ثم يعاقب كاتب العــدل فران، المسؤول عن سقوط زهرة مريم، مرغما اياه على تكريس ثروته لاعمال خيرية. مساقة على يد الكاهن الى التوبة والتكفير ، زهرة مريم تدخل في دير حيث تموت .

هذه الرواية كانت منذ صدورها موضع عدد لا بأس به من الكتابات النقديـــة في ألمانيا .

في مقال نشر في **مجلة برلين الشهرية** (٢) ، كان شترنر Stirner يؤكـــد ان

---

(١) الترجمة الالمانية الصادرة في لايبتسيغ ، عند فيغان ، بلغت ١١ طبعة . انظر : اسرار برلين ، تاليــف اوغست براس (٥ مجلدات) ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ . اسرار برلين تاليف ل. شوبارت (١٢ جــزء) ١٨٤٤ ـ ١٨٤٧ . أسرار برلــين ، استنادا الى أوراق موظف امن في برلين (مجلد واحد ، برلــين ، ١٨٤٤) . ان مشاريع الاصلاح الاجتماعي لـ سو كانت موضع اهتمام كبير لدرجة ان سيدة برلينية غنية عرضت مبلغا كبيرا لتحقيقها .

(رواية سو لم تفقد كل شعبيتها في القرن العشرين ، حيث نالت طبعة او طبعات و ... فيلمــا سينمائيا) .

(٢) مجلة برلين الشهرية ، ص‌ص ٣٠٢ ـ ٣٣٢ . اسرار باريس (م. شميدت) . انظر الفصــل الاول من هذا المجلد .

المسيحية ، التي يقترحها سو علاجا للشرور الاجتماعية ، لا تفعل في الواقع سوى زيادة خطورتها . كان يبين ذلك بمثال زهرة مريم التي صارت ، تحت تأثير الكاهن المكلّف بتربيتها ، فريسة الندم وانقطعت عن الحياة بدخولها الدير . كان ينقد أيضا مشاريع سو في الاصلاح الاجتماعي ، دون ، على كل حال ، ان يذكر هو كيف يجب ان تحل المسألة الاجتماعية (١) .

ان كاتبا اخر من الهيغليين ــ الشبان ، أقل شهرة بكثير ، شيليغا Szeliga ، نشر في **الصحيفة العامة الادبية** تقريرا طويلا عن **اسرار باريس** (٢) ، التي كان يرى فيها كشف أسرار المجتمع ومعه حل المسألة الاجتماعية (٣) .

في تحليل دقيق يمتد على ٨٠ صفحة ويظهر أطول على أساس أن لا رواية سو ولا نقد شيليغا كان يسوّغ هذا الاتساع ، يسخر ماركس من هوس شيليغا في تحويل أشد السوقيات ابتذالا الى أسرار ويفضح في الوقت نفسه عدم هذه الرواية التي كانت تحت قشور انسانية زائفة تستلهم أحط الاخلاق البرجوازية (٤) .

شيليغا يجعل من رودولف ، وجه الرواية المركزي ، ممثلا **للنقد النقدي** بالغ الاستحقاق . رسالته ، كرسالة **النقد النقدي** ، كشف جوهر أسرار . السر الاول الذي يصطدم به هو سر انحطاط المجتمع الذي يتظاهر بالتعارض الذي قام بين الاغنياء والفقراء والذي مرده ، يقول شيليغا ، ان الاغنياء لا يظهرون أي تفهم للبؤس (٥) .

هذا الفهم ، يجيبه ماركس ، بعيد عن ان ينقصهم . ان ممثليهم الجديرين على الصعيد العلمي ، وهم الاقتصاديون ، قد حللوا تماما أسباب البؤس ، ولكنهم لم يقترحوا له أي دواء ، فالبؤس نسخة سجل محتومة للثروة (٦) .

الامر كذلك بالنسبة للجريمة والمجرمين . اذا كان رودولف يجوب اغواط المجتمع فلكي يكتشف أسباب الشر والجريمة ، هكذا يفكر شيليغا . ذلك تصور مبسّط تماما ، يعترض ماركس . ان هذه الاغواط تؤلف الوسط الاجتماعي الطبيعي للمجرم كما العش جزء لا يتجزأ من حياة العصفور (٧) ، الجرائم والمجرمون ليس لها أسباب خفية سرية ، بل ينجبها النظام الاجتماعي وتعاقبها عدالة طبقية مخصصة

---

(١) المرجع نفسه ، صص ٣٢٩ ــ ٣٣٢ .

(٢) ص. ا. ع ، الدفتر السابع ، حزيران ١٨٤٤ ، صص ٨ ــ ٤٨ . شيليغا : اوجين سو : اسرار باريس . عن شيليغا انظر الفصل الاول من هذا المجلد .

(٣) ص.ا.ع ، الدفتر السابع ، حزيران ١٨٤٤ ، صص ٨ ــ ٤٨ . شيليغا : اوجين سو : اسرار

(٤) ميغا ، ١ ، حـ٣ ، صص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ، ٢٤٠ .

(٥) المرجع نفسه ، صص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ .

(٦) ص ٢٢٦ .

(٧) ص ٢٢٧ .

لحماية هذا النظام ضد كل تعد .

رغم ان العدالة هي مبدئيا متساوية للجميع ، فان الفقراء والاغنياء يعاملون بالواقع معاملة بالغة التفاوت ، اذ ان العدالة تبدي الرحمة للاغنياء بقدر ما تبدي القسوة مع الفقراء (١) .

ان التفاوت الاجتماعي ، الذي هو سمة المجتمع البرجوازي ، يتجلى بشكل خاص في القدر المفروض على النساء وبصورة رئيسية النساء الفقيرات في هذا المجتمع (٢) . مستلهما فوريه Fourier ، ماركس يقول ان عصرا من العصور يتميز بحالة المرأة في المجتمع وان درجة انعتاق المرأة تسم درجة الانعتاق الانساني في هذا المجتمع (٣) .

ان انبخاس المرأة في المجتمع البرجوازي يرافقه اللؤم الخاص بهذا المجتمع ، اللؤم الذي يدفع كل أعضائه ولاسيما النساء الى تقنيع طبيعتهم الحقة . هذا يظهر عند جميع أشخاص الرواية من النساء ، لاسيما عند ريغوليت Rigolette وزهرة مريم . ريغوليت (المازحة) شابة مرحة لطيفة مقادة الى اخفاء طبيعتها المندفعة البسيطة لتكيف سلوكها مع السلوك اللئيم للبرجوازيات (٤) . ويحصل تقنيع مماثل عند زهرة مريم . بينما في الاغواط التي كانت تعيش فيها ، كانت قد احتفظت بسجية قوية وفرحة ، فان الكاهن الذي تسلمها من رودولف من أجل رفعها يدمر هذه السجية جاعلا منها آثمة تائبة . بتحويله خطئها الذي لم تكن تعيه الى جريمة ضد الله ، يجعل الكاهن شعور سقوطها امرا لا يطاق ولا علاج له . بينما في نزهتها الاولى مع رودولف كانت ما تزال تظهر مليئة بالمرح والحياة ، معبرة عن كل الفرح الذي يولده فيها جمال الطبيعة ، فانها سرعان ما تعتبر كل مسرات الحياة أشياء دنيوية وبذلك عينه مذنبة وما تعذب نفسها لتصبح جديرة بالنعمة الربانية . ما ان ينغرس عار الخطيئة في نفسها حتى تغدو فريسة الندم والحاجة الى التكفير . واذ تشكو للكاهن كون حياتها تحولت هكذا الى عذاب الشهداء ، يجيبها ان عليها أن تعتبر نفسها سعيدة بالنعمة التي أسبغها الله عليها بأن فتح لها طريق الخلاص . وهي لا تتحرر من شعور الذنب الا بتخليها نهائيا عن العالم وانسحابها الى دير حيث تموت (٥) . « ما ان يكون الانسان قد فهم ان أخطاءه هي جرائم **لا حد لها** ضد الله ،

---

(١) ص ٢٢٦ .

(٢) ص‌ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٣) ص ٣٧٤ . « يمكن ان نحدد التغيرات الحاصلة في طور تاريخي بعلاقات المرأة ازاء الحرية ، لانه بعلاقات المرأة ازاء الرجل ، الضعيف ازاء القوي ، يقاس على النحو الافضل انتصار الطبيعة البشرية على البهيمية . ان درجة انعتاق المرأة يؤلف القياس الطبيعي للانعتاق الانساني . »

(٤) ص ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

(٥) ص ص ٣٤٦ ـ ٣٥٤ ، زهرة مريم .

حتى لا يكون بوسعه أن يؤمن **النعمة والخلاص** الا بأن يعطي نفسه **بالكامل** لله ، بأن يموت **بالكامل** بالنسبة للعالم والمشاغل الارضية . ما ان فهمت زهرة مريم أنها بمعجزة **الهية** انتزعت من وضعها اللاانساني حتى اضطرت الى أن تتحول الى **قديسة** لكي تكون جديرة **بمعجزة** كهذه . بات على حبها الانساني أن يخلي المكان للحب الديني، على رغبتها في سعادة أرضية أن تخلي المكان للسعادة الابدية ، على رضاها الدنيوي ان يخلي المكان للرجاء المقدس ، على تواصلها مع البشر أن يخلي المكان للمناولة مع الله . الله يجب أن يأخذها بكاملها . وهي تكشف لنا بنفسها السبب الذي يمنع الله من ذلك . انها بعد لم **تعط** ذاتها **كاملة** له ، قلبها ما يزال مغرما بأشياء أرضية . ولكن هذا اخر نفضة لسجيتها . وهي تعطي نفسها تماما لله بموتها للعالم ودخولها **الدير** (١) . »

هكذا يفضي رودولف ، بمنهجه في التربية ، الى أن يجعل من خاطئة بريئة مسرورة بالحياة تائبة لا تجد طريقا اخر للخلاص سوى الانقطاع عن العالم .

وهذا من جهة أخرى يؤلف عنده منظومة فداء حقيقية . هكذا يدرّب « السكاكنجي » كما تدرب الكلاب ويجعل من هذا الذي كان في الامس القريب جزارا متوحشا خادما مطيعا وجلا ، مرنا مثل كلب صغير أمين أمام سيده (٢) .

تجاه « أستاذ المدرسة » ، وهو رجل ذو قوة هرقلية صار مجرما ، يستعمل وسيلة تقويم أكثر جذرية ، يعميه ويلقي عليه في الحبس خطابات طويلة ليسوقه الى الندم (٣) . هذه الطريقة في التقويم التي تضيف الى عقاب العدالة التعذيب المعنوي (٤) يطبقها بدوره « أستاذ المدرسة » . بعد أن أعمى « البومة » ، لخيانته

(١) ص ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .
(٢) ص ص ٣٤١ – ٣٤٣ .
(٤) ص ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ . « ان ما يزعج رودولف في القمع الدنيوي هو الانتقال السريع من
(٣) ص ص ٣٥٤ – ٣٥٨ .

الحكمة الى المقصلة . فهو يريد بالعكس ان يكون انتقام المجتمع النازل بالمجرم مصحوبا بندم المجرم وتبكيت ضميره . يريد ان يجمع العقاب الجسدي والعقاب المعنوي ، التعذيب الفيزيائي مع تعذيب الندامة اللامادي . يجب أن يكون العقاب الدنيوي في الوقت نفسه وسيلة للتربية مسيحية واخلاقية .... فصل الانسان عن العالم الخارجي ، حبسه في قرارته الداخلية المجردة ، اعماؤه ، من اجل اصلاحه ، تلك نتيجة ضرورية للمذهب المسيحي الذي يرى أن الخير قائم في التحقيق الكامل لهذا الانفصال ، في هذا التقلص المطلق للانسان الى أناه الروحي . لئن كان رودولف لا يذهب ، على غرار ما كان يجري في بيزنطية وفي امبراطورية الافرنج ، الى درجة حبس استاذ المدرسة في دير واقعي ، فانه على الاقل يحبسه في دير مثالي ، في دير ليل سميك لا ياتي اليه في يوم من الايام نور العالم الخارجي ، في دير الوعي – الوجدان غير الفاعل وشعور الاخطاء المرتكبة الذي لا تسكنه سوى ذكريات شجية ... انه (رودولف) يريد أن يعلمه ان يصلي . هذا اللص ذو القوة الهرقلية ، يريد ان يحوله الى راهب لن يكون له من عمل سوى الصلاة . كم اكثر انسانية ، بالمقارنة مع هذه القسوة المسيحية ، نظرية



له ، يلقي عليه خطابات طويلة تصف له الحياة التي باتت تنتظره في الظلمات (١) .

هذه الطريقة ، التي اذ توحد في ذاتها العقاب الجسدي مع أسلوب الاصلاح المسيحي بتبكيت الضمير والندم هي أشد لاانسانية من الطريقة العادية في معاقبة المجرمين ، تجد تطبيقها الكامل في الكيفية التي بها تعاقب الخلاسية سيسيلي . تحبس في سجن انفرادي لا يترك للمجرم، بالانعزال المطلق الذي يفرضه عليه ، مصيرا آخر سوى الجنون (٢) .

في معارضة هذه الطريقة في العقاب التي تترجم عن كل لاانسانية المجتمع البرجوازي (٣) ، ماركس يضع طريقة أكثر انسانية بموجبها يقرر المذنب بنفسه العقاب الذي يستحق . هذه الطريقة ، التي سبق أن اقترحها هيغل لا يمكن أن تتحقق الا في مجتمع اشتراكي ، حيث لن يرى المذنب في البشر الاخرين كائنات مكلفة بمعاقبته بل بالعكس سيرى فيهم كائنات مستعدة لمساعدته على النهوض (٤) .

ان النشاط الاجتماعي لرودولف يتجلى أيضا في مشاريع اصلاحات : تربية الاولاد الفقراء من قبل الدولة ، تنظيم الشغل .

آخذا من جديد المحاجة التي كان قد اعتمدها ضد روجه ، ماركس يبين أن تربية الاولاد الفقراء على يد الدولة يتعادل عمليا مع حذف البروليتاريا وبذلك عينه

←

العقاب العادية التي تكتفي بقطع راس الانسان الذي تريد اعدامه ! من البدهي اخيرا ان التشريع المبتذل قد اظهر ، في كل مرة اراد فيها اصلاح المجرمين ، ذكاء اكبر بكثير وانسانية اكبر بكثير من هاروننا الرشيد الالماني ... كما ان رودولف يقتل شخصية زهرة مريم بتسليمها للخوري وتبكيت الضمير ، كما يقتل شخصية الجزار بنزع كل طابع انساني عنه وبانزاله الى مرتبة كلب ، كذلك يقتل شخصية استاذ المدرسة بفقأ عينيه ليتعلم الصلاة . »

(١) ص ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ . « يصف استاذ المدرسة بشكل دقيق حالة الانسان المعزول عن العالم الخارجي . الانسان الذي بالنسبة اليه يتحول العالم الحسي الى محض فكرة يرى بالمقابل الافكار تتحول بالنسبة له الى كائنات حسية . تتخذ هذيانات دماغه اشكالا مادية . يخلق في روحه عالما من اشباح يقبض عليها ويلمسها . هذا هو سر كل الرؤى التقية وهو ايضا الشكل العام للجنون . استاذ المدرسة الذي يردد جمل رودولف عن قوة الندامة والتفكير الموحدين مع اعمال تعذيب وحشية يفعل ذلك في حالة نصف ـ جنون ويثبت بذلك العلاقات الوثيقة الموجودة بين وعي (وجدان) الخطيئة المسيحي والجنون. كذلك حين يؤكد ان التبكيت والتكفير يحولان الحياة الى ليل طويل مليء بالهذيانات ، فهو يعرض سر النقد النقدي واسلوب الاصلاح المسيحي الذي قوامه بالتحديد جعل الانسان شبحا وتحويل حياته الى حياة منام . »

(٢) ص ٣٦٣ .

(٣) ص ٣٦٥ .

(٤) ص ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

(٥) ص ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

مع الغاء المجتمع البرجوازي . والامر كذلك بالنسبة لتنظيم الشغل الذي لا يمكن ان يتحقق الا بالشيوعية (١) .

واعظا بالمثال ، رودولف يقيم نفسه رائدا لمشروعين ، مصرف للفقراء ومزرعة نموذجية ، غرضهما تخفيف البؤس وهكذا مصالحة الفقراء مع الاغنياء . هدف بنك الفقراء مساعدة العاطلين عن العمل . دخله السنوي ١٢,٠٠٠ فرنك ، وهو يمنح العاطلين عن العمل قروضا تتراوح بين ٢٠ و ٤٠ فرنكا ، تسدد ابتداء من اللحظة التي فيها يجد المستدين عملا . ماركس يلاحظ أولا بأول ان تواضع دخوله لا يسمح للمصرف بأن ينجد اكثر من ٤٠٠ عامل في السنة ، أي عشر العمال العاطلين في دائرة واحدة من دوائر مدينة باريس . من جهة اخرى ، مع القرض الممنوح للعاطل ، لا يكون بتصرفه سوى ٢٧ سنتيما في اليوم له ولاسرته ، أي نصف المبلغ الذي تخصصه الدولة لاعالة سجين واحد . اخيرا بفرضها على العامل ان يسدد المال المقدم له ، الدولة تحكم عليه بأسوأ حالات البؤس عندما يجد عملا (٢) .

لئن كان بنك الفقراء يبدو بخيلا حريصا على دراهمه ، فان مزرعة بوكفال النموذجية ترتكب الذنب المعاكس ، ذنب كرم مفرط ، اذ ان العمال الزراعيين يتقاضون فيها أجرا يعادل اربعة امثال الاجر الطبيعي . بالمقابل عليهم ان ينجزوا عملا يعادل مثلي عمل الفلاح المتوسط الفرنسي . بما أن هذا الاخير بالغ الاجتهاد ، فان عمال بوكفال الزراعيين يجب ان يكونوا أبطال رياضة كي ينجزوا مهمتهم ، وهذا ما يفسر أطباق اللحم الكبيرة التي تقدم لهم (٣) .

بعيدا عن أن تكون ، كما يفكر شيليغا ، ملحمة عن رفع البشرية ، ليست **اسرار باريس** سوى رواية لا طعم لها ، هدفها الجوهري خدمة المصالح الطبقية للبرجوازية بالتجاوز على القارىء بمساعدة نزعة عاطفية من طراز واطىء .

بعيدا تماما عن ارادة حذف الاسباب الواقعية للبؤس والجريمة حذفا فعليا بالتعرض للنظام القائم ، رودولف لا يفكر سوى بتوطيد هذا النظام . فهو ، تحت مظاهر قاض يقيم العدل ويعمل لخير البشر ، لا يسترشد الا بأنانية طبقية يخفيها تحت قشرة من الفضيلة (٤) . عاهلا مستبدا صغيرا ، مسرورا بالدور السهل ، دور رافع للضيم ومنقذ هبط من السماء ، انه نموذج الاناني الذي يمتص بلده الصغير

---

(١) ص ٣٧٥ . « اخيرا على الدولة أن تهتم بمسالة تنظيم الشغل الهائلة . عليها أن تعطي المثال المنقذ ، مثال اشتراك الرساميل والشغل ، مثال اشتراك نظيف ، ذكي ، عادل ، يؤمن رفاه العامل دون المساس بثروة الغني ، يقيم بين هاتين الطبقتين روابط ود واعتراف بالجميل ، وهكذا يضمن الى الابد طمانينة الدولة . »

(٢) ص ص ٣٧٦ – ٣٧٨ .

(٣) ص ص ٣٧٨ – ٣٧٩ .

(٤) ص ص ٣٧٩ – ٣٨٧ : رودولف : كشف سر كل الاسرار .

وكانه خفّاش ، ولا يهتم بالمجرمين الا لانهم يعطونه وعي امتياز طبيعته وفرصة الترويح عن النفس (١) . انه يكشف بكل سلوكه وبكل أفعاله طبيعته الحقيقية التي هي طبيعة المجتمع الذي عنه هو يدافع . فنظامه للانهاض كما للعقاب يتميز بلا انسانيته . انه لا ينتزع زهرة مريم من براثن الجزار الا كي يسلمها للكاهن الذي يكتب لها الموت بالندم والتوبة ، وهو في العقوبات التي ينزلها بأستاذ المدرسة وبسيسيلي يشدد العقاب الجسدي بالعذاب المعنوي .

من جهة أخرى ، في مشاريعه للاصلاح الاجتماعي ، انه لا يرمي الى تحويل واقعي للمجتمع ، اذ أنه لا يريد أبدا المساس بالملكية الخاصة ، التي يعتبرها مقدسة، والاصلاحات التي يقترحها لا تستهدف في الواقع سوى توطيد النظام القائم بكسبه له هؤلاء الذين هم ضحاياه .

مدى واصدار « العائلة المقدسة »

بعد أن كان قد عرّف في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** الملامح الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، كان ماركس يوضح في **العائلة المقدسة** مبادىء المادية التاريخية بتحليل المسائل الفلسفية والاجتماعية والسياسية .

في نقد جديد للفلسفة النظرانية ، يسترجع من حيث الجوهر النقد الحاصل في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، كان يبين أن هذه الفلسفة قد دفعت الى حدها الاقصى من قبل **النقد النقدي** ، من جراء الانفصال الجذري الذي كان يجريه بين التطور الروحي والتطور التاريخي . من هنا ينتج عجزه عن فهم الطبيعة الحقيقية للمسائل التي يعالجها وعن اعطائها حلا صحيحا .

معللا ، بعكس هذا النقد ، الثورة الفرنسية بالجهد التحرري للبرجوازية، التي كانت تدافع ، باسم مبادىء الحرية والمساواة والاخاء ، لا عن مصالح الشعب العامة بل عن مصالحها الطبقية ، ماركس يبين ان فشل الارهاب ونابوليون يأتي من كون سياستهما تذهب في النهاية ضد مصالح البرجوازية ، وأن هذه البرجوازية ، بوصولها نهائيا الى السلطة بثورة ١٨٣٠ ، قد خلقت شكلا للدولة يتفق مع مصالحها الطبقية وهي الان تستخدم السلطة بشكل واع للدفاع عن هذه المصالح .

معللا ، بموجب المبادىء نفسها ، تشكل المادية الانكليزية والفرنسية بالتطور الاقتصادي والاجتماعي لانكلترة وفرنسا ، يشدد على ان الاتجاهين العلمي والاجتماعي لهذه المادية يأتيان من التطور الصناعي ومن نهوض البرجوازية ، التي تصير ، مع صيرها مناهضة للاقطاعية والحكم المطلق ، مناهضة للدين والميتافيزياء ، وعلى أن هذا الاتجاه الثوري قد ولّد نظرية الحق الطبيعي التي مآلها المنطقي هو

(١) ص ص ٣٨١ — ٣٨٤ .

الاشتراكية ، وعلى أن حدود هذه المادية مردها عين حدود الايديولوجيا البرجوازية .

مبرزا ، في تحليله لمذهب برودون ، الطابع الثوري لنقده الاقتصاد السياسي ، يبين أن عجزه عن دفع هذا النقد ومعه نقد النظام الرأسمالي الى النهاية يأتي من كونه لا يستهدف التدمير الكامل للملكية الخاصة ، التي يسوّغها في شكل الحيازة ، وهذا يعلل عجزه عن اعطاء حل صالح للمسألة الاجتماعية .

الدراسة الجديدة للمسألة اليهودية تتيح له أن يبين ، بتحليل أكثر تعمقا للدولة السياسية وللمجتمع البرجوازي ، مع الطابع الطبقي للدولة البرجوازية ، العيب العميق للانعتاق السياسي ، الذي ، بعيدا عن الغاء نزع الانسانية الناجم عن النظام الرأسمالي ، يوطده .

أخيرا ، تحليل رواية **أسرار باريس** يقوده الى أن يؤكد ، مع تأكيده زيف التصورات الاجتماعية **للنقد النقدي** ، زيف الاصلاحات التي يقترحها سو .

ان الرؤيات الجديدة التي كان ماركس وانجلز يصلان اليها في **العائلة المقدسة** والتي كانت تعطي ركيزة أمتن لتصورهما المادي التاريخي تبين أهمية هذا العمل في تطور فكرهما ، ونفهم أنهما ، في طور لاحق ، في وقت كانا فيه قد أنضجا بشكل كامل مذهبهما ، استطاعا أن يتحدثا عن **العائلة المقدسة** بوصفها عملا ليس عليهما ان يخجلا منه (١) .

العائلة المقدسة حرّرت بسرعة . في نهاية نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٨٤٤ كان الكتاب ناجزا . عنوانه الاصلي ، **نقد النقد النقدي** ، حوّل ، بناء على نصيحة الناشر لفنتال ، الى عنوان رديف ، وأخذت محله كعنوان أساسي أول صيغة أكثر لفتا للانتباه ، **العائلة المقدسة** ، وهي التسمية التي كان يطلقها ماركس وانجلز على ب. باور وأصدقائه الذين كانوا ، بعد تأليههم الوعي الكلي ، قد قدّسوا أنفسهم بوصفهم تجسيدا لهذا الوعي وبذلك تحولوا الى عائلة مقدسة (٢) .

ماركس كان في البداية يريد اصدار الكتاب عند فروبل (٣) . ولكن ، من جهة ،

---

(١) ميغا ، ١١١ ، حـ٢ ، ص ٣٨٣ . رسالة ماركس الى انجلز ، هانوفر ، ١٨٦٧/٤/٢٤ : « لقد دهشت وسررت لرؤيتي أنه ليس علينا ان نخجل من هذا العمل (العائلة المقدسة ـ ا.ك.) ، رغم ان التكريم الذي نقدمه فيه لفويرباخ يعطي الان اثرا طريفا جدا . » .

لينين كان يقول عن العائلة المقدسة انها تسم عند ماركس الانتقال من الهيغلية الى الاشتراكية .

(٢) انظر رسالة لوفنتال الى ماركس ، فرانكفورت ـ على ـ الماين ، ١٨٤٤/١٢/٢٧ (آرشيف الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني القديمة ، حاليا في آمستردام) : « ارجوك ان تسمح لي بان اعطي كتابك عنوانا أقصر واكثر استرعاء للانتباه هو العائلة المقدسة او نقد النقد النقدي ضد برونو باور واقرانه . هذا العنوان اكثر قدرة على الاثارة ويجب ان نامل ان محتوى الكتاب ، المحتوى الذي كثيرا ما هو مازح مداعب ، سيبرره . »

(٣) انظر فريتس بروغل : تاريخ اصدار العائلة المقدسة ، في الكفاح ، مجلة شهرية اشتراكية ديمقراطية ، فينا ، اوكتوبر ١٩٢٨ ، ج٢١ ، صص ٥٠٦ ـ ٥١٠ .

كان الكونتوار الادبي لهذا الاخير يعاني آنذاك من صعوبات مالية ، من جراء العوائق التي كانت تضعها الدول الالمانية أمام انتشار كتبه في المانيا . ومن جهة أخرى ، كان روجه ، بوصفه شريكا وصيا ، قد حظّر على فروبل بشكل قطعي أن يصدر أي كتاب لماركس (١) . بعد فشل هذا المشروع ، توجه ماركس الى بورنشتاين ، مدير **الى الامام** ، من أجل نشر هذا الكتاب عند ناشر الجريدة (٢) . ولما فشلت هذه المحاولة هي أيضا كتب ماركس الى الدكتور لوفنتال ، المدير ـ الشريك مع ي. روتن لـ « دار المنشورات الادبية » في فرانكفورت ـ على ـ الماين ، الذي قبل بنشر الكتاب ، الذي صدر في أواخر شباط ـ فبراير ـ ١٨٤٥ .

بعد أن تلقاه ، انجلز أبدى في رسالة الى ماركس تخوفه من المتاعب التي قد يثيرها له عنوان الكتاب لدى أسرته التي كانت شديدة التقوى (٣) . بعد أيام قليلة ، أعرب له عن كل الفرح الذي أصابه وهو يقرأ الكتاب ، ولكن في الوقت نفسه أبدى مع دهشته بصدد الاتساع الذي اتخذه الكتاب بعض التحفظات بصدد طابعه المجرد بصورة زائدة ، الذي يجعله غير سهل المنال بالنسبة لمتوسط القراء (٤) .

---

(١) انظر آ. روجه ، مراسلات ، مرجع مذكور انفا ، ص ٣٧٩ ، رسالة روجه الى فروبل ، باريس ، نوفمبر ١٨٤٤ : « ما دمت ذا مصلحة في الكونتوار الادبي ، سيكون عليك ان لا تنشر كتابا لماركس ... » . انظر نفس المرجع ، ص ٣٨٠ ، رسالة روجه الى فروبل ، باريس ٦ ديسمبر ١٨٤٤ : « ماركس دائما تحت هيمنة حقد ما . طالما انطنط له في رأسه لن يستطيع أن يكتب شيئا دون ان يشتمني ... من جهة اخرى سيعتبرني رجلا غبيا اذا ما استطاع ان ينشر كتابا عندنا دون علمي وضد ارادتي وهو يفضل الانتحار على ان يطلب موافقتي . انني لا أمنعك من ان تستعمل حقك ضدي ، ولكن في هذه الحال سيكون عليك ان تختار بينه وبيني ، بين صداقته وصداقتي . »

(٢) انظر ف. بروجل ، مرجع مذكور آنفا ، ص ٥٠٨ . رسالة ماركس الى بورنشتاين : « سيدي. ساكون في غاية الامتنان لك اذا ما أعلمتني قبل الثلاثاء عما اذا كان فرانك يريد او لا التكفل باصدار الكراس ضد باور . ليس لي مصلحة كبيرة في قراره ، اذ من السهل جدا علي ان احصل على ناشر في الخارج . غير انه يسرني كثيرا ان يطبع هذا الكراس ، حيث كثيرا ما يتوقف كل شيء على كلمة ، تحت بصري وان اتولى بنفسي تصحيحه . دكتور ماركس . اضافة : لما كان الكراس الموجه ضد برونو باور لا يحوي بوجه الاجمال سوى قليل من الاشياء التي يمكن ان تتعرض لها الرقابة ، فانني لا اعتقد ان نشره في المانيا يمكن ان يصطدم بكثير من الصعوبات . » .

(٣) ميغا ، ااا ، مراسلات ماركس ـ انجلز ، ح١ ، ص ١٦ . رسالة انجلز الى ماركس ، ١٨٤٥/٣/٧ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٩ . رسالة انجلز الى ماركس ، ١٨٤٥/٣/١٧ . « النقد النقدي ... كتاب هائل . ان نقدك المسالة اليهودية والمادية والاسرار رائع وسيكون له أثر كبير . الا انني اجد الكتاب ضخما من حيث الحجم . الازدراء السلطاني الذي نظهره ازاء « الصحيفة العامة الادبية » يتنافر مع العدد الكبير من الصفحات التي نكرسها لنقدها . فضلا عن ذلك ، ما نقوله عن النظران وعن الكائن المجرد ليس في متناول الجمهور الواسع وقادرا على اثارة اهتمامه الا قليلا . بعد هذه التحفظات ، الكتاب مكتوب بشكل رائع ونتلوى من شدة الضحك . لن يستطيع السادة باور ان يجيبوا بشيء .

مخاوف انجلز كان يشاطرها الناشر الذي كان ، مع تقديره البالغ لسخرية الكتاب الطيبة المذاق، يتساءل ما اذا كان سيجد كثيرا من القراء بسبب طابعه الخاص نوعا ما (١) .

بالواقع لم تصب **العائلة المقدسة** سوى نجاح ضيق ، جزئيا لان الموضوع المعالج كان خصوصيا لدرجة لا تمكنه من اثارة اهتمام الجمهور الواسع وأيضا لان تنوع المواضيع المعالجة الكبير كان يخفي وحدة الكتاب العميقة ويسيء الى فهمه .

صدر عنه نقد تقريظي في مجلة **باخرة فستفاليا (٢)** • ماركس وانجلز اعتبراه تافها ومشوشا (٣) . من جهة أخرى ، نشر ج. يوليوس ، المحرر السابق في **صحيفة لايبتسيغ العامة** ، تقريرا عن الكتاب ، ينبذ فيه ، بوصفه ليبراليا ، في آن أطروحات ب. باور الفوضوية المنحى وأطروحات ماركس وانجلز الشيوعية (٤) .

ان صدور **العائلة المقدسة** أعطى روجه فرصة فيض اخر من الشتائم ضد ماركس . أجل كان يجد في الكتاب بعض المقاطع الجيدة ، ولكنه كان يشجب اتجاهه ويرى فيه بالدرجة الاولى تعبيرا عن حقد مبتذل وواطيء من جانب ماركس وانجلز



سيكون بامكان برجرس ، في تقريره لمجلة بتمان ، ان يذكر لماذا لم استطع أن اكتب سوى اشياء قليلة ، بسبب اقامتي القصيرة في باريس ، وان لا أعالج سوى المسائل التي لم تكن تستلزم تحليلا عميقا . »

(١) انظر رسالة لوفنتال الى ماركس ، فرانكفورت ، ١٨٤٥/١/١٥ (ارشيف الحزب ... حاليا في امستردام) : « يجب ان لا نخفي عن انفسنا ان كتابكم لن يظهر بدرجة كافية اصيلا مبتكرا للجمهور الواسع ولن يكون ذا جذب كبير بالنسبة له ، نظرا لانه يتعلق على نحو زائد بـ « الصحيفة العامة الادبية » ويذكرها بشكل دائم ... » . انظر ف. بروجل ، مرجع مذكور ، ص ٥٠٩ . رسالة لوفنتال الى الدكتور هـ. ابنر (مراسل « صحيفة اوغسبورغ العامة ») ، ١٨٤٥/٢/٢٤ : « ارسل اليك كتاب انجلز وماركس ضد ب. باور ، الذي خرج لتوه من المطبعة ... انه ينقد بشكل لاذع الاتجاه الفلسفي والاجتماعي لباور واخوانه . انجلز وماركس يشكلان فئة من الشيوعية وهما اذا جزء من المتطرفين . ان حملتهما ضد الثرثرة المدعية لجماعة باور تسدد لها ضربات لن تقوم منها بعد الان . على أي حال ان الكتاب سيحدث ضجة . وساكون ممتنا لك اذا ما قدمت تقريرا عنه لـ « الصحيفة العامة » يكون مفصلا بعض الشيء . »

(٢) باخرة وستفاليا ، ١٨٤٥ ، صص ٢٠٦ ــ ٢١٥ : العائلة المقدسة او نقد النقد النقدي ضد باور وشركاه ، تاليف ف. انجلز وك. ماركس .

(٣) ميغا ، ١ ، حـ٥ ، ص ٥٤١ .

(٤) مجلة فيغان الفصلية ، لايبتسيغ ، ١٨٤٥ ، حـ٢ ، صص ٣٢٦ ــ ٣٣٣ . الصراع بين الكنيسة الانسانية المرئية والكنيسة الانسانية غير المرئية أو نقد نقد النقد النقدي بقلم ج. يوليوس .

ازاء أصدقاء قدامى (١) . كان يعارض **العائلة المقدسة** بكتاب شترنر **الوحيد وخاصيته** ، مادحا هذا الكتاب بحماس ، بسبب دفاعه عن الفردوية (٢) .

برونو باور لم يعط سوى جواب ضعيف اكتفى فيه بالقول ان ماركس وانجلز لم يفهماه (٣) .

طرد ماركس

بعد تحرير **العائلة المقدسة** بقليل انتهت فترة اقامة ماركس في باريس بطرده . السبب كان مساهمته في جريدة **الى الامام** ، التي كانت ، مع تشديدها تحت ادارة برنيس Bernays اتجاهها الراديكالي على نحو متزايد ، تهاجم الليبرالية بسبب سياستها الوسطية ، والنقد النقدي بسبب حياده السياسي (٤) ، وتتجه بوضوح نحو انسية شيوعية (٥) .

(١) انظر آ. روجه . رسالة روجه الى بروتس ، ١٨٤٥/٥/٦ (المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي ، امستردام) : « الكتاب ضد باور وجماعته يحوي بعض المقاطع الجيدة ... ان ما يلفت النظر بوجه خاص هو روح المؤلفين الشريرة ضد أصدقائهما السابقين . انجلز الذي كان يعبد الاخوة باور في برلين يعبد الان الد اعدائهم ويستخدم كل ما تعلمه منهم . هاتان الزمرتان تتساويان في الابتذال والشر . »

(٢) انظر روجه ، المراسلات ، حا ، ص ٣٩٥ . رسالة روجه الى فلايشر ، ١٨٤٥/٥/٢٧ . وايضا ص ص ٣٨٩ - ٣٩٠ . رسالة روجه الى ناوفرك ، باريس ، ١٨٤٤/١٢/٢١ : « ان كتاب شترنر لا يمكن الا أن يكون ذا آثار جيدة ، رغم احتوائه على اشياء غير قليلة تستحق الطعن تماما ... يجب مساندة ونشر هذا الكتاب . فهو تحرير من اشد جميع الحماقات حماقة ، من دوغمائية الحرفيين الاجتماعية ، من هذه المسيحية الجديدة التي يبشر بها بسطاء الروح والتي من شانها ان تجعلنا نعيش كما تعيش ماشية رخيصة ... الانسان الذي يعي قيمته ويؤكدها ، الاناني الذي يرفض ان يكون رقها وان يدع نفسه يجز ، يعيد شيئا من النشاط والشعر في بؤس عصرنا . اذا لم يكن هناك سوى بائسين ، لن يكون بالامكان الغاء البؤس . »

(٣) مجلة فيغان الشهرية ، لايبتسيغ ، ١٨٤٥ ، ج٣ ، ص ص ١٣٨ وبعدها . برونو باور : تحديد طابع لودفيغ فويرباخ . ماركس رد على هذا المقال في مرآة المجتمع ، البرفلد ، يناير - كانون الثاني ١٨٤٦ . انظر ميغا ، ١ ، ح٥ ، ص ص ٥٤١ - ٥٤٤ .

(٤) الى الامام ، رقم ٥٥ ، ١٨٤٤/٦/١٠ : حماقة الليبراليين . رقم ٦٦ ، ١٧ - ٨ - ١٨٤٤ : منظورات المستقبل لالمانيا . رقم ٧٦ ، ١٨٤٤/٩/٢١ : نقد برونو باور .

(٥) الى الامام ، ١٨٤٤/١٢/٤ . « ان هدف هذه الحركة الادبية هو اقامة مجتمع حر ومساواتي ، فيه سيلغى انخلاع الانسان في الدين والدولة والمجتمع البرجوازي وسيخلي المكان لتنظيم اجتماعي يقوده رجال يعون تمام الوعي صفتهم الانسانية ... ان جريدتنا لها ، كموضوع وهدف ، من جهة ، نقد كل ما يذهب بعكس الحقيقة والحرية ، ومن جهة أخرى ، اعداد مستقبل فيه يحقق الانسان كل كينونته . هذا يسوغ الرنة الراديكالية التي اتخذتها وبشكل خاص ضراوة هجماتها على الليبرالية الصائرة فقيرة اكثر فاكثر فكرا وعملا . »

هذا الاتجاه ، الذي كان قد تظاهر منذ تموز ١٨٤٤ (١) ، أثـار حذف الجريدة وطرد محرريها ومعاونيها . الحكومة البروسية ، التي كانت منذ شباط ١٨٤٤ طلبت طردهم ، تذرعت بمقال لبرنيس حول محاولة اغتيال الملك فريدريك غليوم الرابع على يد رئيس البلدية تشش ، كان يدعو فيه الملك الى تلبية مطالب الشعب العادلة (٢) ، لتدعو الحكومة الفرنسية الى ملاحقة برنيس قضائيا والى حذف **الى الامام** .

واذ كـان غيزو Guizot يتردد في اتخاذ تدابير بهذه الجذرية خوفا مـن الصحافة المعارضة فقد اكتفى بملاحقة برنيس، بوصفه محررا مسؤولا ، على كونه لم يدفع الكفالة المطلوبة للجريدة . وحكم برنيس في ١٣ ديسمبر بالسجن لمدة شهريـن وبغرامة مالية قدرها ٣٠٠ فرنك (٣) . ولكن محرري **الـى الامام** لـم يدعوا انفسهـم للخوف وقرروا تحويل الجريدة الى مجلة شهرية لا تحتاج الى اية كفالة (٤) . وبنـاء عـلى الطلب الاكثر الحاحا من جانب السفير البروسي ، حزم غيزو أمره واتخـذ اجراءات شديدة . في ٢٥ يناير كانون الثاني ١٨٤٥ ، أصدر وزير الداخلية ، دوشاتل Duchâtel ، امرا بطرد محرري أو معاوني **الى الامام** : هـ. هاينه ، بورنشتايـن ، برنيس ، ماركس ، باكونين ، برجرس ، روجه ، الذين دعوا الى مغادرة أرض فرنسا فورا (٥) .

هذا الاجراء أثار عاصفة من الاحتجاج في الصحافة المعارضة التي لامت الحكومة عـلى نزولها الى مصاف أداة قمع بيد الحكومة البروسية وطردها رجالا جريمتهـم

---

(١) الى الامام ، ٢٤ - ٧ - ١٨٤٤ ، حركة العمال في بوهيميا . ٣١ - ٧ - ١٨٤٤ ، الفقـر في بروسيا . ٣ - ٨ - ١٨٤٤ ، حركة العمال في درسدن . ٢١ - ٨ - ١٨٤٤ ، حركة العمال في المانيا . ٢٤ - ٤ - ١٨٤٤ ، الربا في دولة بالاتينا . ٣١ - ٨ - ١٨٤٤ ، الاجتماعات الاشتراكية في بيلفلـد . ٣٠ - ١٠ - ١٨٤٤ ، العمـال الالمان . ٣٠ - ١٠ - ١٨٤٤ ، الرقيـق الاسود والرقيق الابيـض . ٣٠ - ١٠ - ١٨٤٤ ، المال .

(٢) الى الامام ، العدد ٦٢ ، ٣ - ٨ - ١٨٤٤ ، (برنيس) : محاولة اغتيال ضد ملك بروسيا . ايضا العدد ٦٦ ، ١٧ - ٨ - ١٨٤٤ . ميغا ١ ، ص ص ٢٤ - ٢٧ ، ك. ماركس : تعليق على تماريـن الانشاء الجديدة لفريديريك فلهلم الرابع .

(٣) هـ. بورنشتاين : خمسة وسبعون عاما في العالمين القديم والجديد ، لايبتسيـغ ، ١٨٨١ ، ص ٣٥٢ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٥٢ .

(٥) انظر المرجع نفسه ص ٣٥٣ . انظر ارشيف الدولة السري ،وزارة الداخلية ، R + ٧٧ ، D + رقم ١٠ ، ص ٨١ . وثائق تتصل بالجمعيات الثورية بين الحرفيـين ، باريس ، ١ - ٢ - ١٨٤٥ . « الشيوعيون ماركس ، آ. فايل (وهو بالحقيقة لا يؤمن باية عقيدة ويكتب لكل شخص يدفع له الثمن)، هرفغ، برنيس (وهو حاليا في السجن)، هـ. بورنشتاين (وهو بلا عقيدة وليس سوى مستثمر ادبي) ، وآخرون ، يسعون للحصول من الحكومة على عدم طردهم من باريس . »

الوحيدة أنهم يحبون فرنسا ويدافعون عنها (١) .

هذا الاحتجاج كان له على الاقل أن حد من تطبيق مرسوم الطرد . هـ. هاينه لم يزعج ، نظرا لشهرته العالمية . روجه ، الذي كان قد فرح سرا بحذف الجريدة (٢) ، أخبر من قبل ماركس ، الذي بعكسه لم يكن ينقاد لاعتبارات شخصية واطئة في سلوكه السياسي (٣) . بعد أن أبدى في رسالة الى أمه دناءة الموافقة على هذا الاجراء الذي كان يأمل أن لا يصيبه (٤) ، نجح ، استنادا الى كونه من رعايا ساكسونيا ، في الحصول على اذن بالبقاء في باريس موقتا . بورنشتاين لم يطرد مقابل تعهده بعدم اصدار الجريدة بعد الان (٥) . برنيس ، الذي أرسل من سجن سانت ـ بيلاجي ، حيث كان يقضي مدة حكمه ، رسالة الى كل الصحف الديمقراطية استطاع هو أيضا البقاء في باريس (٦) .

في النهاية لم يطرد سوى ماركس ، باكونين ، برجرس ، وأيضا بنتيجة التباس

---

(١) انظر بورنشتاين ، مرجع مذكور ، ص ٣٥٣ . انظر جريدة الاصلاح ١٤ ـ ٢ ـ ١٨٤٥ : «ولكن لم يكن كافيا ان توضع قوانين ايلول في خدمة رقابة برلين . بعد قتل الكتابات أرادوا ضرب الرجال ، وفي هذه اللحظة لا تخجل الحكومة الفرنسية من جعل نفسها أداة ارهاب واحقاد الحكومة البروسية . ان رجالا يتميزون بسمو موهبتهم ، يوصي بهم البحث الذي يكنونه للافكار الفرنسية وتعاطفهم معنا ، تلقوا الان أمر مغادرة فرنسا هذه ، التي جريمتهم أنهم احبوها ودافعوا عنها ... » . انظر ايضا الاصلاح ٣١ ـ ١ و ٤ ـ ٢ ـ ١٨٤٥ ، الاخاء آذار ١٨٤٥ ، البريد الفرنسي ٣٠ ـ ١ و ١١ ـ ٢ ـ ١٨٤٥ ، الامة ، صحيفة فرنسا ، القرن ، ١٧ ـ ٢ ـ ١٨٤٥ .

(٢) آ. روجه ، مراسلات ، حـ١ ، ص ٣٧٩ . رسالة روجه الى فروبل ، باريس ، نوفمبر ١٨٤٤ .

(٣) الى السيد الدكتور آرنولد روجه ، باريس ، شارع نوتردام لوريت ، ٣٠ مكرر : السيد دكتور روجه . علمت من مصدر موثوق أنه توجد في مديرية الشرطة أوامر متخذة ضدك وضدي وبعض الآخرين ، وتدعوهم الى مغادرة فرنسا في اقصر مهلة . اعتقدت من المفيد ، في حال لم يصل اليك هذا النبأ بعد ، ان اخبرك اياه . ك. ماركس .

ـ اشكر المكتبة فلترينيلي في ميلانو التي تفضلت بابلاغي هذه الرسالة والسماح لي بنشرها ـ

(٤) آ. روجه ، مراسلات ، حـ١ ، ٣٩١ . رسالة روجه الى والدته ، ٢٦ ـ ١ ـ ١٨٤٥ : « تصوري ان بروسيا نجحت في جعل غيزو يطرد ١٢ المانيا ، محددين بموجب لائحة قدمتها السفارة . توجهت بالطبع الى سفارتي ويبدو ان الامر سيتدبر . كل رجال الى الامام : هاينه ، ماركس ، الخ ، هم بالطبع في القائمة ... بذلك عينه يوضع حد لسخافتهم الكتابية . لو كان السيد فون آرنيم ، السفير البروسي ، قد استشارني ، لكنت نصحته بهذه الخطوة لصالح الحرية . بجعلها نفسها مضحكة ، المعارضة تسير نحو هزيمتها ، و « الى الامام » كانت تجعلها مضحكة . » . روجه ، الاعمال الكاملة ، حـ٥ ، ص ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ . رسالة روجه الى هس ، باريس ، يناير ١٨٤٥ : « ما كان ممكنا توسيع واسقاط حظوة حرية الصحافة والمعارضة وشعار الانسانية النبيل اكثر مما فعلت ذلك الى الامام . »

(٥) هـ. بورنشتاين ، مرجع مذكور آنفا ، ص ٣٥٤ .

(٦) الاصلاح ، ١٨٤٥/٢/١٤ .

ورغم احتجاجات السفير البروسي ، آدالبرت فون بورنشتدت ، العميل السري لبروسيا والنمسا ، ورئيس التحرير السابق لجريدة **الى الامام** ، الذي التجأ الى بلجيكا (١) .

في ١٤ نيسان ــ أبريل ١٨٤٤ ، كانت الحكومة البروسية قد أصدرت أمرا بتوقيف ماركس وروجه وهاينه بوصفهم محرري ومعاوني **الحوليات الفرنسية ــ الالمانية** فيما اذا حضروا على الحدود . في ١٣ شباط ــ فبراير ١٨٤٥ جددت هذا الامر مضيفة اسمي بورنشتاين وبرنيس (٢) . اذ لم يكن باكونين وبرجرس مشمولين بهذا الامر فقد استطاع الاول ان يذهب الى درسدن والاخر الى كولن . ماركس غادر باريس في أول شباط ــ فبراير ١٨٤٥ . بعد اقامة قصيرة في ليبج (بلجيكا)، وصل في ٩ شباط الى بروكسل ، حيث سيبقى حتى ثورة ١٨٤٨ (٣) .

بمنع **الى الامام** ، كانت الحكومة البروسية قد أصابت هدفها وأسكتت ، على الاقل لوهلة ، الراديكالية الالمانية . بيد ان هذه الاخيرة لن تلبث ان تسمع صوتها من جديد وبصورة أشد خطرا ، مع ماركس وانجلز اللذين صارا الناطقين بلسان البروليتاريا الدولية .

---

(١) انظر لوك سومرهوزن : انسية كارل ماركس الفاعلة ، باريس ١٩٤٦ ، ص ٧٤ ، الهامش ٣ . ارشيف الامن العام البلجيكي ، اضبارة بورنشتدت ، الوثيقة رقم ٨ .

(٢) انظر وثائق ادارة شرطة برلين عن هنري بورنشتاين ، كارل ماركس ، هـ. هاينة ، ل. برنيس .... في هذه الوثائق نجد البيان التالي عن ماركس (ص ٧٩) : مولود في ترير (Trèves) ، عمره ٢٢ سنة ، الطول ٥ اقدام و ٢ بوصة ، لون الشعر والحاجبين أسود ، جبهة مستقيمة ، عينان داكنتان ، وجه بيضوي الشكل ، سحنة فاتحة ، أنف أفطس ، فم متوسط ، ذقن مستديرة .

نجد فيها ايضا الوصف التالي عن هاينه : كاتب ، عمره ٥٠ سنة ، قامة متوسطة ، أنف ذلق ، ذقن مستدقة ، نموذج يهودي واضح . انه عربيد ، هزال جسمه يشهد على نفاده . ايضا . « حسب نبا من باريس بتاريخ ١/٢٥ ، منشور بتاريخ ١/٣١ في العدد ٣١ من الصحيفة العامة البروسية ، هؤلاء الكتاب آ. روجه وماركس وبورنشتاين وبرنيس طردوا من باريس واقتيدوا تحت اشراف مفوض شرطة الى كاله Calais . » برلين ، ١٨٤٥/١/٣١ . وزير الداخلية . كونت آرنيم .

(٣) رسالة من يني ماركس الى كارل ماركس ، باريس ، ٩ و ١٨٤٥/٢/١٠ ، الاصل : معهد من أجل الماركسية اللينينية ، موسكو . « هاينه كان في وزارة الداخلية ، حيث قالوا له انهم لا يعلمون شيئا على الاطلاق . لودرو ــ رولن Ledru - Rollin سيتكلم عن ذلك في المجلس ، فور افلات الجميع . هل قرات جريدة الاصلاح ؟ كم هي حمقى وبائسة . كل ما تقوله أكثر اساءة من اقوى هجمات الاخرين . هذا هو عمل هذا الرجل العظيم ، كما يجب أن يكون ، السيد باكونين ، الذي مع ذلك جاء يلقي علي درسا في علم البلاغة ليسكب امامي جوهر نفسه . هرفغ يلعب مع الطفلة . افربك لا ينقطع عن الكلام عن الشرود المتواصل للسيد برجرس ، وابن الشعب ، السيد فايل ، حامي الخاص ، جاءني يقدم النجدة . »

الخلاصة

ان اقامة ماركس في باريس ، من أواخر ١٨٤٣ حتى أوائل ١٨٤٥ ، تشكل انعطافا حاسما في تطور فكره وعمله . التحول العميق لتصوره العام عن العالم، الذي يحصل آنذاك عنده، كان قد مهّده نقد ماركس لـ «فلسفة الحق عند هيغل» (١٨٤٣)، النقد الذي كان قد بيّن له أن الحل النظري والعملي على حد سواء للمسألة الاجتماعية ، التي كانت تبدو له الان المسألة الاساسية ، لا يمكن أن ينجم الا عن الغاء المجتمع والدولة البرجوازيين اللذين يقومان على أساس مشترك هو نظام الملكية الخاصة .

مقادا باعتناقه الشيوعية الى اتخاذ موقف الدفاع عن مصالح البروليتاريا ، كان يعرض في مقاليه في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** : «المسألة اليهودية» و« مدخل الى نقد فلسفة الحق عند هيغل » أن الانعتاق الانساني يستلزم الحذف الجذري لنظام الملكية الخاصة وان هذا الحذف لا يمكن ان يكون الا نتاج عمل البروليتاريا الثورية .

بما أنه لم يكن بعد يدرك ان الثورة البروليتارية لا يمكن أن تنتج الا عن احتدام الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا الناجم عن تطور المنظومة الرأسمالية بعينه ، لذا كان يتصور هذا الصراع بشكل ما يزال الى حد ما تخطيطا مبسّطا ، وكان يرى في البروليتاريا تجسيد النوع الانساني الذي سقط الى اخر درجات ضياع انسانيته ، ويرى أنها بحكم ذلك مدعوة الى أن تصير أداة أنسنته من جديد .

ان مقالة أنجلز « محاولة في نقد الاقتصاد السياسي » ، التي كانت تبين له كيف ان الثورة الشيوعية تنجم حتما عن تطور المنظومة الراسمالية التي تولد مع البروليتاريا ، نفيها هي ، تقوده الى أن يبحث ، في المجتمع البرجوازي ، عن علل الغائه .

لهذه المهمة يكرّس نفسه في فترة اقامته في باريس ، التي كان مكتوبا لها أن تكون بالنسبة له خصبة بقدر ما كانت خصبة بالنسبة لانجلز اقامته في انكلترة .

اذ يجد في باريس ، وهي عاصمة بلد أكثر تطورا بكثير من المانيا اقتصاديا واجتماعيا ، تراثا ثوريا طويلا ، يكبّ بادىء ذي بدء على دراسة الثورة الفرنسية ، وبشكل خاص حقبتها الحاسمة ، عهد المؤتمر (١٧٩٢ ــ ١٧٩٥) ، مخرجا منها

تعاليم مفيدة لنضال البروليتاريا . هذه الدراسة ، التي تسمح له بفهم طابع وحدود ثورة برجوازية ، تسهم ، بالفعل ، اسهاما كبيرا في توضيح رؤياته عن تشكل الطبقات وعن دور الصراعات الطبقية في تطور المجتمع وسير التاريخ . وتبين له كذلك ان طبقة قائدة لا تتخلى أبدا بملء ارادتها عن السلطة وعن امتيازاتها وأن ثورة اجتماعية تتطلب أقسى الكفاحات .

يوسع هذا التصور للانبساط التاريخي ، المؤسس على فكرة دور صراعات الطبقات المقرر ـ المحدد ، بدراسته المؤرخين الفرنسيين العظام الذين كانوا قد شددوا على هذا الدور في تحليلهم لتشكل وتطور البرجوازية .

معتبرا الشيوعية المآل الضروري الحتمي للتطور الجدلي للنظام الراسمالي ، ماركس يقاد ، في الوقت نفسه، الى دراسة أساس هذا النظام، الاقتصاد الراسمالي، الامر الذي يتيح له ادراك علل وآلية سيرورة نزع الانسانية المتولد عن هذا النظام ، وأيضا أسباب الغائه الحتمي واحلال نظام شيوعي محله .

ان دراسة الثورة الفرنسية ، الموصولة مع دراسة الاقتصاد السياسي ، تقدم له عناصر انضاج تصور جديد للعالم ، مادي وجدلي ، قابل لان يكون أساسا لعمل البروليتاريا الثوري .

متجاوزا مادية القرن الثامن عشر ، التي يرى في آن معا عظمتها وحدودها بوصفها ايديولوجيا البرجوازية الصاعدة ، ينضج تصوره المادي والجدلي والتاريخي عن العالم بتحليل نقدي للاقتصاد السياسي البرجوازي وللمنظومة الراسمالية ، يخرج منه مفهوم البراكسيس ، وبنقد لفلسفة وجدل هيغل المثاليين ، يحققه معتمدا على هذا المفهوم .

ينطلق في تحليله للاقتصاد السياسي وللمنظومة الراسمالية من المبادىء الاساسية لهيغل وفويرباخ .

يحفظ من هيغل تصور الانبساط الجدلي للتاريخ المحدد بقوانين موضوعية وفكرة أن محتواه الجوهري مكوّن من سيرورة انخلاق الانسان المعتبر في علاقاته مع الطبيعة . في **فينومينولوجيا الروح** ، كان هيغل قد بيّن أن الانسان يخلق نفسه بتجاوز لكينونته دائم ، نافذا في جوهر الطبيعة ، مدركا معقوليتها ، مما يتيح له أن يتساوى مع العالم . هذا الانخلاق للانسان بفاعليته لا يمكن ان يتحقق الا اذا لم يجد الانسان نفسه مخلوعا في هذه الفاعلية .

بعكس هيغل الذي كان يحذف كل انخلاع بروحنة الانسان والطبيعة ، ماركس يفكر ، مع فويرباخ ، ان الانخلاع يؤلف السمة المميزة لحالة الانسان في المجتمع البرجوازي وأن الغاءه هو الشرط الضروري للانعتاق الانساني ، ولكنه ، بخلاف فويرباخ ، يعتبر الانخلاع لا في شكله الديني بل في شكله الاقتصادي ـ الاجتماعي كشغل منخلع ، المتولد من نظام الملكية الخاصة الذي هو الشكل الاساسي لانخلاع البشر ، وبصورة خاصة البروليتاريين ، الذين يتلقون ثقله الاكبر .
في نقده المنظومة الراسمالية ، يبين أنه ، في هذه المنظومة ، حيث منتوج الشغل المنخلع يتخذ شكل سلع ، يحصل تشيؤ للعلاقات الاجتماعية ، المحولة الى تبادل سلع .

بحكم الشغل المنخلع ، ان العامل ، المفصول عن شغله الذي بدلا من ان يكون تعبير شخصيته يصير نفيها وعن منتوج شغله الذي ليس ملكا له ، يضعف وينحط بقدر ما ينتج . هذا الانخلاع ، الذي يزن ليس فقط على الشغيلة بل ايضا على كل البشر في النظام الراسمالي ، يمنعهم من ان يخلقوا نفسهم على نحو انساني ، بأنسنة الطبيعة . يجعلهم بذلك عينه غريبين عن كينونتهم ، ويضع بعضهم في معارضة بعضهم الآخر بالمزاحمة ، الامر الذي يؤدي الى انقسام المجتمع الى طبقتين متنافيتين : البرجوازية والبروليتاريا .

ان المنظومة الراسمالية تخلق بنفسها ، بتطوير وانماء البروليتاريا ، شروط اعادة أنسنة البشر بحذف كل الانخلاعات . هذه الأنسة الثانية ، ماركس لا يضعها كمسلمة أخلاقية ، بل يبين انها النتيجة اللازمة عن اشتداد الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا الذي يفضي الى الثورة الشيوعية .

بالتنظيم الانساني للانتاج والاستهلاك ، ستلغي الشيوعية كل الانخلاعات الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية المتولدة من نظام الملكية الخاصة وستسهل تفتح طبيعة الانسان الكلية .

ان تحليل الشغل المنخلع ، الذي يبين لماركس الدور الجوهري للشغل ، للفاعلية العينية ، العملية ، للانسان ، للبراكسيس ، في تطور المجتمع الانساني والتاريخ ، يقوده الى ان يحل بالتدريج ، كمفهوم مركزي ، محل فكرة الانخلاع التي كانت سمحت له باجراء نقد متعمق للاقتصاد الراسمالي ، مفهوم البراكسيس الذي كان يصلح اكثر من تلك الفكرة لانضاج المادية الجدلية والتاريخية ايديولوجية للبروليتاريا الثورية .

يذهب في هذا الانضاج من نقد فلسفة وجدل هيغل المثاليين محققا من وجهة نظر البراكسيس .

يبين ان هيغل ، بروحنته الانسان والطبيعة والفاعلية الانسانية ، يجعل من انخلاق الانسان ، المعتبر في علاقاته مع الطبيعة ، عملية روحية . فتقليص الانسان الى وعي الذات ، والطبيعة الى موضوع وعي الذات ، انما يقلص التاريخ الى انبساط الروح ، الفكرة المطلقة ، التي فيها يتحقق تماثل الفكر والكينونة والتي تصير خالقة العالم .

للوصول الى التصور الحقيقي للانسان والطبيعة وانبساطهما العضوي ، يجب ان نعتبرهم ، يقول ماركس ، في واقعهم العياني . ان ذات (حامل) الفاعلية الانسانية لا يكون عندئذ تجريد الانسان ، وعي الذات ، بل ذاتية قوى الانسان العيانية ، ومنتوج هذه الفاعلية لا يعود مكونا من مجردات ، من « شيئيات » بل من تعين ، من تموضع هذه القوى الذي يتيح للانسان ان يحول الطبيعة باعادة انتاجها على نحو انساني .

بخلاف الحيوان ، الذي بما انه لا يتميز عن الطبيعة فانه لا يستطيع ان يفعل فيها بعمق ، الانسان يستطيع ان يحولها بفاعليته الحرة ، الواعية والكلية ، مكيفا اياها مع حاجاته . من جراء ذلك ، تصير علاقاته مع الطبيعة على نحو متزايد علاقات مع انتاجه الخاص ، الامر الذي يحدد اتحادا عضويا متزايد الوثوق معها .

هذا الخلق الذاتي للانسان بتحويل الطبيعة ليس ممكنا الا لان الانسان كائن اجتماعي . فالانسان لا يستطيع ان يحقق كينونته الا بأعمال البشر الآخرين . انه يغتني بأعمالهم التي طبعوها بشخصيتهم ، كما هو يغنيهم بأعماله . هكذا البشر يكمل بعضهم بعضا بأعمالهم ، الامر الذي يجعل انه من غير الممكن فصل الفرد عن المجتمع ولا وضعه في مقابل المجتمع . ففي المجتمع فقط يستطيع الانسان ان يخلق نفسه بصورة حقيقية ، اذ فيه فقط تصير الطبيعة بتأنسنها الرابط بين البشر واسّ وجودهم .

أن خلق الانسان لذاته بأنسنة الطبيعة يؤلف جوهر التاريخ الانساني ، الذي يتطابق انبساطه في الهوية مع انبساط الانتاج ، الصناعة .

هذه الصناعة انبسطت حتى الآن في اطار الملكية الخاصة ، مولدة الانخلاع . هذا الطور التاريخي ، طور نزع انسانية الانسان ، يؤلف ما ـ قبل ـ تاريخ الانسان،

الذي سيعقبه طور اعادة انسانيته التي ستتحقق بالالحـاد والشيوعية والتي ستعطي التاريخ معناه الحقيقي .

هذا التصور المادي الجدلي والتاريخي للعالـم يعطي ليس فقط تفسير التطـور الاقتصادي والاجتماعي والايديولوجي بل يعطي ايضا تفسير وحـل المسائل النظرية : الجوهر والوجود ، الحرية والضرورة ، الفكر والكائن ، التي لا يمكن ان تحـل الا اذا اعتبرناها في علاقاتها مع التطور الاجتماعي .

نرى كيف ان ماركس يخرج من فكرة البراكسيس ، التي يضعها على نحو متعاظم في مركز تصوراته ، المبادىء الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، متصورا سيرورة خلق الانسان لذاته نتيجة تطور الانتاج الذي يحدد التحول المتوازي المترابط للانسان والطبيعة .

ان نواقص **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** مردها ان هـذه المخطوطات ليست سوى مرحلة اولى في انضاج الفكر الاساسي لماركس الذي لم يكن بعـد يخرج تماما من الافكار الفويرباخية .

ان تطور فكره يتميز باستبعاد التصور الانتروبولوجي (الانسانواوجي) لفويرباخ استبعادا جذريا وبوضع مفهوم الانخلاع في المستوى الثاني وعدم استعماله الا لتحديد طابع بعض أشكال المنظومة الرأسمالية .

هذا يبين كم واهية الاساس المحاولات المتكررة دومـا مـن جانب المفكريـن البرجوايين الذين يضعون كمفهوم مركزي وأساسي للماركسية لا فكـرة البراكسيس بل فكرة الانخلاع ، كي يرموا العنصر الثوري في الفكر الماركسي ويقلصوا هـذا الفكر الى طوباوية اخلاقية ، الى « انسية » يكون هدفها تحقيق الانسان « الحـق » ، غير المتمايز اجتماعيا .

بتصوره المادي للعالم ، الـذي كـان يجعلـه ماركس أساس الشيوعية ، كـان ماركس ينفصل اكثر فأكثر عـن جميع تيـارات الفكـر البرجوازي والاشتراكية الطوباوية .

كان سابقا قد قطع الصلة مع « المعتقين » ، الذين ، بفردويتهم الفوضوية المنحى وبهجماتهم ضد الليبرالية والشيوعية ، يخدمون عمـل الثورة المضادة . كذلك كـان يبتعد عن الديموقراطيين البرجوازيين ، من طراز روجه ، الذين كانوا منـذ احتكاكهم

الاول مع البروليتاريا الثورية ينحازون ضدها .

ولما كان ماركس لا يزال في سير انضاج تصوراته الجديدة ، فانه لـم يكن بعـد ينحاز بشكل واضح ضد انسانوية فويرباخ ، وشيوعية باكـونين الفوضوية المنحى ، واشتراكية برودون البرجوازية ــ الصغيرة ، واشتراكية هس « الحقة » ، وشيوعية فايتلنغ الطوباوية . ولكن تدريجيا كانت تنحفر هـــوة بينـــه وهذه المذاهب ، التي سيكون عليه بقدر ما يتوضح فكره ان يخضعها بالتتالي لنقد صارم .

ان تصفية الحساب الاولى حصلت مع روجه بمناسبة مقال كان قد نشره هـذا الاخير حول موقف ملك بروسيا من ثورة عمال النسيج في سيليزيا . مخفضا اهميـة هذه الانتفاضة ، كان روجه يعتبرها حدثا يمكن اهماله ، ذا مدى محلي ، وكان ينكر بهذه المناسبة عن البروليتاريا كل امكانية في تحقيق ثورة حقيقية ، من جراء افتقادها الروح السياسية . على هذا يرد ماركس أن انتفاضة عمال النسيج ، بعيدا عـــن ان تكون حدثا ثانويا ، هي أول عمل ثوري كبير للبروليتاريا الالمانية . يلـوم روجه عـلى كونه لا يعتبرها الا من وجهة نظر المصالح الطبقية للبرجوازية ، الامر الـذي يسوقه الى ان يرفض للبروليتاريا حق الانعتاق بعملها هي والى ان يخلط في الهويـة الانعتاق السياسي المحدود المدى ما دام يقتصر على استبدال سيطرة طبقـة بسيطرة طبقـة أخرى ، مع الانعتاق الانساني الذي هدفه تحرير الانسانية كافة .

ماركس كان محفوزا في تطور فكره وعملـه الثوريين بروابط الصداقـة العميقة التي كان يعقدها آنذاك مع فريدريك انجلز . ان أساس هذه الصداقة لـم يكن فقط اشتراكهما في الآراء والاهداف ، بل كان ايضا واقع ان صفاتهما تتكامـل بشكـل يثير الاعجاب .

اذ كان ماركس ذهنا اعمق وانفذ من انجلز ، فقد كان يدفع الـى أبعد تحليـل المفاهيم الاساسية التي تخدم بوصفها قاعدة لمذهبهما . بالمقابل ، انجلز ، الـذي كان على صلات مباشرة اكثر ووثيقة اكثر مـع الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، كان بارعا في تطبيق مبادئهما على تحليل للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

هكذا كان ابان لقائهما يقدم لماركس ، بمقاله عـــن الحالة في انكلتـرة ، نموذج تحليل اجتماعي ، حقق من وجهة نظر المادية التاريخية .

فبجعله السمات الجوهرية للحالة الإقتصاديـــة والاجتماعيـــة والسياسية في انكلترة مشتقة من الثورة الصناعية العظيمة ، الحاصلة فيها منذ اواخر القرن الثامن

عشر ، كان يبين ان تطور الصناعة المتسارع كان قد قلب العلاقات الاجتماعية في هذا البلد ، وقرر انتصار الاحرار ممثلي البرجوازية على المحافظين المدافعين عن مصالح الارستقراطية العقارية ، وافضى في الوقت نفسه الى تشكل بروليتاريا وافرة العدد وقوية ، كان يبرز ايضا ان تفاقم الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا يخلق شروط ثورة اجتماعية ستؤدي الى اقامة الديمقراطية الحقة اي الاشتراكية .

مجتمعين في كفاحهما ، ماركس وانجلز قررا أن يصفيا اولا باول حساب اصدقائهما السابقين ، « المعتقين » في برلين ، الذين كانوا في جريدتهم ، **الصحيفة الادبية العامة** ، يطبقون مبادىء **النقد النقدي** ، الذي كان كاريكاتورا للمثالية الهيغلية، على تحليل المسائل الفلسفية والاجتماعية والسياسية .

في حربهما ضد « المعتقين » التي هي موضوع **العائلة المقدسة** ، كان انجلز وبالاخص ماركس يوضحان المبادىء الاساسية للمادية التاريخية بتحليل لاطروحات هذا **النقد الناقد** .

معتمدا على النقد الذي كان قد أجراه للمثالية الهيغلية في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، ماركس يفك الآلية التي بها هذه المثالية تفضي بروحنة العالم الى ميثولوجيا مفاهيم . ثم يبين كيف ان **النقد النقدي** دفع هذه الميثولوجيا من المفاهيم الى الحد الاقصى ، بالتعارض الذي يقيمه بين الوعي والماهية ، بين الفكر والكينونة ، اللذين بقيا عند هيغل على ترابط وثيق ، وكيف ان هذه المثالية المطلقة ، باضاعتها كل تماس مع الواقع ، تحول التاريخ الى مشهد أشباح .

الاحكام الصادرة عن **النقد النقدي** على الثورة الفرنسية، والمادية، والاشتراكية، وبرودون ، والمسألة اليهودية ، و « أسرار باريس » ، كانت تعطي ماركس مناسبة تحليل هذه المسائل من وجهة نظر المادية التاريخية .

بعد ان ادرك بدراسته للثورة الفرنسية الدور المقرر الذي لعبته فيها صراعات الطبقات ، يبرز الآن ان هذه الثورة حصلت فقط لصالح البرجوازية التي حققت ظفر مصالحها الطبقية باسم مبادىء الحرية والمساواة والاخاء ، ان البرجوازية قلبت الارهابيين ونابوليون لكونهم نهجوا سياسة مضادة لمصالحها ، وانها اذ وصلت الى السلطة بقلبها آل بوربون بثورة ١٨٣٠ فقد خلقت شكل الدولة الذي يستجيب لمصالحها الطبقية . يبين ايضا أنه مع استلامها السلطة انفتح عهد ثوري جديد ، هدفه تحقيق المساواة ، التي تستجيب للمصالح الطبقية للبروليتاريا .

ثم ، محللا مادية القرن الثامن عشر ، ماركس يعرض ان تياري هـذه المادية ، التيار العلمي والتيار الاجتماعي قد ولدا من تطور المنظومة الراسمالية . ان نهوض الصناعة سهل نهوض العلوم ، والتطور العلمي عزز من جهته الاتجاه المناهض لما ـ وراء ـ الطبيعة ، ومن هنا تبلور المذهب الاحساسي الذي ولد تصورا ماديا للعالم. في موازاة هذا التيار العلمي ، المناهض للميتافيزياء والاحساسي ، تطور تيار اجتماعي مولود من اتجاه البرجوازية المناهض للدين والاقطاعية والحكم المطلق . من هذا التيار المرتكز على فكرة انه بما أن الانسان مشكل من قبل بيئته لذا يجب تنظيم هذه البيئة بشكل يستطيع معه الانسان ان يعيش بكيفية انسانية ، ولدت الفكرة الاشتراكية التي مآلها هو الشيوعية .

ناقدا اشتراكية برودون الاصلاحية ، ماركس يبرز ، مع ابرازه مأثرته التي هي كونه فتح الطريق لنقد الملكية الخاصة نقدا جذريا ، حدود وعيوب مذهبه . ولما لم ير بعدان هذه الحدود والعيوب مردها الى موقعه البرجوازي ـ الصغير ، فهو يعزوها الى كون برودون ، لانه لم ير ان الملكيـة الخاصة تنجب تحت جميع أشكاله انخلاع الانسان اي ضياع انسانيته ، قد انساق الى المناداة لا بالغاء الملكية الخاصة الغاء كاملا ، بل بتوزيعها المتساوي في شكل حيازة ، اي ملكية صغيرة .

آخذا من جديد المسألة اليهودية التي عالجها سابقـا في مقالـه في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، ماركس يبين ان ب. باور ، بوصفه برجوازيا ، مثل روجه لا يتصور الانعتاق الا في شكل انعتاق سياسي ، انعتاق جزئي يقتصر على تحرير طبقة من العبودية السياسية بأخذ السلطة . في مقابـل الانعتاق السياسي يضع ماركس الانعتاق الانساني ، انعتاقا جامعا وكليا يحرر البشر ليس فقط من العبودية السياسية بل ايضا وخصوصا من العبودية الاجتماعية ولا يمكن ان يتحقق الا بثورة بروليتارية .

عائدا اخيرا الى عدم جدوى الاشتراكية الاصلاحية التي تبقى بـلا فعل لانها لا تتعرض لقاعدة المجتمع البرجوازي ذاتها ، للملكية الخاصة ، ماركس يبين كل تفاهة الاصلاحات الاجتماعية التي يدعو اليها سو في **أسرار باريس** .

ان خطوات التقدم الايديولوجي التي خطاها ماركس في **العائلة المقدسة** موسومة بالاهمية الاصغر بكثير التي تلعبها فيها التصورات الفويرباخية وبالاستبعاد الكامل تقريبا لمفهوم الانخلاع لصالح مفهوم البراكسيس الذي عليه يرتكز ماركس في تفسيره للمشكلات الاجتماعية والسياسية والايديولوجية .

انطلاقا من هذا المفهوم يقيم المبادىء العامة للمادية الجدلية والتاريخية ، المبادىء

التي تخدم كأساس لتصور جديد للشيوعية .

متجاوزا الكلية محض المفهومية للفكر البرجوازي ، يصل بالارتكاز على تصوره لانخلاق الانسان ، الى فهم كلية تطور الانسان والطبيعة العضوي والتاريخي .

ساعيا وراء العلاقات التي تقوم خلال التاريخ بين الانسان معتبرا ككائن اجتماعي والطبيعة ، يضع الاسس الاولى للمادية الجدلية .

ينطلق ، لهذا الغرض ، من الفكرة الفويرباخية القائلة بوجود عالم مادي مستقل عن الروح ، وبعدم وجود روح مطلق مستقل عن المادة ، وبوجوب النظر الى الانسان والطبيعة في واقعهما العياني ، ولكنه يفكر ، بخلاف فويرباخ ، ان العلاقات بين الانسان والطبيعة تضع نفسها لا على صعيد التأمل بل على صعيد العمل وان الانسان والطبيعة يجب ان يتصورا مفهوميا في اطار التطور التاريخي الذي يحدد وجود ووعي الانسان سواء بسواء .

مستندا ، في تصوره عن خلق الانسان لذاته ، الى الفكرة الهيغلية عن وحدة الذات والموضوع متصورة بوصفها اتحاد الانسان والطبيعة العضوي الذي يتحقق في سير التاريخ ، ماركس يعتبر أن العلاقة الاساسية بين الانسان والطبيعة مكونة من اعادة انتاج الانسان للطبيعة التي يؤنسنها ، والتي تصير تدريجيا أهم من الفعل الذي تفعله في البداية الطبيعة في الانسان .

ان تحويل الطبيعة من قبل الانسان ، التحويل الذي هو انتاج حياته الواقعية ، حياته الاجتماعية ، يؤلف العنصر الاولي الاساسي للوجود الانساني ، فتطور الوعي ليس سوى انعكاس الحياة الاجتماعية .

في الوقت الذي يقيم فيه على النحو المذكور الملامح العامة للمادية الجدلية ، ماركس يضع بالتوازي والترابط ملامح المادية التاريخية . اذ يعتبر العلاقات بين الانسان والطبيعة علاقات اجتماعية ، فانه بذلك يدرج مباشرة المادية التاريخية في المادية الجدلية .

فهو يبين ان تطور الانتاج ـ في سيرورة خلق الانسان لذاته ـ يحدد تطور المجتمع ويؤدي في ظل نظام الملكية الخاصة الى انقسام المجتمع الى طبقتين متناحرتين : البرجوازية والبروليتاريا . هذا الصراع الطبقي يؤلف العنصر المحرك للتاريخ الحديث، وتفاقمه يخلق شروط ثورة اجتماعية ستحل محل النظام الرأسمالي نظاما شيوعيا .

ان تطور الانتاج يحدد ، مع تحديده تطور المجتمع ، ايديولوجيا هـذا المجتمع ، بحيث ان الايديولوجيا في مجتمع منقسم الى طبقات لها بالضرورة طابع طبقي ولا يمكن تعليلها الا بـه .

بهذا التصور ، تصور المادية الجدلية والتاريخية ، كان ماركس ، ملغيا الانفصال بين النظر والعمل ، بين العلم والفاعلية الاقتصادية والاجتماعية ، يوحد في مذهب واحد الاقتصاد السياسي والتاريخ والفلسفة .

جاعلا هكذا من مذهبه علم الواقع علما جامعا ، كان مقادا الى نبذ كل حقيقة مطلقة ، ميتافيزية ، وبذلك عينه كل دوغمائية وكل طوباوية ، تجعلان التطور التاريخي ينبثق لا من أسباب ملازمة محايثة بل من مبادىء خارجية عن الاشياء .

بالمادية الجدلية والتاريخية ، كان ماركس يصل الى تصور جديد للشيوعية يستجيب لوعي طبقي أعلى لدى البروليتاريا ويتخطى في الوقت نفسه كل المذاهب الفلسفية والاجتماعية الاخرى .

يتجاوز بادىء بدء فلسفتي أعظم مفكرين برجوازيين لزمنه ، فلسفة هيغل الجدلي الروحاني وفلسفة فويرباخ المادي غير الجدلي ، اللتين يستخدم عناصرهما الخصبة معطيا اياها معنى جديدا .

مبرزا ان هيغل يصوف الواقع بروحنته ، يبين ان هيغل ، بتقليصه الوجود الى وجود مصعد في شكل مفاهيم والفاعلية الانسانية الى المعرفة ، كان مقادا الى الاعتقاد بأن الواقع يمكن ان يحول بالطريق النظراني ، في حين انه لا يمكن ان يحول الا بالعمل .

مع نبذه فلسفة هيغل المثالية ، ماركس يحفظ منه تصور الحركة الجدلية التي تولد من التعارضات والتناقضات الملازمة لكل الواقع ، ولكنه يعارض الجدل المثالي الهيغلي الذي يعيد انبساط العالم الى انبساط المفاهيم والذي يجد أساسه في الفكرة ، التي تحقق فيها اتحاد الفكر والكينونة ، بجدل مادي مؤسس على انبساط الواقع ويترجم عن حركته .

يحل بذلك عينه محل التحرر الهيغلي للانسان بالفكر تحرره بالعمل ، بحيث ان النظران يتحول عنده الى علم لشروط هذا العمل .

مع تجاوزه هيغل ، ماركس يتجاوز في الوقت نفسه فويرباخ ومعه ماديي القرن

الثامن عشر ، الذين لم يبلغوا تصور خلق الانسان لذاته بتحويله الطبيعة .

مع اعترافه لفويرباخ بمأثرة كونه أقام الاسس الحقة للمادية ليس فقط بوضعه اولية الواقع المادي بل ايضا بتصوره هذا الواقع في شكل علاقات الانسان مع الطبيعة ومع الناس الآخرين ، ماركس يأخذ عليه اعتباره هذا الواقع موضوعا للتأمل لا للعمل وتركه هكذا خارج اعتباراته التطور الاقتصادي والاجتماعي وبذلك عينه الجدل والتاريخ . متصورا الطبيعة خارج الفاعلية الانسانية وعلاقات الانسان مع الطبيعة ومع البشر الآخرين كعلاقات طبيعية لا كعلاقات اجتماعية ، فويرباخ ينتهي الى تصور انتروبولوجي للانسان يمنح هذا الاخير طابعا غير متمايز ومجردا ، مما يقوده الى اعطاء المسائل الاجتماعية حلا مثاليا .

ماركس اخيرا يتجاوز الاشتراكيين والشيوعيين الطوباويين ، وبخاصة برودون وهسّ وفايتلنغ .

أجل برودون ، يفكر ماركس آنذاك ، ذو مزاج ثوري ، ولكن بما أنه يريد تعميم منظومة الملكية الخاصة التي لا يرى أنها تنجب في كل أشكاله انخلاع الانسان ونزع انسانيته فانه لم يتمكن من الانتهاء الى نظرية ثورية حقا .

هس ، بخلاف فويرباخ ، يعتبر الانخلاع على الصعيد الاجتماعي ، ولكنه اذ لا يتصور التطور الاجتماعي كتطور تاريخي وجدلي فقد انساق ، مثل فويرباخ ، الى اعطاء المسألة الاجتماعية حلا مثاليا .

الامر كذلك عند فايتلنغ ، الذي ، لانه لا يرى ان الشيوعية هي النتاج الضروري للتطور الجدلي للمجتمع الرأسمالي ، ينتهي ، مثل هس ، الى الطوباوية .

بعد **العائلة المقدسة** ، سيكون الآن عمل ماركس وانجلز ان يبسطا وينميا بصورة رئيسية ، كما فعلا في هذا المؤلف نفسه ، نظرية المادية التاريخية ، المفيدة بصورة مباشرة اكثر لكفاح البروليتاريا الطبقي . سيفعلان ذلك أولا كل بمفرده ، ماركس في **الاطروحات عن فويرباخ** ، انجلز في **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، ثم بصورة مشتركة في **الايديولوجيا الالمانية** .

جدول تاريخي متوافت

مساعد للقارىء العربي

١٧٥٠ ارقام تقديرية عن **السكان** : العالم ٧٥٠ مليون ، آسيا ٥٠٠ ، أوروبا ١٤٥ ، فرنسا ٢٢ ، انكلترة ٧ ، امبراطورية النمسا ١٣ ، ايطاليا ١٥ ، روسيا ٢١ .

١٧٥١ بداية صدور **الموسوعة** (١٧٥١ ـ ١٧٧٢) برئاسة **ديدرو** ودالمبير ، ومشاركة فولتير ، مونتسكيو ، روسو ، الخ . **ديدرو : رسالة عن الصم والبكم** .

١٧٥٤ كوندياك : كتاب الاحساسات . **ديدرو : افكار عن تاويل الطبيعة** .

١٧٥٥ وفاة مونتسكيو ، فولتير في فرني ، **روسو : اصل التفاوت بين البشر** ، كوندياك : كتاب الحيوانات ، موريلي : شريعة الطبيعة . **كنط : تاريخ الطبيعة ونظرية السماء** (اول ضربة للتصور الميتافيزي للطبيعة) . تأسيس جامعة موسكو .

١٧٥٦ وزارة بيت Pitt في انكلترة (١٧٥٦ ـ ١٧٦١) . **فولتير : بحث في اخلاق وروح الامم** .

١٧٥٨ **هلفيسيوس : عن الروح** (الذهن) . **كهني** Quesnay : **اللوحة الاقتصادية (المذهب الفيزيوقراطي)** .

١٧٥٩ آدام سميث : الشعور الاخلاقي .

١٧٦٠ بداية الازمة الدستورية في انكلترة (١٧٦٠ ـ ١٧٨٣) : محاولة الملك جورج الثالث توجيه الحكم والانتخابات واختيار الوزراء . ـ الجيش الروسي في برلين ـ . فرانكلين يخترع نازع الصاعقة .

١٧٦٢ اعدام كالاس (في فرنسا : تاجر اتهم زورا بقتل ابنه لمنعه من ترك البروتستانتية واعتناق الكاثوليكية . فولتير يساهم في رد الاعتبار له في السنوات التالية) . **روسو : اميل او التربية** ، و ، **العقد الاجتماعي** . بداية عهد كاترين الثانية امبراطورة روسيا (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) .

١٧٦٣ نهاية حرب السبع سنوات : فرنسا تخسر الهند وكندا والسنغال ، بريطانيا اكبر قوة عالمية .

١٧٦٤ منع رهبنة اليسوعيين في فرنسا . مغزل هارغريفس (انكلترة) . **فولتير : القاموس الفلسفي** .

١٧٦٦ ترغو : تشكل وتوزع الثروات (فيزيوقراطي) .

١٧٦٧ مرسييه دو لا ريفيير : النظام الطبيعي والجوهري (فيزيوقراطي) .

١٧٦٨ مغزل محرك بقوة الماء .

١٧٦٩ **جيمس وات : الآلة البخارية (١٧٦٩ ـ ١٧٨١)** .

١٧٧٠ كوك يستكشف شواطىء أوستراليا . **هولباخ : منظومة الطبيعة** .

١٧٧٢ أول تقسيم لبولونيا .
١٧٧٣ الحرب الفلاحية الكبرى في روسيا بقيادة بوغاتشف (١٧٧٣ ـ ١٧٧٥) .
١٧٧٤ بداية ثورة المستعمرات الانكليزية في اميركا الشمالية . بداية عهد لويس السادس عشر ، اخر ملوك « العهد القديم » (أو « النظام القديم ») في فرنسا . معاهدة كوتشوك ـ قينارجي (بين روسيا وتركيا) . بريستلي : الاوكسيجين . غوته : فرتر .
١٧٧٥ جنر Jenner : التلقيح . بريستلي : كتاب الذهن الانساني .
١٧٧٦ اعلان **استقلال الولايات المتحدة الاميركية** مع بيان بحقوق الانسان . وزارة ترغو في فرنسا . **آدام سميث : ثروة الامم** .
١٧٧٧ **لافوازيه** : الاحتراق ، **تاسيس علم الكيمياء الحديث** .
١٧٧٨ فرنسا تدخل الحرب ضد الانكليز الى جانب الولايات المتحدة . وفاة فولتير .
١٧٨٠ بداية عهد جوزيف الثاني أمبراطور النمسا (١٧٨٠ ـ ١٧٩٠) نموذج العاهل (المستبد) المستنير .
١٧٨١ سقوط وزارة نيكر في فرنسا . الغاء القنانة ومرسوم التسامح الديني في النمسا . **كنط : نقد العقل الخالص** .
١٧٨٣ معاهدة فرساي : نهاية حرب الاستقلال الاميركية، فرنسا تسترجع السنغال. نهاية الازمة الدستورية في انكلترة بتوطد النظام البرلماني .
١٧٨٤ تسويط الحديد puddlage (بريطانيا) . هردر : فلسفة التاريخ . تنظيم المستعمرات الروسية في آلاسكا .
١٧٨٥ النول الميكانيكي .
١٧٨٦ وفاة فريديريك الثاني الكبير (ملك بروسيا ١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) . الاختزال الحديث .
١٧٨٧ موتسارت : أوبرا دون جوفاني . بنتام : دفاع عن الربا .
١٧٨٨ الازمة المالية في فرنسا ، تمرد « البرلمان » (وهو في فرنسا العهد القديم : هيئة قضائية عليا) على الملك ، دعوة مجلس (أو مجالس) الطبقات العامة Etats généraux الى الانعقاد . **كنط : نقد العقل العملي** . اختراع الدراسة batteuse
١٧٨٩ بداية **الثورة الفرنسية البرجوازية الكبرى** : انتصار «الوطنيين» أو «القوميين» (أو « الطبقة الثالثة ») في الانتخابات ، مجلس الطبقات العامة يتحول الى **جمعية تاسيسية** (١٧٨٩ ـ ١٧٩١) : سقوط الباستيل ،

١٧٨٩ العلم المثلث الالوان ، الغاء الامتيازات ، انهيار « العهد القديم » ، الاحزاب في
الى المجلس ، الصحافة ، النوادي . **بيان حقوق الانسان والمواطن** ، منح حقوق
١٧٩١ المواطن للبروتستانت واليهود ، الغاء حق الابن البكر ، اعلان مبدأ حرية العمل
عهد والتجارة ــ الغاء هيئات الحرف والجمارك الداخلية ، منع تشكيل الجمعيات
الجمعية المهنية (اذن النقابات) وتحريم الاضراب . حروب واعادة الملك ، انجاز
التاسيسية الدستور والمصادقة عليه (١٧٩١) .

الأب سييس Sieyès : **ما هي الطبقة الثالثة ؟** (ــ لا شيء . ماذا يجب ويمكن ان تكون : كل شيء . ــ صدر الكتاب في عشية الثورة) . ــ ١٧٩٠ : كنط : نقد الحكم ، **غوته : استحالات النباتات** ، برك : تأملات عن ثورة فرنسا (أول كتاب يمثل الانعطاف الرجعي في تاريخ الفكر البرجوازي ، ظهر في انكلترة بقلم انكليزي حر ارتد على الحرية) ، راديتشف : رحلة من بطرسبرج الى موسكو . ــ

١٧٩١ : المتر وحدة أساس نظام القياس المتري (الذي سيؤكد في ١٧٩٥ ويجعل الزاميا في فرنسا عام ١٨٣٧) .

١٧٩٢ **عهد الجمعية التشريعية** (١٧٩١ ــ ١٧٩٢) : ظهور المعتدلين والثوريين في الجمعية ، اعلان الحرب على النمسا وبداية حروب فرنسا الثورة والدول الاوروبية . سقوط النظام الملكي . **موقعة فالمي** . بروز دانتون ، روبسبيير ، مارا . اعلان مبدأ التعليم الابتدائي المجاني والالزامي . اختراع الانارة بغاز الفحم .

١٧٩٣ عهد **المؤتمر** الوطني Convention (١٧٩٢ ــ ١٧٩٥) . انقسام الحزب الثوري الى معتدلين (جيرونديين) ويعاقبة أو جبليين ، اعدام الملك . سقوط الجيرونديين . لجنة الانقاذ العام ، المثلون المفوضون في الاقاليم ، **الارهاب** ، كومونة باريس ، روبسبيير .
ثاني تقسيم لبولونيا .

١٧٩٤ سقوط الجناح المعتدل (دانتون) والمتطرف (هيبر) من اليعاقبة . **حكم روبسبيير** ، الارهاب الكبير ، عبادة الكائن الاسمى ، رد الخطر الخارجي . سقوط روبسبيير وبداية **الردة الترميدورية** . انتفاضات ضواحي باريس ضد حكم جماعة شهر ترميدور وراء اليعاقبة الثوريين .

انتفاضة بولونيا بقيادة كوشيوسكو . كوندورسه : كتاب تقدم الذهن الانساني . **فيختة : مذهب العلم** .

١٧٩٥ الارهاب الابيض (الملكي) في فرنسا ، تمرد ملكي في باريس . بداية **عهد الادارة** Directoire (١٧٩٥ ــ ١٧٩٩) . ثالث تقسيم لبولونيا . كنط : السلام الابدي .

١٧٩٦ **مؤامرة انصار المساواة برئاسة بابوف** Babeuf . حملة بونابارت في ايطاليا (١٧٩٦ ــ ١٧٩٧) . بابوف : بيان المتساوين . **فيخته: أسس الحق الطبيعي.**

١٧٩٧ اشتداد خطر الحزب الملكي وانقلاب المديرين عليه في المجلسين وتثبيت النظام الجمهوري البرجوازي . أول احصاء للسكان والزراعة في فرنسا .

١٧٩٨ حملة بونابارت في مصر ، معركة الاهرام ، فشل الحملة على سورية (١٧٩٩). الحرب بين روسيا والسويد ، ضم فنلندة الى روسيا . **مالتوس : محاولة عن مبدأ السكان .**

١٧٩٩ انقلاب ١٨ برومير واستلام نابوليون بونابارت السلطة ، انتهاء عهد الثورة الفرنسية وبداية **عهد القنصلية** . انتصار ماسينا في سويسرة على الحلفاء . كابانيس : علاقات الفيزيائي والمعنوي (الخلقي) .

١٨٠٠ تقدير عدد سكان العالم : ٨٠٠ مليون . **شيلنغ : المثالية المتعالية .**

١٨٠١ جلاء الفرنسيين عن مصر . اتفاق بونابارت مع الكنيسة . سكر الشمندر . **المنسج الميكانيكي .**

١٨٠٢ بونابارت قنصلا مدى الحياة . صلح آميان . مؤامرات ملكية وجمهورية ضد بونابارت . دو بونالد : التشريع الابتدائي (كتاب يميني كاثوليكي ملكي) .

١٨٠٣ الاميركي فولتون Fulton : أول **سفينة بخارية** . دالتون : النظرية الذرية . ج.ب.سه Say : كتاب الاقتصاد السياسي (الاقتصاد المبتذل ، عوامل الانتاج الثلاثة) .

١٨٠٤ بونابارت أمبراطورا وراثيا تحت اسم نابوليون الاول . بداية **عهد الامبراطورية** (١٨٠٤ ــ ١٨١٤ ، ١٨١٥) . **مجموعة التشريع المدني** النابوليونية . دستوت دو تراسي : عناصر ايديولوجيا . شيلنغ : الفلسفة والدين . ــ بداية ثورة الصرب الاولى على الحكم التركي (١٨٠٤ ــ ١٨١٥) .

١٨٠٥ معركة أوسترليتز . معركة الطرف الاغر البحرية .

١٨٠٦ معركة يينا . نابوليون أمام منزل هيغل (هيغل : رأيت «العقل على حصان»).

١٨٠٧ صالح تيلسيت يؤكد تقطيع واذلال بروسيا . رد الغزو الانكليزي عن مصر وزعامة محمد علي . **هيغل : فينومينولوجيا الروح .**

١٨٠٨ قطيعة نابوليون مع البابا . غزوة لاسبانيا ، وحرب الشعب الاسباني الطويلة ضد الفرنسيين . اصلاحات شتاين في بروسيا . **غوته : فاوست** . فيختة : خطب الى الامة الالمانية .

١٨٠٩ معاهدة فيينا . **لامارك : الفلسفة الزوولوجية** .

١٨١٠ **ثورة المستعمرات الاسبانية في اميركا** (١٨١٠ – ١٨٢٤) من المكسيك الى الارجنتين .

١٨١١ أوج السيادة النابوليونية في أوروبا . مجزرة المماليك في القاهرة .

١٨١٢ حملة نابوليون في روسيا تنتهي الى كارثة . **هيغل : علم المنطق** (١٨١٢ – ١٨١٤) . كوفييه : ثورات الكرة الارضية .

١٨١٣ معركة لايبتسيغ (« معركة الامم ») ضد نابوليون . **اوين** : رؤية جديدة عن المجتمع (١٨١٣ – ١٨١٨) .

١٨١٤ غزو الحلفاء لفرنسا ، تنازل نابوليون ، معاهدة باريس الاولى ، عودة البوربون الى فرنسا .
مؤتمر فيينا . سافيني : أهلية زمننا للتشريع والحق (مدرسة القانون التاريخية الالمانية) . الانكليزي ستيفنسون يخترع **القاطرة** .

١٨١٥ عودة نابوليون من جزيرة البا، عهد المئة يوم ، هزيمة واترلو، سقوط نابوليون نهائيا . انتهاء **مؤتمر فيينا** . قيام **الحلف المقدس** ، حلف الملوك ضد الحرية والديمقراطية واستقلال الشعوب ، مطاردة الشبح اليعقوبي . بداية **عهد العودة** Restauration في فرنسا (١٨١٥ – ١٨٣٠) .

١٨١٦ الارهاب الابيض في فرنسا (١٨١٥ – ١٨١٦) . حكومة بروسيا تمنع اليهود من تولي الوظائف الرسمية . أول جمعية سرية للديسمبريين في روسيا .

١٨١٧ حركة الطلاب الالمان – **البورشنشافت** – تبلغ الذروة في اجتماع الفارتبورغ (قومية ، ديمقراطية ، وكلام) . **ريكاردو : مبادىء الاقتصاد السياسي والضريبة** . **هيغل : موسوعة العلوم الفلسفية** . مقالات **أوغستين تيري** Thierry عن التاريخ في الصحافة (١٨١٧ – ١٨٢٠) . كارل ريتر Ritter الجغرافية معتبرة في علاقاتها مع الطبيعة والتاريخ الانساني .

١٨١٨ جلاء القوات الحليفة عن فرنسا قبل الموعد المقرر .

١٨١٩ في المانيا اغتيال الكاتب كوتسبو عميل القيصر . احتلال الانكليز لسنغافورة . – سيسموندي : مبادىء جديدة في الاقتصاد السياسي . دوميستر : عن البابا (كاثوليكي ملكي) . شوبنهاور : العالم من حيث هو ارادة وتصور (تأثير هذا الكتاب المثالي الرجعي يتأخر الى ما بعد فشل ثورة ١٨٤٨) .

١٨٢٠ بداية ثورة اليونان ضد الحكم التركي . مالتوس : كتاب الاقتصاد السياسي المطبّق . لامارتين : التأملات . قوانين الكهرطيس (اورستد ، آمبير) .

١٨٢١ **هيغل : فلسفة الحقوق . سان ـ سيمون : المنظومة الصناعية .**

١٨٢٢ حكومة بروسيا تمنع اليهود من ممارسة المهن الحرة (الثقافية) ، والد ماركس يعتنق المسيحية البروتستانتية (« وثيقة دخول في الحضارة » ، حسب هاينه) . فرينل : عن الضوء .

١٨٢٣ حملة فرنسية ضد الشعب الاسباني بتكليف من مؤتمر الحلف المقدس . اعلان الجمهورية في المكسيك . مبدأ مونرو . **غيزو** : محاولات عن تاريخ فرنسا .

١٨٢٤ تكريس استقلال اميركا الاسبانية . الانكليز في بورما . اسمنت بورتلاند . كارنو : الترموديناميك . التصوير الفوتوغرافي . **مينيه** : تاريخ الثورة الفرنسية ، **تيير** : تاريخ الثورة الفرنسية (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) . بيتهوفن : السمفونية التاسعة . وفاة بايرون في اليونان .

١٨٢٥ انكلترة : الاعتراف بحق الاضراب . فرنسا : قانون ضد انتهاك المقدسات . انتفاضة الديسمبريين في بطرسبرج وبداية عهد نقولا الاول . سان سيمون : المسيحية الجديدة . وفاة سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) أول الاشتراكيين الطوباويين الثلاثة (سان سيمون ، فوريه ، أوين) . **تيري : تاريخ فتح انكلترة من قبل النورمانديين .**

١٨٢٧ معركة نافارين البحرية ، تكريس استقلال اليونان (١٨٢٩) . البواخر الانكليزية الاولى . تيري : رسائل عن تاريخ فرنسا . **فوريه : العالم الصناعي الجديد .**

١٨٢٨ الحصّادة . غيزو يبدأ دروسه عن تاريخ المدنية في أوروبا وينشرها في شكل كراسات . بداية **الكيمياء العضوية** (تركيب البولة urée على يد الالماني فولر) .

١٨٢٩ قانون تحرير الكاثوليك في بريطانيا . جيمس ميل : تحليل فلسفات الذهن . غيزو : تاريخ المدنية في فرنسا .

١٨٣٠ سقوط مدينة الجزائر ، سقوط عدن . **ثورات ١٨٣٠** : ثورة تموز في باريس ، قيام **ملكية تموز** (الملك لوي فيليب ، آل أورليان) حكم البرجوازية المالية والصناعية والعقارية الكبرى ، ثورة بلجيكا واستقلالها (١٨٣١) ، ثورة بولونيا ، انتفاضات في ايطاليا (١٨٣٠ ـ ١٨٣١) . تكريس استقلال صربيا . تيري : سيرة الازمنة الميروفنجية . **المناظرة بين كوفييه وجوفروا دو سانت ايلير ضد ومع تحول الانواع الحية** (١٨٣٠ ـ ١٨٣٢) . فيكتور هوغو :

هرناني (المسرح الرومانطيقي) . أوغست كونت يبدأ دروسه عن الفلسفة الوضعية (١٨٣٠ – ١٨٤٢) .

١٨٣١ **انتفاضة عمال ليون** . سحق ثورات بولونيا وأيطاليا من قبل روسيا والنمسا . « ايطاليا الفتاة » برئاسة مازيني . ملاحقة بازار وانفانتان ورفاقهما (انصار سان – سيمون) قضائيا . ابراهيم باشا في سورية .

١٨٣٢ انتفاضة جمهورية في باريس . حزب البونابارتيين يعلن لوي بونابارت زعيما له . اصلاح انتخابي في انكلترة . **حركة « المانيا الفتاة »** (١٨٣٢ – ١٨٣٥) . ه. هاينه : عن فرنسا . مروحة السفينة . وفاة بنتام (١٧٤٨ – ١٨٣٢) صاحب مذهب حساب اللذات .

١٨٣٣ **هاينريش هاينه : مساهمة في تاريخ الدين والفلسفة في المانيا** . بالزاك : أوجيني غرانديه .

١٨٣٤ : انتفاضات جمهورية وعمالية وشعبية في ليون ومارسيليا وباريس . الاتحاد الجمركي في المانيا . انشاء « رابطة المنبوذين » الالمان (مركزها في باريس) . الأب لامنيه Lamennais : أقوال مؤمن (لامنيه = مسيحية اجتماعية راديكالية) .

١٨٣٥ قوانين أيلول (الرجعية) في فرنسا (رقابة على الصحافة والمسرح الخ) . في بريطانيا يبلغ عدد البواخر العاملة ٥٥٠ واستخراج الفحم نيف ونصف مليون طن . توكفيل : الديمقراطية في اميركا (توكفيل : امتداد وانماء لخط مونتسكيو ، ليبرالية) . **د. شتراوس : حياة يسوع** .

١٨٣٦ تأسيس **جمعية الشغيلة اللندنيين** بقيادة لوفت . طول السكك الحديدية في بريطانيا يبلغ ٣٫٠٠٠ كلم . تأسيس **رابطة العادلين** (وهي متقدمة على رابطة المنبوذين وتحل محلها) . **أوين : العالم الاخلاقي الجديد** (١٨٣٦ – ١٨٤٤) .

١٨٣٧ بداية عهد الملكة فيكتوريا (١٨٣٧ – ١٩٠١) . سقوط قسطنطينة (في الجزائر) . **جمعية الفصول** (١٨٣٧ – ١٨٣٩) بقيادة بلانكي وباربيس . وفاة فورييه ثاني الاشتراكيين الخياليين . د. شتراوس : كتابات مجادلة . التلغراف الكهربائي (مورس) .

١٨٣٨ بداية الحملة الكبيرة في سبيل الغاء رسوم القمح بقيادة الصناعي كوبدن (١٨٣٨ – ١٨٤٦) . **فون شيسكوفسكي : مقدمة لفلسفة التاريخ** .

١٨٣٩ **انتفاضة عمالية باريسية بقيادة** جمعية الفصول . جمعية الشغيلة اللندنيين تعلن **ميثاق الشعب** Charte : الاقتراع العام، السري، المتساوي (مساواة غير المالكين بالمالكين) ، تقسيم عادل للدوائر الانتخابية ، دفع تعويض للنائب . (في السنوات التالية : الجناح الثوري بقيادة الايرلندي اوكونور O,Connor

يتجاوز المعتدل لو فت) . محمود الثاني يصدر خط شريف كولخانة .

١٨٤٠ مدينة مانشستر تبلغ ٣٥٠٫٠٠٠ نسمة (٢٢٫٠٠٠ في ١٧٧٠) . نهاية الحكم المصري في سورية على يد بريطانيا والدول والسلطان والطوائف . حرب الافيون (١٨٤٠ – ١٨٤٢) ، فتح الصين وبداية حركة الثورة الصينية الحديثة . وزارة غيزو في فرنسا (١٨٤٠ – ١٨٤٨) وانتهاجها سياسة برجوازية محافظة . **برودون : ما هي الملكية ؟**. لوي بلان : «تنظيم الشغل» . بوريه : عن بؤس الطبقات الكادحة في انكلترة . كارليل : الابطال . صعود **فريديريك غليوم الرابع** على عرش بروسيا ومعه التقوى والرجعية ، اشتداد الانقسام بين اليسار واليمين الهيغلي ، بين الشباب والمحافظين (وكان بدأ قبل قليل) .

١٨٤١ احتلال هونغ كونغ . **فويرباخ : جوهر المسيحية : برونو باور : نقد التاريخ الانجيلي . الحوليات الالمانية** (١٨٤١ – ١٨٤٣) لسان الهيغليين الشباب بادارة روجه واشتر ماير . هس : الترياركية الاوروبية . – **ماركس : فلسفة الطبيعة عند ديمقريط وابيقور** . – كونسيدران : بيان المدرسة المجتمعية . فر. ليست : منظومة الاقتصاد السياسي القومية .

١٨٤٢ **حفظ الطاقة : ماير** . السوبر فوسفات (اسمدة) . **فايتلنغ : ضمانات الحرية والتناسق** . ذروة الحركة الشارتية في انكلترة ، فشل الاضراب الكبير .

١٨٤٣ كورنو : الاحتمالات . ميلر : التحليل الطيفي . **فلهلم شولتس : حركة الانتاج.** برودون : عن خلق النظام في البشرية . ج. ستورت ميل : منظومة المنطق الاستنتاجي والاستقرائي . برونو باور : مسألة الحرية وقضيتي الخاصة ، المسيحية مكشوفة . **هس : فلسفة العمل ، الاشتراكية والشيوعية ، الحرية واحدة وكاملة . ماركس** يكتب **نقد فلسفة الحق لهيغل ، المسالة اليهودية ، مدخل الى** نقد فلسفة الحق لهيغل ، **انجلز يكتب مسودة لنقد الاقتصاد السياسي** . رواية أوجين سو : اسرار باريس .

١٨٤٤ **انتفاضة عمال سيليزيا** . اول تعاونية استهلاكية في انكلترة . **فويرباخ : مبادىء فلسفة المستقبل** . جريدة **الى الامام . ماركس** يكتب **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، ثم (مع انجلز) **العائلة المقدسة او نقد النقد النقدي** .

١٨٤٥ المجاعة الكبرى في ايرلندة (١٨٤٥ – ١٨٤٧) : موت نصف مليون وهجرة مليون ايرلندي . **ماركس : الاطروحات عن فويرباخ** ، انجلز : **حالة الطبقات الكادحة في انكلترة . فويرباخ : جوهر الدين . شتيرنر : الوحيد وخاصيته** .

١٨٤٦ فويرباخ : مسألة الخلود من وجهة النظـر الانتروبولوجية . برودون : منظومة التناقضات الاقتصادية او فلسفة البؤس . لوفريه يكتشف الكوكب نبتون . التخدير بالاثير . **ماركس ــ انجلز : الايديولوجيا الالمانية** (١٨٤٥ ــ ١٨٤٦). الولايات المتحدة تستولي على تكساس ونيو مكسيكو وكاليفورنيا .

١٨٤٧ استسلام الامير عبد القادر الجزائري . **هلمهولتس : حفظ القوة** . التخدير بالكلورونورم . **ماركس : بؤس الفلسفة** (ضـد برودون) . **المؤتمر الاول لرابطة الشيوعيين** ، المؤتمر الثاني وتكليف ماركس وانجلز بكتابة « بيان الحزب الشيوعي » .

١٨٤٨ **الثورة الديمقراطية الكبرى في اوروبا** ، « ربيع الشعوب » : ايطاليا ، فرنسا ، المانيا ، النمسا ، المجر . الجمهورية الثانية في فرنسا ، انتفاضة حزيران العمالية وسحقها . « اشتعال » الحركة الشارتية في انكلترة (وانتهاؤها) . **ماركس ــ انجلز : البيان الشيوعي** (صدر عشية انفجار الثورة) .

تـم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع

الفهرس

صدر حديثا عن دار الحقيقة :

١ ـ الدفاتر الفلسفية ـ ٢ ـ : لينين
٢ ـ الدفاتر الفلسفية ـ ٣ ـ : لينين
٣ ـ فكر هيجل : روجيه غارودي
٤ ـ الاتحاد السوفياتي والصين ازاء
الثورات في المجتمعات ما قبل الصناعية : دنكوس وشرام .
٥ ـ الماركسية السوفياتية والقضايا العربية : الياس مرقص .
٦ ـ المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف : د. سلوى الخماش .
٧ ـ مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث
للشرق الاوسط : ز. ي. هرشلاغ .
٨ ـ مأزق العالم الثالث : بول بايروك .
٩ ـ النظرية الاقتصادية الماركسية : ارنست ماندل .
١٠ ـ مدخل الى الفلسفة : جان لويس
١١ ـ دراسات في الحرب الخاطفة : محمود عزمي
١٢ ـ الفكر العربي في العصر الحديث : د. منير موسى
١٣ ـ العرب والفكر التاريخي : عبد الله العروي
١٤ ـ ماركس وانجلز (ج٢) : اوغست كورنو
١٥ ـ القومية والاشتراكية : هوراس وايفيز
١٦ ـ مسائل الاقتصاد السياسي للاشتراكية : أوسكار لانجه
١٧ ـ الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الزراعية : رودولفو ستافنهاغن
١٨ ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية
منذ فجر الاسلام حتى الامبراطورية العثمانية : كلود كاهن .
١٩ ـ حول نمط الانتاج الاسيوي : جان شيف . يوجين فارغا .
موريس غودوليه .
٢٠ ـ الاممية الثالثة بعد لينين . الاشتراكية في بلد واحد : تروتسكي .
٢١ ـ ماركس انجلز (ج١) : اوغست كورنو .
٢٢ ـ دفاتر عن ديالكتيك هيغل : لينين .
٢٣ ـ الاقتصاد السياسي للتنمية : بول. أ. بارا ن.
٢٤ ـ ضرورة الفن .
٢٥ ـ مفاتيح لاجل العالم الثالث ـ غي دي بوشير : أرنست فيشر .

سيصدر قريبا جدا :

١ ـ ما هي التنمية : ايف بينو

٢ ـ النظرية الاقتصادية الماركسية (ج٢) : ارنست ماندل

٣ ـ الماركسية والعالم الاسلامي : مكسيم رودنسون

٤ ـ المصائر التاريخية للواقعية : بوريس سوتخوف

٥ ـ نهب العالم الثالث : بيار جاليه

٦ ـ الاستبداد الشرقي : كارل فيتفوغل

هذا الكتاب

هو المجلد الثالث من دراسة اوغست كورنو لسيرة ماركس وانجلز وتطورهما ، كما يحوي عرضاً مكثفاً ودقيقاً لكتاباتهما . وقد نالت هذه الدراسة التقدير الذي تستحقه من جميع الماركسيين والعلماء المخلصين ، على اساس انه المرجع الأوفى والأكمل لا عن سيرة ماركس وانجلز فقط ، بل سير تطورهما الفكري ايضاً ..

ان اقامة ماركس في باريس من اواخر ١٨٤٣ حتى اوائل ١٨٤٥ ، تشكل انعطافاً حاسماً في تطور فكره وعمله . فمن هذه الفترة صاغا ماركس وانجلز تصورهما الجديد عن العالم وماركس هو الذي سيقوم بالصياغة الأولى لجوهر هذا التصور الجديد في « مخطوطات الأقتصاد السياسي والفلسفة » وفي « العائلة المقدسة » يتابع ماركس خطوات التقدم الأيديولوجي . وفي نفس الوقت كان انجلز يتابع في انكلترا دراسة التطور الاقتصادي والسياسي والأجتماعي لهذا البلد .

دار الحقيقة — بيروت
ص. ب : ٨١٤٧

الثمن : ١٠ ل. ل.